مكتبة التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

دكتور محمد عبد الحميد عيسى

تاريخ التعليم في الأندلس

Bibliotheca Alexandrina
0029166

إشراف: دكتور لويس سوارث فرنانديث
تقديم: دكتور عبد الغني عبود

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

سلسلة التربية الاسلامية

الكتاب الرابع

تاريخ التعليم في الأندلس

تاليف

دكتور محمد عبد الحميد عيسى

مدرس التاريخ الاسلامي

كليـــة التربية ــ جامعة عين شمس

إشراف : دكتور لويس سوارث فرنانديث

تقديم : دكتور عبد الغني عبود

الطبعـــة الأولى

١٩٨٢

الناشر

دار الفكر العربي

رســـالة قدمت الى كليـــة الآداب فى جامعة الأوتونوما بمـــدريد ، للحصول على درجة دكتوراه الدولة فى الآداب ، تحت اشراف الأستاذ الدكتور لويس ســـواريث فرنانديث ، رئيس قسم التاريخ الوســـيط بالجامعة •

وقد نوقشت الرسالة فى ١٧ مارس ١٩٨٠ ، ومنحت الرسالة درجة الامتياز ، مع مرتبة الشرف الأولى •

وكانت لجنة الحكم على الرسالة تتكون من الأساتذة الدكاترة :

بدرو مارتينيث مونتابيث ــ لويس سواريث فرنانديث ــ السيد عبد العزيز سالم ــ خوســيه باثكث ــ فينينت ألفاريث بالينثويلو •

وقد ترجمت الرســـالة الى اللغة العربية ، لطبعها ، وأدخلت عليها بعض التعـــديلات الطفيفة ، بناء على توجيهات الأســـاتذة المناقشين ، وخاصة اقتراحات الدكتور السيد عبد العزيز سالم ــ كما أعيد ترتيب الفصول ، مع المحافظة على مادتها العلمية ــ كما حذفت بعض المـــلاحق، التى يمكن حذفها ، تخفيفا من حجم الرسالة •

كان عنوان الرسالة التى نوقشت ، هو « تاريخ التعليم فى أسبانيا الاسلامية » ، ثم رأينا تحويله عند نشرها الى « تاريخ التعليم فى الأندلس » ، لاعتبارات كثيرة•

بسم الله الرحمن الرحيم

« واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ،
فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا »

(الاسراء — ١٧ : ١٦) .



« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق .
اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان
ما لم يعلم » .

(سورة العلق — ٩٦ : ١ — ٦) .



بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

بقلم : الدكتور عبد الغنى عبود

أستاذ التربية المقارنة والادارة التعليمية المساعد
بكلية التربية جامعة عين شمس

لقد صرنا نعيش فى (عصر العلم) ، أردنا ذلك أم لم نرده ، وأحببنا ذلك أم كرهناه ، فالعلم ومنجزاته ، صار له بصمته الواضحـــة المتميزة ، التى (تفرض) نفسها على كل شىء فى حياتنا ، وفيما نستخدمه من أدوات ووسائل ، فى حياتنا اليومية •

ووصف عصرنا بأنه (عصر العلم) ، لم يأت من فراغ ، وانما هو وصف (فرض) نفسه علينا ، بحكم الواقع الذى نحياه أمما وشعوبا كما نحياه أفرادا وجماعات ، فقد دخل العلم فى (كل شىء) يحيط بنا ، وكان لدخوله هذا أثره ، سلبا وايجابا ، ولكنه فى الحالين قد دخل ، وصار (جزءا) من حياتنا ، لايمكن أن ينفصل عنها ، حتى ولو أردنا أن نفصله ، وجاهدنا فى سبيل هذا الفصل ، لأسباب كثيرة ، ليس هنا مجال ذكرها •

ومع تقدم العلم وازدهاره ، خاصة فى النصف الثانى من هذا القرن العشرين ، كان لابـــد من (تفتيت) العلم ، بعد أن كان هـــذا العلم فى القرون السابقة ، يمتـــاز بأنه (كل واحد) ، لا يمكن أن (يتفتت) ، على نحو ما نراه اليوم •

ولا نتعرض هنا لقضية (تفتت) العلم هذه ، ومدى مالحق بالعلم

الحياة ، من جراء هذا التفتت ، من ويلات وكوارث ، فقد كان هذا
تفتت ، شيئا انساق اليه العلم ، أو انجرف اليه ، على الرغم منه لأنه
د طبيعته ، ولكنه كان ضرورة من ضرورات •• التقدم العلمى ،
ذى كان يعنى (مزيدا من التخصص) ، ومزيدا من (التعمق) ، فى كل
جال من مجالات البحث والمعرفة •

ومع التفتت ، والتعمق ، انقسم (العلم) الواحد ، فصار علوما ،
انقسمت المعرفة ، فصارت معارف ، •

ومع التفتت ، والتعمق ، انقسم (العلم) الواحد ، فصار علوما ،
للمعرفة — أو للعلوم والمعارف ، اذا نحن أردنا الدقة فى التعبير •

ومع ظهور التصانيف ، ظهر (التفاضل) بين العلوم المختلفة ،
فصارت هناك علوم نبيلة ، وعلوم أقل نبلا •• أو قل : صارت هناك
علوم أساسية **Fundamental** ، وعلوم هامشية **Marginal** —
أو قل ما شئت أن تقول ، فانها المأساة ، التى راحت تلقى بظلها الثقيل
على العلم والمعرفة ، بعد أن شيعت (وحدة المعرفة) ، الى مثواها الأخير ،
وهددت — بتشييعها — الحضارة الانسانية المعاصرة ، أن تلحقها بها •

ومنطقى أن تكون أشرف هذه العلوم على الاطلاق ، فى الحضارة
المعاصرة ، هى العلوم الطبيعية أو التجريبية ، وأن نجد الكثيرين يعتبرون
العلوم الطبيعية أو التجريبية ، هى وحدها (العلوم الأساسية) ، وماعداها
علوما هامشية • وهو أمر منطقى ، لأن الحضارة الحديثة ، حضارة
تكنولوجية ، قائمة على المخترعات المادية ، وهذه المخترعات المادية ،
هى الثمرة المباشرة للعلوم الطبيعية ، والتقدم فيها •

وبالرغم من أن مقتل الحضارة المعاصرة ، كامن فى نموها المادى ،
هذا ، لأنه نمو تحقق على حساب نمو آخر ، فى مجالات الحياة الانسانية

الأخرى ، ومن ثم صار نموا مشوها ، شوه الحضارة المعاصرة ، وشوه الحياة الانسانية كلها ، فصارت — به — على شفا هاوية ••• بالرغم من ذلك ، فان هذا التقدم — أو النمو — المـادى ، كان هو المبرر الوحيد ، لمـا توفر لهذه الحضارة من امكانيات مالية ضخمة ،قفزت بالعلم والبحث العـلمى ، قفزات متتالية ، كانت هى التى جعلت عصرنا هذا بحق ، هو (عصر العلم) •

ذلك أن الرأسمالية الصناعية ، وجدت فى العلم ملاذا لها ، ودرعا واقيا ،تضمن — به — نموها وازدهارها ،ومن ثم أنفقت على البحث العلمى بسخاء ، لأن مردود هذا الانفاق ، كان مضمونا •

ولولا (نفعية) العلم ، كما تبدت لهـذه الرأسمالية الصـناعية ، ما كانت هذه القفزة العلمية الهائلة ، وما كنا لنعيش اليوم ، فى (عصر العلم) •

واذا كان الاهتمام قد اتجه بالدرجة الأولى الى (العلوم الطبيعية)، التى تترجم الى تكنولوجيا ، وبالتالى تحول الصناعات الصـغرى الى صناعات كبرى ، كما تحول أصحاب الآلاف الى أصحاب المـلايين ••• فان العلوم غير الطبيعية — مهما كانت أسـماؤها أو صـفاتها — قد أتيحت لها فرص التقدم هى الأخرى ، بما توفر للعلوم الطبيعية ، من أدوات ومعدات ، أو فرض عليها هـذا التقدم ، راغبة فيه ، أو مكرهة عليه ، فقد استفادت هذه العلوم ، بالحاسـبات والعقول الالكترونية ، وبمنجزات علوم الفضـاء ، وبالتقدم فى مجـالات الكيمياء والتاريخ الطبيعى ، وبغيرها وغيرها ، وظهرت هذه الاستفادة واضحة ، فى علوم التاريخ واللغة والأدب وفى علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد والسياسة •• وحتى فى علوم •• الدين •

والذى يقرأ الكتابات الدينية الأخيرة ، فى المسيحية والاسلام على سبيل المثال ، يكاد أن يشفق مع (السلفيين) فى الدينين ، من امكانية (انجراف) الدين ، ليقع تحت سيطرة العلم فى النهاية ، بحيث يصير الدين فرعا من العلم ، بينما ظل الدين طوال حياته ، أصلا كاملا .. العلم مجرد فرع من فروعه .

* * *

قسمت العلوم اذن ، على الرغم منها ، الى علوم نبيلة ، أو شريفة ، وعلوم غير نبيلة ، أو غير شريفة . والعلوم النبيلة ، هى العلوم ذات العائد المـادى ، وكلما زاد العائد المـادى ، زاد النبل والشرف ، وبقدر قلة العائد المـادى ، تكون قلة النبل أو الشرف ، واذا زال العـائد المـادى المباشر ، زال النبل والشرف تماما .

وبهذا المقياس ، صـارت الكيمياء والطبيعة والرياضـيات ، هى أشرف العلـوم على الاطلاق ، وصـارت علوم اللغة والأدب والتاريخ وأشباهها ، علوما لاصلة لها بالشرف ، ونالت علوم أخرى بعض الشرف ، كعلوم الاقتصاد والتخطيط والاجتماع ، بقدر ما تساهم فى تحقيق هـذا العائد المـادى ، وان لم تصل فى شرفها هذا ، الى ما وصلت اليه أشرف العلوم — الكيمياء والطبيعة والرياضيات .

ومن الغريب ، أن الدين كان قبل العصور الحديثة ، يعد أشرف العلوم بلا منازع ، ولكنه انضم اليوم ، مع سـطوة العلوم الطبيعية وجبروتها ، الى جملة العلوم غير الشريفة — هذا اذا أردنا أن نحافظ لهذا الدين على بعض هيبته ، فلم ننجرف مع المنجرفين فى تيار العلوم الطبيعية ، من علماء هـذه العلوم ، ومن غيرهم من العلماء ، المنبهرين بهم وبعلومهم ، فنصفه — معهم — بأحط الصفات ، ونتجرأ على الله سـبحانه ، لأنه (يستعصى) على التجريب ، حتى نراه ، ونقر بالتالى بوجوده .

وهذا الذى يقول به علماء العلوم الطبيعية فى الغرب الرأسمالى اليوم ، تصريحا حينا ، وتلميحا حينا آخر ، لا يرضى هؤلاء العلماء فى الشرق الشيوعى اليوم ، الا أن يقولوا به صراحة • وهو أمر منطقى ، لأن الحضـارة الشيوعية ، ليست — كما يتوهم الكثيرون — مضادة للحضارة الغربية الرأسمالية ، بل هى ابنتها ، ومن ثم فاذا جاز (للأم) أن تكون مؤدبة مهذبة ، حكيمة فى اختيار اللفظ ، وكثرة استخدام المجاز والتلميح بدلا من التصريح ، فان البنت عادة ، بحكم نعومة الأظافر ، وفورة الشـباب والحيوية ، لا تجد لديها اسـتعدادا الا لأن تسمى الأشياء بأسـمائها ، دون ما تضييع للوقت فى استخدام المجاز ، وفى التلميح بدلا من التصريح •

والدين عند الشـيوعيين ، هو (أفيون الشعوب) ، ومن ثم فهو ليس مجرد علم غير شريف ، كعلوم اللغة والأدب والتاريخ وأشباهها ، وانما هو من العلوم المذمومة ، تماما كما كانت الفلسفة عند الامام الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ — ١١١١ م) ، لظروف المجتمع الاسلامى (الخاصة) ، فى عصر الغزالى (القرن الخامس الهجرى = الثانى عشر الميلادى) — تلك الظروف ، التى دفعت بالفلسفة الى قمة عالية ، زادت من (حجمها) الذى يجب أن تكون عليه ، ومن ثم (هددت) (بعدم التوازن) ، فى البنية العلمية ، كما يريدها الاسلام •

ويزيد من مغالاة الشـيوعين ، فى الحط من شـأن الدين ، أن (الشيوعية) ذاتها ، قد صارت دينا ، له كتبه ، وله شراحه ومفسروه ، وله كهنته ، الساهرون عليه ، وله نظمه وقوانينه ، وله طرقه فى الثواب والعقاب ، وله — بالتالى — جنته وناره • أى أن الشيوعية قد صارت عند الشيوعيين دينا ، له كل مقومات الدين ، ومن ثم كان لابد من ازاحة

كل صور (الشرك) ، التى يراها هذا الدين ، حتى تخلو له الساحة ، فيصول فيها ويجول •

وفى ضوء (الدين الجديد) (الشيوعية) ، صيغت خطوط الحياة ، فى المجتمعات التى أخذت بها ، أو فرضت عليها بعبارة أصح ، واستعد العلم ذاته ، ليقوم بدوره فى تشكيل الحياة ، وفق هذه الخطوط ، وصار هناك (علماء شيوعيون) فى كل المجالات ، يتميزون عن غيرهم من العلماء فى البلاد الأخرى ، غير الشيوعية •

وسمعنا بعد ذلك — عن كيمياء شيوعية ، وطبيعة شيوعية ، ورياضة شيوعية وغيرها ، فى مقابل الكيمياء الرأسمالية ، والرياضة الرأسمالية، وغيرها •

أى أن الشيوعية — ابنة الرأسمالية — لم تهاجم الدين ورجاله ، بشكل مطلق ، وانما هى هاجمت كل دين مناهض لدينها ، وكان نصيب ديانات السماء — وعلى رأسها الاسلام — من هذا الهجوم ، هو •• نصيب الأسد •

وما حدث على الساحة الشيوعية ، حدث شىء مثله ، قبله ، على الساحة الرأسمالية •

ذلك أن المسيحية هوجمت ، عندما كانت تقف فى وجه العلم ، وبالتالى فى طريق التقدم المادى •

وعندما استطاعت المسيحية أن (تطور) نفسها فى الغرب ، على نحو ما سنرى فيما بعد ، عند حديثنا عن الاصلاح الدينى ، ودواعيه ، حيث صارت فى خدمة (الحياة) فى الغرب ، حافظت على قيمتها كعلم ، حافظ رجالها على قيمتهم كعلماء •

ألم تكن (جيوش) المبشرين ، تسبق الجيوش النظامية ، الى أفريقيا وآسيا ، لتمهد (التربة) للجيوش الغازية ، التى جاءت لتؤمن موارد المواد الأولية ، اللازمة لخدمة الصناعة الغربية ، ولتؤمن الأسواق لهذه الصناعة أيضا ؟

* * *

وكما قسمت العلوم الى علوم شريفة ، وعلوم أقل شرفا ، وعلوم لا تنتسب الى الشرف اطلاقا ، بل تنتمى الى نقيضه — قسم العلماء مثل هذا التقسيم ، فصار العلماء المتخصصون فى العلوم الطبيعية ، علماء من (طينة) خاصة ، غير الطينة التى تشكل منها غيرهم من العلماء .

لقد صار هؤلاء العلماء ، طبقة (كهنوتية) جديدة ، لها كلمتها التى لا ترد ، فى ميادين الصناعة والزراعة والانتاج والخدمات — أى فى مجالات تخصصها ، وفى المجالات التى تتصل بمجالات التخصص تلك ، من قريب ، أو من بعيد .

وبمقدور هؤلاء العلماء ، أن (يستعينوا) بغيرهم ، فى مجالات التخصص الأخرى ، على طريق (فريق البحث) الذى بدأ يفرض نفسه على مجالات العمل العلمى فى البلاد المتقدمة ، ولكن الكلمة تظل كلمة هؤلاء العلماء المتخصصين فى مجالات العلوم الطبيعية ، ويظل الرأى رأيهم ، ويظل رأى غيرهم ، مجرد رأى (استشارى) ، قد تكون له قيمة ، وقد لا تكون .

ولابد أن يكون هناك احساس (بالدونية) ، ينمو مع الزمن ، فى قلوب هؤلاء العلماء ، المتخصصين فى غير العلوم الطبيعية ، فى البلاد المتقدمة ، نحو العلوم الطبيعية وعلمائها ومناهجها ، وهو غير الاحساس

بالدونية ، الذى ينمو مع الزمن ، فى قلوب العلماء على وجه العموم ، فى البلاد المتخلفة ، ومنها بلادنا للأسف الشديد ، لأن كل الأبواب توصد فى وجوههم لأسباب كثيرة ، فى الوقت الذى تفتح فيه على مصاريعها ، لفئات معينة ، (مؤهلاتها) ، أنها لا تنتمى الى العلم بجميع فروعه وتخصصاته ، اما لعجـــز فى تكوينها ، حـــال بينها وبين التزود به ، واما لمزيد من الكمال فى هذا التكوين ، دفعها الى أن توفر ما لديها من عقل ، وقدرة على التفكير ، لاستغلالها فيما (يفيد) ، من تجارة رائجة ، أو نفاق ورياء للهيئة الحـــاكمة ، أو هز البطون ، تهتز معه الجيوب المكتظة ، وما أكثر الجيوب المكتظة فى هذه المجتمعات ... فتسيل بردا وسلاما ، على من يملكن هذه البطون ، القادرة على الاهتزاز ـــ وبقدر قدرتها على الاهتزاز تزداد سيولة هذه الجيوب .

والاحساس بالدونية ، الذى ينمو مع الزمن ، فى قلوب العلماء ، المتخصصين فى غير العلوم الطبيعية ، يشترك فى زرعه ، كل علماء البلاد المتقدمة ، فالعلماء المتخصصون فى العلوم الطبيعية ، (يبدءون) بزرعه ، ليرضـــوا غرورهم الشخصى ، وليملئوا ـــ مع هذا الغرور ـــ جيوبهم ، من أموال الشركات الصناعية الضخمة ، التى آمنت بهم وبقدراتهم ، واختارتهم عن رضـــا وطواعية ـــ كهنة لها ، مســـموعة كلمتهم ، بل مقدسة هـــذه الكلمة .. ثم يأتى العلمـــاء المتخصصون فى غير العلوم الطبيعيـــة ، فيتقبلون الزرعـــة ويباركونها ، حتى تنمـــو فى قلـــوبهم وتترعرع ، ثم تؤتى ثمارها .

وهل هنـــاك من ثمرة ، يمكن أن يجنيها العلماء ، المتخصصون فى العلوم الطبيعية ، أشـــهى من تلك الثمرة ، التى نراهم فيها يعتبرون العلم ، هو العلم الطبيعى وحده ، والمنهج العلمى ، هو المنهج المستخدم ، فى العلوم الطبيعية وحدها ؟ .

ولقد كانت دهشتى شـــديدة ، عندما علمت وجهة النظر الغربية تلك ، فى أثناء دراستى للدكتوراه ، حيث كان موضوع الدراسة ، هو (دراسة مقارنة ، لنظـــام البحث العلمى ، فى جمهورية مصر العربية ، والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى) (١) ، وحيث اضطررت الى الـــوقوف على (معنى العلـــم) ، و (معنى البـــحث العلمـــى) ، و (مناهج البحث العلمى) . وغيرها من القضايا ، التى تتصل منقريب أو من بعيد ، بعنوان الدراسة .

ثم زادت دهشتى ، عندما وقع بين يدى (دليل البحوث العلمية) ، فى أكثر من هيئة علمية ، فى مصر والخارج ، فاذا بالدليـــل لا يضـــم أكثر من البحوث التى تمت ، فى مجـــال العلوم الطبيعية — التجريبية المنهج .

وأشهد ، لقد وقعت عينى على وجهات نظر مضادة ، ترى (الصلة العضوية) بين العلوم الطبيعية والعلوم غير الطبيعية ، وترى استحالة الفصل بين النوعين من العلوم . وكان يقول ببعض وجهات النظر تلك ، علماء متخصصون فى العلوم الطبيعية ذاتها ، وكان يقول بأكثرها علماء متخصصون ، فى العلوم غير الطبيعية .

ومن ثم كانت وجهات النظر تلك ، مما يضر بالقضية — قضـــية البحث العلمى ، أكثر مما ينفعها .

ذلك أن الانسان كان لا يملك الا أن يحس ، بأن من قالوا بوجهة النظر تلك ، كانوا يقولون بها من باب (الاشـــفاق) على زملائهم من

---

(١) نوقشت الرسالة فى مايو سنة ١٩٧٢ ، فى كلية التربية بجامعـــة عين شمس ، حيث سجلت الدراسة .

العلماء المتخصصين فى غير العلوم الطبيعية ، أكثر مما يقولون بهـا من باب (احقاق الحق) وحده ، اذا كان هؤلاء القائلون ، من المتخصصين فى العلوم الطبيعية ، أو من باب (أن يكون لهؤلاء العلماء مكان تحت الشمس) ، اذا كان هؤلاء القائلون ، من المتخصصين فى العـلوم غير الطبيعية .

وقليلة تلك المحاولات الجادة فى هذا المجال ، التى قام بواحدة منها ، على سـبيل المثال ، لا الحصر ، الدكتور عبد الرحمن بدوى ، فى كتابه (مناهج البحث العلمى) ، وقسمها الى ثلاثة مناهج رئيسية، هى : المنهج التجريبى ، أو منهج الاستقراء (منهج العلوم الطبيعية) ، والمنهج الاستدلالى ، أو الرياضى (منهج العلوم الرياضية والأخلاقية، والفلسـفة والمنطق) ، والمنهج الاسـتردادى ، أو التاريخى (منهج التاريخ) ، ثم أضاف اليها منهجا مساعدا ، لكل منهج من المناهج الثلاثة السابقة ، هو (المنهج الجدلى) — منهج التحاور بين العلماء ، المتخصصين فى سائر العلوم ، الذى لا يسـتخدم وحده ، وانما يستخدم (مع) منهج آخر ، من المناهج الثلاثة الرئيسية .

ولكننا لا يمكن أن ننسى هنـا ، أن الدكتور عبد الرحمن بدوى ذاته ، من العلماء المتخصصين فى مجال الفلسلفة ، ومن ثم فان محاولته يمكن أن تحسـب عليه ، لا له .. ويمـكن أن تفسر على أنها محاولة يريد بها أن يجد لنفسه مكانا تحت الشمس أيضـا ، أكثر مما يريد أن يحق حقا .

أما معظم المحاولات ، التى تمت فى هذا المجال ، فقد كانت محاولات (استخدام) المنهج التجريبى ، فى العلوم التى لا تحتمل هذا المنهج، ولا يناسبها استخدامه .

ومن ثم تركز جهد العلماء المتخصصين فى غير العلوم الطبيعية ، فى افتراض الفروض ، والتأكد من صحتها ، من خلال التجريب عليها ، بهدف الوصول الى (قوانين عامة) ، تحكم الحياة فى مجال التخصص ، الذى يسعى العالم الى (النهوض به) ،من خلال (اصطناع) خطوات (المنهج التجريبى) ، الذى يستخدم فى العلوم الطبيعية — ظانين بذلك أنهم بدون اصطناع هذه الخطوات ، لا يمكن أن تكون علومهم علوما ، ولا أن يكونوا هم علماء ، وناسين أنهم — بذلك — يضرون أنفسهم ، بشهادتهم على أنفسهم (بالدونية) ، التى يحسون بها ، كما يضرون بمجالات تخصصهم ، التى (تستعصى) — بطبيعتها — على هذا المنهج التجريبى ، وخطواته •

واذا كان هذا (الاضرار) قد غدا واضحا فى (علم النفس) ، أكثر العلوم الانســـانية اصطناعا للمنهج التجريبى وخطواته ، حتى تقسم الى مدارس عدة ، لا يربط بينها الا رابطة واحدة ، هى اللعن المتبادل ، بين كل مدرســـة منها ، وغيرها من المدارس ، وحتى بـــدأ المخلصون من علمائه ، يشكون فى علم النفس ومعطياته ، ويفكرون فى (منهج) جـــديد ، يصطنعونه ، يحفظ على هـــذا العلم رونقه ، وعلى المتخصصين فيه كرامتهم •• فان (جرثومة) علم النفس ، قد انتقلت الى غيره من العلوم الانســـانية ، ولو بصـــورة أخف ، فرأينا علـــم الاجتماع يسلك نفس الســـبيل ، كما رأينا التربية — وبينها وبين علم النفس صلة رحم لا تنكر — تسلك نفس السبيل أيضا ، وان كان بعض المتخصصين فيها ، قد بدأ يستفيد (بتجربة) علم النفس ، وما أصابه بســـببها ، فراح ينادى بالبحث عن ســـبل أخرى ، تجعل من التربية (علما) ، غير سبيل التجربة هذا •

واذا كان صوت هـــؤلاء المتخصـــصين فى التربية ، الداعين الى

العودة ، هو الصـــوت الضعيف الخافت ، الضـــائع فى بحر لجى ، من الأصوات الداعية الى السير فى الطريق الى نهايته ٠٠ فان كل الدلائل تؤكد على أن المستقبل لها ، لا لأولئك المحسين بالدونية ، الذين يريدون أن يصلوا من أقرب طريق الى شرف العلم ، ناســين أن طريق العــلم كله ، طريق شائك ، كله صعاب ومخاطر ٠

وطريق العلوم الطبيعية ذاته ، ومن ســقط عليه من شهداء ، قبل الثورة الصناعية ، خير دليل على هذه الصعاب والمخاطر ٠٠ والأشواك ، التى تعد شرطا أساسيا للنجاح ، فى مجالات العلم على وجه الخصوص ٠

* * *

والعلوم الطبيعية ، كالعلوم غير الطبيعية ، علوم اسلامية الأصل ، انتقلت من الشرق الى الغرب ، عبر الأندلس ــ موضوع كتابنا هذا ــ ولولا المسلمون ، ما كانت حضارة الغرب المعاصرة ، باعتراف المنصفين من أبناء الغرب أنفسهم ٠

واذا كانت الحضارة الاسلامية ، قد قامت فى جزء كبير منها ، على ما ورثه المسلمون فى البــلاد التى فتحوها ، من حضــارات قديمة ــ فارسية وفرعونية وفينيقية وآشورية وبابلية وهندية وصــينية ٠٠٠ واغريقية ، ورومانية ــ فانه لولا الاســلام ، وايجابية حضــارية فيه لا تنكر ، لمــاتت هذه الحضــارات ، ولتحــولت معطياتها الى متحف التاريخ ٠

ولكن الاسلام ، كان هو النظام الوحيد ، الذى وهبها الحيــاة ، فاستمرت ، ثم اكتسبت (روحا) جديدة ، استطاعت بها أن تنمو وتزدهر ٠ ويكفى أن الحضارتين اليونانية والرومانية ، قد ماتتا تماما فى بلادهما ، فى ظل المسيحية ، حيث اعتبرت علومهما علوما وثنية ، وأن الغربيين بعد

الاصلاح الدينى ، لم يستطيعوا فهم علوم الأجداد ، الا من خلال عرض المسلمين لها ، وشرحهم اياها .

والعلمـاء الغربيون المنصفون ، يعترفون (بالأصل) الاسلامى ، لحضارتهم المعاصرة ، ولو أن هؤلاء العـلماء الغربيين المنصـفين ، قليلون . أما العلماء الغربيون غير المنصفين ، فانهم لا يرون للمسلمين فضلا عليهم ، بحجة أن الحضارة الاسلامية ، لا تعدو أن تكون حضارة (تلفيقية) ، ومن ثم فان ما أخذه الغرب عن المسلمين ، لا يعدو أن يكون العلوم الاغريقية والرومانية ، ومن ثم أيضا ، فهى بضـاعتهم ردت اليهم ، ناسين فى ذلك تلك الحقيقة التاريخية ، التى أشرت اليها من قبل ، والتى يقول بها المنصفون منهم .

وقد فتح المسلمون الأندلس كما هو معروف ، فى منتصف الدولة الأموية (٤١ — ١٣٢هـ = ٦٦١ — ٧٤٩م) ، وعلى وجه التحـديد ، سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) . وما هى الا قرون معدودة ، حتى كانت الأندلس قد صارت (المنارة) العلمية الوحيدة فى الغرب ، وكانت قيمتها الحقيقية تكمن فى أنها كانت بمثابة (المعبر) الحضارى الأساسى ، للحضـارة الاسلامية ، من الشرق ، الى الغرب .

وقد قامت الأندلس ، (كمعبر) حضارى ، بدورها هذا ، على خير وجه ، حتى قبل أن تكتمل (ملامح) العلم الاسـلامى ، و (ملامح) الحضارة الاسلامية ، بحيث صار مؤكدا للغرب — كنيسة ودولة — أن الأندلس الاسلامية ، هى أكبر خطر يهدد الغرب المسيحى ، ومن ثم قامت استراتيجية الغرب فى العصور الوسطى ، على أساس القضاء على الاسلام فى الأندلس ، لأن غزوه لها ، يعنى غزوه للمسيحية ، فى عقر دارها ، أو فيما تبقى لها من دار ، بعد أن أزاحها من موطنها الأول ، فى فلسطين ومصر .

ولما نجحت الاستراتيجية الغربية/المسيحية الحاقدة ، فى الأندلس ، أرادت أن تتم مسيرتها ، بغزو الاسلام فى الشرق ، فكانت سلسلة الحروب الصليبية ، التى أخفقت فى الشرق عسكريا وان نجحت فى الأندلس •• •

وبدا دور الأندلس ، كمعبر حضارى ، أول ما بدا ، فى ذلك (التمرد) ضد الكنيسة ، وما تفرضه على عقول الغربيين من حجر ، مع القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا — ذلك (التمرد) ، الذى تصدى له القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (١٢٢٧ — ١٢٧٤ م) ، عندما استفحل أمره — تصدى له من خلال ما عرف فيما بعد ، بالحركة المدرسية ، التى سعت الى منطقة الدين المسيحى — أى اخضاعه لأحكام العقل والمنطق ، وقد كان قبل توماس الأكوينى ، يستعصى على العقل ، كما يستعصى على المنطق ، مما جعل عدد من وصفتهم الكنيسة بالالحاد والهرطقة ، يتزايد عاما بعد عام ، وكان كل جرمهم ، أنهم كانوا يفكرون •

وكان توماس الأكوينى يخشى على المسيحية ، اذا هى ظلت على خصومتها للعقل بالفعل ، أن يجد العقل الأوربى راحته وطمأنينته ، فى •• الاسلام ، الذى يحمى العقل بالفعل ، فى قطعة من أوربا ، هى ••• الأندلس •

وكان لروجر بيكون Roger Bacon (١٢١٤ — ١٢٩٤ م) ، معاصر توماس الأكوينى ، رأى آخر فى القضية — قضية الهروب من المسيحية الى الالحاد والهرطقة ، وهو نزعة الكنيسة الميتافيزيقة ، أو الغيبية • ومن ثم كان هجومه على الحركة المدرسية ، وكان اتهامه للمدرسيين ، بأنهم يحولون بين الناس ، وبين الحقيقة ، كما كانت الكنيسة تفعل ، مما أدى الى التمرد عليها •

أما الحقيقة عنده ، فهى الحقيقة كما نقلها من علماء العلوم الطبيعية

المسلمين ، وعلى رأســهم عالم الطبيعة المشــهور ، الحسن بن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٩م) ، الذى أعجب به روجربيكون كثيرا ، وأعجب بمنهجه العلمى الذى اتبعه • وهذه الحقيقة ، هى الحقيقة كما تكمن فى العالم المـادى ، كما يراه الانسان ويعيشه ، والمنهج الموصل اليها ، هو المنهج التجريبى ، الذى يعتبر روجر بيكون ، ناقله الأســاسى ، من العــالم الاسلامى ، الى الغرب •

ولقد كانت ميتا فيزيقية توماس الأكوينى ، وفيزيقية معاصره روجر بيكون ، هما الأساس الذى قامت عليه حركة التطور فى الغرب بعدهما •

فعلى أســاس ميتافيزيقية الحياة ، مع عقــلانيتها ، قامت أفكار الاصلاح الدينى ، كما بلورها مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦ م) ، بعد قرنين ونصف قرن ، من توماس الأكوينى (١٥١٥ م) ، وبها هدم الفكرة المسيحية ، كما ظلت الكاثوليكية تعتقدها حتى اليوم ، ومن ثم اعتبر هو واتباعه من البروتســتانت كفاراً ، شــأنهم شــأن غيرهم من الكفار والملحدين •

وعلى أساس فيزيقية الحياة ، تفجرت الثورة الصناعية ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، فى البلاد البروتستانتية وحــدها ، دون البــلاد الكاثوليكية • وهى لم تتفجر هناك ، الا بعد قرنين من الزمان تقريبا ، من العمل الشاق والمضنى قبل أن يجنى الغربيون ثماره ، فى هذه •• الثورة الصناعية •

ومع تفجر الثورة الصناعيةنبت الاحساس فى بلاد الغرب ،بامكانية (الانحراف) فى طريق الفيزيقا ، انحرافايهدد الحضارة ، ومستقبل البشر • وليست (صرخة) جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨ م) ، بالعودة الى الطبيعة ، كما تمثلت فى قصته (اميل) **Emile** ، الا لونا من ألوان هذا (التخوف) ، ولكن أحداً من الأوربيين لم يسمع (الصرخة) ،

ولكنهم اليوم ولاشك ، يرون (الاحتجاجات) على هذا المنحى الفيزيقى العنيف ، متمثلة فى (هروب) جان‌بول سارتر الوجـودى ، ذهنيا من المجتمع — أو فى الهروب الفعلى للخنافس ، الى الطبيعة — أو هروب الأب جونز ورفاقه من الحياة كلها ، أو هروب مجتمعات الغرب كلهـا من الواقع ، الى ضباب المخدرات ، أو الجنس .. أو الجريمة — وناهيك عن الانتحار ، الذى صار (سمة العصر) ، فى هذه المجتمعات الغربية ... المتقدمة .

* * *

ولكن العلوم الطبيعية برغم ذلك ، تحتل المرتبة السـامية ، فى قائمة العلوم ، فى الحضارة الغربية المعاصرة ، ولها من عائدها المـادى ، ما يبرر لها مرتبتها السامية التى تحتلها .

ويحتـل المنهج التجريبى ، الذى تعتمد عليه هـذه العلوم ، فى اثبات وجودها ، منزلة خاصة هو الآخر ، فى هذه الحضـارة ، وهو يستمد منزلته تلك ، من العلوم التى تعتمد عليه فى بحثها العلمى ، وما عادت به هـذه العلوم على الغربيين ، من مكاسـب مادية يجنى ثمارها هناك الجميع .

ولكن ذلك كله لا يبرر للمتخصصين فى العلوم غير الطبيعية ، أن يحسوا (بالدونية) ، على هذا النحو المشين ، ولا أن يتتبعوا خطى العلماء التجريبيين ، ولا أن يصطنعوا مناهجهم ، لأن ذلك لا يعنى الا شـيئا واحدا ، وهو ان (الهوة) بين العلوم الطبيعية ، والعلوم غير الطبيعية ، ستزداد اتسـاعا ، بدلا من أن تضيق ، مما يعد أكبر تهديد للحضارة ذاتها ، وللعلوم الطبيعية والتقدم فيها ، لأن استمرار التقدم فى العلوم الطبيعية ، رهن باستمرار التقدم الحضارى ، الذى لايمكن

أن يكون ، الا بالتوازن الواجب ، بين النواحى الفيزيقية والنواحى الميتافيزيقية ، فى هذه الحضارة •

وهذه (الهوة) لا يمكن أن (تضيق) فيكون فى ضيقها فرج على الحضارة المعاصرة ، الا اذا ارتقت العلوم غير الطبيعية ، ووصلت — فى مناهجها — الى درجة كبيرة من الدقة والاتقان ، التى تميزت بها مناهج العلوم الطبيعية ، وبذلك — وحده — يزول (الاختلال) فى التوازن ، بين العلوم الطبيعية ، والعلوم غير الطبيعية ، ويكون فى زوال هذا الاختلال •• الفرج •

ولا يمكن أن ترتقى العلوم غير الطبيعية ، ما لم تكن لها مناهجها فى البحث ، القادرة على الوفاء بمتطلباتها ، والمتمشية بالضرورة ، مع طبيعة كل علم منها ••• لا تلك المناهج (الممسوخة) ، التى لا تتصل بها ، وانما كل همها — أو هم مصطنعيها — أن يجعلوها صورة (مشوهة) •• لمناهج العلوم الطبيعية •

ولا يمكن أن ننكر أن العلوم الطبيعية ، هى بالفعل علوم أساسية Fundamental ، اذا كان وصفها بأنها أساسية ، يعنى أنها علوم ، يعتمد عليها غيرها ، ولا تعتمد هى على غيرها ••لا على أنها هى وحدها العلوم ، أو العلوم الشريفة والفاضلة ، المتميزة على غيرها من العلوم (١) •

ورغم ذلك ، فقد ظهر من بين هذه العلوم الطبيعية ، علوم غير أساسية ، بمعنى أنها علوم لا تتمتع (بالاستقلالية) ، التى تتمتع بها

---

(١) ارجع الى ما قلناه عن تقسيم العلوم ، فى مطلع هذا التقديم ، ص ٦ من الكتاب •

العلوم الأساسية ••• وأوضح النماذج عليها فى هذا المجال : الكيمياء الحيوية ، التى (تعتمد) على التاريخ الطبيعى وعلى الكيمياء ، معا — أو الكيمياء الذرية ، التى تعتمد على الكيمياء ، وعلى الطبيعة ، وغيرهما •

وأكثر من ذلك ، أننا يمكن أن نعتبر كل علم من هـذه العلوم الأساسية ، أساسيا من وجهة نظر ، وغير أساسى من وجهة نظر أخرى • فالكيمياء أساسية ، بالنسبة لمن يبحث فى الكيمياء ، ولكنها لاتعد أساسية، بالنسـبة لمن يبحث فى الطبيعة ، أو فى التاريخ الطبيعى ، فى مجـال بحث يتصل بالكيمياء ••• وهكذا •

وما يقال عن الكيمياء ، يمكن أن يقال عن الطبيعة ، وعن التاريخ الطبيعى ، بطرق أخرى كثيرة •

ومن هذه الزاوية ، يمكن أن نرى أن كل العلـوم ، فيها جانب أساسى ، وفيها جانب غير أساسى — وأن (التداخل) بين العلوم ، قد عاد من جديد ، يفرض نفسه على العلوم ، بعد شوط طويل قطعه العلم، على طريق الاستقلالية ، وانتفتت [1] ••• حتى وصل الى طريق مسدود، لم يكن قادرا على أن يخرج منه ، الا بالعودة الى هذا (التداخل) — أو (التكامل) — بعبارة أصح — بين مختلف فروع العلم •

ورغم ذلك ، تظل هناك علوم ، (تغلب) عليها صفة (الأساسية) تلك ، وعلوم أخرى ، تغلب عليها صفة (الفرعية) ، أو (التبعية) •

فاذا كانت الكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى ، يمكن أن تكون (علوما أســاسية) فى بعض المجالات ، و (فرعية) ، أو (تابعة) فى مجالات أخرى ، فان الصفة (الغالبة) على هذه العلوم ، هى صفة

---

(١) ارجع الى هـذه القضـية فى مطلع هـذا التقديم ، ص ٥ ، ٦ من الكتـاب •

(الأساسية) ، بينما نجد علوما أخرى ، تغلب عليها صفة (التبعية) أو (الفرعية) ، بالنسبة لها ، كالصيدلة ، والطب فى كثير من جوانبه ، وغيرهما .

واذا عدنا من هذه المجالات ، الى مجالنا نحن — مجال التربية — لوجدناه أكثر المجالات (فرعية) أو (تبعية) ، أو ان شئت فقل (ذيلية) ، بالرغم من أن مثل هذا الكلام، يغضب كثيرا، أولئك الذين (يدافعون) عن التربية (كعلم) ، ويريدون أن يقحموها فى (جملة العلوم) ، حتى يكتسبوا لها احتراما ، ويكتسبوا لأنفسهم — من خلالها — مكانا تحت الشمس (١) .

ذلك أن علماء التربية ، لم يستطيعوا يوما — ولن يستطيعوا — أن يتحدثوا عن (التربية) فى فراغ ، وانما هم يتحدثون عنها ، وأعينهم على بعدين اثنين ، لا بعد واحد : —

— أما أول البعدين ، فهو الطفل المتعلم ذاته .

— وأما ثانيهما ، فهو المجتمع ، الذى يعد الطفل ، ليعيش فيه.

ولا يستطيع علماء التربية ، أن يتحدثوا عن (الطفل المتعلم)— موضوع التربية الأساسى — الا وفق معطيات الطب والتاريخ الطبيعى ، ووفق معطيات علم النفس ، الذى يعتبر فى حد ذاته — علما وسيطا ، بين الطب والتاريخ الطبيعى من جهة ، والتربية من جهة أخرى .

وبدون الاعتماد على معطيات هذه العلوم ، تكون النظرة غير

(١) ارجع الى ص ١١ — ١٥ من هذا التقديم .

الصحيحة الى الطفل ــ موضوع التربية ، ويكون الاخفاق والفشل مقدما .

كما لا يستطيع علماء التربية ، أن يتحدثوا عن فلسفة التربية وأهدافها ، ووسائلها لتحقيق هذه الأهداف ، ومناهج التعليم التى تدرس ، وطرق هذه التدريس ، الا وفق صورة (اجتماعية) معينة ، يحددها علماء التاريخ والسياسة والاقتصاد والدين ، ووفق معطيات علم الاجتماع ، الذى يعتبر فى هذا المجال أيضا ــ علما وسيطا بين التاريخ والسياسة والاقتصاد والدين من جهة ، والتربية من جهة أخرى .

بل ان التربية تعتمد على بعد ثالث ، غير مرئى ، فى تحديد ما تعلمه للأطفال ، وكيف تعلمهم اياه ــ وهو معطيات العلم الطبيعى ، فى مجالات الكيمياء والطب والهندسة والتاريخ الطبيعى وغيرها ــ وكذلك معطيات علوم اللغة والأدب والجغرافيا وغيرها .

واذا كانت التربية كعلم ، لا يمكن أن تقوم ، الا على (أكتاف) كل هذه العلوم ــ فهل يمكن أن ندعى بأن التربية علم مستقل ، قائم بذاته ، شأنه فى ذلك شأن العلوم الطبيعية المختلفة ، ونكون محقين فيما ندعيه ؟

وهل يخدم مثل هذا الادعاء قضية التربية ، أم تراه يلحق بها أضرارا فادحة ؟

* * *

على أن الحديث عن التربية ، بهذا الشكل العام ليس دقيقا ، لأن التربية لم تعد اليوم ، كما كانت قبل القرن العشرين ، (علما واحدا) ، وانما أصابها ما أصاب غيرها من العلوم ، من التفتت والانشطار ،

بغض النظر عن آثار التفتت والانشطار تلك ، سلبا أو ايجابا ــ فصارت هناك فلسفة تربية ، وتاريخ تربية ، وتربية مقارنة ، ومناهج ، وطرق تدريس وادارة تعليمية ، وادارة مدرسية ، واقتصاديات تعليم ، وتخطيط تعليمى ، وتعليم كبار ــ والبقية تأتى •

واذا كان التجريب يبدو مستحيلا ، فى مجالات كفلسفة التربية ، والتربية المقارنة ، وتاريخ التربية ، فانه يبدو مطلوبا ــ بل ضروريا ــ فى مجالات ، كالمناهج وطرق التدريس ، ويبدو ممكنا فى مجالات ، كالادارة المدرسية ، ومشكوكا فى جدواه ، فى مجالات كالادارة التعليمية واقتصاديات التعليم ، والتخطيط التعليمى ، بل لعله يكون مدمرا فى المجالين الأخيرين •

* * *

ورغم ذلك فالتربية كلها ، علم تجريبى ، بمعنى آخر من معانى التجريب ، هو التجريب فى الماضى •

وفى تصورى ، أن القيمة الحقيقية للتاريخ ، بالنسبة للعلوم الانسانية، والتربية واحدة من هذه العلوم ، وكذا علم النفس ، مضافا اليهما الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها ، هى أنه يقوم بنفس الدور ، الذى يقوم به التجريب ، فى العلوم الطبيعية •

واذا كان التجريب على مستوى العلوم الطبيعية ، تجريبا على (الحاضر) ، فان التجريب على مستوى العلوم الانسانية ، يغدو تجريبا على (الماضى) ــ ماضى الانسان ، وتعامله مع الناس والأشياء ، ونتيجة هذا التعامل ، فى كل حالة من الحالات •

والمنهج التجريبى ، اذا طبق على العلوم المختلفة ، بمفهوميه هذين ، فانه يكتسب سعة ورحابة ، تمكنه من أن يسعها جميعا ، أما

لو طبق عليها ، بمعنى التجريب على الحاضر وحده ، فانه يكون — كما نراه اليوم — غير قادر على أن يقوم بدوره .. فى العلوم الانسانية .

ذلك أن الانسان — موضوع العلوم الانسانية — فردا وجماعة — يستعصى على التجريب ، ولكن (تجارب) (ماضيه) ، يمكن أن تقوم بنفس الدور ، الذى تقوم به تجارب (الحاضر) ، على الحيوان والنبات والمادة .

واذا كان الهدف النهائى من التجريب فى العلوم الطبيعية ، هو الخروج (بقوانين) عامة ، تحكم ظواهر الحياة ، فقد كان ذلك هو ما فعله ابن خلدون ، من خلال دراسته للتاريخ ، وتتبعه لقيام الحضارات وسقوطها ، حتى خرج بتلك القوانين التاريخية ، الشبيهة بالقوانين ، التى تفخر بها العلوم الطبيعية ، وتحسدها عليها — من أجلها — العلوم الانسانية .

وهذا الذى فعله العلامة العربى المسلم ، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ — ٨٠٨هـ = ١٣٣١ — ١٤٠٥م) ، منذ قرابة ستة قرون ، لا يزال يفعله الكثيرون ، خروجا بهذه (القوانين العامة) ، التى (تحكم) المجتمعات ، ولعل من أشهرهم : ول ديورانت ، فى سفره الضخم (قصة الحضارة) (١) والهيئة الدولية التى شكلتها منظمة اليونسكو ، لكتابة (تاريخ البشرية) (٢) .

والدراسة التاريخية ليست بذات قيمة فى حد ذاتها ، وانما قيمتها تكمن فى هذه (القوانين) التى حكمت تطور المجتمعات فى الماضى ،

---

(١) ترجمتها فى اكثر من عشرين جزءا ، الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، منذ سنة ١٩٤٩ ، وترجم عددا محدودا من أجزائها الدكتور زكى نجيب محمود ، وترجم معظمها الأستاذ محمد بدران .

(٢) نشر فى ست مجلدات ضخمة ، وترجمته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر ، فى مطلع السبعينات ، وقام بالترجمة والمراجعة الأستاذ عثمان نويه ، والدكتور راشد البراوى ، والأستاذ محمد على أبو درة .

بما يمكن أن يفيد فى حياة الانسان المعاصرة • فالتاريخ ليس صفحة (مطوية) من حياة البشر ، وانما هو عمل أصيل فى (ضمير) البشرية ، يحركها ، ويؤرقها ، ويحدد لها معالم حياتها (الراهنة) ، وحجم (طموحها) المستقبل ، وكيفية تحقيق هذا الطموح ، ومن هنا قيمته •

وقد كان العلامة العربى ، عبد الرحمن خلدون ، ذا وعى كامل بهذه الحقيقة ، حين ضمن (مقدمته) المشهورة ، التى وضع فيها جذور (علم) التاريخ هذا — جذورا أخرى (لعلم) الاجتماع ، ولم يأت ابن خلدون بفكره الرائع والرائد هذا ، فى الماضى ، من فراغ ، وانما هو أتى به من المعين الاسلامى الذى لا ينضب — معين القرآن الكريم ، فالقارىء لسوره وآياته ، لا يسعه الا أن يدرك هذا (الربط) العميق والواعى والمنهجى ، بين حركات المجتمعات السابقة ، وبين ما آل اليه حال كل منها (ولا يظلم ربك أحدا) — كما لا يسعه الا أن يدرك نفس (الربط) العميق والواعى والمنهجى بين موقف الناس — كل الناس — من دعوة الايمان ، وما ينتظرهم من مستقبل مزدوج ، أحد شقيه قريب ، سيلقونه فى الحياة الدنيا ، والشق الثانى بعيد ، ينتظرهم يوم القيامة (يوم الفزع الأكبر •

أى أن ابن خلدون ، استطاع ان (يستلهم) جوانب محدودة جدا من (المعين) القرآنى ، الذى لاينفد [1] •

وكأنما كان القرآن الكريم ، هو الذى حدد لنا — فى هذا (المنزلق) العلمى ، الذى (تردت اليه) العلوم الاجتماعية — أو الانسانية : كيف ترقى هذه العلوم •• الى المرتبة التى تكون فيها — بحق — علوما ذات قيمة ونفع ، تساهم مع العلوم الطبيعية ، فى رفع شأن الحياة والأحياء •

---

(١) أرى انه لابد هنا من الرجوع الى الدراسة الرائعة ، التى قام بها الدكتور عماد الدين خليل ، من « التفسير الاسلامى للتاريخ » ، التى نشرها فى مجلة (المسلم المعاصر) ، على حلقات ، ثم جمعها فى كتاب ، نشرته تحت العنوان السابق ، دار العلم للملايين فى بيروت ، فى يناير ١٩٧٥ .

ولا ننسى هنا ، ما ذكرناه من قبل ، من أن المنهج التجريبى — منهج العلوم الطبيعية — لم يخترع فى الغرب ، وانما نقله روجر بيكون ، من الشرق — وعلى وجه التحديد ، من الحسن بن الهيثم(١) . ولم يأت الحسن ابن الهيثم هو الآخر بهذا المنهج التجريبى — أو منهج الاستقراء كما سماه ، من فراغ ، وانما هو أتى به من القرآن الكريم أيضا ، الذى يدعو المؤمن به دوما ، الى التفكر فى خلق السماء والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ونعم الله المحيطة بالانسان من كل جانب ، كما يدعو الى (الأخذ بالأسباب) ، والسير فى طريق العلم والمعرفة ، واكتناه أسرار المخلوقات ... وصولا الى (القوانين) الطبيعية ، التى تحكم هذا العالم ، حتى يستفيد بها المسلم ، فى حياته المعاصرة ، وفى نشره كلمة الحق ، التى كلف بأن ينشرها .

والذى يقرأ (احياء علوم الدين) ، للامام أبى حامد الغزالى ، الذى رأيناه من قبل يهاجم الفلسفة (٢) ، لأسباب أدت اليها ظروف الحياة فى المجتمع الاسلامى — لا يستطيع أن يدعى أنه (أقل) من فيلسوف ، ولكنه كان فيلسوفا كاملا ، بالمعنى الاسلامى ، لا بالمعنى الذى كان يهاجمه — أى فيلسوفا بهذا المعنى الشامل . ولاننسى هنا أن (العلوم الفلسفية) فى عصره ، كانت علوم الحكمة ، وكانت العلوم الطبيعية ، فرعا من هذه العلوم .. الحكمية .

ولو عاش الغزالى فى عصرنا هذا ، لهاجم الفلسفة من جديد ، مع من هاجموها من مفكرى العصر ، ولدعا معهم الى (وحدة المعرفة) ، المؤدية بالتالى الى (وحدة الوجود) ، ووحدة الخالق سبحانه .

* * *

واذا كانت التربية علما تجريبيا ، بالمعنى الجديد للتجريب ، الذى

---

(١) ارجع الى ص ١٨ ، ١٩ من هـذا التقديم .
(٢) ارجع الى ص ٩ من هـذا التقديم .

يشمل المـــاضى والحاضر ، بغير أساليب التجريب المعروفة ، التى تصلح للمـــادة ، ولكنها لا تصلح للانسان . فان معنى ذلك ، أنها لابد أن تكون علما (هامشيا) بطبيعتها ، أى معتمدة على (معطيات) غيرها من العلوم، دون أن يقلل ذلك من قيمتها وشأنها ، وانما الذى يقلل من شأنها ، وشأن المشتغلين بها ، أن تدعى — ويدعوا — غير ذلك .

ومن العلوم الأساسية ، التى (تعتمد عليها) التربية ، علم التاريخ ، وعلى (أكتاف) هذا العلم الشامخ، ينهض علم كاملمن أهم علوم التربية، هو .. تاريخ التربية .

* * *

والمنهج المستخدم فى البحث فى التاريخ ، هـــو المنهج المستخدم فى البحث فى تاريخ التربية ، وهو (المنهج الاستردادى) ، الذى يعتمد على اســـترداد المـــاضى ، من خـــلال ما تركه من آثار ، أيا كانت هذه الآثار ، طالمـــا كانت تدل على الحياة ، أو صور منها .. فى هذا الماضى .

ومن ثم كانت (صحة) هذه الآثار ، هو (التحدى) الكبير ، فى البحث التاريخى . وبالرغـــم من ان التاريخ ، يعتبر علمـــا أساسيا ، بالنسبة لتاريخ التربية ، فان الباحث فى التاريخ ، يجـــد نفسه — هنا — مضطرا الى اعتباره علما هامشيا ، لأنه يتخذ من دراسة (الآثار) ، (علما أســـاســـيا) ، يعتمد على جانب كبير منه ، فيما يتوصـــل اليه ، من (حقائق) تاريخية .

وهكذا يعتمد (تاريخ التربية) على التاريخ العام ، ويعتمد (التاريخ العام) ، على الآثار ، ثم تعود (الآثار) لتعتمد على اللغات القديمة ، وعلى التاريخ العام وتاريخ التربية — أيضا ، مضافا الى ذلك علوم أخرى كثيرة ، كالهندســـة والطبيعة والكيميـــاء والتاريخ الطبيعى ، والفلك ، وغيرها ، حسب نوع (الآثار) ، المراد فحصها .

* * *

وبالرغم من أن تاريخ التربية ، ابن التاريخ العام ، فان لكل منهما (منحى) خاصا ، تميز به عن الآخر ، مما يجعل كلا منهما ، مستقلا عن الآخر تماما •

فبينما يهتم (التاريخ العام) ، (بالشخصية القومية) فى عمومها ، يهتم (تاريخ التربية) ، بالنظام التعليمى وحده •

و (الشخصية القومية) لأية أمة ، ذات مظاهر متعددة — سياسية واقتصادية ودينية وتربوية ، قد تتسع الدراسة ، لتشملها جميعا ، وقد تضيق الدراسة ، فتقتصر على جانب واحد منها ، دون بقية الجوانب •

ومن ثم يهتم الباحث فى التاريخ العام ، بالقوى والعوامل الثقافية ، أو مجموعة (الضغوط) الواقعة على الأمة ، من داخلها ومن خارجها على السواء ، لأنها هى التى حددت (معالم) شخصيتها ، فى الفترة موضوع الدراسة ، ثم يهتم — بعد ذلك — أو قبله — بابراز معالم هذه الشخصية — أو بابراز (معلم) واحد من (معالمها) ، اذا كان البحث — أو الدراسة — يدور حول معلم واحد ، كالدين أو السياسة أو الاقتصاد ، أو الاجتماع ، أو نظام الأسرة ، أو نظام •• التعليم •

أما الباحث فى تاريخ التربية ، فانه يهتم بدراسة كل ما يتصل (بنظام التربية) ، فى هذه الفترة التاريخية التى يقوم بدراستها • وواضح أن (نظام التربية) ، فى هذه الفترة لا يمكن أن يتضح ، الا فى ضوء (الشخصية القومية) ، فى الفترة التاريخية ، التى تتم دراسة (نظام التربية) فيها •

وهنا الاختلاف بين (جوهرى) الدراسة ، فى التاريخ العام ، وتاريخ التربية ، حتى ولو كان الموضوع واحدا فى الدراستين ، كما نرى

فى رسالتنا هذه (تاريخ التعليم فى أسبانيا الاسلامية)(١) ، وكما نرى فى السفر الضخم الذى كتبه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم . عن (تاريخ التعليم فى مصر ، من نهاية حكم محمد على ، الى أوائل حكم توفيق «١٨٤٨ — ١٨٨٢») (٢) — فالشخصية القومية ، هى المدخللدراسة تاريخ التعليم هنا ، فى مثل هذه الدراسات التاريخية ، بينما يعتبر (نظام التعليم) هو مدخل الدراسة ، فى تاريخ التربية .

ومادام المدخل هنا ، مغايرا للمدخل هناك ، فان (كل شىء) هنا ، لابد أن يكون مغايرا لكل شىء هناك ، بالرغم من امكانية الالتقاء ، عند (نقاط محددة) ، بين الدراستين .

وباختلاف المدخل ، يختلف منهج البحث وأدواته .

ففى التاريخ العام ، يكون الرجوع الى (المصادر الأصلية) ضرورة حتمية ، لأن استرداد الماضى ، لا يكون الا من خلالها . والمصادر الأصلية هنا ، مصادر أصلية بالنسبة للفترة كلها ، ولكل معالم الحياة فيها .. بما فى ذلك (الوثائق) المتصلة بالتعليم . وفى تاريخ التربية ، لايكون الرجوع الى مثلهذهالمراجع، ضرورة حتمية، وان كان الرجوعالى الوثائق التعليمية الأصلية ، أفضل بطبيعة الحال ، من الرجوع الى سواها .

ومن ثم فالباحث فى (التاريخ العام) ، (يحاسب) على وثائقه ، ومدى صحتها ، وقدرته على تحليلها ، وصولا الى تحديد (الشخصية القومية) ، التى ظهر النظام التعليمى فى ضوئها ، بينما الباحثفى (تاريخ

---

(١) لا ننسى هنا ، أن هذا هو عنوان الرسالة الأصلى ، اى قبل أن نغيره نحن الى (تاريخ التعليم فى الأندلس) .

(٢) نشرته فى ثلاثة أجزاء ، وزارة المعارف العمومية فى مصر ، سنة ١٩٤٥ ، وان كان الجزء الثالث منه قد اختص بأهم الوثائق واللوائح التعليمية ، ووثائق البحث .

التربية) ، يحاسب على مدى وقوفه على معالم النظام التعليمى ، فى الفترة التى يتحدث عنها ، ثم تحليل القوى الثقافية التى أثرت فيه، فى هذه الفترة التاريخية •

ولعل هذا الاختلاف المنهجى الواضح ، والاختلاف فى النظر الى الأشياء ، حتى ولو كانت واحدة ، هى التى جعلت من الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، أستاذا فى التاريخ الحديث ، بالرغم من أن رسالته للدكتوراه ، كانت عن (تاريخ التعليم فى مصر) ، كما جعلت من الدكتور محمد عيسى أستاذا للتاريخ الأندلسى،بالرغم من أن رسالته للدكتوراه، كانت عن (تاريخ التعليم فى أسبانيا الاسلامية) ، ولعله هو الذى حال دون نجاح محاولة بعض من قاموا بمثل هذه الدراسات، فى أن ينتقلوا بها، من قسم (التاريخ) ، حيث (سجلوا) للحصول على الدكتوراه ، الى قسم (تاريخ التربية) ، حيث كان (موضوع) رسالة الدكتوراه ، وذلك لأن الفرق — من الناحية المنهجية ، ومن ناحية الاعداد العقلى بالتالى ، بين من أعد ليكون متخصصا فى (التاريخ) ، حتى ولو كان موضوعه فى تاريخ التربية — لأن تاريخ التربية هنا ، يكون كالتاريخ السياسى ، أو الدينى أو الاقتصادى ، أو الحضارى — وبين من أعد ليكون متخصصا فى (التربية) ، حتى ولو كان فى تاريخها ، لأن تاريخ التربية ، كفلسفتها ، وكالتخطيط لها ، وكادارتها وتمويلها •••

ان التاريخ عند المتخصص فى التربية ، يكون (تاريخا) وظيفيا ، شأنه فى ذلك شأن التربية ، عند المتخصص فى التاريخ •

* * *

ولقد كانت هذه النقطة المنهجية بالذات ، هى سر تعارفنا •

ففى صيف سنة ١٩٧٨ ، أقيم معرض للكتاب بالمملكة المغربية ،

وشـــاركت فيه دار الفكر العربى ، حيث يتم نشر كتبى ، ويتم نشر (مكتبة التربية الاسلامية) ، التى يعد هذا الكتاب ، كتابها الرابع .

وكان الدكتور محمد عيسى، يدرس للدكتوراه فى مدريد (أسبانيا) فعبر مضيق جبل طارق ، الى المغرب ، حيث المعرض ، ليحصل منه على ما يريد الحصـــول عليه من كتب ظهرت حديثـــا ، تتصل بموضـــوعه (موضوع هذا الكتاب الرابع) ، شأن الباحثين العلميين ، فى كل فرع من فروع التخصص .

وفى الجنـــاح المخصص لدار الفكر العربى ، وجد كتبى ، فأخذ منها — كما قال — كتاب (فى التربية الاسلامية) ، ووجد الكتاب الأول من كتب (مكتبة التربية الاسلامية) ، وهو كتاب (التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ــموضوع ماجستير الدكتور حسن عبد العال.

وعندما عـــاد الى مدريد ، وقرأ كتاب حسن عبد العال ، وجد تقديما لى يتصدر الكتاب ، ووجدنى فى هذا التقديم ، أثنى على حسن ، صاحب الدراسة ، وعلى الموضوع ، وعلى منهج البحث و .. الخ .

ويبدو أنه وجد أننى (بالغت) كثيرا فى مدح العمل الذى قدمت له ، فكتب لى رسالة مطولة ، تتعدى الصفحات الخمس ، من الحجم الكبير ، تبين وجهـــة نظره ، وتدلنى على مراجع ومخطوطات كثيرة ، حددها فى رسالته ، ، كان بمقدور حسن أن يطلع عليها .. الخ ، ثم يعترف — ولو من باب المجاملة كما أعتقد — بجمال العمل المقدم فعلا ، وروعته .

وكان الدكتور محمـــد عيسى ، قد ذهب الى أسبانيا ، مبعوثا من قسم التاريخ بكليتى — كلية التربية جامعة عين شمس ، ولكننى لم

أكن أعرفه ، وما أحسبه كان يعرفنى ، قبل أن يقرأ لى ، ثم يسمع عنى بعد ذلك ، من الزميل الصديق ، الدكتور رأفت الشيخ ، أستاذ التاريخ الحديث المساعد بالكلية ، وقد مر عليه ، وهو فى طريقه الى لندن ، فى الصيف التالى ، بحكم أنه معيد عنده بالقسم ، أو بحكم صداقة تربطهما — لا أدرى ، ولم أسأل .

وكان الخجل واضحا فيما عرضه ، فى رسالته المطولة ، كما أحسست فى كل سطر من سطورها .

وعرضت الخطاب ، على الدكتور حسن عبد العال ، ففوجئت بأن الرسالة التى كتبها الدكتور محمد عيسى لى ، قد كتب مثلها للدكتور حسن عبد العال ، مما يدل على أخلاقيات الرجل ، قبل أن أعرفه ، أو أقابله .

وفكرت فى أمر الرسالة ، وفى أمر محتوياتها ، وكان تعليقى عليها ، أنه جهد يشكر عليه صاحبه ، الذى اقتطع من وقته الغالى ، فى (أرض الغربة) ، ليقرأ ، ويفكر ، ويناقش ، ويعرض النصح ، بأدب كامل . يضاف الى ذلك ، أنه عبر عن وجهة نظره هذه .. بأمانة — والأمانة عملة نادرة ، فى أوساطنا العلمية اليوم .

وكان هذا التعليق ، هو ما قلته لحسن عبد العال ، بعد أن شاهدت ضيقه بالمحتويات .

وفى الوقت الذى كان الدكتور محمد عيسى ، معذورا فى عدم (هضمه) لجهد الدكتور حسن الرائع فى الماجستير،كان الدكتور حسن أيضا معذورا فى عدم (هضمه) لعدم هضم الدكتور محمد عيسى لجهده .

وقد كان الدكتور محمد عيسى معذورا ، لأنه (متخصص) فى

التاريخ ، وليس متخصصا فى التربية ، ومن ثم كانت (رؤيته) لعمل حسن عبد العال ، غيرما يجب أن تكون • ولذلك فاننى ما أن رددت عليه ، شاكرا له ما بذله من جهد فى كتابة ما كتب ، ومبينا له وجهة نظرنا نحن التربويين ، المغايرة لوجهة نظر المتخصصين فى التاريخ ، رد على ، موضحا اقتناعه بما قلته •

واستمرت الكتابة بيننا ، حتى عاد فى صيف ١٩٨٠ ، فكان بيننا — أول لقاء ، وكان مزيد من القرب ، ومزيد من الاعجاب والاحترام ، ومزيد من التفاؤل من جانبى ، بدم جديد (نظيف) ، يضم الى هيئة التدريس ، بكلية التربية جامعة عين شمس •

وكذلك كان الدكتور حسن عبد العال معذورا ، فقد كان يومها حديث العهد بالماجستير ، وعلى أبواب التسجيل للدكتوراه • وهى مرحلة (نقاهة) بالنسبة لمن يعد للبحث العلمى ، لأن الماجستير — ومعها فورة من الشباب — تجعل الباحث يحس بأنه (فريد عصره) فى مجال تخصصه (١) •

يضاف الى ذلك ، أن ما قابله حسن ، من الثناء على جهده ، من كل من قرأه ، ومن لجنة المناقشة ، ثم نشر هذا الجهد ، وطبعه فى كتاب ، وما تلقاه على هذا الجهد — من خلال الكتاب — من رسائل مديح •• كل ذلك جعله لا (يهضم) نقدا ، كنقد الدكتور محمد عيسى •

---

(١) فى تقديمى للكتاب الثالث من كتب السلسلة ، أفضت فى الحديث عن هذا المرض العضال ، الذى يصيب كثيرا من الباحثين العلميين ، حتى ممن أتموا رسالتهم للدكتوراه ، وحصلوا على الدرجة العلمية ، ويعتبرون طريقهم الى البحث والمعرفة ، قد وصل الى (كماله) ، وبالتالى لا يريدون أن يقرعوا أو يسمعوا أو يفكروا ... ارجع — للتفصيل — الى :

— على سالم النباهين : نظام التربية الاسلامية ، فى عصر دولة المماليك فى مصر — الكتاب الثالث من سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٨١ ، ص ٦ — ١٧ (من التقديم ، للدكتور عبد الغنى عبود) •

ولكنى ما أن ناقشته ، حتى اقتنع ، ولو فى ظاهر الأمر .. وكانت هذه الرسالة ، هى التى جعلت حسن يتجاوز فترة (النقاهة) ، ويمـــر منها الى (الدكتوراه) ، بسلام واقتدار .

* * *

واذا كانت الرسالة التى بين أيدينا (تاريـــخ التعليم فى أسبانيا الاسلامية) (١) ، رسالة فى التاريخ ، وليست رسالة فى التربية ــ فلم كان نشرها ضمن سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية) ؟

والجواب على السؤال ســـهل ، لو تذكرنا ما قلناه منذ قليل ، عن (العلاقة العضوية) ، بين تاريخ التربية ، والتاريخ العام (٢) ، فبدون (التاريخ العام) ، لايمكن أن يكون هنـــاك (تاريخ تربية) صـــحيح بالرغم من أن دور التاريخ العام ، فى بحث من بحوث تاريخ التربية ، دور وظيفى ــ بمعنى أنه لا يتعدى توضيح التربية ونظامها ، فى الفترة التاريخية التى تدرس .

وبالرغم من أن دراســـة الدكتور أحمد عزت عبـــد الكريم ، عن (تاريخ التعليم فى مصر ، من نهاية حكم محمد على ، الى أوائل حكم توفيق) ، بحث فى التاريخ العام ، الا أنه لا يمكن أن يســـتغنى عنه ، أو يتجاهل قيمته ، أى باحث فى (تاريخ التربية) ، فى مصر الحديثة .

ومن ثم فهـــذا الكتاب الرابع من كتب السلسلة (سلسلة مكتبـــة التربية الاسلامية) ، كتاب له (طعمه الخاص) ، و (دوره المحدود)، وهو أن يكون من نوع (الكتب الأمهات) ، التى لا يكون هناك غنى عنها، لباحث فى (تاريخ التربية الاسلامية فى الأندلس) .

---

(١) أو : تاريخ التعليم فى الاندلس ــ كما هى مطبوعة الآن .
(٢) ارجع الى ص ٢٩ ، ٣٠ من هذا التقديم .

يضاف الى ذلك ، أن التربية الاسلامية فى المشرق العربى ، قد قتلت بحثا ، كما يقولون ، بينما (التجربة الأندلسية) فى هذا المجال ، لا تزال فقيرة فقيرة ، مع أن هذه التجربة ، أخطـر من (التجربة) الشرقية بكثـير •

وهى أخطر من التجربة الشرقية ، لأسباب :

— منها أن دورة تاريخية متكاملة ، قـد مرت بالأندلس ، بفتح الأندلس ، ثم سقوطها ، ومن ثم فالدرس المسـتخلص من التجربة ، يمكن أن يكون أغنى وأثمن •

وهو درس يمكن أن يفيد البلاد الاسـلامية المعاصرة ، اذا هى خرجت بدرس (أسباب السقوط) ، حتى تتجنبها كل منها • وهذه هى فلسـفة التاريخ ، وعطاؤه كعلم ، كما توصـل اليه ابن خلـدون ، فى مقدمته ، على نحو ما سـبق •

— ولأن (التجربة الأندلسية) مفيدة على هذا النحو ، كان ـربما ـ ذلك (التعتيم العلمى) ، المفروض على هذه التجربة ، ان صح هذا التعبير ، فهى لا تحظى عندنا ، بما يجب أن يبذل فى سبيلها من جهد ، فى تعليمها لأبنائنا ، وتوجيه باحثينا لدراستها — فالغرب ، الذى يخطط لنا حياتنا ، يهمـه تماما ، أن يقضى على الاسـلام ، فى كل بلاده ، بشتى السبل والوسـائل ، ومن ثم فان هذه التجربة ، لا يمكن أن تكون دراستها ، والخروج بعبرها وعظاتها ، واردة فى فكره ••• وعلى نهج الغـرب نسير ، وعلى نبض قلبه ، ننشد نحن الألحان •

— واذا كان هذا هو ما يريده أعداؤنا وأعداء الاسلام ، فاننا يجب أن نريد ، عكس ما يريد ، اذا نحن أردنا أن يكون لنا تحت الشـمس ـ من جديد ـ مكان ، واذا كانت نفوسنا قد عافت التبعية للغرب ، والامعية

الهزيلة ، التى فرضها علينا ، يوم استعمر بلادنا ، ثم فرضناها نحن على أنفسنا اختياريا ، يوم صار (الجرى وراءه) ، بعد ما نلناه من استقلال — هدف الأهداف ، فى حياتنا الثقافية •

— وربما كان جزء أساسى من هذا (التعتيم) ، يعود الى أن التجربة الأندلسية بالذات ، هى التجربة التى أثبتت (عالمية) الاسلام ، ومن ثم فلا يمكن أن يدعى أحد — بنجاحه فيها — أن الاسلام ، مجرد دين من ديانات الشرق ، لا يصلح الا للشرق ، شأنه فى ذلك شأن البوذية والكونفوشيوسية والتاوية والشنتوية والزرادشتية وغيرها •

ذلك أن الأندلس بلاد أوربية ، وان كانت تقع فى جنوبى أوربا ، على الشاطىء الشمالى للبحر الأبيض المتوسط ، على نفس خط العرض الذى تقع عليه تقريبا ، بلاد اليونان ، وبلاد الرومان (ايطاليا) ، التى يحب الغربيون أن ينتسبوا اليها ، دون غيرها ، ويحبون أن ينسبوا حضارتهم الى حضارتها ، ليقطعوا كل علاقة بين هذه الحضارة الغربية المعاصرة وبين أصلها الأساسى : الاسلام وحضارته •

ومن ثم كان اصرار الغربيين أولا ، على (قطع دابر) الاسلام من أوربا ، وكانت ضربة الأندلس ، ثم كانت المؤامرات على الخلافة العثمانية ، بسبب ما اكتسبته من (عمق) فى داخل أوربا ، كان بديلا للأندلس وزيادة ••• قبل أن يفكروا فى مطاردة الاسلام فى خارج أوربا • من خلال سلسلة الحروب الصليبية ، بصورتها الجديدة ، التى تخفى الصليب تحت الثياب ، بعد أن كان هذا الصليب هو الظاهر على السطح •• من هذه الثياب •

* * *

واذا كان الاسلام يضيق عليه ، فى (موطنه) الأصلى ، الذى

نشأ فيه وترعرع ، قبل أن يشب وينتقل الى العالم الخارجى ، وخاصة أوربا ، فيكتسب صفة العالمية ــ بفعل حكامه ، المحســوبين عليه وعلى بلادهم ، ورضاهم بأن يكونوا مجرد (دمى) ، فى أيدى الدول الكبرى، التى تتغلغل فى أعماق المجتمعات الاسلامية ، وتستطيع ــ من تغلغلها هذا ــ أن تهز الكراسى والعروش ، التى فرضتهم عليهــا ، رغم أنف شعوبهم •• فان هذا التضييق ــ عندما زاد عن حده ــ قد انقلب الى (تمرد) على الأوضاع ، فى داخل البلاد الاسلامية ، على (السلطات) (العميلة) ، يتخذ مظاهر متعددة ، تتراوح بين الاعتدال ، الذى نراه فى الاقبال الهادىء من الكثيرين عليه من جديد •• وبين التطرف ، الذى نراه فى (اندفاعات) بعض الشــباب عليه ، بصــورة قد تبدو عنيفة ، ولكنه الشباب : أوضح سماته الاندفاع •

ان العنف ، هو الذى يولد الانفجار ، وكلما زاد هذا العنف زادت حدة •• الانفجار •

ولم يكن غريبا ، أن يكون أقوى انفجار معاصر ، قد تم فى ايران ، حيث كان يحكم سليل أسرة بهلوى ، الذى تميز بقسوة وخسة ، ورثهما عن الآباء والأجداد ، ويحسده عليهما ، أقسى الحكام ، وأكثرهم خسة •

وفى الوقت ذاته ، بدأ هذا (المــد) الاسلامى يزداد ، فى معقل الصليبية ••• فى أوربا وأمريكا •

وكأنما تعيد قصة سقوط الأندلس ، نفسها من جــديد ، فقد كان الاســلام يطارد فى غربى القارة الأوربية ــ فى الأندلس ، ليدخلها من شرقها ، على طريق العثمانيين ، وليكون الاسلام هو المنتصر فى النهاية، اذا قارنا بين الرقعة التى خسرها فى الغرب ، والرقعة التى كســبها فى الشرق عن طريق العثمانيين •

ومن أجل ذلك ربما — كان حقد الصليبية الغربية ، على العثمانيين، وعلى الخلافة العثمانية ، على نحو ما سبق .

* * *

ومن هنا كانت (أهمية) هذه الرسالة ، و (ضرورة) أن ترى النور ، فى (مكتبة التربية الاسلامية) ، أو فى غيرها ، فالمهم أن ترى النور .. فى هذه المرحلة من مراحل التاريخ الاسلامى ...خاصة.

وتشريف (لمكتبة التربية الاسلامية)، أن تكون هذه الرسالة ، كتابها الرابع ، رغم أن (موضوعها) مغاير تماما ، لموضوعات كتب هذه المكتبة . ذلك أن (موضوعها) ، من الموضوعات التى (تفرض) نفسها اليوم ، والمعركة ضد الاسلام تبلغ مداها ، فى أفغانستان ، وفى سوريا ، وفى عدن ، وفى اثيوبيا ، وفى تركيا ... وفى بلاد أخرى كثيرة ، ليست المعركة فيها معلنة ، على النحو الذى نراه فى هذه البلاد .. وان كانت هذه المعارك ، على وشك أن تحسم ، على النحو الذى حسمت به فى ايران .

وكل ذلك يجعل دراسة الأندلس وتجربتها .. ضرورة ملحة .

يضاف الى ذلك ، أنه اذا كانت الصليبية العالمية ، قد أرادت لنا أن ننسى الأندلس ، ونسقطها من حساباتنا وتفكيرنا ، فان اليقظة الاسلامية المعاصرة ، تقول بضرورة اعادتها الى (السطح) من تفكيرنا ، من جديد ...

والدراسة من هذه الزواية تقدم لنا مادة خصبة ، لاتتوفر فى غيرها ، فهى تغطى فترة زمانية ، تقترب من ثمانية قرون ، حيث تبدأ بفتح الأندلس ، سنة ٩١هـ (٧١٠ م) وتنتهى بسقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) [١] — وتغطى مساحة مكانية ، تتسع مع اتساع الفتح،

---

(١) سقطت العاصمة قرطبة بالفعل سنة ١٢٣٦ م — أى قبل سقوط غرناطة — والأندلس كلها — بحوالى قرنين ونصف قرن من الزمان .

حين يصـــل الى أبواب باريس ســـنة ١١٣هـ (٧٣٢م) ، وتنكمش مع انكماشه ، وتقهقره الى الجنوب •

ومن ثم فهى تقـــدم (مادة أولية) ، لا غنى عنها ، لمن يريد أن يفتح صـــفحة الأندلس ، فى أية زاوية من زواياها •• وهى صفحة لابد أن تفتح ، لمـــا سبق من اعتبارات •

* * *

وليس من (حقى) أن أقدم تقييما أو تقويما Evaluation للرســـالة ، لأنى لســـت من المتخصصين فى التـــاريخ ، رغم أنى من (المهتمين) به ، بحكم (تخصصى) فى التربية ، والبعـــد التاريخى ، بعد أساسى من أبعادها ، على نحو ما ســـبق (١) — وان كان (المنهج) المستخدم فى دراســـة تاريخ التربية ، يختلف فى كثير من تفصيلاته ، عن (المنهج) المستخدم فى دراسة التاريخ العام — على نحو ما سبق أيضا(٢) •

واذا كان التاريخ العـــام ، يقدم للمشـــتغل بتاريخ التربيـــه ، (المـــادة الأولية) ، التى يقوم عمله عليها ، فان (الواجب) هنا يفرض على ، أن أقول رأيى ، فى هذا العمل المقدم ، معترفا بأن هذا الرأى ، ليس (تقويما) للعمل المقدم ، لأنه لا يرقى الى درجة التقويم •

وقد استلفت نظرى فى الرســـالة ، أمران ، كانت — بهما — فى نظرى — جديرة بأن تنشر ضمن سلسلة (مكتبة التربية الاسلامية)— حتى تعم فائدتها :

---

(١) ارجع الى ص ٢٩ — ٣٢ من هـــذا التقديم •
(٢) ارجع الى ص ٣٠ ، ٣١ من هـــذا التقديم •

واول هذين الأمرين : هو أن المـادة العلمية التى تحويها الرسالة مادة وفيرة ، من حيث الكم والكيف — فمن حيث الكم ، تغطى الرسالة مساحة زمنية ومكانية كبيرة ، أشرت اليها من قبل • وهى تغطى هـذه المسـاحة الزمنية والمكانية الكبيرة ، بكفاية واقتدار — ومن أجل ذلك كان هذا الحجم الكبير للرسالة ، بالرغم من أن الدكتور محمد عيسى تتبع طريقة فى كتابة المراجع ، لا أميل اليها شخصيا ، ولكنى أراهـا هنا (ضرورية) ، من حيث توفيرها لصـفحات طويلة ، بدونها كان حجم الرسالة سيتضخم بشكل مخيف • وهـذه الطريقة ، هى كتابة المراجع ، مختصرة دوما — مع أن المفروض ، ألا يكتب المرجع مختصرا ، الا اذا كان قد سبق ذكره ، وحينئذ يقال بجانب المؤلف — أو المؤلف والعنوان — عبارة (مرجع سـابق) ، اذا كان المرجع باللغة العربية — أو (Op. Cit.) ، اذا كان بلغة أجنبية •

ومن أجل هذا الحجم الكبير ، لتغطى الرسـالة المساحة الزمنية والمكانية الكبيرة ، التى التزمت بها ، كان اضطرارى الى اختصار هذا التقديم لها ، مع معاناة كبيرة تجشمتها ، فى تحقيق هذا الاختصار (١) •

اما الأمر الثانى : الذى لفت نظرى ، فهو أن الدكتور محمد عيسى قد رجع فى الدراسـة ، الى (المصـادر الأولية) ، من وثائق وكتب ومخطوطات ، وغيرها ، مما يعنى أن (أدوات بحثـه) هى هى أدوات البحث التاريخى ، كما (أعرف)عنها •

* * *

واذا كنـا نرى ضرورة الالتفات الى (التجربة الأندلسـية) ، لأسباب رأيناها منذ قليل (٢) ، فان هذه الرسالة ، بما تغطيه من مساحة

---

(٣) تشغل تقـديم الكتاب السابق من كتب هـذه السلسلة مثـلا خمسين صفحة (ص ٥ — ٥٤) •

(٢) ارجع الى ص ٣٦ — ٣٨ من هـذا التقديم •

زمنية ومكانية ، تكون هى الرسالة المطلوبة ، اليوم وغدا .

* * *

ولا أحب — عزيزى القارىء — أن أقتطع من وقتك . أكثر مما اقتطعته ، وانما أدعوك لأن تدخره للرسالة ذاتها ، وما ورد فيها من مادة علمية خصبة ، عسى الله أن ينفعنا جميعا بها ، حتى تخرج منها — فى النهاية — بدرس (التجربة الأندلسية) ، على حد تعبيرى منذ قليل .

والله سبحانه هو الموفق الى ما فيه الخير .

دكتــور عبد الغنى عبــود

القاهرة فى : ربيع أول ١٤٠٢هـ .
يناير ١٩٨٢ م .

الإهـــداء

الى اغلى ما فى حيـــاتى .

وطنى ....

واهلى ....

واساتذتى ....

ملاحظـة توضيحية

حاولت قدر الامكان استعمال طبعة واحدة من كل مصـــدر من المصادر العربية الواردة فى هذه الرسالة ، ولكنى فى بعض الحالات لجأت الى استخدام أكثر من تحقيق لنفس المصدر ٠

وقد بينت فى الهوامش نوع الطبعة المستعملة ، وفى بعض الحالات لم أذكر ذلك ــ ولكن يمكن الاستدلال على ذلك ، بالمـلاحظة التالية :

١ ــ استخدمت تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، لكتاب نفح الطيب بصفة أساسية ، ولذلك لا يشار الى اسمه ، ولكن حين استخدمت طبعات أخرى ، أشرت اليها فى الهامش ٠

٢ ــ بالنسبة لكتاب تاريخ علماء الأندلس ، وكتاب الصلة ، لابن بشكوال أشرت الى الطبعة فى الهوامش ٠

٣ ــ بالنسبة لكتاب ابن فرحون وكتاب السيوطى بغية الوعاة ، حين يذكر رقم الجزء ، فمعنى ذلك الطبعات الجديدة ، وحين لا يذكر الرقم ، تكون الطبعة هى الطبعة القديمة ٠

المقدمـــة

ترددت كثيرا قبل اختيارى هذا الموضوع هدفا لرسالتى ولدراساتى العليا ، وذلك بسبب الصعوبات الكامنة فى هذا المجال ، كما أننى لم أكن متأكدا من قدرتى على الوفاء بمتطلباته .

لكن من ناحية أخرى ، فان النظام التعليمى لأمة من الأمم انما هو الأساس الذى تبنى عليه حضـــارتها ، ويساعد بفعالية فى تطورها وارتقائهـــا وبقائهـــا . والاهتمام بالتعليم والعلـــوم ، وفتح الباب لاستقبال التيارات الثقافية ، والتأثر بها والتأثير فيها ، دون الذوبان فى تيارها ، وعدم ضياع الشخصية الأصلية ، يســـاعد على الارتفاع بالمستوى الثقافى ، وعلى العكس من ذلك فان التعصب والانغلاق على أفكار معينة ، وعدم الأخذ والعطاء يؤدى الى الركود الفكرى ، وعدم الابداع ، وما الى ذلك من عوامل ، تؤدى فى النهاية الى الانهيار والفناء.

ان الأهمية العظمى الكامنة فى دراســـة تاريخ التعليم ، والتى لاتقل عن أهمية دراسة أى جانب من الدراسات الانسانية ، هى التى ألحت على ودفعتنى الى دراسته .

أما بالنســـبة للسر فى اختيار تاريخ التعليم فى الأندلس بالذات ، فدوافعى اليه ترجع الى عدة أسباب منها :

ـــ توفيقى فى الحصول على ترشيح الدولة المصرية لى للدراســـة فى أسبانيا على منحة من منح التبـــادل الثقافى المقدمة من الحكـــومة الأسبانية الى مصر .

ـــ أن هذا الموضوع لم يتطرق اليه أى باحث على الاطلاق ، اذا

ما استثنينا مجموعة المحاضرات التى ألقاها المستشرق الاسبانى الكبير خوليان ريبيرا فى عام ١٨٩٣ بجامعة سرقسطة .

— أن دراساتى خلال المرحلة الجامعية ، فى كلية التربية بالقاهرة ، تؤهلنى للتصـــدى لمثل هذا الموضـــوع التاريخى ، والتربوى فى نفس الوقت .

وقد واجهت من الصعوبات فى هذه الدراسة ، ما لم يخطر لى على بال أبدا ، رغم علمى مقدما ببعض مشاكلها .

فالدراسات الاجتماعية عموما ، لم تجد الاهتمام الكافى ، الذى هى جديرة به ، وقليلةجدا الكتبوالمصادر ، التى يمكن أن تلقىضوءا — ولو بســـيطا — على حياة الرجل العادى ، وقليل جدا ، ان لم يكن نادرا ، أن تجد مصـــدرا أو مـــؤرخا ، يصور لك حقيقة العلاقة الشخصـــية أو الاقتصادية بين الناس .

وبالنسبة لموضوع تاريخ التعليم ، فان ما خلفه المؤرخونقليلجدا، ضاع معظمه ، ولم يصل الينا منه الا شذرات قليلة متفرقة ولا ينطبق هذا على أسبانيا الاسلامية فحسب ، وانما هو يشمل العالم الاسلامى بأكمله ، فكما قلت : المؤلفات فى هذا المجال قليلة جدا ، ويقلل من أهمية أكثرها ، أنها نقلت عن بعضها ، أو تناولت نفس الموضوعات ، وغلبت على هذه الكتب الاهتمامات الخلقية ، وما يجب أن يتحلى به العـــالم والتلميذ ، وواجبات كل منهما ، ومسألة شرعية الأجر ، من الناحية الدينية .

فاذا انتقلنا الى الأندلس ، فالمشكلة أصعب وأعقد ، فعلى الرغم من انتاجهـــم الغزير فى كافة المجالات ، وعلى الرغم من أن كثيرا من كتاباتهم كانت بهدف تعليمى ، الا أن مؤلفاتهم فى مجال التعليم ، لم تتعد الكتب التالية :

١ — اللباب فى معرفة العلم والآداب ، لابن عبد ربه ، المتوفى ٣٢٨ هـ / ٩٣٩ — ٩٤٠ م (١) .

٢ — آداب المعلمين — خمسة أجزاء لأبى عمر أحمد بن محمد ابن عفيف بن عبد الله ، المتوفى ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م (٢) .

٣ — جامع بيان العلم وفضله — جزءان ، لابن عبد البر الأندلسى ، المتوفى ٤٦٣ هـ/١٠٧٠ م (٣) .

٤ — آداب العلم ، لابن عبد البر (٤) . (ومن المحتمل أنه نفس الكتاب السابق) .

ولم يصل الينا من هذه الكتب الا كتاب جامع بيان العلم وفضله ، ويتناول أهمية دراسة العلوم الدينية ، والأخلاق التى يجب أن يتحلى بها العلماء والدارسون.والى جانب هذا الكتاب ، وصلتنا بعض الاشارات التربوية التى كتبها ابن حزم الأندلسى ، المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م ، وابن العربى المتوفى ٥٤٣هـ/١١٤٨ م ، وابن الخطيب ، المتوفى ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م .

أما علماء شمال أفريقية ، أقرب المناطق الجغرافية الى الأندلس فقد كانوا أكثر انتاجا من الأندلسيين فى هذا المجال ، فقد خلفوا مجموعة من المؤلفات التربوية الجيدة ، وأهمها كتاب آداب المعلمين لابن سحنون المتوفى ٢٥٦ هـ/٨٦٩ م — أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين للقابسى

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون ، ص ١٥٤٣ .
(٢) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٣٩ (طبعة القاهرة) . البغدادى : ايضاح المكنون — جـ ١ ، ص ٤ .
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم — طبع عدة مرات . حاجى خليفة : كشف الظنون ، ص ١٢٧٩ .
(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ، ص ٤٣ .

المتوفى ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م — وكتاب الالمـــام فى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضى عياض اليحصبى ، المتوفى ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وخصص ابن خلدون ، المتوفى ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م ، فصلا كبيرا فى مقدمته للعلم والتعليم ، وكتاب جامع جوامع الاختصار والتبيان للمغراوى ، المتوفى ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م .

وفى القرن الحالى بدأ اهتمام واضـــح بدراســـة الحياة التعليمية والتربوية فى الاســـلام ، حيث قام عدد محـــدود من الباحثين العرب والأجانب بالدراســـة فى هذا المضـــمار ، كما تم تحقيق مجموعة من المخطوطات ، التى عاشت حبيســـة المكتبات والصناديق ، خلال مئـــات السنين .

قام الدكتور أحمـــد شلبى بتقديم رســـالة دكتوراه فى جامعة كمبردج ، صدرت فى كتاب لأول مرة فى عام ١٩٥١ م ، بعنوان (تاريخ التربية الاسلامية) ، وعلى الرغم من هذا العنوان الواسع ، فان تصفح الكتاب ، يبين أن الدكتور شلبى قد قصره تماما على المشرق الاسلامى ، وبالذات على كل من بغداد والقاهرة ، وأنه لم يشر الى الأندلس الا فى فقرات مبتسرة .

وقدم الدكتور أسعد طلس رسالة دكتوراه فى الســـوربون ، ثم طبعت أيضا بعنوان (تاريخ التعليم فى الاســـلام) ، تضمنت بعض الاشارات الى التعليم فى الأندلس ، ولكنها ظلت أيضا كسابقتها مركزة على المشرق الاسلامى فقط .

كذلك فان الرسالة التى قدمها الدكتور أحمـــد فؤاد الأهوانى ، قد ركزت على النواحى التربوية التى نادى بها القابسى ، وقارن ذلك بآراء التربويين المشارقة ، دون أن تتعرض للنواحى التاريخية .

أما بالنسبة للتعليم فى أسبانيا الاسلامية ، فلم يتعرض له أحد فى

رسالة عملية حتى الآن ، وكل ما هناك فى هذا المجال ، كما أشرت سابقا ، مجموعة المحاضرات التى ألقاها خوليان ريبيرا فى عام ١٨٩٣ ، وبعد ذلك هناك عدة مقالات يوالى اصدارها من حين لآخر ، الأستاذ (جورج مقدسى) ، ويشار اليها فى ثنايا هذه الدراسة ، كما ان الزميل كريم عجيل حسن (من العراق) قد قدم رسالة ماجستير عن الحياه العلمية فى مدينة بلنسية الاسلامية نشرت عام ١٩٧٥ م فى بغداد .

ومن أهم الصعوبات التى واجهتها فى الدراسة :

— عدم وجود مراجع وأبحاث فى هذا المجال يمكن الاعتماد عليها ، وخاصة أننى أردت تناول الموضوع من زواياه التاريخية . وليس من الناحية التربوية ، ولقد اضطرنى ذلك الى البحث فى مجموعات كاملة من المؤلفات . أى أنه لم يكن من الممكن لى الرجوع الى كتاب معين ، وكان لابد من الرجوع الى مجموعات من الكتب ، وأهم هذه المجموعات ، سلسة كتب التراجم الأندلسية .

ومن حسن الحظ أن الأندلسيين أولوا هذا العلم اهتماما كبيرا ، وخلفوا لنا سلسلة متواصلة من تراجم علمائهم ، أشرت اليها عند حديثى عن العلوم الاجتماعية فى الفصل الثانى : مجموعة الكتب التاريخية والجغرافية — كتب الأدب ، بصورة عامة — ما أمكن رؤيته من الانتاج الأندلسى ، أو ما كتب عن الأندلس فى كافة المجالات .

— التناقض الشديد فى بعض القضايا ، أو الغموض الشديد فى بعضها الآخر ، مما جعل تكوين رأى حول بعض الأمور مسألة صعبة جدا . وأشد هذه النواحى غموضا قضية تدخل الدولة فى التعليم ، وظهور المدارس فى الأندلس ، والمرتبات .

— اتساع موضوع الدراسة ، وتشعب الموضوعات المتصلة به ، فالدراسة هنا تلمس كل نواحى الحياة الأدبية والعلمية التى عاشتها الأندلس ، كما أنها ترتبط بكل ما كتب عن هذه الفترة التاريخية ، فى كافة

مجـالات الأدب واللغة والنحو والفن والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والرحلات والاجتماع والطب والهندســة والزراعة والفلك والرياضيات والعلـوم الدينية بكاملهـا • واذا أردت الاشـارة الى كافة الكتب أو المقالات الصادرة عن أحد هذه المواد ، أو على الأقل أهمها ، فان دراستى هذه ستتحول الى سفر ضخم جدا من الأســماء والمؤلفات ، ولذلك كنت أجد لزاما على الاختصار ما أمكن والاشارة الى كتاب واحد فقط فى بعض الأحيان •

وهــدفى من هذه الدراســة ، أن أقدم صــورة عن التعليم فى أسبانيا الاسلامية ، أى كيف كان يتم تشكيل الفرد وتثقيفه ، ابتداء من سنى حياته الأولى ، حتى يصل الى أقصى ما يطمح اليه من تعلم — مبينا النواحى التالية :

— متى يبدأ هذا التعليم ومتى ينتهى ؟

— الأماكن التى يمارس فيها خلال كل مرحلة من مراحل الحياة•

— تعليم الخاصة ، مثل أبناء الأمراء والوزراء والقادة ، وتعليم النساء •

— المعلمون : مستواهم الثقافى والاقتصادى والاجتماعى •••الخ

— الدولة ودورها فى التعليم •

ووضعت خطتى لتناول هذه الدراسة على أساس أن أبدأ مع بداية الحياة التعليمية للأطفال ، وأن أطور الدراسة مع تطور سن ومراحل تعليم الطفل فأدرس أولا المرحلة التعليمية الأولى ، وأتناولها من كافة جوانبها :

المكان ، السن ، برنامج الدراسة ، الوقت ، المعلم ، أجر المعلم ، تعليم البنات ••• الخ •

ثم أنتقل الى دراسة المرحلة التعليمية الثانية ، مبينا خواصها وأهميتها ، ومتناولا اياها من نفس الزوايا التى تناولت بها المرحلة الأولى .

أما فى المرحلة التعليمية الثالثة ، فاننى ركزت على المدارس فى الأندلس ، وعلى الرحلة بنوعيها الداخلى والخارجى .

ولقد كان من حسن حظى العثور على مخطوطة صغيرة بمكتبة الأوسكوريال تتضمن بعض اجازات من معلمين مشرقيين لطلبة من الأندلس وشمال أفريقيا ، قمت بقراءتها ونشرها ضمن الفصل الخاص بالاجازة .

وتناولت فى فصل خاص ، كيفية تعليم أبناء الخاصة ، وبالذات من كانوا يعدون لمناصب معينة ، مبينا فى ذات الوقت الاهتمام الذى بذله الأغنياء فى سبيل التعليم .

أما عن دور الدولة فى التعليم ، فقد خصصت له فصلين طويلين ، أحدهما استعرضت فيه جهود حكام الأندلس ، فى صالح التعليم والفقهاء والمعلمين والطلبة ، أما الآخر فقد جعلته لبعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم ، موضحا فيه بعض نقاط تدخل الدولة الفعلى ، سواء فى البرنامج التعليمى أو دفع المرتبات أو بناء المؤسسات التعليمية .

ان الأهمية الكبرى لهذه الدراسة تكمن فى اطلاعنا على الأسلوب الذى اتبعه الأندلسيون فى تربية أبنائهم ، كما أنها تبين لنا مقدار الاهتمام الذى بذلوه دولة وشعبا فى هذا المجال الحيوى علاوة على اطلاعنا على صفحة ناصعة من تاريخ أمتنا الاسلامية فى العصور الوسطى .

ان أكبر المشاكل التى نعانيها فى عالمنا الاسلامى المعاصر ، هى

فقداننا لنظام تربوى سليم نتبعه فى مراحـل تعليمنا المختلفة ، وان مأســاتنا الحقيقية تكمن فى أننا حقل تجــارب لنظريات تربوية شرقية وغربية لا تتفق مع تاريخنا وعقائدنا وطبيعة تكويننا وكان من نتيجتها ما نعانيه اليوم من انفصام فى الشخصية ، وضعف فى المستوى .

ان دراستى لأحــد عمد الازدهــار والرقى فى فترة من فترات الاسلام الزاهية ، ليست توقفا عند المــاضى ، ولا هى دعوة للعودة للوراء ، بقدر ما هى محاولة للتعرف على أساس ثابت يمكن أن نركن اليه فى بناء أمتنا الحديثة .

ولعل هذه الدراسة تفيد فى التعرف على ما يجب الأخذ به ، وما يجب أن نبتعد عنه ، حتى نتمكن من بناء نظام تربوى سليم ، لتربية أجيالنا القادمة .

وأعترف أن الموضــوع جاد وخطير ويحتاج الى جهود جماعية ، وأننى رغم كل ما بذلت أرى فيما قمت به ، أوجه نقص كثيرة ، ونقاطا تحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث ، ورغم ذلك فاننى أشعر بالرضى ، لأننى بذلت كل ما أمكننى ، وفتحت الباب أمام غيرى لاستكمال النقص ولمزيد من التعمق والبحث .

وثمة كلمة أخيرة ، تجب الاشارة اليها فى نهاية هذا التقديم :منذعدة أعوام كان التفكير فى مجرد كتابة هذه المقدمة لا يعدو أن يكون حلما من أحــلام اليقظة وكان اليأس مخيما على أفكارى تماما ، وذلك بسبب مشكلة المعادلات ، التى استغرق حلها ثلاث سنوات كاملة ، ومن هنا أذكر بكل العرفان جهود الأستاذين الدكتور بدرو مارتينيث مونتابيث عميد كلية الآداب ، بجامعة الأتونوما حينذاك ، ورئيس هذه الجامعة حاليا والدكتور لويس سواريث فرنانديث ، أســتاذ ورئيس قســم تاريخ

العصور القديمة والوسطى بكلية الآداب ، فى سبيل حل هـذه المشكلة الادارية ، ومساعدتى على البدء فى دراساتى العليا بالكلية فى عام ١٩٧٧ .

أما فى المجال العلمى فاننى أركز شـكرى على ما قام به الدكتور لويس سواريث المشرف على هذا العمل ، أشكر له موافقته على اختيار الموضوع وتحمسه له ، والساعات الطويلة التى قضاها معى نقاشا وبحثا ومراجعة وأعترف أنه كان المشجع فى لحظات اليأس ، والحافز فى أوقات الركود وأنه لولا جهوده ومتابعته ، لتأخر هذا العمل ، ربما لعدة سنوات .

ويدين هذا العمل بالفضل الى كثير من العلماء والباحثين من العرب والأسبان ، فلقد ساهم فيه بابداء الآراء والاقتراحات مجموعة كبيرة من علماء الدراسات العربية الأسبان من العاملين فى الجامعات الأسبانية والمعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد ، ومن المتخصصين فى الدراسات الأندلسية من كافة البلاد العربية وخاصـة الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مدير المعهد المصرى للدراسات الاسـلامية فى مدريد ، والذى أعطانى من وقته وجهده الكثير فى سبيل اعداد هـذا البحث ، ولهؤلاء جميعا أدين بالكثير من التوجيهات والنصائح .

كما أوجه شكرى الخاص الى مكتبتين عظيمتين فى مدريد ، يرجع اليهما الفضل فى امدادى بكل المراجع التى استخدمتها فى هذا البحث — أقصد مكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، ومكتبة المعهد الأسـبانى العربى للثقافة ، فاليهما والى القائمين بالأمر فيهما عرفانى وامتنانى .

والى أصدقائى وزملائى الأسبان ، الذين تقبلونى جاهلا بلغتهم ، وببلدهم ، فعلمونى ، وساعدونى فى اجتياز كل الصعوبات التى واجهتها ، أشكرهم من أعماقى ، وخاصة الذين ساعدونى فى رسالتى هذه ، وحسنوا من مستوى ترجمتها الى الأسبانية .

وأعترف بالفضل الكبير لصديقى الباحث الأسبانى لويس مولينا والزميلة الدكتورة مانويلا مارين ، الباحثة بالمعهد الأسبانى العربى .

والى زوجتى العزيزة ، يرجع فضل كتابة هذه الرسالة على الآلة الكاتبة العربية ، وسهرها الليالى الطويلة ، فى فك رموز خطى الذى لا يقرأ ، ونقلها نقلا صحيحا ومنظما على الآلة الكاتبة ، فلها منى الشكر والتقدير .

وأشكر بصفة خاصة الآنستين ألمودينا بيريلا وأمبارو فارغاس اللتين تولتا كتابة الرسالة باللغة الأسبانية سواء عند عمل المسودات لعرضها على الأستاذ أو عند كتابتها للمرة الأخيرة .

وأحمد الله سبحانه على هذا التوفيق

محمد عبد الحميد عيسى

مدريد : أول فبراير ١٩٨٠ م .

تمهيـــد :

المسرح الجغرافى

شــــبه الجزيرة الأيبيرية :

هى واحدة من ثلاث شبه جزر تضرب فى البحر المتوسط ، بارزة عن جسم القارة الأوربية ، وأقصد بها كلا من شبــه جزيرة البــلاد اليونانية ، والبلادالايطالية ، والثالثة هىموضوع هذه الدراسة ، وتتشابه هذه مع زميلتيها فى تلك الخاصية ، لكنها تختلف عنهما بخواص ذاتية مستقلة تجعل منها وحدة جغرافية ذاتية ، وتنبع هذه الخواص من موقعها الفريد فى البحر المتوسط ومن هيئتها الخاصة .

وتشكل شبة الجزيرة الأيبيرية وحدة جغرافية متكاملة وواضحة ، حتى أنها لتختلف عن كثير من البيئات المجاورة لها من الشمال أو الجنوب سواء من ناحية التضاريس أو من بعض تفصيلات المناخ السائد فيها .

وتقع هذه المنطقة فى أقصى الطرف الغربى لحوض البحر المتوسط ، وتحيط المياه بحوافها فى $\frac{7}{8}$ محيطها الكلى ، والباقى فقط هو الذى يربطها بجسم القارة الأوروبية ، حيث تقع سلســلة الجبال الشــاهقة الفاصلة بينها وبين فرنسا .

ولا يتخذ سطح شبه الجزيرة لونا متجانسا ، بل على العكس من ذلك فانه ينقسم الى عدد من الأقاليم الطبيعية المتباينة عن بعضها ، تتخللها مجموعة كبيرة من الجبال والمرتفعات والأودية والمنخفضات ، مما كان له أثره الكبير فى مســار تاريخ هــذه المنطقة ، ووضــع مسألة الوحدة الذاتية والعضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ويعبر عن ذلك أحد

الكتاب الأسبان ، قائلا « اننا فى الوقت الذى نلاحظ فيه بسهولة ، الوحدة العضوية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، نلمح أيضا سلاسل الجبال المتعددة ، والضاربة فى أنحاء كثيرة منها ، والمخترقة لها من طرف آخر ، مما يدفعنا الى التفكير فى مسألة التمزق والتشتت الذى مارسته هذه السلاسل الجبلية داخل شبه الجزيرة على مدى القرون والأجيال » (١) .

وتقع شبه الجزيرة الأيبيرية بين خطى طول ٣٦ و ٤٤ شمالا ، وبين خطى طول ٣ شرق جرينتش ، و ٩ غرب أى أنها تقع فى المنطقة المعتدلة الشمالية ويحيط بها المحيط الاطلنطى من الغرب ، ويحدها من الشمال البحر الكانتابرى وجبال البرتات ، والبحر المتوسط من الشرق والجنوب الى أن يتصل بالمحيط .

وتمتدشبه الجزيرة من الشمال الى الجنوب ٨٦٨ كم ، ومن الشرق الى الغرب ١٠٩٢ كم ، ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر ٦٦٠ مترا (٢) .

والمساحة الاجمالية لشبة الجزيرة الأيبيرية ٥٨١ر٦٦٦ كم٢ ، تحتل منها البرتغال ، التى تقع فى غرب أسبانيا ، ٨٨٧٤٠ كم٢ فقط . وتشغل أسبانيا باقى المساحة ، وهناك بعض الجزر الخارجة عن هيكل شبه الجزيرة وهى جزر البليار ، وأرخبيل الكنارى ومساحتها الكلية ١٢٢٨٦ كم٢ (٣) . وأشير الى هذه الجزر هنا ، لأن المسلمين أقاموا فى جزر البليار ، كما عرفوا الكنارى وأسموها (جزر الخالدات) .

ويتباين المناخ فى شبه الجزيرة الأيبيرية حسب الموقع الجغرافى لكل اقليم ، وان سادته بصفة عامة السمات السائدة فى منطقة البحر المتوسط . وقد يغطى هذا المناخ أيضا المناطق بالقرب من المحيط

---

(1) Saldevila; F. : Historia de Espafia; 111.1

(2) Garangex, Ernesto : Nueva Geografia Universal; 111. 345.

(3) Sopena : Geografia de Espafia: 1. 24.
Vila; Valentf : La Peninsula Iberica. p. 21.

الأطلنطى ، أما الأقاليم الشـمالية فتنتسب الى مناخ وسط أوروبا . ويعطى ذلك كله أهمية خاصة لشبه الجزيرة ، كما أنه يتسبب فى تنوع نباتاتها ، وطبائع الانسان فيها ، وبالتالى تنوع الانتاج .

والأندلس ليس تعبيرا جغرافيا ثابتا ، بل هى كلمة تعنى مناطق أسبانيا الاسلامية ، سواء اتسعت هذه المناطق لتشمل كل شبه الجزيرة الأيبيرية تقريبا فى الأعوام الأولى من الفتح ، أو اقتصرت على مجرد مدينة غرناطة فى عام ١٤٩٢ م .

ففى أعوام الفتح الأولى ، كانت كلمة الأندلس تعنى شبه الجزيرة الأيبيرية تقريبا ماعدا الجزء الشمالى الغربى،ثم بدأت الممالك الأسبانية المسيحية فى التشكل وبدأت حرب الاسترداد ، وبالتالى النمو المستمر ، ذلك النمو الذى كان يعنى فى الوقت نفسه تناقص الأرض الاسلامية ، أو تناقص المساحة التى تتضـمنها كلمة الأندلس . وهكذا عند سـقوط الخلافة القرطبية كان الخط الفاصل بين أسبانيا الاسلامية وأسـبانيا المسيحية يمتد من جنوب برشلونة فى خط متعرج فى أتجاه الغرب حتى يلتقى مع المحيط الاطلنطى عند أعالى البرتغال الحالية تقريبا .

أما على عهد المرابطين والموحدين فان الأندلس كانت قد تناقصت كثيرا ، وانحسر الخط الفاصل الى الجنوب كثيرا ، وخاصـة فى اقليم الوسط وأصبح لقاؤه مع المحيط ، يقترب من جنوب البرتغال الحالى .

ثم سقطت الدولة الموحدية ، وازدادت حركة الاسترداد بشدة ، واقتصرت الأندلس على مملكة غرناطة ، التى تآكلت قليلا ، حتى سقطت المدينة فى نهاية الأمر .

وقد اكتفيت هنا بهذا العرض الجغرافى ، الذى يحدد أن كلمة الأندلس، أو تعبير أسبانيا الاسلامية ليس قاصرا على ما يعرف اليوم بـ (أندلثيا) وانما هو كان يشمل كل المناطق التى خضعت للمسلمين ، أو بمعنى أدق ، المناطق التى صلحت لسكنى المسلمين مســكنا دائما ، بصرف النظر عن خطوط الحدود العسكرية . أما الاستعراض التاريخى لهذه الفترة ، فاننى سأتناوله فى الفصل الخاص بالدولة والتعليم .

الباب الأول

الدولة والتعليم فى الأندلس



الفصل الأول

منـــذ الفتح الى نهـــاية الدولة الأموية

(أ) مقـــدمة :

ان العلاقة بين الدولة والعملية التعليمية ، تنبع من الدين الاسلامى ذاته ، حيث أن ذلك الدين ليس فقط شعائر يؤديها العبد نحو خالقه ، بقدر ما هو نموذج حياة متكامل ،يتناول كل ما يتعلق بالانسان نحو ربه، ونحو نفسه ، ونحو الناس ، ويحدد كافة الحقوق والواجبـــات ، التى يجب على المؤمن اتباعها .

ومن هنا ، أقصـــد أنه انطلاقا من تلك القاعدة ، قاعدة أن يدرك الناس قواعد دينهم ، وبالتالى أســـس حياتهم ، ومنطلقهم الى تكوين شـــخصيتهم داخل المجتمع ، ومن ثم صياغة هذا المجتمع على أسس تتلاءم وقواعد دينه ، كان لابد من التعليم ، ولابد من التربية المتكاملة للناس وتعريفهم بهذه الأسس والقواعد التى يجب عليهم الانطلاق منها الى كافة باقى مظاهر حياتهم الأخرى. اذا فالعلاقة بين الدين الاسلامى والتعليم هى علاقة عضوية ، علاقة يمكن أن تقودنا الى القول ، بأن الدين فى حد ذاته ليس الا عملية تعليمية ، بدأ بأمر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن (اقرأ باسم ربك الذى خلق) [1] ، ثم استمر بعد ذلك يتولاه ، عن طريق الوحى ، بتعليمه وتوجيهه ، حتى أكمل تعليمه ، أو ان شئت أكمل له دينه ، حين قال :

---

(1) القرآن الكريم : سورة العلق رقم ٩٦ .

(اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا) (٢) ومن هنا يمكن لنا تفهم قول الصوفى المرسى الكبير ، الشيخ محيى الدين بن عربى (توفى ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) حين يقول :

(اعلم أن المعلم على الحقيقة هو الله ... أول أستاذ فى العالم ، العقــل الأول ... فعلــم آدم الأســماء كلهــا المتوجهــة عن ايجاد العــالم العنصرى ، وعنــدما عجــزت الملائكة عن معرفة الأســماء علمها لهم آدم ، فصار أستاذا لهم ، وورث آدم فى العلم الأنبياء فصاروا أساتذة البشرية ، وورث الأنبياء الأولياء ، والله يعلم الأنبياء والأولياء، بالوحى الالهى ، أو عن طريق الملائكة، وهؤلاء يعلمون تلاميذهم مباشرة أو عن طريق الايحاء والتأثير النفسى » (٣) .

تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تعاليمه من ربه ، والتكليف بأن يتولى تعليم الناس ذلك ، فقام بذلك ، بادئا بأصــحابه وأقربائه المقربين آمراً اياهم نقل ذلك الى الناس ، وأن يقوم هؤلاء بتعليم غيرهم، قائلا صلى الله عليه وسلم :

«ما من شىء أعظم عند الله من رجل تعلم علما ، فعلمه للناس»(٤) وهو القائل أيضا : « خير الناس ، وخير من يمشى على حــديد الأرض المعلمون » .

ولم يقنع رسول الله بأمر أصحابه بالقيام بالتعليم ، بل انه اهتم اهتماما كبيرا بهذا ، وله عليه الصلاة والسلام من الأحاديث والأقوال

---

(٢) القــرآن الكريم : سورة المــائدة رقم ٤ الآية ٣ .
(٣) ابن عربى : الشيخ محيى الدين ، الفتوحات المكيــة ، ج ٣ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .
(٤) ابن خير الاشبيلى : فهرست ابن خير ، ص ١١ .

الحاثة على ذلك ، مما ذكر بعضه فى فصل آخر ، ولمن يرغب الاطلاع على ذلك بتوسع ، فعليه مراجعة بعض الكتب الآتية : «أخلاق العلماء» للآجرى (٣٦٠هـ — ٩٧١م)(٥) ، و«فتح المجيد» لعبد الرحمن آل الشيخ (١٢٥٨ —) (٦) ، و « جامع بيان العلم » لابن عبد البر (٤٦٣هـ — ١٠٧٠م) (٧) ؛ و « تذكرة السامع والمتكلم » لابن جماعة (٧٣٣هـ — ١٣٣٢م)(٨) ، و « الاحياء » للغزالى (٥٠٥هـ — ١١١١م)(٩) .

ولست بمستطيع أن أجمع ، ولو قليلا مما كتب فى هذا المجـال ، لسعته وكثرته ولكن ذلك هو الذى دفع بالتعليم دفعا لكى ينتشر فى كل مكان وصل اليه الاسلام ، وجعل « العلم يثب على قدميه وثبا فى كل موضع وطأته قدم الفتح العربى » (١٠) .

كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو المعلم الأول فى الاسلام ، وكان هو أيضا الحاكم الأول ، وحيث أن الرسول هو المثل الأعلى ، كان على من يأتى بعده أن يتولى نفس المهام التى كان عليه توليها . ولذلك فالخليفة هو الحاكم السياسى ، وهو فى ذات الوقت الامام الروحى ، ومسئوليتهم عن تعليم شعوبهم ، نابعة من كون امامهم الأول ، الرسول ، كان هو المعلم الأول . والمسئولية ايضا فى هذا المجال ، هى مسئولية كل

---

(٥) الآجرى : ابو بكر بن الحسين ، اخلاق العلماء — القـاهرة ، ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م .

(٦) آل الشيخ : عبد الرحمن بن حسن ، فتح المجيد ، وشرح كتاب التوحيد — الرياض .

(٧) ابن عبد البر : أبو عمر يوسف ، جامع بيـان العلم وفضله — القـاهرة .

(٨) ابن جماعة : بدر الدين ابراهيم بن جماعة ، تذكـرة السـامع والمتكلم فى أدب العـالم والمتعلم ، حيدر آباد ، ١٣٥٣ هـ .

(٩) الغزالى : ابو حامد ، احياء علوم الدين ، جـ ١ ، بيروت .

(١٠) سليم طه : التعريب وكبار المعربين فى الاسلام ، ص ٣٣٩ ، مجلة سومر ، جـ ١ و ٢ ، المجـلد ٣٣ عام ١٩٧٦ .

من تولى الحكم سواء كان خليفة أو أميرا أو مجرد حاكم فى منطقة ما . تلك هى القاعدة ، ولكن الخلاف هنا فى ممارسة هذه المسئولية ، وان كانت الممارسة قد تباينت من فترة الى أخرى ، ومن اقليم الى آخر .

واذا ما كانت الأحداث السياسية أو غيرها ، قد حجب مسئولية الحاكم عن العملية التعليمية ، أو أن الحكام فى فترة من الفترات أهملوا هذا الواجب الدينى، فان ذلك لا يعنى انتفاء المسئولية أوعدم وجودها .

واذا كان الرسـول قد مارس التعليم ، بمعنى تعليم الاسـلام للناس ، الا أنه أعطى لهذا المعنى بعدا آخر تتجلى فيه مسئولية الحاكم تجاه تعليم شعبه ، أقصد بذلك أن الرسول عليه السلام قد جعل تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فداء لأسرى معركة بدر[11] .

وفى البلاد العهد الحديثة بالاسلام ، تتجلى مسـئولية الحاكم فى هـذا المجال فعليه مسـئولية تعليم الناس قواعد الدين الجـديد ، ولا يقتصر الأمر على الحاكم فقط ، وانما يتعداه الى كل مسلم عالم ، الى كل انسان يمكن له أن يعلم ، فـ « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » [12] . ولعل ذلك يعطينا تفسيرا لتلك العملية المعقدة التى تنقلها الينا كتب التراجم والتى تصور لنا حلقات التعليم ، ومجالس المناظرة ، وجلسـات المعلمين وكأنها خلايا نحل ، لا ينفض الطلبة من حولهـا . وحرص الناس ، من كافة الطبقات على أن يكون معلما أو متعلما وعلى

---

(١١) الداودى : كتاب الأموال ، المخطوط رقم ١١٦٥ الأوسكوريال ، الورقة ٣١ .

محمد عبد الحميد ، تدخل الدولة فى نظام التعليم بالأندلس (محاضرة لم تنشر) ، وانظر التعليق على هذه المحاضرة بمجلة « افريكا » بقلم الأستاذ ماريانو أروبياس ، ص ٩١ ، العدد ٤٣٥ لسنة ١٩٧٨ م .

(١٢) مسلم : صـحيح مسلم ، الامارة ٢٣ ، خوسـتيل ، هـداية الرجراجى ، رسالة دكتوراه ١٩٧٤ ، ص ٢٢ .

أن يقول لغيره ما يعلمه وما سمعه ، وأن يسمع من ذلك أيضـا ما يعلمه وما يسمعه ، امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم فى وصية له لابن عمه على بن أبى طالب ، حيث يقول : « يا على ، كن عالما ، أو متعلما ، أو مستمعا ، ولا تكن الرابع فتهلك » (١٣) •

وقد اصطبغت العملية التعليمية فى هذه الفترة المبكرة ، بالطابع الدينى ، أى أنها أهتمت بالعلوم الدينية ، وتعليم الناس الدين الجديد•

هذه هى القاعدة العامة — على ما أرى — فى كافة بلاد العـالم الاسلامى والتى حكمت أيضا المنهج والمحتوى التعليمى الذى يجب أن يسود هذه الفترة المبكرة جدا ، من تاريخ التعليم فى الاسلام •

ولكن الأمر لم يستمر على ذلك مدة طويلة ، لأن الاسلام ، انتشر بصورة سريعة جدا فى مناطق ذات حضارة قديمة ، فقد تمكن من افتتاح بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا غربا ،وبلاد العراق وفارس ومنطقة وسط آسيا حتى حدود الصين شرقا • نعم انتشر الاسلام بسرعة غريبة ، وفى فترة لا تزيد على قرن واحد من الزمان على مساحة واسعة جدا من الأرض ، معمورة السكان ، قديمة الحضارة ، ولها صلة واسعة بالعلم والتعليم من قبل الاسلام ، بل لها علومها الخاصة بها التى كان لابد وان تتفاعل مع العلوم الجديدة ، وتؤثر فيها أيضا • لأن العرب قد أقبلوا على ترجمة هذه العلوم الى اللغة العربية ، مما جعل المنهج التعليمى يمتد ليشتمل على علوم عقلية وفكرية وفلسفية مختلفة •

---

(١٣) من وصايا النبى لابن عمه على بن ابى طالب ، المخطوطة رقم ١٨٧٤ ، مكتبة الأوسكوريال — وجه الورقة رقم ٣ ، وانظر ايضا الترجمة التى نشرها لهـذه الوصايا الدكتور براوليو خوستيل بمجلة « مدينة الله » الأوسكوريال ، العـدد (١) المجلد ١٩٢ عام ١٩٧٩ ، والبسيوى : مختصر البسيوى ، ص ٧ •

ان ظاهرة السرعة التى تمت بها الفتوحات الاسلامية خارج شبه الجزيرة قد حيرت كثـيرا من المعلقين والمؤرخين حيث أجمعوا تقريبا على ارجاعها الى العامل الاقتصادى أو لعامل المفاجأة أو لأية عوامل أخرى[١٤] . ولكن أحدا ــ من غير المسلمين ــ لم يعط أهتماما الى الجانب الروحى فى عملية التوسع الإسلامى . لقد سـبق لى القول بالتكليف الدينى لعملية التبليغ ، وتعليم الآخرين الدين الجديد ، وهو عامل حاسم وهام دون اهمال للعوامل الأخرى السياسية والاقتصادية . ويلخص الدكتور « محمد غلاب » المرحلتين الفكريتين اللتين سبقت الاشارة اليهما بقوله :

« يعرف جميـع المثقفين أن الأمة العربيـة وثبت الى الأمام بعد الاسلام وثبتين هائلتين ، احداهما على أثر اشعاع القرآن فى جنباتها ،

---

(١٤) انظر فى ذلك ــ على سبيل المثال ــ بعض الأعمال التاريخيـة مثـل :

ــ لويس سواريث فرنانديث ، مجمل التاريخ العالمى : جـ٣ العصور الوسطى ، ط ٢ مدريد ١٩٧٢ .

Suarez Fernandez; Manual de Historia Universal Tomo 111, Edad Meia.

ــ وانظر ايضا فى هذا المجال المؤرخ الاسبانى « رافائيل التاميرا » فى كتـابه :

Altamira, Historia de Espafia y de la Civilzaciòn Espafiola, Madrid, 1913.

ــ اميليو متر : اسبانيا العصور الوسطى .

Mitr; Emilio : La Espafia Medieval.

ــ خوان بيرنيت : « المسلمون الاسبان » .

Juan Vernet : Los Musulmanes Espafioles.

ــ خاكيس هير : « تاريخ العصور الوسطى » .

Jacques Heer : Historia de La Edad Media.

ــ انطونيو بيلستروس : هيكل عام لتاريخ اسبانيا .

Ballesteros y Berelta : Sintesis de Historia de Espafia.

النظر فى الكون العام ، وفى النفس الانسانية ، وفى الأسباب والمسميات فأنارهـا بعد ظـلمة ، وهـداها بعد حـيرة ... نبه القـرآن فكان مصـباحا أنار لمعتقـديه سبيل الحكمة ، فاخذوا ينتجعونها ويتطلعون اليها فى شوق وشغف ففازوا منها بحظ وافر . هذه هى الوثبة الأولى، أما الثانية فقد كانت بعد نقل الحكمة والعلوم الأجنبية الى العربية»(١٥). ثم بعد ذلك ينتقل الى تفصيل أنواع الدراسات المنبثقة عن القرآن ، وعن العلوم الأخرى . وليس ذلك مجالنا الآن . فلنعد الى أسبانيا . لنرى كيف انطبق ذلك عليها فى الناحية التعليمية ، وماذا تفردت به داخل هذا الاطار العام .

(ب) التعليم فى عصر الولاة (٩٥/١٣٨ هـ — ٧١٤/٧٥٦ م) :

ويبدأ عصر الولاة فى أسبانيا الاسلامية ، بعد الفتح الاسلامى ، وعودة القائدين (موسى بن نصير وطارق بن زياد) الى دمشق ، وتعيين الأمير عبد العزيز بن نصير ، واليا على الأندلس فى عام ٩٥هـ — ٧١٤م ، الى تولى الأمـير عبد الرحمن بن معاوية ، المعروف بالداخل مقاليد الحكم فى قرطبة عام ١٣٨هـ — ٧٥٦م .

وتتميز هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام فى أسبانيا ، بالصراع الدموى بين القبائل العربية ، وبين العرب والبربر ، علاوة على أنها فترة تثبيت الاسلام فى أسبانيا . وعلى الرغم من ذلك ،فاننا يمكن أن نتبين بعض ملامح الحركة التعليمية فيها .

يتفق المؤرخون على أن الجيوش الاســلامية التى توجهت لفتح شمال أفريقيا وبعدذلك توجهت لفتح الأندلس كانت مصحوبة بمجموعةمن الصحابة والتابعين ، وخاصة التى فتحت شـمال أفريقيا . أما تلك الجيوش التى دخلت الأندلس ، فمن المشكوك فيه كثيرا جدا أن يكون

---

(١٥) محمد غلاب : المعرفة عند العرب ، ص ٣٨٦ .

قد رافقها أحد من الصحابة ، أما التابعون ، فلاشك فى عبور بعضهم — يحددهم لنا المؤرخون بأعداد مختلفة ، ولا يتفقون على رقم معين فى هذا المجال ومنهم :

محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى .

حنش بن عبد الله الصنعانى .

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى .

زيد بن قاشد السكسكى المصرى .

موسى بن نصير [١٦] .

كما أن هناك عددا آخر من التابعين قد دخلوا الى الأندلس .

ووردت أسماؤهم فى مدونات أخرى ، حيث يذكر « أن موسى بن نصير قد سار الى الأندلس فى عشرة آلاف فارس ، وكان معه من التابعين — رضى الله عنهم — حنش بن عبد الله الصنعانى ، وأبو عبد الرحمن بن عبد الله الجبلى وعبد الرحمن بن شماسة المصرى ، وأبو النضر جيان بن أبى جبلة فى عشرين رجلا منهم » . ويؤيد ذلك الحميدى بملاحظة يقول فيها ، أن عبد الملك بن حبيب (١٧٩ — ٢٣٨هـ/ ٧٩٦ — ٨٥٣م) — يؤيد ذلك العدد بقوله « ودخل الأندلس من التابعين سوى من لا يعرف — نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم ، أتى موسى بن نصير » [١٧] .

---

(١٦) ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ، جـ ٣ ، ص ٥٧ ، ٥٨ .
(١٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٧ .
ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٦ ، ص ٨١ و ١٩٥ .
ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ .
المراكشى : عبد الواحد ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٨ .
مجهول المؤلف : وصف جغرافية الأندلس . المخطوطة رقم ٣٦ بالمعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد .
الأوسى : حكمت على ، فصول فى الأدب الأدنلسى ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
مؤنس : حسين . فجر الأندلس ، التعليقات ، ص ٩١ .

وملاحظة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » ، تبين أن هناك غيرهم آخرين قد دخلوا الى الأندلس • وربما دخـل الأندلس بعد الفتـح مجموعة أخرى من التابعين •

ولقد كانت المهمة الرئيسية لهؤلاء التابعين هى تعليم الناس الدين الاسلامى واللغة العربية • ومن هنا يمكن القول بأن التعليم قد بدأ فى الأندلس مع الفتح مباشرة ، وان اتسم بطابع القلة والبساطة وتركز فى تعليم اللغة العربية والدين الاسلامى للسكان الجدد •

ويصف الدكتور (هيكل) هذه الفترة بأنها كانت شديدة التواضع وأن حلقات التعليم فيها « لم تتجاوز حلقات فى بعض المساجد ، التى كانت قليلة جدا حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين بطبيعة الحال »(١٨)•

ولقد بينت فى رسالتى الصغرى — بنوع من التفصيل — كيف أننا نجد بعض بدايات التعليم الأولى ، وبعض الاشارات الى ظهور المكاتب ، مبينا أن الفترة الزمنية لظهور المكاتب فى الأندلس تتجاوز السنوات العشر الأولى من تاريخ الفتح(١٩) •

ولم تقتصر علاقة الدولة بالتعليم فى هذه الفترة ، على قيـام هذه المجموعة من القادة الدينيين بالتعليم فحسب ، بل اننا نجد بدايات الاهتمام من الأمراء بالتعليم ، متمثلا فى الزيارة التى قام بها الصميل، لمعلم يعلم الأطفال ، ومناقشته اياه فى آية قرآنية ، كان المعلم يقرؤها للأطفال (٢٠) • وسأشير الى هذه القصة ، ضمن حديثى عن بعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم ، فى نهاية هذا الباب •

---

(١٨) هيكل : احمد عبد المقصود ، الأدب الأندلسى ، ص ٦٥ .

(١٩) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس منذ الفتح حتى الخلافة ، ص ٤٥ — ٤٩ .

(٢٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق عبد الله الطباع ، ص ٦٣ ، طبعـة كوديرا ، ص ٤٠ .

ولقد شهدت هذه الفترة ،قدوم دفعات جديدة من العرب ،بعضهم نتيجة صدى فتح الأندلس فى العالم الاسـلامى ، وبعضهم جاء ن القوات التى كان يرسلها حكام دمشق الى أسبانيا ، وبعضهم يدفعه الحماس الدينى للقيام بعملية تعليم اللغة ونشر الدين .

ولقد ساعد على ذلك أن بلاد الأندلس قد لقيت قبولا كبيرا من رب ، حتى أنهم شبهوها ببلادهم الأصلية ، والبلاد المجاورة لهم . قد نقل المقرى وصف البكرى (٤٣٢/٤٨٧هـ — ١٠٤١/١٠٩٤م) لا :

« الأندلس شامية فى طبيعتها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها ستوائها ، هندية فى عطرها وزكائها ، أهوازية فى عظم جبايتها ، صينية ، جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها » (٢١) .

ولقد شهدت أرض الأندلس فى هذه الفترة فى المجال التشريعى نتشار مذهب« الأوزاعى » (عبد الرحمن بن‌عمرو الأوزاعى ، ولد عام ٨ من الهجرة ٧٠٧ ميلادية ، وقضى معظم حياته فى سوريا ، وتوفى فى عام ١٥٧ هجرية ٧٧٧ ميلادية ودفن فى بيروت) ، الذى ساد وانتشر يسيطر على الحياة التعليمية فيها .

ويرجع الدكتور محمود على مكى أسباب احتلال هذا المذهب مكانا مؤثرا فى الحياة التعليمية الأسبانية الى « أنه خلال الفترات الأولى من حياة أسبانيا الاسلامية ، فان هذا البلد تابع‌بأمانة ، التقاليد والعادات الشامية فى كل مظاهر الحياة » (٢٢) .

---

(٢١) المقرى : أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض — جـ ١ ، ص ٦٠ ، ويمكن الاطلاع على ترجمة للبكرى فى كتاب تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس للدكتور حسين مؤنس ، ص ١٠٨ — ١٤٨ .

(٢٢) محمود على مكى : التيارات الثقافية المشرقية وأثرها فى اسبانيا الاسلامية ، ص ١٢٨ .

Makky, Mahmud : Ensayo Sobre Las Aportaciones Orientales En La España Musulmana y su Influencia en la formacion de la cultura.

ويدل على انتشار المذهب الأوزاعى ، بداية بعض الرحــلات من الطلبة الأندلسيين الى بلاد الشــام ، واســتمرار تدفق العلمــاء من المشرق الى الأندلس ، هذا ولقد أشار الدكتور محمود مكى تفصــيليا ضمن رسالته للدكتوراه ، التى قدمها لجامعة مدريد ، والمنشورة بالمعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، الى التيارات الثقافية المشرقية وتأثيرهــا فى تكوين الثقافة الأندلســية ، ومن المستحسن ايراد بعض الأســماء التى أوردتها كتب التراجم فى هــذا المجال تاركا لمن يرغب الاستزادة ، قراءة رسالة الدكتور محمود علىمكى — يقول الحميدىعن صعصعة بن سلام (توفى ١٩٢هـ / ٨٠٩م) « أندلسى فقيه ، منأصحاب الأوزاعى ، وهو أول من أدخل الأندلسمذهب الأوزاعى » (٢٣) .

هذا ولقد عاش هذا المذهب بعد ذلك فى الأندلس فترة طويلة رغم سيادة المذهب المــالكى على عهد الامارة ، حيث نجد « زهير بن مالك البلــوى (٢٥٠هـ / ٨٦٤م) من أهــل قرطبة كان فقيهــا على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية » (٢٤) .

أما عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق ، فكان يغلب عليــه « مــذهب الأوزاعى وكان الأغلب عليــه الفقــه ولم يكن مــن أهل الحديث » (٢٥) .

كما أنه لا شك أن هذه الفترة قد شــهدت جهودا كبيرة فى نقل علوم اللغة العربية والدين الاسلامى الى أســبانيا ، مما أمكن له أن يترك آثاره على الفترات الزمنية اللاحقة ، والتى شهدت نهضة ثقافية

---

(٢٣) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٧ .

(٢٤) ابن الفــرضى : علمــاء الأندلس ، ص ١٨١ ، والحميــدى ، ص ٢٠٥ .

(٢٥) ابن الفــرضى : علمــاء الأندلس ، ص ٢٢٥ ، والحميدى ، ص ٢٦٣ .

عامة خلال عصر الامارة ، ومما يفسر لنا وجود عـدد كبير من الفقهاء والعلماء على عصر عبد الرحمن الأول وخلفائه(٢٦) .

ويمكن القول باختصار أن التعليم فى هذه الفترة ، قد اتجه أول ما اتجه الى تعليم الكبار ، حيث بدأ بهم ، يعلمهم اللغة العربية والدين وبعد ذلك بدأ ظهور المكاتب لتعليم الأطفال .

(جـ) عصر الامارة (١٣٨ — ٣١٦ هـ ، ٧٥٦ — ٩٢٩ م) :

اضطربت الأمور فى الدولة الأموية وسـقطت فى عـام ١٣٢هـ / ٧٥٠ م ، وقامت مقامها دولة جديدة هى الدولة العباسية . وحيث أن الصراع بين الأسرتين الأموية والهاشـمية صراع قـديم ، فان تولى احداهما السلطة كان يعنى بالنسبة للأخرى المطاردة والحرمان .

ولقد كان وصول الأمويين الى السلطة ، بعد مقتل على بن أبى طالب يعنى حرمان أسرة بنى هاشم ، وخاصة أبناء على بن أبى طالب، من حق كانوا يطالبون به باستمرار ، وطاردهم الأمويون بكل العنف والقسوة، مما تسبب فى اتحاد كلمة الأسرة الهاشمية فى العمل على القضاء على الأمويين وساعدهم على ذلك جمهور كبير وخاصة موالى الفرس حتى تمكنوا من اسقاط الدولة الأموية ثم انفرد العباسـيون بالحكم دون العلويـين ، وتولوا مهمة القضـاء المبرم على الأسرة الأموية . قـام العباسيون بتلك المهمة بكل جد ونشاط ، وحاولوا بكل الوسائل التخلص تماما من الأسرة الأموية ، مما تسبب فى هربهم وتشتتهم واختفائهم فى كل مكان .

وانصب الاضطهاد أيضا على أنصار الدولة الأموية ، وعلى كل

---

(٢٦) أنظر بعض التفصيلات عن الحياة الاجتماعية والثقافية فى كتاب « الدكتور حسين مؤنس عن فجر الأندلس » .

من كان يعمل فى خدمتها ، مما تسبب أيضـا فى هروب واختفاء عناصر كثيرة من هؤلاء .

ومن الذين تمكنـوا من الهرب ، الأمـير عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل أو بعبد الرحمن الأول (١١٣/١٧٢هـ — ٧٣٢/٧٨٨م) ذلك الأمير الذى تمكن بسياسـته وصبره ، وحسن تدبيره أن يصـل الى الحكم فى قرطبة وأن يؤسس لبنى أمية دولة فى الأندلس ، تعمل على أن تضم بقايا من نجا من الموت من الأمويين .

وليس هنا مجال الاسـتطراد فى سرد الأحداث التاريخية التى أدت وتلت سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، ولا كيفية اعادة ارساء قواعد دولة أموية جديدة فى الأندلس ، لأن ذلك الموضوع عالجه كثير من كتب التاريخ وكتب فيه المؤرخون سـواء من العرب أو من غير العرب . وما يهمنى فى هذا المجال ابراز نقطة أعتبرها هامة ، وكان لها تأثيرها على المستقبل الثقافى والعقلى فى الأندلس فيما بعد .

يجمع كثير من المؤرخين على أن الدولة الأموية كانت دولة عربية أى أن عمادها كانوا العرب بينما الدولة العباسية كانت دولة اسلامية . أى أن عمادها كانوا المسلمين . وحيث أن أنصار الدولة الأولى كانوا نتيجـة لذلك من العناصر العربية الصرفة ، فان مطـاردة العباسـيين انصبت على جانب كبير من العرب — صنائع وموالى الأمويين ، ممـا جعلهم يهربون الى مكان لا تصل اليهم فيه يد العباسيين .

ان نجـاح عبـد الرحمن الداخل فى الوصـول الى الأندلس . وتأسيس دولة هناك ، فتح الباب على مصراعيه أمام هؤلاء الفارين . لكى يجدوا عنده المـلجأ والأمان . وساعد ذلك على هجرة المزيد من المشرقيين ، بكل ما يحملونه من علوم ومن حياة اجتماعية ومستوى ثقافى،

الى الأندلس مما قدم زادا جديدا للثقافة وللحياة التعليمية على أرض الأندلس ، ويشاركنى فى ذلك بعض الكتاب حيث يقول أحدهم :

« وليس من شك فى أن شعلة الثقافة الأندلسية قد ذكت عندقدوم كثير من الأمويين وأشـــياعهم الذين كانوا على قدر كبير من الثقافة . وليس من شك أيضا فى أن وفودهم على الأندلس ، وطأ للثقافة سبيل الانتشـــار والذيوع » (٢٧) ، ويقول آخـــر « ان من نتائج ســياسة عبد الرحمن الداخل ، أن أخذتوفود المهاجرينالأمويين تنثال على بلاد الأندلس لدعم الدولة الناشـــئة وتعزيزها ، وكون المروانيون ما يمكن أن نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص » (٢٨) .

لقد شهد حكم عبد الرحمن الداخل الكثير من المشاكل السياسية، وتميز بالحروب الكثيرة من أجل تثبيت سلطان بنى أمية فى الأندلس ، ولكنه لم ينس فى غمار ذلك كله ، أن يرتفع بمستوى شعبه وعاصمته الى درجة كبيرة ، فعمل على تأسيس المساجد والمبانى ، وانشاء عدد من الضواحى ، وان كان أهم ما قام به هو انشاء عدد كبير من المساجد وخاصة بدء بناء مسجد قرطبة الجامع ، الذى سيصبح فيما بعد أكبر منار للعلوم فى الغرب الاسلامى على الاطلاق . ومع التسليم بأن كل مســجد كان مركزا ومكانا للتعليم ، ومكانا لتدريس القرآن والســنة النبوية ، يمكننا أن نحكم على الحركة التعليمية على عهد عبد الرحمن الداخل بأنها حركة نشطة وحية . قال بعض من أرخ للأندلس :

« انتهت مساجد قرطبة علىأيام عبد الرحمن الداخل الى أربعمائة

---

(٢٧) الريسونى : الأدب النسوى فى الأندلس ، ص ١٠٦ .
محمـــد عبد الحميـــد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس — ماجستير (لم تنشر) ، ص ٤٩ .
(٢٨) جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ، ص ١٦ .

وتسعين مسجدا ، ثم زادت بعد ذلك كثيرا » (٢٩) •

ولقد اهتم عبد الرحمن بالقادمين الى الأندلس ، وجعل ديوانا خاصا لهم حيث يقص علينا صاحب كتاب (أخبار مجموعة) أنه : « كتب الى عبد الرحمن بن معاوية بعض من وفد عليه من قريش ، يستفسره فيما يجريه عليه » (٣٠) •

اهتم الأمير عبد الرحمن كثيرا بالعلماء وعلماء الدين ، وتقدمت الدراسات على عهده تقدما كبيرا ، وزادت الرحلات الى المشرق من الذين أتموا تعليمهم الأولى فى الأندلس وظهرت فى مجالس التعليم فى القيروان والاسكندرية والفسطاط ، ودمشق وبغداد ، ومكة والمدينة ، أسماء طلبة من الأندلس ، خرجوا أساسا للعلم ولأداء فريضة الحج ، فجذبتهم المجالس العلمية فى المدن التى مروا بها ، فجلسوا يتعلمون ، ويكتبون الكتب ، ويحملونها معهم أثناء عودتهم مع ما يمكنهم الحصول عليه من الكتب المكتوبة فى البلاد التى مروا بها •

ويمكن القول بأن عدد الطلبة الذين تعلموا على عهد عبد الرحمن الداخل كان كبيرا جدا ، لأن هؤلاء استطاعوا أن يتحكموا فى الدولة تماما على عهد الأمير هشام (١٧٢ ــ ١٨٠ هـ /٧٨٨ ــ ٧٩٦ م) وأن يثوروا فى سنة ٢٠٢ هـ/٨٠٨ م ، ثورة عنيفة على الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضى (١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ/٧٩٦ ــ ٨٢٢ م) ، فاذا تذكرنا أن حكم هشام قد استمر حوالى ثمانى سنوات ، وأن هذه الثورة وقعت فى نهايات حكم الأمير الحكم ــ بعد حوالى اثنين وعشرين عاما من حكمه ــ أدركنا أن غالبيتهم قد بدءوا تعليمهم ودراساتهم ، على عهد عبد الرحمن الداخل الذى استمر حكمه لأكثر من ثلاث وثلاثين سنة •

---

(٢٩) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ، طبعة القاهرة .
(٣٠) مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٦ .

واذا كان عهد عبـد الرحمن الداخـل على الرغم من اتسـامه لاضطرابات والمشاكل السياسـية ، قد وجـدت فيه هذه البدايات تعليمية الحسنة ، فانه استطاع أيضا أن يمهد الطريق لفترة سلام ازدهار طيبة على عهد ولده هشام الذى حكم خلال المدة من ١٧٢ الى ١٨ هـ (٧٨٨/٧٩٦ م) •

يجمع كثير من المؤرخين على أن الأمير هشام قد نهض بمدينة رطبة ، فعمل على تجميلها ، وزينها بالحـدائق والبسـاتين والمبانى جميلة ، وزاد فى مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد فى أنحـاء لبلاد ، وعنى بنشر اللغة العربية وتدريسها (٣١) •

ويصف سانشيث البرنوس الأمير هشام بأنه : « ورع ، عادل وان كان قليل السلطة ، ليس بالفتى المنتظر لاكمال عمل والده عبدالرحمن الداخل ، الجسور القاسى ، وعلى الرغم من ذلك فان هشام أظهر حزما ونشاطا فى مواجهة المشاكل التى واجهت خلافته لأبيه • وخالف بعض ما فطر عليه فى مواجهة أحـداث أدت الى تثبيت دولته ، وحيث أن الشعوب تحتاج الى فترات هدوء وراحة بعد الأحـداث الدامية التى تجتاحها زمنا من التاريخ ، فاننا نجد الأمير هشام ، بعد أن يقضى على تمرد اخوته والثائرين ، وبعد ثباته على العرش ، يعود ليؤكد تقواه وورعه الدينى • لقد اهتم بالجهاد ضد المسيحيين لكى ينشر كلمة الله

(٣١) انظر فى ذلك :
الحميـدى : جذوة المقتبس ، ص ١١ •
الحجى : عبـد الرحمن ، التـاريخ الأندلسى ، ص ٢٨٢ ، وكذلك ص ٢٨٧ •
عنـان : محمـد عبد الله ، دولة الاسـلام فى الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٢٩ •
غنيم : عبد الشافى ، محاضرات فى تاريخ المغرب والأندلس •

الواحد . لقد حاول أن يظلل قرطبة ، بل أسبانيا كلها دين الله الاسلامى، ودعا الناس للصلاة فى المساجد ، وكان عادلا جدا » (٣٢) . ولقدتعودعلى أن يرسل فى الليالى الباردة أكياسا من الدراهم للذين يمكثون فى المساجد، يعبدون الله سبحانه وتعالى .

وعهد هشام الرضى ، كما كان يسمى ، يعتبر فترة حاسمة فى مجال التعليم فى الأندلس ، فلقد كان الأمير نفســه ، مهتما اهتماما مباشرا بالعلماء والفقهاء مانحا اياهم كل ما يستطيع من حماية وتأييد ، وكان له ديوان أرزاق ، لتوزيع عطاياه ، حتى أنه « لم يقتل أحد من جنده فى شىء من ثغوره أو جيوشه ، الا وألحق ولده فى ديوان أرزاقه » (٣٣) .

ويقول عنه ليفى بروفنسال :

« ان تقاه وورعه واتساع ثقافته ، قد جعله يميل باستمرار الى التعامل مع فقهاء قرطبة الذين أتيحت لهم ، بمناســبة الحج ، زيارة الأماكن المقدسة الاسلامية .

ولقد شجع كثيرا خلال مدة حكمه ، زيارة مواطنيه ، لهذه الأماكن ، واهتم شخصيا بأن يعمل هؤلاء على أن يحضروا الى أسبانيا ، آخر ما وصلت اليه العلوم الاسلامية فى المشرق » (٣٤) .

انتشار المذهب المــالكى :

ولاينكر أحد اهتمام هشام بالتعليم والعلماء ، والحث على ذلك والى عهده ينسب انتشار المذهب المــالكى فى الأندلس وسيطرته على

---

(٣٢) سانشيت البرنوس : اسبانيا الاسلامية ، ص ١٤٧ .
Sanchez Albornoz : La Espania Musulmana, 1 ; 147.
(٣٣) مجهول المؤلف : اخبار مجموعة ، ص ١٢٠ .
(٣٤) ليفى بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، ص ٩٧ .

الحياه التشريعية والتعليمية • ولهذه الظاهرة أهمية كبرى ، خاصة على الحياة التعليمية فى مراحلها المتوسطة والعليا ، لأنه اذا كان صحيحا أن الوظائف فى الدولة قد قصرت على أتباع هذا المذهب ، فان ذلك يدفع بالجميع الى دراسة المالكية ، وبالتالى فان التأليف سوف يقتصر أيضا على هذا المجال ، مما يصبغ الحياة التعليمية كلها بالمذهب السائد فى الدولة ، ولنتوقف قليلا أمام انتشار المـالكية فى الأندلس •

تأسس المذهب المـالكى فى المدينة المنورة على يد مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩ هـ — ٧٩٥ م) ، الذى اتخذ من اجماع أهل المدينة ،أساسا لمذهبه ، ووضع كتابه المشهور « الموطأ » ، الذى يعد أساسا تشريعيا مهما فى الاسلام عامة ، وفى غرب الاسلام خاصة • ويذكر لنا القاضى عياض ثمانية عشر طالبا أندلسيا ، تتلمذوا على يد مالك وعاصروه (٣٥) •

أما أول من أدخل (الموطأ) الى الأندلس ، فالأمر يتـذبذب بين الغازى بن قيس (المتوفى ١٩٩هـ — ٨١٩م) (٣٦) ، وزياد بن عبد الرحمن، المعروف بشبطون (المتوفى ٢٠٤هـ — ٨١٩م) (٣٧) ، وأحدث الطبعات لكتاب (ترتيب المدارك) للقاضى عياض ، تذكر ثمانية طلاب تعاصروا فى تلقى العلم ، على يد مالك بن أنس (٣٨) •

---

(٣٥) اليحصبى : القـاضى عيـاض ، ترتيب المـدارك — جـ ١ ، ص ٨ ، ١٣ •

(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٠٥ •
ابن فرحون : الديبـاج ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ ، والطبعـة القديمـة ، ص ٢١٩ •
مكى : نفس المصـدر ، ص ١٦٣ •

(٣٧) ابن الفرضى : علماء الاندلس ، ص ١٨١ •
الحميـدى : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ •
مكى : التيارات الثقافية المشرقية ، ص ١٦٤ •

(٣٨) اليحصبى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٨ •
وعن انتشار المذهب المـالكى فى الأندلس ، انظـر دور الفقيه يحيى ابن عمـر الاندلسى فى المقـدمة التى كتبها الدكتور محمود على مكى لكتابه « احكام السوق » ، ص ٧٢ — ٧٧ •

ولكن الشخصية الكبرى ، التي يعزى اليها نشر الموطأ فى الأندلس، هى شخصية الفقيه القرطبى يحيى بن يحيى الليثى (متوفى ٢٣٤ هـ/ ٨٤٨ م) ، ثم شخصية عيسى بن دينار قاضى طليطلة (متوفى ٢١٠ هـ/ ٨٢٥م) • وتذكر بعض المصادر وفاته فى عام ٢١٢هـ / ٨٢٧م • يقول عنه ابن فرحون ، فى الديباج المذهب :

« كانت الفتيا تدور عليه ، لا يتقدمه فى وقته أحد فى قرطبة ، وكانت له فيها رياسة بعد انصرافه من المشرق ، وكان ابن القاسم — عبد الرحمن بن القاسم معلما مصريا مالكيا ، توفى ١٩١ هـ/ ٨٠٦ م) — يعظمه ويجله ، ويصفه بالفقه والورع ، وكان لا يعد فى الأندلس أفقه منه فى نظرائه ••••••• وهو الذى علم لأهل مصرنا المسائل ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى •

وبه وبيحيى انتشر علم مالك بالأندلس ورجعت الفتيا الى رأيه » (٣٩) • ويقول عنه الحميدى :

« انه كان قد أجمع فى آخر أيامه ، على أن يدع الفتيا بالرأى ، ويحمل الناس على ما رواه من الحديث فى كتب ابن وهب (١٩٧ هـ/ ٨١٢ م) وغيرها ، ولكن أعجلته المنية عن ذلك » (٤٠) •

يذكر ليفى بروفنسال ، تتلمذ عيسى بن دينار على مالك ، وينفيه

---

(٣٩) ابن فرحون : الديباج المذهب فى تاريخ اعيان المذهب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، ٦٦ •
حميدى : المصدر المذكور ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ •
ابن فرحون : نفس المصدر ، ص ١٧٨ •
(٤٠) الحميدى : نفس المصدر ، ص ٢٨٠ •
مكى : المصدر السابق ، ص ١٩٩ •
ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٧٨ •
مكى (محمود) : مقدمة كتاب أحكام السوق ، ص ٩٥ ، ٩٦ •

لدكتور مكى قائلا « أنه كان أصغر من يحيى ،ولذلك لم يتعرف على مالك» ،
« ومات عيسى سنة ٢١٢ هـ ، ومات الليثى سنة ٢٣٤ » .

ولكن القاضى عياض ، يذكر عيسى بن دينار ، بين الذين لم يروا مالكا بن أنس (٤١) .

ونتوقف قليلا أمام السؤال الهام الخاص بكيفية انتشار المذهب المالكى فى الأندلس — فهناك الكثيرون يرون أن الأمير هشام ،ومن بعده ابنه الحكم ، هما السبب المباشر فى انتشار هذا المذهب فى الأندلس — يقول ليفى بروفنسال :

« آنه فى الأعوام الأخيرة التى سبقت وفاة مالك بن أنس ، استمع عدد من طلبة الأندلس مثل زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن مضر وعيسى ابن دينار ، والفقية القرطبى الشهير ، ذو الأصل البربرى ، يحيى بن يحيى الليثى — هؤلاء الطلبة الذين ذكروا لمعلمهم ورع وتقوى أمير الأندلس ، قاموا بعد عودتهم بنشر مذهب مالك فى قرطبة وفى مدن الأندلس الكبرى ، وذلك بالموافقة الصريحة لأميرى بنى أمية هشام والحكم الأول » (٤٢) .

كما أنه يقول :

« انه اذا كان المؤلفون العرب ينسبون ، اما الى هشام ، أو الى ابنه الحكم ، المبادرة ، لكونهما فضلا نشر المذهب المالكى فى الأندلس ، وتبنياه مذهبا رسميا ، فالحقيقة فى المسألة أن كلا الأميرين قد ساهم فى انتشار المذهب المالكى ، وأن الثانى — أى الحكم — هو الذى

---

(٤١) اليحصبى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧ .
(٤٢) ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا — الترجمة الاسبانية ، جـ ١ ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

تقرر بعد أعوام قليلة من وفاة والده بأن يكون القضاء والوظائف الكبرى سواء فى قرطبة أو فى باقى أنحاء الأندلس ، لمن يقدمون فتواهم على هذا المذهب التشريعى الجديد » (٤٣) .

وتميل دائرة المعارف الاسلامية الى نفس الرأى قائلة بأن هشام « أول من استوعب فى أسبانيا تأثير المدرسة التشريعية والفقهية لمعاصره ، عالم المدينة مالك بن أنس ، ممهدا الطريق لفقهائها ، ومقدما لهم كافة المساعدات » (٤٤) ــ متفقة فى ذلك مع أورده صراحة القاضى عياض فى ترتيب المدارك (٤٥) .

لكن الدكتور محمود على مكى ينفى ذلك بشدة ، مرجعا الأسباب التى أدت الى انتشار المذهب المالكى فى الأندلس الى عوامل تطور طبيعية تستجيب لحاجات المجتمع الأندلسى الذى دخل مرحلة استقرار تختلف عن الفترة التى سبقتها والمليئة بالمشاكل والحروب ، وأن مذهب الأوزاعى كان يتلاءم مع الأجيال الأولى على أرض الأندلس ، ولكن مع نهاية حكم الأمير عبد الرحمن الداخل ، واسلام عدد كبير من سكان الأرض الأسبانية ، ومع السلام الذى ساد ربوع الأرض ، تجلت الحاجة الى تكوين فقهى وتشريعى ، يتناسب مع شعب مستقر ، وجيد التنظيم ــ ثم يستطرد الدكتور مكى بعد ذلك ، مجيبا على السؤال الهام :

لماذا اختار الأسبان المسلمون المدرسة المالكية فى الوقت الذى كانت فيه مدرسة أبو حنيفة (المتوفى ١٥٠هـ / ٧٦٧م) مزدهرة ؟

---

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٩٦ .
(٤٤) دائرة المعارف الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣١٨ « النص الانجليزى » .
(٤٥) اليحصبى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

ألخص اجابة الدكتور مكى فى هذه النقاط :

١ — لأن أغلبية العرب القاطنين فى أسبانيا قدمت من الشام ومن مصر وجالية كبرى من المدينة .

٢ — لحرص الأسبان المسلمين على الحج وحميتهم الدينية للتردد على الأماكن المقدسة .

٣ — انفصال السلطة فى الأندلس عن سلطة بنى العباس فى بغداد وتبنى العباسيين المدرسة الحنفية ، مما دفع الأندلسيين الى تبنى المالكية [٤٦] .

ويصر فى النهاية على أنه خلال عهد عبد الرحمن وابنه الأمير هشام لم يمارس المالكيون أية وظيفة من وظائف التشريع الكبرى فى الأندلس . أما عن الحكم الربضى ، فلم يكن هو الشخص الذى يفرض — بل ولا يفكر فى أن يفرض — المالكية ، كمدرسة رسمية فى الأندلس[٤٧] .

ومن الغريب هذا النفى الذى يقدمه الدكتور مكى ، فهو نفسه فى أكثر من موضع فى رسالته ، يعترف بأن عيسى بن دينار ، كان قاضيا على طليطلة ، وأن الفتيا كانت تدور عليه[٤٨] ، وأن « الغازى بن قيس » قد عاد الى أسبانيا ، فى بداية حكم هشام ، وأنه قد عين مشاورا ، مع القاضى مصعب بن عمران (انظر رسالة الدكتور مكى ، ص ١٦٣ ، ١٦٤) .

---

(٤٦) مكى : رسالته فى الدكتوراه المذكورة ، ص ١٥٤ — ١٥٨ .
وانظر الفصل الذى عقده الدكتور حسين مؤنس لانتشار المذهب المالكى فى الأندلس فى كتابه « فجر الأندلس » ، ص ٦٥٢ — ٦٥٥ .

(٤٧) مكى : الرسالة المذكورة ، ص ١٥٧ .

(٤٨) انظر فى ذلك : مقدمة الدكتور محمود على مكى لكتاب احكام

أما عن دور الأمراء فى نشر هذا المذهب ، فهو دور لا يشك فيه ، وان لم يكن بطريقة مباشرة ، فان مجرد موافقتهم وســماحهم للعلماء بالتدريس ونشر هذا المذهب يعتبر دورا وان كان غير مباشر • والقاضى عياض ينسب ذلك بصراحة مطلقة الى هشام [٤٩] •

ولقد شهد عهد الأمير هشام تشجيعا حقيقيا على التعليم ، واتخذ الأمير نفسه لأبنائه ، مؤدبين مشهورين بالعلم والخلق ، بل لقد وصل به الأمر ، أن سكن بعضهم فى داره ، كما حدث مع « مشمر بن نمير » ، الذى قدم الأندلس فى أيام هشام فضمه الى تأديب ولده ، وأنزله فى الدار المعروفة بسلار [٥٠] • كما أن هشام اختار لتأديب والى عهده الحكم عالمـا كبيرا هو وكيية بن ربيعة [٥١] •

والى هشام ينسب بناء عدد من المدارس فى الأندلس ، وحيث أن هذا الموضوع يحتاج الى مناقشة أوسع ، والى تفصيل كبير ، نتيجة لكثرة الخلاف حوله ، فاننى سأعالجه عند حديثى عن بناء المدارس فى الأندلس •

ولعـل تربية وتعليم الأمير هشـام نفسها يمكن أن تفسر لنـا اهتماماته العلمية ، ورعايته للعلماء والفقهاء على عهده ، حيث تجلت هذه الاهتمامات منذ صباه الباكر ، مما أعطى ثماره العذبة بعد ذلك — عند توليه مقاليد الأمور فى البلاد •

يحكى المستشرق الأسبانى « خوسيه انطونيو كوندى » أنه فى ذلك الوقت عرف الأمير هشـام بأريحيته وذكائه ، ممـا كان مبعث السرور لوالده ، الذى كان يميل اليه ، لبشاشته ومهارته •

---

(٤٩) اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ •
(٥٠) ابن الفـرضى : علمـاء الاندلس ، ص ١٦٦ •
(٥١) ابن الأبار : تكملة الصـلة ، ج ١ ، ص ٦٥ ، طبعة مدريد —

ولقد قام والده بتربيته على يد أفضـــل المعلمين فى ذلك الوقت حتى يؤهله لشئون الحكم ، وما يستلزمه من العدالة والانصاف •

« أمر عبد الرحمن الداخل ، بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمى للقاضى فى المسجد الجامع حيث أظهر الأميران نباهة ونجابة فى كل مناسبة من المناسبات » (٥٢) • •

أما على عهد الأمير الحكم فقد حدث صـــدام بينه وبين الفقهاء بسبب غيرته الشديدة على السلطة ، وزيادة تدخل الفقهاء ـــ فى شئون الحكم ، مما ترتب عليه قيام الفقهاء بالثورة على الحكم ومحاصرته فى قصره فى عام ٢٠٢ هـ/٨٠٨ م •

ولقد قضى الحكم بعنف وقسوة على الثورة ، وطرد عددا كبيرا ممن قام بها فسكن بعضـــهم مدينة فاس ، وارتحل قسم آخـــر الى الاسكندرية ، ثم منها الى جزيرة كريت حيث أسسوا دولة سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م ، استمرت ما يزيد على قرن من الزمان (٥٣) • وقد يعطينا ذلك فكرة عن كثرة عدد الفقهاء على أيام الحكم ، اذا ما علمنا أن القسم الذى اتجه الى الاســـكندرية كان يقدر بحـــوالى ١٥ ألف نازح من الأندلس •

وأصـــدر الحكم ، بعد ذلك ، عفوا عاما عن الشخصيات العلمية وخاصة الفقيهين ، طالوت ويحيى بن يحيى الليثى (٥٤) ، ثم عمل على

---

(٥٢) كوندى : خوسيه انطونيو ، تاريخ الحكم العربى فى اسبانيا ، ص ٥٥ •

Conde, Jose Antonio : Ho de La Dominacion de los de los Arabes en Espania p. 55.

(٥٣) ابن عذارى : البيـــان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٠ •
الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٤٢ •

(٥٤) انظر عن يحيى بن يحيى : كتاب تهذيب التهـــذيب ـــ ج ١١ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ •

تشجيع العلم والعلماء حتى أسلم الدولة بعد وفاته الى فترات تعد من أخصب فترات الدولة الأموية فى الأندلس ، ومن أزهى عصورها التاريخية والسياسية والثقافية ، أقصد بذلك العصر الذى تولى فيه الأمير عبد الرحمن الأوسط حكم البلاد .

يقول المؤرخون أن عصر عبد الرحمن الأوسط تتحكم فيه أربع شخصيات قوية تماما وكل واحدة منها تمثل جانبا من جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية فى الأندلس ، وهم الفقيه اللامع يحيى بن يحيى الليثى ، والحكيم عباس بن فرناس والموسيقى المغنى «زرياب» ثم زوجته الأميرة طروب .

والشخصيات الثلاث الأولى تمثل التوازن بين الاتجاهات الثقافية، التى أمكن لها أن تسود على عصر عبد الرحمن الأوسط . فالفقيه يحيى بن يحيى الليثى (المتوفى ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م) من أصل بربرى ، ولكنه كان ذكيا ، حتى سمى بعاقل الأندلس ، ويحكى لنا الحميدى سبب هذه التسمية فيقول عنه :

« كان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وكان سبب ذلك فيما يروى أنه كان بمجلس مالك ، مع جماعة من أصحابه ، فقال قائل : قد خطر الفيل ، فخرجوا ولم يخرج ، فقال له مالك : مالك لم تخرج لتنظر الفيل ، وهو لا يكون فى بلادك ؟ فقال له : لم أرحل لأبصر الفيل ، وانما رحلت لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك ، فأعجبه ذلك منه وسماه عاقل الأندلس واليه انتهت الرياسة فى الفقه فى الأندلس ، وبه انتشر مذهب مالك هنالك وتفقه به جماعة لا يحصون ، وروى عنه غير واحد، منهم أبناء عبيد الله ، واسحق ، وأبو عبد الله محمد بن وضاح ، وزياد بن محمد بن زياد ، وابراهيم بن قاسم بن هلال ، ومحمد بن أحمد العتبى ، وابراهيم بن محمد بن باز ، ويحيى بن حجاج ،

رق بن عبد الرحمن ... وغيرهم . وكان مع امامته ودينه ، مكينا
الأمراء معظما ، وعفيفـا عن الولايات ، متنزها جلت درجته عن
ضاء ، فكان أعلى وزرا من القضاة ، عند ولاة الأمر هنالك لزهده
القضاء وامتناعه عنه » (٥٥) .

ويستطرد الحميدى ناقلا عن الفقيه أبى محمد على بن أحمد قوله:

« مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبى
نيفة (توفى ١٥٠هـ / ٧٦٧م) ، فانه لمـا ولى القضاء أبو يوسف ،
انت القضاة من قبله ، فكان لا يولى قضاء البلاد من أقصى المشرق
لى أقصى أعمال أفريقية الا أصحابه والمنتمين الى مذهبه ، ومذهب
الك بن أنس عندنا ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السـلطان ،
مقبول القول فى القضاة ، فكان لا يلى قاض فى أقطارنا ، الا بمشورته
واختيـاره ، ولا يشير الا بأصـحابه ومن كان على مذهبه ، والناس
تسراع الى الدنيا والرياسة ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضـهم
به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ، ولا أجاب اليه ، وكان
ذلك زائدا فى جلالته عندهم ، وراعيا الى قبول رأيه لديهم » (٥٦) ، وفى
ذلك مظهر من مظاهر تدخل الدولة فى نشر مذهب تشريعى ، ودور هذا
الفقيه .

أما عن العالم عباس بن فرناس (توفى ٢٧٤هـ / ٨٨٧م) ، فان

---

(٥٥) الحميـدى : المصدر السابق ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
اليحصبى : ترتيب المدارك ، جـ ٣ ، ص ٣٧٩ — ٣٩٤ .

(٥٦) ترجمات يحيى بن يحيى الليثى كثيرة جـدا ، واكتفى بالاشارة الى :

الحميـدى : ص ٣٥٩ — ٣٦١ ، والديباج المذهب ، ص ٣٥٠ ،
والنفـح ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ ، والمقتبس لابن حيـان تحقيـق مكى ، ص
٨٣ ، ٨٤ .

المقارنة التى أجراها الأستاذ الدكتور عبد الشافى غنيم « أستاذ تاريخ الأندلس بتربية عين شمس » بينه وبين المغنى زرياب تعتبر أساسا متينا للحديث عن ذلك الرجل ، يقول :

«فى الواقع ،لا يمكن الحديث عن عصر عبد الرحمن الأوسط،بعيدا عن حياة زرياب وابن فرناس ، لأن الأول كان يمثل الجانب الذوقى والحسى فى فلسفة حكم عبد الرحمن الأوسط والحضارة الأندلسية بوجه عام ، والثانى كان يؤكد الجانب العلمى التقدمى ، والتطور الفكرى والعلمى فى الحضارة الأندلسية بوجه خاص » (٥٧) .

كان عباس بن فرناس اماما فى علم العروض ، « بل انه أول علماء العروض فى الأندلس على الأطلاق » (٥٨) ، كما أن ابن فرناس قد برع فى علوم الطبيعة والرياضة وشغف بالرياضيات ، حتى وضع فى سقف بيته قبة كهيئة السماء ، مثل فيها الأفلاك والنجوم والسحب ، حتى صارت معرضا يفد الناس اليه من كل مكان ، كما أنه صنع بتكليف من الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، آلة لرصد حركات الكواكب والنجوم ، كما كلفه الأمير بعمل آلات لمعرفة الأوقات ، فقام بانجاز آلة تعرف بها الأوقات ليلا ونهارا وأسماها المنقالة ، ورفعها الى الأمير مع هذه الأبيات :

ألا اننى للدين خير أداة   اذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ولم تبن   كواكب ليل حالك الظلمات

بيمن امام المسلمين محمد   تجلت لى الأوقات للصلوات

---

(٥٧) عبد الشافى غنيم : محاضرات فى تاريخ المغرب والأندلس — عصر الامارة .

(٥٨) عبد الشافى غنيم : نفس المصدر .

وله أيضا مجالات أخرى واسعة ، ليس المجال هنا لذكرها ، ولكنها تدل دلالة واضحة ، على الآفاق الفكرية والحضارية ، التى امتلأ بها عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذى وصل بالأندلس الى درجة كبيرة من الحضارة والرقى(٥٩) .

أما زرياب : أبو الحسن على بن نافع (١٧٣ — ٢٣٨ هـ/٧٨٩ — ٨٥٢ م) ، المغنى ، الموسيقى ، فقد بدأ حياته فى المشرق فى كنف العباسيين فى عصر الخليفتين العباسيين المهدى، وهارون الرشيد ، وقد تكاملت له كل أسباب النبوغ والتفوق ، فقد كان شديد الذكاء ، لطيف الحس ، عذب الصوت ، رخيم الأنامل . ولقد هاجر الى الأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان وصوله فى عام ٢٠٦هـ / ٨٢١م ، وخرج الأمير عبد الرحمن الأوسط لاستقباله بنفسه ، وما أن سمع غناءه وحديثه ، حتى شغف به ، فغمره بفضله وانعامه ، وأجرى عليه من الرواتب ، والأرزاق ، الشىء الكثير ، وقدمه على سائر المغنين .

وكان وصول زرياب الى الأندلس ، بداية عهد جديد من التطور الاجتماعى ، وخطوة حقيقية فى سبيل التقدم والازدهار ، لا فى مجالات الطرب ، والغناء ، والموسيقى فحسب ، بل فى مجالات النمو الاجتماعى والحس الذوقى ، والسمو بالآداب ، ومختلف مظاهر السلوك ،حيث جلب زرياب الى الأندلس ، آخر ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية ، من تطور فى المشرق ، مغيراً تلك الحياة العسكرية الجافة ، التى صبغت بلاد

---

(٥٩) انظر ترجمة عباس بن فرناس الواردة فى : الحميدى ، ص ٣٠٠ . وابن حيان : المقتبس ، نشر ميلتشور انطونيا ، ص ١٤٤ ، ونشر محمود على مكى : التعليقات ، ص ٥١١ ، والمقرى فى نفح الطيب ، جـ ١ / ١٣٣ ، ٤ / ١٢٩ . الضبى : البغية ، ص ٤٣١ . ابن عبد ربه : العقد الفريد : طبعة سعيد العريان ٢٥٧/٥ . والثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١٦/٢ .

وكتاب « جايانجوس » تاريخ الأمة الاسلامية باسبانيا ، ص٤٢٦ ، الجزء الأول .

Gayangos The History of the Mohammedan Dynasties in Spain Vol. 1 ; p. 426.

الأندلس فترة طويلة ، حيث ظلت فيهـا حياة البداوة ، والخشـونة والجفاف ، الى نهايات القرن الثانى من الهجرة / الثامن الميلادى .

والحق أن زرياب قد قابل الجميل بالجميل ، وأخلص للأندلس أيما اخلاص ، وعمل على النهوض بالمجتمع الأندلسى لكى يصل به الى مستوى المجتمع العباسى فى بغداد ، مستفيدا من الحماية والتشجيع ، اللذين وفرهما له أمير الأندلس ، حيث يذكر بعض المؤرخين أنه قد جعل بين داره ودار زرياب ، بابا خاصا ، يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع ، وصوته العذب (٦٠) . ويذكر ابن حيان ، أن الأمير عبد الرحمن ، أنزله فى منية نصر (٦١) ، التى أخذت اسمها ، من اسم الفتى نصر ، كبير غلمان القصر ، وأكثرهم قربا الى الأمير ، والذى هلك فى محاولة سم الأمير عبد الرحمن ، بغرض نقل الحكم من بعده الى أبنه الأمير عبد الله ، ابن زوجته طروب (٦٢) .

وما من أحد كتب فى تاريخ الأندلس ، الا وأشـار الى الأهمية الكبرى لزرياب — ذلك الشرقى الذى استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة عن طريق : تحبيب هـذه الأمة فى الموسيقى ، وتنظيم أسلوب حياتها اليومى (٦٣) .

---

(٦٠) عبد الشافى غنيم : تاريخ الأندلس ، عهد الامارة .

(٦١) ابن حيـان : المقتبس ، طبعة مكى ، ص ١٣ .

(٦٢) بالنسبة لمنيـة نصر ، انظر تعليق الدكتور محمـود على مكى فى ملاحظاته ، على كتاب المقتبس لابن حيـان — التعليـق رقـم ٥٦ ، ص ٤٣٤ ، وكذلك الروض المعطار ، ص ١٨٧ .
وبالنسبة لقصة الفتى نصر مع الأمير عبد الرحمن ، انظر :
ابن حيان : تحقيق مكى ، ص ٨ — ١٢ ، وانظـر ، ليفى بروفنسال ، تاريخ أسبانيا ، جـ ١ ، ص ١٧١ ، الترجمـة الأسبانية .

(٦٣) انظر عن حيلة زرياب وآثاره فى الأندلس :
ابن حيـان : المقتبس ، تحقيـق محمـود على مكى ، ص ١٣ ، ٨٧ ، ٩٠ .

ولقد واجه عصر الأمير عبد الرحمن خطرا خارجيا ، تمثل فى هجمات النورمان على الأندلس — وقد قاموا بهجومهم الأول على الأندلس فى عام ٢٢٩ هـ ، الموافق ٨٤٤ م ، متجهين الى ناحية أشبيلية ، ويذكر لنا العذرى :

« أنه فى سنة تسع وعشرين ومائتين ، ورد كتاب وهب الله بن حزم ، عامل الأشبونه ، يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركبا للمجوس ، ومعها أربعة وخمسون قاربا . فخرجت الكتب الى العمال بالاحتراس (٦٤) . ولكن ذلك لم يمنع من أن يصل التطور الثقافى والعلمى ونمو الحركة التعليمية فى الأندلس ، حيث كان الأمير عبد الرحمن الأوسط ، على حد التعبير الوارد فى دائرة المعارف الاسلامية بأنه كان « راعيا وحاميا لكافة الفنون والعلوم » (٦٥) ، كما أن عهده عرف بعهد « السلام الطويل » (٦٦) .

= الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٩٥ . ولعل أطول ترجمة لزرياب ، ودوره فى الأندلس أوردها المقرى فى نفح الطيب ، جـ ٤ من ص ١١٧ — ١٢٩ — تحقيق محمد عبد الحميد .

ليفى بروفنسال : تاريخ أسبانيا ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ، الترجمة الاسبانية .

جارشيا غوميث : الشعر العربى الأندلسى ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
Garcia Gomez, Poesia Arabego Andaluza, p. 32.

احسان عباس : أخبار الغناء والمغنين فى الأندلس ، مجلة الأبحاث ، آذار ١٩٦٣ .

على راضى : الأندلس والناصر ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

جودت الركابى : الأدب الأندلسى ، ص ١٧ .

وانظر أيضا مقالة المستشرق الأسبانى « خوليان روبيرا » .
Ribera, J. : La Musica de las Cantigas.

(٦٤) العذرى : نصوص عن الأندلس ، ص ٩٨ — ١٠٠ .
ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٩ .
The Encyclopedia of Islam, Vol. 10, p. 53.

(٦٥) دائرة المعارف الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٥٣ (النص الانجليزى)

(٦٦) سواريث فرنانديث : لويس ، تاريخ أسبانيا ، ص ٣٤ ، ٣٥ .
Suarez : Historia de Espania.

ولقد عقد ابن حيان فصلا لذكر أولى النباهة فى دولة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، يمكن أن تظهر منه بعض ملامح التطور الثقافى والعلمى ، خلال هذه الحقبة (٦٧) .

ونختم الحديث عن عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بقول ابن القوطية :

« لقد سار فى الناس بخير سيرة ، والتزم اكرام أهل العلم ، وأهل الأدب والشعر فى دولته ، واسعافهم فى مطالبهم كلها » (٦٨) .

تولى الأمير محمد (٢١٧ — ٢٧٣ هـ/٨٣٢ — ٨٨٦ م) ، حكم الأندلس ، بعد وفاة والده الأمير عبد الرحمن فى عام ٢٣٨هـ / ٨٥٢م . حيث كان الأمير قد أوعز بذلك الى وزرائه وأهل خدمته ، ويقول ابن حيان : « كان الأمير عبد الرحمن قد كشف عن مذاهب ولده ، ولدا ولدا، وعجم أخلاقهم اختبارا فوجد محمدا منهم راجحا لهم بجلاله ، فاضلا باعتدال أحواله ، فأظهر تفضيله عليهم ، بعد علم منه بهم »(٦٩).ويصفه الحميدى ، بأنه كان محبا للعلوم ، مؤثرا لأهل الحديث ، عارفا ، حسن السيرة » (٧٠) .

والحقيقة أن عصر الأمير محمد ، قد شهد استمرارا لفترة الازدهار، التى سادت خلال حكم والده عبد الرحمن ، الا أنه كان أكثر ميلا للحرية ، فلم يمكن الفقهاء من سلطانهم المطلق ، بل أنه سمح بالقيام بتدريس علوم جديدة فى الأندلس ، مثل علوم الحديث . ولم يقصر الأمر على المدونة ، أو على تعاليم مالك بن أنس ، وموقف الأمير محمد من بقى بن مخلد ، يكفى للدلالة على هذه الحالة ، وأنقل هنا قصة هذا الفقيه مع فقهاء عصره والأمير محمد .

عاد الفقية بقى بن مخلد (توفى ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م) بعد رحلة طويلة

---

(٦٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٧٦ — ٨٨ .
(٦٨) ابن القوطية : افتتاح الاندلس — طبعة مدريد ، ص ٩٨ .
(٦٩) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ١٠٤ .
(٧٠) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١١ .

« بما جمع من العلوم الواسعة ، والروايات العالية ، والاختلافات الفقهية ، وغاظ ذلك فقهاء قرطبة ، أصحاب الرأى والتقليد ، الزاهدين فى الحديث ، العارين من علوم التحقيق ، المقصرين عن التوسع فى المعرفة ، فحسدوه ، ووضعوا فيه القول القبيح ، حتى ألزموه البدعة ، وشنئوه الى العامة ، وتخطى كثير منهم برميه الى الالحاد والزندقة ، وتشاهدوا عليه ، بغليظ الشهادة ، داعين الى سفك دمه ، وخاطبوا الأمير محمدا فى شأنه ، يعرفونه بأمره ، ويكثرون عليه بكل ما يرجون من الوصول الى سفك دمه ويسألونه تعجيل الحكم فيه ، فاشتد خوف بقى جدا ، واستتر خوفاً على دمه ، وعمل على الفرار من الأندلس ، ان أمكنه ذلك ، فأرشده الله الى التعلق بحبل هاشم بن عبد العزيز ، وسؤاله الأخذ بيده ، وكتب الى الأمير محمد ، ينشده الله تعالى فى دمه ، ويسأله التثبت فى أمره ، والجمع بينه وبين خصومه ، وسماع حجته ، فيأتى فى ذلك بما يوفقه الله له ، فألقى الله فى نفس هاشم الاحتفاء بشكواه ، والاعتناء بأمره ، فشمر له عن ساعده ، وأوصل كتابه الى الأمير محمد ، يشرح حاله ، فعطف عليه ، واتهم الساعين به اليه ، فأمر بتأمين بقى بن مخلد ، واحضاره مع الطالبين له فتناظروا بين يديه ، فأدلى بقى بحجته ، وظهر على خصومه ، واستبان للأمير حسدهم اياه ، لتقصيرهم عن مداه ، فدفعهم عنه ، وتقدم اليه بمطأطأة قدمه ، ونشر علمه ، وأمر بايصاله اليه فى زمرة الفقهاء ، والرفع من منزلته ، فاعتلى درة العلم ، ولم يزل عظيم القدر عند الناس ، وعند الأمير محمد ، الى أن مات رحمه الله » (٧١) .

---

(٧١) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ص ١٥٤ .
ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٨١ — ٨٣ .
ابن حيان : المقتبس : تحقيق الدكتور محمود على مكى ، ص ٢٤٥ — ٢٥٠ ، وكذلك ص ٢٦١ — ٢٦٥ .
هذا ، وقد وردت ترجمة : بقى بن مخلد فى معظم كتب التراجم ، واشير الى بعضها :
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٧٧ ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١١٦ .
الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٤٥ — ٢٤٧ .

ولقد عمدت الى اثبات هذه الرواية الطويلة ، لأن لها معنى خاصا فى العملية التعليمية ، حيث فتحت الباب على مصراعيه ، لانتشار علم الحديث فى الأندلس ، ذلك العلم الذى كانت له بدايات متواضعة ، بدأت منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، ولكنها لم تزدهر وتنتشر الا فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن . ويقول ابن الفرضى ، عن أثر بقى ابن مخلد : انه هو « الذى نشر حديثه ، وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ ، انتشر الحديث فى الأندلس ، ثم تلاه ابن وضاح فصارت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك ، حفظ رأى مالك وأصحابه » (٧٢) .

ويعترف المستشرق الأسبانى الكبير غونثاليث بالينثيا ، المتخصص فى الدراسات العربية ، بقيمة المحاولة ، التى كادت أن تكلف بقيا حياته ، فيقول :

« أما فى بقية صنوف الآداب ، فقد مضى الناس على ما قرره السلف من المناهج ، ففى دراسة الفقه ، مضوا على الأسلوب التقليدى ، ولم يشذ عن ذلك ، الا المحاولة الجريئة التى قام بها بقى بن مخلد ، عندما أراد أن يلقن الناس أصول مذاهب فقهية أخرى ، غير المذهب المالكى ، كالمذهب الشافعى مثلا ، وقد كادت جرأته هذه أن تكلفه حياته ، ولولا تدخل الأمير محمد بنفسه فى الأمر — استجابة لشكوى تقدم بها الفقهاء اليه فى أمر بقى — لما نجا هذا الأخير من هلاك محقق فقد أقر الأمير بقيا على التدريس كما يريد ، وأتاح الفرصة بذلك

= ومن الدراسات الحديثة : الأوسى : فصول من الأدب الأندلسى ، ص ٤٦ .

محمود على مكى : رسالته للدكتوراه المذكورة ، ص ٢٠٦ . ريبيرا : التعليم بين المسلمين الأسبان ، ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٧٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٨١ ، الديباج المذهب ، ص ٢٤٠ .

للمذهب الشافعى فى الأندلس » (٧٣) .

ويذكر ابن حيان ، أنه « كان من طباع الأمير محمد بن عبد الرحمن الأناة والحلم ، قد ظاهرهما على حليتى اليقظة والفهم ، وكان مكرما لأعلام الناس ، مقدما على طبقاتهم ، لذوى الفقه والعلم منهم ، يرفع مجالسهم ، ويزلف رسائلهم ويسعف رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من تحاسدهم ، والتوقف على السماع من بعضهم فى بعض ، ويسعى لاستئلافهم ، والاعراض عما يشاكسون فيه ، ولا يؤثر شيئا على السلامة منهم ، يعيد القول فى ذلك ويبدئه » (٧٤) .

ولذلك لم تكن حادثة بقى بن مخلد ، هى الحادثة الوحيدة التى تدخل فيها الأمير شخصيا لانقاذ عالم من علماء المدينة ، من سورة غضب الفقهاء . ومن تعصبهم الرافض لكل جديد — ويحكى لنا ابن حيان أيضا ، موقفه من العالم محمد بن عبد السلام الخشنى (المتوفى ٢٨٦ هـ/ ٨٩٨ — ٨٩٩ م) ، فيقول :

«لما سعى بالفقيه أبى عبد الله الخشنى ، الى ما نسب اليه ، فأدرج فى طى المطالبة معه ، وأخيف فى سجنه اخافة بقى ، التى أدتهالى الاستخفاء ، لم يقتد به فى ذلك لصرامته ، واباء نفسه ومناقبه ، وأبى أن يستخفى ، وقال : ما كنت أستخفى لقول الحق ، ولا أخشى فى الله أحدا ، وان أصب فى الله ، فطريق الخير سلك بى ، فميل فى الطلب عليه ، وأسىء القول فيه .

وكثر على السلطان فى شأنه حتى أمر محمد بن حارث ، متقلد أحكام السوق ، باحضاره ، ووقفه على ما ينسب اليه ، ومعرفة ما عنده. وكان ابن حارث ، متقلد أحكام السوق ، موصوفا بالأفن والجهالة ، فأحضر الخشنى معنوتا به ، فلما مثل بين يديه خشن سؤاله ، وقال له :

---

(٧٣) فونثاليث بالينثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، الترجمة العربية ، ص ٧٢٦ ، والنص الأسبانى ، ص ٢٦٨ و ٢٧٨ .

(٧٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٤٥ .

ايه يا عدو الله وعدو نفسه ! أأنت القائل ان فى القرآن ناسخا ومنسوخا؟ فقال الخشنى : ان الله تعالى يقول فى محكم كتابه : « ما ننسـخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها او مثلها » (٧٥). (فسالى عليه) سدلو قخشوما. (فعلم بذلك وليد بن عبد الرحمن بن غانم ، متولى المدينة) (٧٦). فدخل الى الأمير محمد ، فاعلمه بما أحدثه صاحب السـوق محمد بن حارث على محمد بن عبد السلام ، وحكى له قوله له . فضـحك الأمير محمد حتى وضع كمه على وجهه ، ثم قال : يا وليد ، لقد لقى الخشنى من ابن حارثنا عنتا . لكأنى أنظر اليه أعرابيا فى شمائه ، بدويا فى لهجته . يكلمه بما لا يفهمه . اخرج الساعة الى الجاهل المـائن ابن حارث . فعنفه أشد التعنيف وأعلمه أنه لولا عذرنا اياه ، لجهله بهذا الشأن الذى ليس بعذر لنا فى تولية مثله لعاقبناه على فعله . ومر باطلاق محمد بن عبد السلام . ثم اعتذر عنا اليه لمـا نيل منه ، وقل له فليطأمن جأشه . ويعمر مجلسه ، وينشر علمه » (٧٧) .

ولذلك كان الخشنى يبـدأ مجالس تعليمه ، بالدعاء للأمير محمد . ويختم هذه المجالس بالدعاء له أيضا على ما يذكر ابن حيان فى الصفحة المذكورة بها الجملة السابقة .

ويورد ابن حيان بعد ذلك ، روايات سابقيه من المؤرخين لهذهالقصة التى تلقى ضوءا باهرا على عدة قضايا ، قد أعود الى بحثها فى مجالات أخـرى (٧٨) لتشابهها مع ما أورده ابن القوطية عن القاضى « أمية بن

---

(٧٥) قرآن كريم : سورة البقـرة ١٠٦/٢ .

(٧٦) ما بين القوسين ، الأول وضعته ليستقيم الحديث لأنه ناقص من النص ، والثانى من تعليق الدكتور مكى فى ص ٢٥٢ ، من المقتبس .

(٧٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق مكى ، ص ٢٥٠ — ٢٥٢ .

(٧٨) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ — ٢٦٢ .

أما عن ترجمة محمد بن عبدالسلام الخشنى ، فانظر بالاضافة الى ذلك : الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٦٣ — ٦٥ . النباهى : قضـاة الأندلس ، ص ١٣ ، ١٤ . الضـبى : بغيـة الملتمس ، ص ١٠٣ . السيوطى : بغيـة الوعاة ، ص ٥٢ . المقـرى : نفـح الطيب ، ج ٣ ، ص ٦ ، ج ٥ ، ص ٩٧ . ابن حيـان : المقتبس ، نشر انطونيـا ، ص ٧ ، ٨ .

عيسى ــ أحد وزراء الأمير ــ واهتمامه بحادث تعليم الأسرى الموجودين بدار الرهائن ، وما لذلك من دلالة على تدخل الدولة فى التعليم » (٧٩) .

ومثال آخر على اهتمام الأمير محمد بحماية العلماء ، هو موقفه من الفقيه القرطبى قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار (المتوفى ٢٧٨ هـ/ ٨٩٠م) ، فقد رحل قاسم الى المشرق، وتعلم على يد أساتذة المذهب الشافعى هناك ، وحينما عاد الى الأندلس ، اصطدم بعقلية فقهاء المالكية المتمسكة بالتقليد والحفاظ على آراء من سبقهم ، وعدم قبولهم للتجديد، وقرر أن ينشر بين مواطنيه مبادىء المدرسة الجديدة ، عن طريق التعليم والتأليف ، ولقد تمكن من الحصول على حماية الأمير محمد الذى عينه وثائقيا خاصا به(٨٠) .

ونختتم الحديث عن هذا الأمير بما قاله عنه أقرب المؤرخين لعصره بأنه كان « مكرما لأعلام الناس من أهل العلم » (٨١) ، وكان «شغوفا بالابيان ، مؤثرا لأهل الآداب » (٨٢) .

ولقد أدى الاهتمام الذى بذله كلا الأميرين عبد الرحمن ومحمد الى ازدياد تطور الحركة الثقافية ونموها ، بحث أنه حينما تعرضت الأندلس لفترة طويلة من التمزق ، امتدت على مدار حكم الأمير عبد الله (من ٢٧٥ ــ ٣٠٠هـ/٨٨٨ــ٩١٢م) ، لم تتأثر هذه الحركة.ورغم أنها كانت أسوأ فترات حكم أسرة بنى أمية سياسيا ، الا أنها ظلت محتفظة بضوئها الثقافى والعلمى ، ويصف لنا المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان ، الجو العلمى والثقافى المحيط بالأمير عبد الله قائلا :

« كان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة ، وبعدها (يقصد قبل

---

(٧٩) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ــ تحقيق روبيرا ، ص ٩٤ .
(٨٠) المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ .
غونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأسبانى ــ النص الأسبانى ، ص ٢٧٧ .
(٨١) ابن القوطية : افتتاح الاندلس ــ طبعة مدريد ، ص ٧١ .
(٨٢) مجهول : أخبار مجموعة ، ط . مدريد ، ص ١٤٥ .

توليه الامارة وأثناء حكمه) ، أعمر مجالس الملوك بالفضائل ، وأنزهها عن الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الأدب والعلم » (٨٣) ، ثم يواصل الحديث قائلا : « كان فى مقدمة أصدقائه وجلاسه ، زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد بن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمـــد حتى الناصر ، وموسى بن محمد بن جرير ، المعروف بالزاهد ، وسعيد بن عمر العكى ، وعبيد الله ابن يحيى بن ادريس الخالدى ، وسعيد بن عبد ربه ، ابن أخى صاحب العقد ، وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب • وكان من أخص وزرائه فى تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمـــان الأديبان : عبد الملك بن جهور وعبد الملك بن شهيد • وكان من عادته أن يلجأ الى العلمـــاء وأهـــل الرأى : فى المشورة ، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجهه من أحداث وخطوب ، وكان بقى بن مخلد فقيه العصر ، وأعظم علمائه ، أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ، ويزوره فى داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه » (٨٤) •

ويشهد عصر الأمير عبد الله ، نوعا آخر من العلوم ينســـاب بين القرطبيين ، ويتعارض تعارضا شديدا مع عقلية فقهـــائه ، الذين كان يستشيرهم ويقربهم دائما • ظهر محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح (٢٦٩/٣١٩ هـ — ٨٨٢/٩٣١ م) ، الذى يعتبر أول فيلسوف أندلسى ، وكان « أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة ، على يد صديق لأبيه ، ونشأ محبا للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما • ومن العجيب أنه كان فى هذه السن المبكرة ، أستاذا له تلاميذ يعلمهم » (٨٥) •

وفى نص آخر ، يوصف ابن مسرة « بأنه أول مفكر أصيل أطلعه

---

(٨٣) نقل ذلك عن ابن حيان ، طبعة انطونيا ، ص ٣٤ — ٣٦ •
(٨٤) عنـــان : دولة الاسلام فى الأندلس ، ص ٥٦ •
(٨٥) احمـــد هيكل : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ •

الأندلس الاسلامى ، وكان يستر آراءه ، وراء نسكه وزهده ، وكان أبوه عبد الله من أهل البيع والشراء ، وكان يهوى آراء المعتزلة ، وكان صديقا لخليل الغفلة (انظر ترجمة خليل الغفلة فى علماء الأندلس طبعة القاهرة — ج ١ ، ص ١٦٥ — وطبعة مدريد ، ص ١٢٠ ، ١٢١) ، وهو الذى علم محمدا ، علوم الدين والفلسفة » (٨٦) .

ويبدو أن ابن مسرة ، قد بدأ فى تعليم مبادىء الفلسفة والاعتزال فى الأندلس واتخذ لذلك مقرا بعيدا عن الرقباء ، فى منزل له بجبل قرطبة ، ولكن الأراجيف والشائعات تناثرت ودارت حول طبيعة تعاليمه مما جعله يخاف على نفسه . ولقد قلت أن أسوأ فترات حكم الأسرة الأموية فى الأندلس ، كانت فترة الأمير عبد الله ، ولذلك فلقد رأى الأمير أن يسكت عن ابن مسرة وأتباعه ، خوفا مما قد يؤدى اليه من فتنة جديدة ، ولكن ابن مسرة اتهم بالزندقة ، « فخرج فارا ، وتردد بالمشرق مدة ، فاشتغل بملاقاة أهل الجدل ، وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الأندلس ، فأظهر نسكا وورعا ، واغتر الناس بظاهره ، فاختلفوا اليه ، وسمعوا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده ، وقبح مذهبه ، فانقبض من كان له ادراك وعلم ، وتمادى فى صحبته آخرون غلب عليهم الجهل ، فدانوا بنحلته » (٨٧) .

واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، «ففرقه تبلغ به مبلغ الأمانة فى العلم والزهد ، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامه فى الوعد والوعيد ، وبخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس ، الجارية على مذهب التقليد والتسليم » (٨٨) .

ولقد اعتبره الدكتور محمود على مكى « أول صوفى فى أسبانيا

---

(٨٦) غونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٣٢٧ ، ترجمة حسين مؤنس .

(٨٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٨٨) نفس المصدر ، ص ٣٣٨ .

الاسلامية » (٨٩) . وليس من شك فى انتشار تعاليم ابن مسرة ، انتشارا واسعا (٩٠) ، مما سبب قلقا للدولة ، على عهـد عبد الرحمن الناصر ، وسأشير الى ذلك عند حديثى عن عهد الخلافة (٩١) .

وهكذا تطورت الأمـور التعليمية ، على عهد الأمارة ، تطـورا كبيرا ، فتعددت مظاهر التعليم ، وزادت أماكنه ، وكثر عدد الطـلاب والمعلمين ، وينقل عن القاضى صاعد الطبقى (المتوفى ٤٦٢ هـ/١٠٧٠ م) قوله :

« ان هذه البلاد استمرت بعد الفتح لا يعنى أهـلها بشىء من العلوم ، الا بعلوم الشريعة ، وعلم اللغة ، الى أن تردد الأمر لبنى أمية ، فتحرك ذوو الهمم ، لطلب العلوم » (٩٢) .

ومن هذه المذاهب التى حاولت فى فترة مبكرة أن تجد لها أرضا فى الأندلس المذهب الشيعى ، وهذا المذهب بالذات واجه مقاومة عنيفة من الدولة ، لأنه يقوم على سلب بنى أمية حقهم فى الحكم ، ويقصر ذلك على آل البيت .

---

(٨٩) محمـود مكى : الرسالة المذكورة ، ص ٢٢٢ .
وانظر ايضا ترجمـة لابن مسرة نشرها « بدرو شالميتا » ، ضـمن تحقيقه للجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ، ص ٣١ .

(٩٠) انظر الكتاب الذى وضعه المستشرق الأسبانى آسين بلاثيوس عن ابن مسرة ومدرسته ، فى مدريد
Asin Palacios : Ibn Masarra y Su Escuela.

(٩١) انظر فى ذلك :
ابن حيـان : المقتبس — الجزء الخامس ، تحقيق بدرو شالميتـا ، ص ٣٥ .
محمـد عبد الله عنـان : السفر الخامس من المقتبس ، ص ١٣١ . (مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسـلامية — مدريـد ، العـدد ١٣ ، ٦٥ — ١٩٦٦) .

(٩٢) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد ، ص ٧ .

ولقد نشأ الفكر الشيعى ، بعد وفاة الرسول تقريبا ، وازدهر خلال الصراع بين على ومعاوية ، واستيلاء الأمويين على الخلافة فى المشرق ، ومحاولتهم التخلص من مطالبات الأسرة الهاشمية بالحكم ، واستطاع المتشيعون لعلى بن أبى طالب ، بالتحالف مع أبناء عمهم من بنى العباس، الاطاحة بحكم أسرة بنى أمية فى دمشق ، وفى هـذه اللحظـات تمكن العباسيون من الاستحواذ على السلطة وحدهم ، وعملوا على القضاء على الأمويين والعلويين على حد سـواء — مما دفع بأصحاب المذهب الشيعى الى العمل سرا ، حتى تمكنوا من تحقيق بعض النجـاح فى فارس وشمال أفريقيا ، وحاولو التسرب الى الأندلس — يقول الدكتور مكى : « ان الأمر لم يخل ، بكل تأكيد ، من ثورات ذات طابع شيعى ، ولكنها كانت مشتتة ، وقليلة النجاح » (٩٣) .

« ولقـد كان من بين هذه الثورات ، والمؤامرات الكثيرة ، التى تجرد عبد الرحمن الداخل للقضاء عليها بيد حازمة ، أخبار فتنة ، قام بها بربر الأندلس ، يقودهم معلم صبيان ، يسمى «شقيا» ، جمع بين الحماس الدينى ، والشعبذة ، وزعم أنه ينتسب الى على وفاطمة » (٩٤) .

ويوافق المستشرق الأسبانى ، غونثالث بالنثيا ، على أن ذلك ، كان القصد منه ، القضاء على محاولة ادخال الفكر الشيعى ، حين يذكر تلك القصة عند حديثه عن نشأة التفكير الفلسـفى فى الأندلس ، ويذكر : « وقد قضى بعنف على الحركات الأولى التى رمت الى التجديد فى ميدان الفقه ، خاصة ، وكان لها فى نفس الوقت طابع سـياسى ، ومن هذه

---

(٩٣) محمود على مكى : رسالته المذكورة ، ص ٣ .
وانظر مقال للدكتور محمود على مكى عن التشيع بالأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد — العدد ٢ (١٩٥٤) .
(٩٤) غونثالث بالينثيـا : تاريـخ الأدب الأنـدلسى ، ص ٣٢٣ ، و ص ٢٢١ من النص الأسبانى .
Gonzalez Palencia : Ho de la Literatura Arabigo. Espan-nola, pp. 22, 323.

الحركات تلك التى قام بها « شعيا بن شقيا » ، وهو مؤدب صبيان ، نحا نحو التعصب والشعبذة ، وزعم أنه من أبنـاء على وفاطمة ، وانتحى بناحيـة من شـنتبريه Santabria وقـد قضى عبـد الرحمن الداخل على هذه الثورة سنة ١٥٢ هـ/٧٦٩ » (٩٥) •

ويحدد الدكتور مكى القضاء على هـذه الثورة فيما بين سـنتى ١٥٠ ، ١٦٠ هـ/٧٧١ — ٧٨١ م (٩٦) •

ونشير أيضا فى هذا المجال الى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، من أهل وادى الحجـارة (توفى ٣٠٥ هـ/٩١٧ — ٩١٨ م) ؛ ذلك الرجل الذى « لم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه وهـو ضابط ، متقن ، حسن التوجيه للحديث ، صدوق » ، ولكنه لم يذهب مذهب مالك ، وكان « يزن بالتشييع لشىء كان يظهر منه ، فى حق معاوية رضى الله عنه » (٩٧) •

ومن المذاهب التى انتشرت فى الأندلس خلال هذه الحقبة ، ووجدت مقاومة من المذهب المـالكى ومن الدولة ، مذهب الاعتزال ، الذى بدأ فى العراق ، وانتشر فى الشرق ، حتى أصبح فى فترة ما ، المذهب الرسمى للدولة العباسية •

ولأسباب سياسـية ، ودينية ، واختـلافات فقهية فى كثير من

---

(٩٥) نفس المرجـع ، ص ٣٢٤ « النص العـربى » — ترجمـة د. حسـين مؤنس •

(٩٦) ابن حيـان ، المقتبس — طبعة القاهرة ، ص ٢٦٦ (تحقيق د. محمـود مكى) •

مجهول : اخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ •

(٩٧) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ . الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٩ ، الضبى : بغية الملتمس ، ص ٥٥ ، ابن حيـان : المقتبس ، تعليق الدكتور مكى رقم ٤٥٤ ص ٥٧٧ ، ومقالته عن التشيع فى الأندلس — مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسـلامية بمدريد ، العـدد الثانى — ١٩٥٤ م •

المسائل ، كان المذهب المالكى من أكبر أعداء المعتزلة ، من الناحية الفكرية ، كما كان الأمويون من أكبر أعدائهم فى الجانب السياسى .

ولم تعدم الأندلس بذورا للاعتزال على أرضها ، ومن أشهر معتزلى أسبانيا فى تلك الفترة ، خليل بن عبد الملك المعروف بخليل « الغفلة » أو « الغفلة » ، وهو من أهل قرطبة ، وكان مشهورا بالقدر لا يتستربه ، « ولما مات خليل ، أتى أبو مروان بن عيسى ، وجماعة من الفقهاء ، وأخرجت كتبه ، وأحرقت بالنار ، الا ما كان فيها من كتب المسائل » (٩٨) ، ولعل هذه هى أول مرة تحرق فيها كتب على أرض أسبانيا الاسلامية ، وسنرى كيف سيتكرر هذا الحادث مرات على مدار تاريخ هذه المنطقة .

ومن الغريب أن بقى بن مخلد ، الذى تعرض لمضايقة الفقهاء له ، كان من الذين هاجموا خليل ، وحرمه من حضور مجلسه ، بل انه هدده بسفك دمه « فقال له بعد سؤاله عن عدة آراء ، ومنها رأيه فى القرآن : والله لولا حالتك ، لأشرت بسفك دمك ، ولكن قم فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت » (٩٩) ، مما يبين لنا السيطرة التامة للمذهب المالكى ، ودرجة التعصب التى وصلت الى التهديد بسفك الدم ، مما دفع الى نشأة المدارس السرية ، تحت رايه ظاهرية من الزهد والتقشف على ما أشرنا اليه من قبل فى حالة ابن مسرة — أو الى التزام المنزل ، والبعد والتدريس ، مثلما حدث مع القرطبى «حسن بن سعد بن ادريس ابن رزين بن كسيلة الكنانى (المتوفى ٣٣٢هـ / ٩٤٣ — ٩٤٤م) ، «الذى كان يذهب الى النظر ، وترك التقليد ، ويميل الى قول محمد بن ادريس

---

(٩٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ « طبعة القاهرة » — و ص ١٢٠ ط . مدريد .
بالنثيا : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٢ من « النص الأسبانى » .
راضى : الاندلس والناصر ، ص ٢٠ .
(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ط . مدريد ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

الشافعى ، وكان يحضر الشورى ، ولما رأى الفتيا دائرة على مذهب المالكيين ، ترك شهودها ، ولزم بيته » (١٠٠) .

كما ظهرت فى هذه الفترة ، نحل ومذاهب أخرى ، لا أجد داعيا لذكرها لأنها حوربت محاربة شديدة ، وقضى عليها ، وظل المذهب المالكى سائدا ومنتشرا الى فترة طويلة ، ويصف ابن الخطيب حالة أسبانيا الاسلامية قائلا :

« أحوال هذا القطر فى الدين ، وصلاح العقائد ، سنية ، والنحل فيهم معروفة ، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس . امام دار الهجرة ، جارية » (١٠١) .

(د) عصر الخلافة :

يطلق اسم « عصر الخلافة » تجاوزا على عصر الخليفة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (٢٧٧هـ / ٨٩٠م — ٣٥٠هـ / ٩٦١م) ، ولكن من المعروف تاريخيا ، أن عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بعبد الرحمن الثالث ، تولى الحكم سنة ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، وعمره ثلاثة وعشرون عاما ، وظل ستة عشر عاما كاملة مستخدما لقب أمير فقط ، ولم يتسم بالخلافة ، واعتبارا من عام ٣١٦هـ — ٩٢٨م ، اتخذ الأمير عبد الرحمن الثالث لقب الخلافة ، وتسمى بالناصر لدين الله (١٠٢) — وليس هنا مجال الحديث عن التاريخ السياسى ، ولكن المهم الاشارة الى أن الأندلس فى عصر الناصر ، قد وصلت الى درجة

---

(١٠٠) ابن الفرضى : علماء الاندلسى ، ط . القاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٠١) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ١٣٤ .

(١٠٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٢٤١ ، شانشيت البرنوسى ، اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣١٥ ، سواريث فرنانديث : مجمل التاريخ العالمى ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ، وتاريخ أسبانيا ، ص ٦٩ .

من الاستقرار السياسى ، لم تعرفها من قبل ، بل انها وصلت الى قمة مجدها السياسى خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث ، وذلك ترك آثاره على كافة مجالات الحياة الأخرى •

وبالنسبة لمجال تشجيع العلوم ، والعناية بالتعليم ، على عهد عبد الرحمن الناصر ، فاننا نجد أنفسنا أمام فترة من الفترات التى تفخر بها الأندلس والتاريخ الأندلسى الى يومنا هذا ، فاننا نجد أنفسناأمام صفحة مشرقة من صفحات عبد الرحمن الناصر ، لا يمكن أن تنكر ، بل على العكس ، يعترف بها كافة المؤرخين ، من المشرق والمغرب على حد سواء •

اننا نجد على عهد الناصر ، وربما للمرة الأولى فى التاريخ ، ما يمكن أن نطلق عليه بالتعبير الحديث ، اسم « وزير الدولة للعلم » فلقد قام عبد الرحمن الثالث ، بعد مضى فترة من حكمه ، بندب ابنه الحكم ، ولى عهده ، للقيام بمهمة رعاية العلم والعلماء ، فى مملكته ، وأنقل ذلك عن صاعد الطبقى (توفى ٤٦٦ هـ/١٠٢٣ م) ، حيث يقول فى كتابه « طبقات الأمم » :

« ثم لما مضى صدر من المائة الرابعة ، انتدب الأمير الحكم المستنصر بالله ، ابن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وذلك فى أيام أبيه ، الى العناية بالعلوم ، والى ايثار أهلها ، واستجلب من بغداد ، ومن مصر ، وغيرهما من ديار المشرق ، عيون التآليف الجليلة ، والمصنفات الغريبة ، فى العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها فى فى بقية أيام أبيه ، ثم فى مدة ملكه من بعده ، ما كاد يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة » (١٠٣) •

ولهذا الحادث أثره الكبير فى الحياة العلمية فى الدولة الأموية ،

---

(١٠٣) صاعد : طبقات الامم ، ص ٨٨ •

لأن اختيـــار الحكم بالذات لهذه المهمة ، وهو الذى « تهيأ لذلك ، لفرط محبته للعلم ، وبعد همته فى اكتساب الفضائل ، وسمو نفســه الى التشبه بأهل الحكمة من المــلوك » (١٠٤) — قد صبغ الحركة العلمية على عهد عبد الرحمن الناصر ، بعدة مظاهر :

أولا — فتح الباب على مصراعيه ، لاســتجلاب العلماء المشــارقة الى الأندلس . ومن الصعب ، تحديد عدد الوافدين ، الذين وفدوا فى هذه الفترة لكثرتهم ، ولكن من الواضح أن الحكم كان يختار عينات جيدة من الأساتذة ، أمكن لها أن تملأ جوانب الأندلس عامة ، علمــا وتعليما ، ومن أبرز من قــدم فى هذه الفترة : أحمد بن أبى عبــد الرحمن القرشى ، وهو « من أهل مصر : وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله اليها فى (محرم ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م) فأكرم الناصر مثواه ، وكان فقيه أهل مصر » (١٠٥) — وأبو على القالى البغدادى (٢٨٨ — ٣٥٦هـ = ٩٠١ — ٩٦٧م) ويجب أن نتوقف قليــلا أمام تلك الشخصــية العلمية الباهرة لسببين : أولهما قيامه بتأديب الحكم المستنصر ، مما سيترك أثره على الخليفة فيما بعد ، وثانيهمــا المجموعة الهائلة من الطلبة ، الذين تلقوا العلم على يديه فى قرطبة ، عــلاوة على المؤلفات التى خلفها لنا .

يقول المقرى « ان الناصر، هو الذى استدعاه من بغداد »(١٠٦)، بينما تذكر مراجع أخرى كثيرة أن الحكم المستنصر ، هو الذى استدعاه الى قرطبة (١٠٧) ، ولقد وصل الى الأندلس فى عام ٣٣٠هـ / ٩٤١م ، حيث استقبله الحكم المستنصر بالله أحسن اســتقبال ، « وتلقاه بالجميل ، وحظى عنده ، وقرب منه ،

---

(١٠٤) صاعد : نفس المصــدر ، ص ٨٨ .
(١٠٥) المقــرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ١٣٩ .
(١٠٦) المقــرى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٧٥ .
(١٠٧) الحميــدى : جذوة المقتبس ، ص ١٥٥ .

وبالغ فى اكرامه » (١٠٨) • ونستخلص من الروايات التى سجلت استقبال الناصر لأبى على القالى ، مدى الاهتمام الكبير بالناحية العلمية الذى بذله الخليفة عبد الرحمن الثالث • وتجمع كتب التاريخ والتراجم ، على أن الحكم ، « الذى كان يتصرف عن أمر أبيه ، أمر الوزير ابن رماحس ، أن يجىء مع أبى على الى قرطبة ، ويتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض أهل الكورة ، تكرمة لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل » (١٠٩) •

ثانيا — اعطاء هؤلاء المعلمين الفرصة للتعليم فى مساجد قرطبة ، مما ساهم فى رفع المستوى العلمى والتعليمى لأهل الأندلس ، وشجع على الرحلة من الأقاليم الى قرطبة ، ولا يعنى ذلك ، انتفاء النهضة العلمية فى عواصم الأقاليم الأخرى ، بل ان هذه الأقاليم قد أخذت حظها أيضا من عناية الخلفاء بها ، وان كانت قرطبة على أساس أنها العاصمة ، قد احتلت المكانة الأولى فى ذلك المجال • وسوف أعود الى مناقشة مسألة اعطاء المعلمين الفرصة للتعليم فى مساجد قرطبة من قبل الخلفاء عند الحديث عن تدخل الدولة فى العملية التعليمية ، فى الفصل الثالث من هذا الباب •

ثالثا — استجلاب البارزين من علماء الأقاليم الى قرطبة ، اما للاقامة بها ، أو لاعطاء بعض الدروس ، ثم العودة الى بلادهم الأصلية ، مثلما كان الحال مع أبى يحيى زكريا بن خطاب التطيلى ، الذى « رحل سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م ، وقدم الأندلس ، وكان الناس

---

(١٠٨) الحميدى : نفس المصدر ، ص ١٥٥ •

(١٠٩) المقرى : النفح ، ج ٤ ، ص ٧١ ، جونثالث بالينثيا : الفكر الأندلسى ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ من « الترجمة العربية » ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ... الخ •

يرحلون اليه فى تطيلة للسماع منه ، واستقدمه المستنصر الحكم ، وهو ولى عهد ، فسمع منه أكثر مروياته . وسمع منه جماعة من أهل قرطبة ، وكان ثقة مأمونا » (١١٠) .

وكذلك قام الخليفة بنقل الفقيه محمد بن عيسى بن رفاعة الخولانى (توفى ٣٣٧هـ — ٩٤٨م) من أهـل رية ، ولقد كان لهذا الرجل شهرة طيبة ، لم يجد ابن الفرضى بدا من الاعتراف بهـا حين يقول « انه كان يرحل اليه للسـماع منه من قرطبة وغيرهـا » . وعلى الرغم من أن ابن الفرضى يتهم ذلك الفقيه بالكذب ويحاول أن يؤكد ذلك بأكثر من وسـيلة الا أنه يقول «واستقدم محمد بن عيسى الى قرطبة سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م ، فأقام يحدث بمدينة الزهراء بقية ذلك العـام ثم انصرف الى رية ، فمات بها بعد ذلك حوالى عام ٣٣٧هـ » (١١١) . كما أن الحكم استقدم الشيخ محمد بن مروان بن زريق (توفى ٣٣٩هـ/٩٥١م)، من أهل بطليوس ، الى قرطبة للاستفادة منه(١١٢) .

رابعا — الاهتمام بالكتب : ولقد اشتهر عن عبد الرحمن الناصر ، حبه للكتب . حتى بلغت شـهرته فى ذلك ، الامبراطور البيزنطى ، الذى رأى أن أغلى هـدية يمكن أن يقدمها اليه ، هى كتاب جـديد : هو كتاب « ديسقوريدس » . ويصف المسـتشرق الأسـبانى الكبير « خوليان ريبيرا » هذه النسـخة قائـلا : « انها كانت نسخة رائعة ، كتبت بحروف من ذهب ، وزينت برسوم جميلة ، تمثل النباتات المذكورة فى النص ، وقـد رجا العاهل الأموى الامبراطور البيزنطى ، أن يرسـل له عالمـا ليترجم له الكتاب ، لأنه لا يعرف اليونانية ، ولم يسهل عليه العثور على شخص عالم بها ، يستطيع أن يترجم له الكتاب ،

(١١٠) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ .
(١١١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
(١١٢) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ص ٣٥٤ .

فأرسل اليه الامبراطور الراهب نيقولا ، « ليكون فى خدمته » (١١٣) .

وانقسم الاهتمام بالكتب فى هذه الفترة الى مظهرين :

أولهما — الحث على التأليف ، والاغداق ما أمكن على العلماء ، لكى يقوموا بتأليف الكتب ، فلقد كان « الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر وبعدها ، ينشط أبا على ، ويعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالافراط فى الاكرام » (١١٤) ، ولهذا ، « طرز الشيخ أبو على القالى ، كتاب «الأمالى» باسم الحكم المستنصر » (١١٥) ، كما أن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن عيسى بن شهيد ، الأديب ، المؤرخ ، ألف للحكم ، ولى العهد ، فى خلافة أبيه الناصر ، كتابا فى الآداب والوصايا ، أسماه « أصلاح الخلق » (١١٦) . كما « قام أحمد بن محمد ابن عبد ربه (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ/٨٦٠ — ٩٤٠ م) ، بجمع ديوانه الشعرى، البالغ أكثر من اثنين وعشرين جزءا، للحكم المستنصر على عهد أبيه » (١١٧) .

والقاء نظرة تأملية ،على الموضوعات التى اهتمبها الحكم فى عهد والده الناصر ، يبين لنا نوع اهتماماته التى لم تقتصر على أعمال دينية ، وانما شملت الشعر ،واللغة والأدب .. الخ.

---

(١١٣) ريبيرا : اهتمام المسلمين فى الأندلس بالكتب ، ترجمة جمال محرز ، ص ٨٦ (مجلة معهد المخطوطات العربية) .
(١١٤) المقرى : النفح ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
(١١٥) نفس المصدر ، ص ٧٢ .
(١١٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٦٧ .
المراكشى : ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، الجزء الأول ، ص ٢٦ .
(١١٧) الحميدى : الجذوة ، ص ٩٤ — ٩٦ .
الضبى : البغية ، ص ١٤٨ — ١٥١ .
راضى : الاندلس والناصر ، ص ٥٦ .

ثانيهما — الحصول على مؤلفات من كافة البلاد الاسلامية ، وخاصة من بغداد ، «فأرسلوا رسلا أذكياء ، أكفاء ، الى دار السلام مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن وغير الممكن من الطرق للحصول على أهم ما تتباهى به بغداد من دور العلم ، وجواهر المعرفة ، فذهب أولئك الرسل ، واستعملوا الروية والأناة ، وبذلوا المال بسخاء ؛ فنجحوا فى رسالتهم ؛ وقاموا بمهمتهم خير قيام ؛ وعادوا من دار الحكمة وقد نقلوا أكثر ما ترجم من المؤلفات فى بغداد ؛ وسلموها للخلفاء ، فحفظوها بين سحورهم ونحورهم ؛ ضنا بها ، وحرصا عليها ، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها ؛ فذاعت فى ربوع الأندلس ثم تخطت البحر المتوسط الى شمال أفريقية » (١١٨) .

والنتيجة الحتمية لهذين الاتجاهين ، أعنى : الحث على التأليف ، والبحث عن الكتب فى المشرق ، تضخم مكتبة قرطبة، بصورة كبيرة ، وقيام كل من الأمراء والمواطنين بتقليد الحكام فى ذلك ، مما أفسح المجال لظهور مكتبات كثيرة فى الأندلس ، سوف نتناولها بالدراسة فى موضعها ، عند الحديث عن المكتبات ودورها التعليمى .

وثمة جانب آخر تتجلى فيه عناية الناصر بالتعليم :ألاوهو رعايته للعلماء والفقهاء والمعلمين ، فكان يستقبلهم فى مجلسه ويمنحهم جوائزه ، ولم يقتصر ذلك على المشهورين منهم ، بل لقد وصل الى معلمى الكتاب ، ويقص علينا ابن الفرضى،أن « محمد أحمد بن يحيى الزهرى ، المعروف بالأشبيلى الزاهد ،

---

(١١٨) فلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٣ ، ١٤ .
وآسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

من أهل قرطبة ، ويكنى أبا عبد الله (توفى ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م) ، كان معلم كتاب ، وكان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن ابن محمد ، ويأخذ جوائزه » (١١٩) .

لقد وصلت الأندلس عامة ، وقرطبة خاصة ، الى درجة عالية من التطور ، حتى أصبحت « أعجوبة العصور الوسطى » (١٢٠) ، ولكن ذلك لم يكن نتيجة لعصر الخلافة فحسب ، وانما هو — على ما بينت فى هذا الباب — حصاد سنوات طويلة من الاهتمام بالعلماء والأدباء ، وتشجيع القيام بالتعليم ، والحرص على الحصول على الكتب ، حتى أن العالم الكبير ، واللغوى الفذ أبا على القالى عند وصوله الى أرض الأندلس ، ولكثرة ما رأى من ضعف اللغة على مدار رحلته الى الأندلس ، كان يتصور أنه ، عند وصوله الى الأندلس ، سوف يحتاج الى مترجم ، ولم يكن الأمر كذلك ، فحينما استقبله ابن رماحس وصحبه فى الطريق الى قرطبة ، ضمن وفد كبير من علية القوم ، ساروا يتذاكرون الأدب ، فأنشد أبو على بيت عبدة بن الطيب :

ثم قمنا الى جرد مسومة　　　أعرافهن لأيدينا مناديل

وأخطأ أبو على ، وأنشد «أعرافها لأيدينا مناديل» فأنكر ابن رفاعة(١٢١) الألبيرى ذلك ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفى خلقه حرج وزعارة ، واستعاد أبا على تثبتا مرتين ، فأنشده فى كلتيهما « أعرافها » فلوى

---

(١١٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٤٢ .

(١٢٠) فارمر : تاريخ الموسيقى ، ص ١١٦ .

ولم يترك الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مجالا للحديث عن قرطبة بعد صدور كتابه الرائع « قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية » والذى صدر فى بيروت فى جزءين فى عام ١٩٧١ ، وللأسف الشديد أن الكتاب قد التهمته نيران الحرب الأهلية ولم تنج منه الا عدة نسخ تكرم المؤلف بايداعها مكتبة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ومكتبة المعهد الاسبانى العربى للثقافة .

(١٢١) محمد بن رفاعة الأموى الألبيرى ، توفى فى عام ٤٠٣ أو ٤٠٤ ، انظر الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ابن رفاعة عنانه منصرفا وقال : أمع هذا يوفـد على أمير المؤمنـين ، ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط فيه الصبيان ؟ والله لا أتبعه خطوة . وانصرف عن الجماعة . وندبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه ، ويصف له ما جرى لابن رفاعة ، ويشكوه ، فأجابه ــ الحكم ــ على ظهر كتابه : الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا ، من يخطىء وافـد أهل العراق الينا ، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه ، من السخط عليه ، فدعه وشأنه وأقدم بالرجـل غير منتقص من تـكرمته فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله ، أو يحط به » (١٢٢) . وعند وصول أبى على القالى الى قرطبة ، أثنى على من بها من الفقهاء وخاصة محمد ابن القوطية .

ولكن على الرغم من ذلك كله ، على الرغم من اجمـاع المؤرخين والكتاب ، على رعاية الناصر للعلوم ، واهتمامه بالحـركة التعليميـة الا أننـا يجب أن نتوقف قليلا أمام الحمـلة العنيفة والشديدة التى وجهها الناصر ضد أتباع مذهب ابن مسرة القرطبى . هذا ، ولقد قدم لنا الجزء الذى نشر حديثا من « مقتبس ابن حيان » نصوصا تفصيليـة وواضحة عن هذه الحملة ، يتبين منها أن الناصر قد كلف صاحب المدينة، عبد الله بن بدر ، « بالتنقير عنهم ، والقصر لآثارهم ، وطلب الدلائل عليهم ، والايقاع بمن صح لـديه أنه منهم ، أو مقول لهم ، فتجـرد ابن بدر ، ينشد تخويفهم ، وأغلظ لمن عثر عليه منهم ، فجرت لهم فى ذلك خطوب ، يطول القول فيها » (١٢٣) ، ولم يكتف الخليفة بذلك وانما أصدر كتابا فى شأن هؤلاء ، قرىء فى جميع الأمصار .

ولقد توقفت طويلا أمام هذه النقطة : لمـاذا قام عبـد الرحمن

---

(١٢٢) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٧١ .
ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
(١٢٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٢٤ .

الثالث بذلك ؟ هل حقا كانت تعاليم ابن مسرة من الخطورة بحيث تدفع بالناصر الى شن هذه الحملة القوية ؟ أم أن سلطة الفقهاء فى قرطبة كانت قوية الى درجة تجبر الخليفة على اتخاذ مثل هذه الاجراءات الشديدة ؟ .

ان عددا كبيرا من الأبحاث الحديثة ، قد أثنت على ابن مسرة ، وأبعدت عنه أى شك فى الالحاد أو الهرطقة أو الزندقة ، بل ان المؤرخين القريبين جدا من العصر ، يثنون على عمله الدينى عامة والمالكى خاصة فيصفه ابن حيان بأنه كان « يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنة : سرد القرآن ويشققها بالاجتلاب بأوضح برهان ، حتى يخرج منها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفية الى اليوم ، واقعا على أنها أفضل ، وأوجز ، وأبسط من كل مختصرة ، صيغت فيها » (١٢٤).

أما بالنسبة لسلطة الفقهاء فى تلك الفترة ، فاننى ، على الرغم من العناية الكبيرة التى قدمها لهم الناصر لدين الله ، لا أعتقد أن الخليفة كان راضخا لهم ، بل على العكس من ذلك تماما ، لقد كان يتمتع بسلطة قاهرة ، مكنته من تنفيذ أشياء كثيرة ، على الرغم من الفقهاء ، وليس أدل على ذلك ، من اتخاذه منذر بن سعيد البلطى الظاهرى (٢٧٣ — ٣٥٥هـ / ٨٨٦ — ٩٦٦م) ، قاضيا ، وصاحبا للصلاة ، والخطابة بجامع الزهراء ولقد كان منذر ظاهريا ، يقول بقول داود ابن على الظاهرى (توفى ٢٧٠ هـ/٨٨٢ م) ، ولا يخفى ذلك . حقا انه كان اذا جلس للقضاء حكم على المذهب المالكى — ولكنه فى مؤلفاته ودروسه ، ومجالس علمه ، لم يكن يخفى اتباعه للمذهب الظاهرى ،بل ان البعض قد وصل الى القول بأن منذر بن سعيد ، « كان من المؤيدين

---

(١٢٤) ابن حيان : المقتبس — تحقيق شالميتا ، ص ٢١ .

لابن مسرة ، فى معظم آرائه » (١٢٥) ، ومع ذلك لم يتعرض منذر لأية مضايقة من فقهاء قرطبة ، بسبب منزلته من الناصر .

واذا ما وضعنا فى الحسبان ما حدث مع الفقيه ، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني (توفى ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م) وصاحبه الفقيه أبى محمد بن حزم ، حيث تعرض لهما صاحب المدينة ، وأمرهما بالقيام وترك التحلق ، ومنع العامة عن الاجتماع اليهما (١٢٦)، ثم تعرض أتباعهما للسجن ، والامتهان — لأدركنا أن شخصية الناصر كانت فعلا أقوى من فقهاء عصره وأنه لم يكن يخضع لهم فى مسألة مثل مسألة ابن مسرة .

لقد فكرت فى البداية ، أن الناصر ، ربما قد قام بذلك فى السنتين الأولين من حكمه ، لكى يكتسب مودة العامة والفقهاء ، ومساعدتهم له فى القضاء على حركات التمرد ، التى كان عليه مواجهتها ، عند توليه أمر البلاد ، ولكن الحصول على التواريخ الثابتة لهذه الحملة ، والتى يذكر الرازى ، أقرب المؤرخين لعصر الناصر ، أنها بدأت ، اعتبارا من يوم الجمعة ، لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاثة مائة (٩٥١) ، ثم « تمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والاخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر » (١٢٧) ، الذى توفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م .

ان التفسير الوحيد ، الذى أجده مقنعا ، ولعلى أكون مخطئا ، هو أن الناصر فى تلك المرحلة ، كان قد وصل الى سن الشيخوخة ، وبالتالى

---

(١٢٥) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ ، أزهار الرياض ، ص ٢٩٥ .
على راضى : الأندلس والناصر ، ص ٥٤ .
عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٣١١ .
(١٢٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٧ .
آسين : ابن حزم القرطبى ، جـ ١ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba, 10 136, 137.
(١٢٧) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق شالميتا ، ص ٣٠ .

أصبح ضعيفا، كما أنه، وهو الرجل الذى أنفق ببذخ، على أعمال دنيوية، ربما اعتوره الحنين الى القيام ببعض الأعمال، التى يتقرب بها الى الله، مثل العمل على الحفاظ على السنة ، وحمايتها من البدع •

ومن المناسب فى هذا المجال ، أن نصحح ، اعتمادا على أحدث ما نشر من مقتبس ابن حيان ، بعض ما قاله المستشرقان الأسبانيان الكبيران ، « ميجيل آسين بلاثيوس » ، و « انخيل غونثالث بالينثيا »، عند الحديث عن«ابن مسرة ومدرسته» ، حيث يقول لنا أولهما : «ان ثلاثة حملوا على عاتقهم مسئولية مقاومة المسرية واضطهادها ، وأكثر هؤلاء الثلاثة مكانه ، بل وأعلاهم من الناحية الوظيفية الرسمية الفقيه محمد ابن بقى (٣١٧ — ٣٨١ هـ/٩٢٩ — ٩٩١ م [١٢٨]) ، وهو فقيه ضالع فى الفقه والتشريع ، تولى قضاء الجماعة فى قرطبة ، بعد وفاة الحكم الثانى • أما الثانى ، فهو اللغوى الشهير ، والأديب الأشبيلى ، أبو بكر ابن الزبيدى (٣١٦ — ٣٧٩ هـ/٩٢٨ — ٩٨٩ م) [١٢٩] ، مؤدب الخليفة هشام الثانى • ولقد كتب الزبيدى كتابا فى الرد على ابن مسرة ، عنوانه « هتك ستور الملحدين » ، أما الثالث ، فهو المحدث الشهير ، الفقيه أبو عمر بن لوب الطلمنكى (٣٤٠ — ٤٢٨ هـ/٩٥١ — ١٠٣٧ م [١٣٠]) ، الذى كتب كتابا ضخما ، يكشف فيه العورات المستورة لمذهب ابن مسرة• ويرى آسين بلاثيوس ، أن بدء حملة الاضطهاد ضد أتباع ابن مسرة ، كان فى أواخر حكم الخليفة المستنصر بالله ، ذلك الخليفة الذى أنهى زهر سنوات عمره ، وأحس بدنو الموت ، بعد مرضه ، أصبح يستعد للحساب ولقاء الله ، مكفرا عن ذنوبه التى ارتكبها ، حين شجع الفلسفة

---

(١٢٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٩٣ •
الضبى : بغيـة الملتمس ، ص ١٤٦ •
(١٢٩) الزبيدى : كتاب الواضح ، المقـدمة •
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٤٣ •
العـزاوى : نعمـة رحيم : أبو بكر الزبيـدى الأندلسى ، ص ٥٦ وما بعـدها •
(١٣٠) الضبى : بغيـة الملتمس ، ص ١٦٢ ، الحميدى : الجذوة ، ص ١٠٦ •

ودراستها ، وذلك عن طريق القيام ببعض الأعمال الخيرية ، مثل عتق الجوارى ، وتوزيع الصدقات ، وتشـييد مدارس لتعليـم القرآن ، وتوصية ابنه هشام بدراسة الكتب الدينية . ولقد مات الحـكم بعد ذلك ، وتولى أحمد بن بقى قضـاء الجماعة ، واستغل منصـبه أكبر استغلال ، لكى يناهض هذه الموجة المسرية المتقدمة والمنتشرة — ساعده على ذلك سياسة العودة الى الدين الصحيح ، التى أوصى بها الحكم ابنه هشام ، وبدأ الاتهام يلاحق هذه المجموعة من القرطبيين ، أتباع ابن مسرة . ويختم آسين هذه الآراء والملاحظات ، بأن «أيا منهم لم يتعرض لعقوبة كبرى بسبب معتقداته لأن القاضى لم يتمكن من الوصول الا الى نتائج بسيطة لايعرف مدى خطورتها» (١٣١) . ولقد تابعهما فى القول بأن الحملة ضد أتباع ابن مسرة لم تبدأ الا فى أواخر عهد الحكم ، السيد : نعمة رحيم العزاوى ، حيث يقول « تعرض ابن مسرة للاضطهاد فى حياته ، واشتد الهجوم على أتباع مذهبه ، حين أظهر الحكم فى أخريات أيامه ، الرغبة فى التكفير ، عما أبدى من تسامح وميل للفلسفة » (١٣٢) .

لكن الحقيقة ، كما سبق أن بينت هى أن الحملة قد بدأت فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وتولى حمل لوائها ، صـاحب المدينة ، عبد الله ابن بدر .

والحقيقة كذلك أن أتباع ابن مسرة قد تعرضوا للامتهان الشديد « وجرت لهم خطوب يطول القول فيها » (١٣٣) ، مما يلقى ظلالا ،

---

(١٣١) آسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

Asin Palacios : Ibn Masarra y su Escuela, p. 89, 90.

ونفس الكلام تقريبا ، ذكره غونثالث بالينثيا : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٦ .

Gonzalez Palencia : La Literatura Arabigo Espanola, p. 226 .

(١٣٢) العزاوى : أبو بكر الزبيدى الاندلسى ، ص ٤٤ .

(١٣٣) ابن حيان : المقتبس — تحقيق شالميتا ، ص ٢٤ .

ولو باهتة ، على تسامح الحكم بالذات ، لأنه اذا كانت هذه الحملة قد بدأت فى أواخر حكم الناصر ، وكان الحكم يتصرف عن أمر أبيه ، بل كان الحكم هو المسئول الأول عن النواحى العلمية والتعليمية ، فان ذلك يدعو الى التساؤل أكثر من مرة عن الأسباب المباشرة وراء ذلك ، ولكن بما أن ذلك ليس قصد المراد هنا — فلنترك السؤال لفرصة أخرى قد نستجيب فيها لما فى النفس من شكوك ، وأكتفى فقط بعرض نص كتاب عبد الرحمن الناصر بهذا الخصوص :

كتاب الخليفة فى التنديد بمذهب ابن مسرة وأتباعه

أنفذ الخليفة الناصر لدين الله ، الى آفاق ملكه ، بشأن هؤلاء المبتدعة كتابا طويلا قرىء عليهم بأمصارهم من انشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فان الله ، تعالى جده وعز ذكره ، جعل دين الاسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) (١) الآية ، وقضى فى محتوم أمره ونفاذ حكمه أن ينسخ به الديانات ويختم برسالته الرسالات ، فبعث محمدا خاتم النبيين وأكرم الأكرمين وأعز الخلائق على رب العالمين بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سماء حنيفا الى خير أمة اختارها وسطا (٢) . كما قال ، عز من قائل ، اذ عرفنا فضل ما هدانا اليه من الدين وكرمنا به على سائر الأمم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (٣) الآية ، فله ، جل جلاله وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصائص هذه الفضيلة والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى فأحسن الهداية ، وأنار فأبان الحجة وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ونظم زمان الأمة وجمع وجوه السعادة العاجلة والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة واجتناب نزعات الفرقة ، حيث يقول عز وجهه لنبيه ، المخصوص بهداه ، صلى الله عليه وسلم ، تحفيا به

---

(١) قرآن ، س ٣ ، آية ٨٥ .
(٢) قرآن ، س ٢ ، الآية ١٤٣ .
(٣) قرآن ، س ٣ ، الآية ١١٠ .

وبعباده ، ورأفة بسطها على خير خلقه ، واعلاما لهم بتواصل الدين من قبله لأنبيائه وكراهة لاختلافهم بعد رسوله — صلعم — (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه) (٤) الآية ، فخوف وحذر ونهى عن تفرق الكلمة و (نبه) على البعد .../ونفى الله الخبائث عنها ، وفضلها على سائر البلدان واستقر فيها الدين كهيئته يوم أكمله الله لعباده ، ولما استوسعت الطاعة وشملت النعمة وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيرا ولا تأتمر رشدا ، من طغام السواد ومن ضعف آرائهم ومن خشونة الأوغاد ... كتبا لم يعرفوها ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها علومهم، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا وتفقهوا فيما لم يدركوا، واستولى عليهم الخذلان وأحل عليهم بخيله ورجله الشيطان، فزينوا لمن لاتحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن واستيأسوا وآيسو من روح الله (ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) (٥) ، وأكثروا الجدال فى آيات الله ، وحرفوا التأول فى حديث رسول الله — صلعم — فبرئت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه (ألم ت الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ، فسوف يعلمون) (٦)— الى قوله (اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون) (٧) ، فهذا أبلغ الوعيد وأفظع النكال لـ (من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) (٨) ثانى عطفه (ليضل عن سبيل الله) (٩) الى قوله (عذاب الحريق) (١٠) ، ثم تجاوزوا فى البهتان ، وسدوا على أنفسهم

---

(٤) قرآن ، س ٤٢ ، آية ١٣ .
(٥) قرآن ، س ١٢ ، آية ٨٧ .
(٦) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٦٩ ، ٧٠ .
(٧) قرآن ، س ٤٠ ، آية ٧١ ، ٧٢ .
(٨) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٨ . أو س ٣١ ، آية ٢٠ .
(٩) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .
(١٠) قرآن ، س ٢٢ ، آية ٩ .

أبواب الغفران ، فأكذبوا التوبة وأبطلوا الشفاعة ونالوا محكم التنزيل وغامض متشابه التأويل ، بتقدير عقولهم (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله) [11] ، الى قوله (وما يذكر الا أولو الألباب) [12] فصاروا بجهل الآثار وسوء حمل الأخبار الى القدح فى الحديث وترك نهج السبيل ، فأساؤوا الفهم عن العلوم ، وأقدموا بمكروه القول فى السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب أوضعها وتابعوا شهواتهم فيها ، وتتابعوا فيما أوبقهم وورطهم ورأوا لتخضع وحشية ، يحثهم لازم الضلالة وداعية الهلكة والشذوذ عن مذهب الجماعة من غير نظر نافذ فى دين ولا رسوخ فى علم ، حتى لقد تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهليين ، خلافا على أدب الله تعالى وقوله، جل جلاله (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) [13] وقالوا بالاعتزال عن العامة ، وشدوا أزره فآثروه ، وانكشفوا فنكرهم (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) [14] الآية ، فلجوا فى جهالتهم ، وتاهوا فى غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقدا على الأمة الحنيفية ، واعتقادا لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وتذرعا الى انتهاك حرمها وسبى ذراريها (قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر) [15] الآية ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط بهم ، ولما صار غيهم فاشيا وجهلهم شائعا ، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم فى الديانة ، وصدوفهم عن الجادة ، ما شغل نفسه ، وأقض مضجعه وأسهر ليله ، أغلظ أمير المؤمنين فى الأخذ فوق أيديهم [16] ، وأوعز ايعازا شديدا وانذارا فظيعا ، وعهد عهدا مؤكدا شافيا كافيا ،

---

(١١) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .
(١٢) قرآن ، س ٣ ، آية ٧ .
(١٣) قرآن ، س ٤ ، آية ٨٦ .
(١٤) قرآن ، س ٣٩ ، آية ١٨ .
(١٥) قرآن ، س ٣ ، آية ١١٨ .
(١٦) اقتباس من القرآن ، س ٤٨ ، آية ١٠ .

نظر به لوجهه ، تبارك اسمه (١٧) ، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد ، وأمـر بقراءة كتابه هـذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليقـرع قلب الجاهل ، ويفت كيـد المستهتر الحائر ، وينقض عزم المعاند المعاجل ، ويضطر الغواة الى الانابة الصحيحة التى تقبلها الله منهم ، أو يكشفه عن الأذهان سرائرهم ، فيكون عليهم الشهيد ، و (انهم آتيهم عذاب غير مردود) (١٨) . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطـار كوره ، ويرسله فى بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده اليك والى سـائر قواده وجميـع عماله بها ، يقرأ على منابر المسـلمين ولا يحرم القاصى بأعم الدانى من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهة وفتنة فلم تحل الديار ، ولا تعفت الآثار ، ولا استحق البلاء على قوم،ولاأهلك الله أمة من الأمم الا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل للسنة والاعتداء فى القرآن العظيم وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ــ هـذا عند وروده عليك فى الجامع قبلك ، وانشره فى أسماع رعيتك ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تجلى بطبقتهم أن انتسـب اليهم ، وقامت عليه البينات بذلك عنـدك فاكتب الى أمير المؤمنين بأسـمائهم ومواضعهم وأسماء الشهودعليهم ونصوص شهاداتهم ليعهد باستجلابهم الى باب سدته ، لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفى حر صدره واياك أن تداهن فى أهل الريبة وتتخطاهم الى ذوى السلامة والأخوة الصـالحة ، فان فرطت فى أحد الأمرين أو كليهما فقد برىء الله منك وأحل دمك ، فأعمله واعتمله ، ان شاء الله تعالى » .

* * *

ويقول ابن حيان بعد ذلك :

« وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والاخافة لهم ، وتخويف

---

(١٧) اقتباس من القرآن ، س ٥٥ ، آية ٧٨ .
(١٨) قرآن ، س ١١ ، آية ٧٦ .

الناس من فتنتهم ، بقية أيام الناصر لدين الله » (١٩) .

* * *

تولى الحكم بن عبد الرحمن الخلافة فى قرطبة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م، وعمره حوالى سبعة وأربعون عاما ، وتوفى سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م ، أى أنه ظل على عرش الخلافة ستة عشر عاما ، وهى فترة قصير جدا نسبيا، لكنها فى تاريخ الأندلس ، من أنصع صفحاته ، اهتماما بالعلم والعلماء، ولا يختلف فى ذلك اثنان ، وليس من الممكن ايراد ما كتب عن الحكم الثانى لأن مجرد الوقوف على ذلك فقط ، عملية صعبة جدا ، بل ومستحيلة ، فهناك كتب كثيرة جدا ، كتبت فى الشرق أو الغرب ، قديما أو حديثا ، فى تاريخ الأدب ، أو فى التاريخ، أو فى الفلسفة ، أوفى تاريخ العلوم ، قد خصصت صفحات لهذا الخليفة العظيم ، واذا كان الحكم قد اعتلى عرش الخلافة هذه المدة القصيرة فقط ، الا أن تاريخه العلمى يرجع الى ما وراء ذلك بعشرات السنين ، حينما تحمل عن والده عبء الجانب الثقافى والعلمى والتعليمى فى مملكته ، وجعل من دولته بعد ذلك ، امتدادا لنشاطاته وأعماله التى مارسها خلال عهد والده .

والجدير بالذكر أن الحكم لم يكن خليفة يرعى العلوم ، ويحمى العلماء ويشجع على التعليم فحسب ، ولكنه هو نفسه كان عالما كبيرا، وسندا يعتمد عليه ، ومرجعا يحتكم اليه ، يقول المستشرق الفرنسى ، ليفى بروفنسال : « علينا أن نبرز فى المقام الأول ذلك الاسم الخالد ،

---

(١٩) نشر هذا النص لأول مرة ، المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان ، تحت عنوان (اكتشاف السفر الخامس من المقتبس) — مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد ١٣ ، عام ٦٥ — ١٩٦٦ ، الصفحات ١٢٥ — ١٣٧ .

ابن حيان : المقتبس ، الجزء الخامس ، تحقيق شالميتا ، الصفحات ٢٥ — ٣٠ .

Pedrp Chalmeta : AL-MOQTABAS de Ibn Hayyan, V 25 - 30.

الحكم الثانى عالما لا غبار عليه ، راعيا مهيبا عظيما للاداب والعلوم ، صديقا للفنون » (٢٠) •

أما غونثالث بالينثيا فيقول : « ان تسامح الحكم مع العلماء ، لم يكن له حدود ، مما دفعهم للالتفاف حول بلاطه ، ولقد قام بحمايتهم وتشجيعهم حتى الفلاسفة منهم ، وأعطى الحرية لهم لكى يقوم الرياضيون والفلكيون بالتدريس علنا لتلاميذهم » (٢١) • وتصفه دائرة المعارف الاسلامية ، بأنه كان « راعيا للفنون والعلوم والتربية » (٢٢) •

ولقد تحول مسجد قرطبة فى عهد الناصر والمستنصر ، الى جامعة حقيقية وليس المجال هنا للافاضة فى هذا القول ، لأننى سأتناوله عند حديثى عن المساجد ، ولكن ما هو جدير بالاشارة هنا ، أن الحكم ، « قد عهد الى أخيه المنذر ، بالاشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها » (٢٣) ، دون أن يهمل هو رعاية هذا المكان ، بل كان شديد الاهتمام به ، حتى وصل عدد طلابه وزواره الى الآلاف (٢٤) •

---

(٢٠) ليفى بروفنسال : تاريخ أسبانيا — النص الأسبانى ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ •

Léve Provencal : Espana Musulmana ; V. 10 325.

الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص٢٩٩ . ولقد أورد ابن الأبار نصا طويلا فى صفات الحكم العلمية فى كتابه : الحلة السيراء ، انظر ج ١ ، ص ٢٠٣ — تحقيق الدكتور حسين مؤنس •

(٢١) غونثالث بالينثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، النص الأسبانى ، ص ٢٠ ، و ص ٢٨٣ ، وانظر أيضا الترجمة العربية ، ص ٤٤٨ .

(٢٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الانجليزية ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ •

The Encyclopaedia of Islam ; T 2 ; pp. 223.

(٢٣) عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، الطبعة الثالثة ، ص ٤٥٧ .

(٢٤) محمد غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ ، وانظر أيضا قول عبد الملك بن زيادة : « انى اذا احتوشتنى ألف محبرة ... » ، الحميدى : ص ٢٦٦ ، وخوليان ريبيرا : فى اهتمام المسلمين بالكتب ، ترجمة د. جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد رقم ٥ ، ج ١ (١٩٥٩) ، ص ٧٣ •

ويمكن لنا أن نلخص اهتمام الحكم بالنواحى العلمية والتعليمية فى هذه النقاط :

أولا — استجلاب العلماء من كافة نواحى الأندلس الى قرطبة ، التراجم على أنه كان يختار أفضل العلماء ، أو من تتوافر لديهم وسماحه لهم بالتعليم فى المساجد العامة بقرطبة ، وتدلنا كتب نصوص ليست شائعة عند الناس ، فعلى بن معاذ بن سمعان الرعينى (المتوفى ٣٨٩هـ/٩٩٩م) ، بجانى ، كان لغويا نسابا استقدمه الحكم المستنصر بالله ليقتبس من علمه ، وكان عنده جميع كتب ابن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمة نحوا من سنة ، ثم عاد الى بجانة [٢٥] • وفى تلك الاشارة الخاصة بتحديد جلوس هذا الفقيه « بحومة مسجد سلمة » ما يوحى بشيئين :

(أ) وجود مساجد أخرى فى قرطبة لها أهمية ، غير المسجد الجامع •

(ب) وجود أماكن خاصة بالاقامة ، ملحقة بالمسجد ، يقيم فيها هذا الفقيه مدة عام ، ثم يعود بعد ذلك الى وطنه « بجانة » •

واستقدم المستنصر بالله ، أيضا « محمد بن فرج بن سبعون النحلى (توفى ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) الى قرطبة ، فسمع منه غير واحد » [٢٦] ، وتوفى هذا الرجل فى بجانة ، مما يدل على عودته من قرطبة بعد انتهاء مهمته هناك •

---

(٢٥) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، جـ ١ ، ص ٤١٠ •

(٢٦) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٧٣ •

وكذلك حدث نفس الشيء مع محمد بن مروان بن زريق من أهل بطليوس ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، وكتب عنه[٢٧] .

ثانيا — اتساع رحيل العلماء المشارقة الى الأندلس ، وتكريم المستنصر لهم بل كان هو شخصيا مهتما باستقدامهم الى قرطبة والترحيب بهم ، واكرام مثواهم ، ورفع منازلهم عنده ، ومن هؤلاء الذين وصلوا الى قرطبة على عهد المستنصر بالله « اسماعيل بن عبد الرحمن بن على القرشى (توفى بعد سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) الذى رحل من مصر الى الأندلس ، فحل يومئذ على الحكم المستنصر على الرحب والسعة »[٢٨] .ولقد أورد ليفى بروفنسال أسماء عدد كبير من هؤلاء[٢٩] .

ثالثا — احترام الحكم المستنصر للعلماء ، ومكانتهم ، مما جعلهم يهتمون بدروسهم وبطلبتهم ، ورفع من قدرهم عند الناس وعند الطلبة ، ولقد وصل بعض هؤلاء الفقهاء والمعلمين الى درجة عالية من المهابة ، حتى أنه كان يطلب ولا يرد له طلب وأسوق تلك القصة الطويلة التى حفظها لنا المقرى عن الفقيه ابراهيم بن اسحق — يقول المقرى :

« كان معظما عند الناصر وابنه الحكم ، وحق لهما أن يعظماه ، فقد حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرح قال : كنت

---

(٢٧) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(٢٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .
المقرى : نفح الطيب — ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٢٩) ليفى بروفنسال : أسبانيا الاسلامية — ج ٢ ، ص ٢١٨ .

أختلف يوما الى الفقيه أبى ابراهيم — رحمه الله تعالى — فيمن يختلف اليه للتفقه والرواية ، فأتى لعنــده فى أحد الأيام فى مجلسه بالمسجد المنســوب « لأبى عثمان » الذى كان يصلى به قرب داره بجوف قرطبة ، والمجلس حافل بجماعة الطلبة ، وذلك بين الصلاتين ، اذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم — فوقف وسلم وقال له : يافقيه، أجب أمير المؤمنين أبقــاه الله ، فان الأمر قد خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت باعجالك ، فالله الله . فقال له : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين ، ولا عجلة ، فأرجع اليه وعرفه — وفقك الله عنى — أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعــالى ، معى طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم يقيدونه عنى ، وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من تسييرى اليه الســاعة ، فاذا انقضى أمر من اجتمع الى من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله ، الساعين لمرضاته ، مشيت اليه ان شاء الله تعالى ، ثم أقبل على شأنه ، ومضى الخصى يوبنم متضاجرا من توقفه فلم يك الا ريثما أدى جوابه ، وعاد سريعا ساكن الطيش فقال له : يا فقيه ، أنهيت قولك على نصه الى أمير المؤمنين أبقاه الله ، فأصغى اليه ، وهو يقول لك : جزاك الله خــيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين ؛ وأمتعهم بك حتى ينقضى شــغلك ، وتمضى معى ، فقال له : حسن جميــل ولكنى أضعف عن المشى الى باب الســدة[٣٠]

---

(٣٠) انظر : أبواب القصر فى « نصــوص عن الأندلس » ص ١٢٣ للعــذرى . وحسين مؤنس فى « وصف جــديد لقرطبــة الاسلامية » ، ص ١٦٨ .

وعن باب السدة انظر : « توريس بالباس » : الأندلس — العدد ١٧ (١٩٥٢) ، ص ١٦٥

Torres Balbas : Bâb al Sudda. Al-Andalus XVII.

ويصعب على ركوب دابتى لشيخوختى ، وضعف أعضائى ، وباب الصناعة[٣١] الذى يقرب الى من أبواب القصر المكرم أحوط وأقرب وأرفق بى ، فان رأى أمير المؤمنين — أيده الله تعالى — أن يأمر بفتحه لأدخل عليه منه ، هون على المشى ، وودع جسمى ، وأحب أن تعود اليه ، وتنهى له ذلك حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود الى فانى أراك فتى سديدا ، فكن على الخير معينا . ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه ، قد أجابك أمير المؤمنين الى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة ، وانتظارك من قبله ، ومنه خرجت اليك ، وأمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك . وجلس الخصى جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق ، فلما انفضضنا عنه ، قام الى داره فأصلح من شأنه ، ثم مضى الى الخليفة الحكم ، فوصل اليه من ذلك الباب ، وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب ، فأعيد اغلاقه على أثر خروجه — قال ابن مفرح : ولقد تعمدنا فى تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ ، المرور بذلك الباب المعهود اغلاقه بدبر القصر فوجدناه مفتوحا كما وصف الخصى ، وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ما بين كناس وفراش ، متأهبين لانتظار أبى ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك ، وطال تحدثنا عنه ، فهكذا يكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء ، قدس الله تلك الأرواح » [٣٢] .

= ويقول الدكتور سالم عن باب السدة انه باب الجنان وهو باب السطح الشرقى من ابواب قصر قرطبة فتحه الأمير عبد الرحمن الأوسط فى سور ممتد من سور قرطبة لافلاق الرصيف وكانت دفته من حديد. وكان الأمير يشرف من السطح على اعدام الثوار امام الباب .

(٣١) أحد الأبواب الشمالية لقصر قرطبة ، وكان مغلقا . وعرف بذلك لملاصقته لدار الصناعة القريبة من مسجد ابى عثمان . راجع المقرى — ج ١ ، ص ٣٥٤ .

(٣٢) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .
المقرى : ازهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٦ .

مظهر آخر من مظاهر اهتمام الحكم بالحياة التعليمية ، هو قيامه بنفسه بزيارة الفقهاء فى مجالسهم ، وتفقد أحوالهم، ورؤية مستواهم العلمى ، فقد قام الحكم المستنصر بزيارة أبى الحسن على بن محمد الأنطاكى (المتوفى ٣٧٧هـ / ٩٨٧م)، حيث عين الفقيه الأنطاكى بعض الطلبة لقراءة القرآن يوم هذه الزيارة ، اختارهم من بين طلبته ، وكان منهمخلف بن حسين ابن مروان (٤٢٧هـ / ١٠٣٦م) ، والد المؤرخ الكبير ، ابن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩هـ / ٩٨٧ — ١٠٧٧م) ، تقول المصادر أنه « قرأ القرآن على أبى الحسن الأنطاكى ، وحكى أنه كان حسن الصوت ، وأحد من عين الأنطاكى للقراءة ، يوم زاره الحكم المستنصر » (٣٣) •

رابعا — انشاء أماكن للتعليم ، ركزها على التعليم الأولى ، أى أنه أنشأ مكاتب فى مدينة قرطبة لكى يتعلم فيها أولاد الفقراء والضعفاء مجانا ، ثم انه جعل لمعلميها أوقافا من دخل حوانيت السراجين ، لكى يتقاضوا منها مرتباتهم ، وتجمع كافة المصادر على أن هذه الخطوة تعتبر من أفضل خطوات الحكم المستنصر بالله حيث تقول « ومن مستحسنات فعاله وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن ، حوالى المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليهم المرتبات ، وعهد اليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم » (٣٤) • وعند الحديث عن عام ٣٦٤هـ /

---

(٣٣) ابن الأبار : تكملة الصلة — جـ ١ ، ص ٢٩٥ •
وانظر التعريف الذى خصه به الدكتور محمود مكى فى مقدمته لتحقيقه للسفر الثانى من مقتبس ابن حيان ، ص ٨ — ١٩ •
(٣٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٥٨ •

٩٧٤م يقول : « وفيها حبس الحكم المستنصر ، حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء » (٣٥) . هذا ولقد انشأ الحكم المستنصر ، فى هذا المجال ، سبعة وعشرين مكتبا ، منها ثلاثة بجوار المسجد والباقى بكل ربض من أرباض المدينة ، وفى هذه المناسبة يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتب لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم

نادتك ياخير تاليها وواعيها(٣٦)

خامسا — اهتمام الحكم المستنصر بالله بتأليف الكتب ، والحصول عليها . وفى هذا المجال ، ارتفع الحكم الى درجة عالية ، لا يكاد يدانيه فيها أحد ، وتتجلى مظاهر اهتمامات الحكم بالكتب وتأليفها ، والحصول عليها فيما يلى :

(أ) تشجيع التأليف ، والاعتناء به ، والاثابة عليه ، واكرام

---

(٣٥) ابن حيان — المقتبس — تحقيق الحجى ، ص ٢٠٧ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٧٠ .
وهناك من يرى أن الحكم المستنصر بالله قد قام بهذه الأعمال فى سنة ٣٦٤ ، اى قبل وفاته بعامين فقط ، بسبب ابلاله من مرض خطير الم به ، كما أنه لنفس السبب قد اعتق الكثير من عبيده وجواريه ، ومع موافقتى على هذا الرأى وصحته كثيرا الا ان ذلك لا يمنع من استخدامه كدليل على اهتمام الحكم بالتعليم والمعلمين لانه كان فى وسعه استخدام هذه الأموال فى مجالات أخرى كبناء المساجد أو توزيعها على الفقراء دون توجيهها لبناء المكاتب ولصالح المعلمين .

(٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ — طبعة ليفى بروفنسال ، و ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، طبعة صادر فى بيروت ، و ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، تحقيق كولان .

العلماء العاملين فى هذا المجال خارج حدود الأندلس أو داخله، فمن خارج الأندلس، «وجه الى الحافظ أبى الفرج الأصبهانى، ألف دينار ، على أن يوجه له نسخة من كتاب الأغانى » (٣٧) . هذا ولقد أرسل المؤلف الى الحكم ، نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد فى العراق ، أو ينسخه احد منهم ، وأرسل أبو الفرج أيضا للحكم المستنصر « كتابا ألفه فى أنساب بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم وآثارهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة » (٣٨) . ولقد فعل المستنصر ذلك أيضا مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ، فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف الوراق الذى صنف له كتابا ضخما فى « مسالك أفريقيا وممالكها » ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى ابن مفرج (٣٩) .

(ب) أما فى داخل الأندلس ، فلقد كان نشاط الحكم فى مجال التشجيع على التأليف كبيرا جدا ، واتخذ فى هذا السبيل وسائل كثيرة ، منها مثلا :

الاعفاء من الغزو فى مقابل تأليف كتاب ، وهذا ما حدث مع الفقيه عبد الله بن مغيث (توفى ٣٥٢هـ / ٩٦٣م) ، المعروف

(٣٧) المقرى : النفح ، جـ ٤ ، ص ٧٢ . عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٣١٤ . اوكانيا : الحكم المستنصر بالله ص ١٨ .

(٣٨) عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ص ٤٥٦ . فوثالبيس : الكتب والمكتبات فى اسبانيا الاسلامية ، ص ٣٦ .

(٣٩) انطونيا : بلاط الحكم المستنصر ، ص ٤٢ ، عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٣١٤ . عنان : دولة الإسلام ، ص ٤٥٦ .

بابن الصفار ووالد القاضى يونس ، قاضى الجماعة بقرطبة ، والذى يحدثنا « ان الحكم المستنصر حينما خرج لغزو الروم سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م ، تقـدم الى والدى بالكون فى صحبته ، فاعتذر بضعف فى جسمه ، وألم لا ينجده فقال له الحكم : ان ضمن لى أن يؤلف فى أشعار خلفائنا بالمشرق والأندلس مثل كتاب الصولى فى أشعار خلفاء بنى العباس ، أعفيته من الغزو، وجازيته أفضل الجزاء » (٤٠) • ويستطرد الضبى فى هذه الرواية قائلا : « وخرج أحمد بن نصر الى الفقيه بذلك فقال : أفعل ذلك لأمير المؤمنين ان شاء الله ، قال : فقال المستنصر : ان شاء أن يكون تأليفه فى منزله فذلك اليه وان شاء أن يكون فى دار الملك المطلة على النهر فذلك له • فقال : نسأل أن يكون ذلك فى دار الملك وقال : أنا رجل مورود فى منزلى ، وانفرادى فى دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شـغل ، فأجيب الى ذلك ، وكمل الكتاب فى مجلد صالح ، وخرج به أحمد بن نصر الى الحكم المستنصر، فلقيه بالمجلد فى طليطلة، فسر به الحكم »(٤١)•

(جـ) تقديم الجوائز الكبرى ، بل واسناد الوظائف المهمة الى العلماء الذين يعملون على التأليف مثلما حـدث مع أحمد بن عبد الملك الأشبيلى (المتوفى ٤٠١هـ / ١٠١١م) ، ولقـد كان « أحفظ الناس لقول مالك وأصحابه ، جمع للحكم أمير المؤمنين كتابا حفيلا فى رأى مالك سـماه : كتاب الاستيعاب ، وكان جمعه له مع أبى بكر ، محمد بن عبد الله القرشى ، ورفع الى الحكم ، فوصلهما بجائزة كبيرة ، وقدمهما للشورى » (٤٢) •

---

(٤٠) ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص ٥٩ •

(٤١) الحميـدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٣٦ •
الضـبى : بغيـة الملتمس ، ص ٣٣٢ — ٣٣٤ •

(٤٢) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٢٣ ، ٢٤ •
ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٧٥ — ١٧٧ •

أما أحمد بن فرج الجيانى ، وهو العالم ، الشاعر الأديب ، فلقد ألف للحكم المستنصر كتاب « الحدائق » . عارض فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود الأصبهانى ، الا أن أبا بكر انما ذكر مائة باب فى كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مايتى باب فى كل باب مايتى بيت ، ليس منها باب متكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا (٤٣) . ومحمد بن عبد الله بن سيد ، من أهل بجانة (المتوفى ٣٦٣هـ / ٩٧٤م) كان فقيها ، حافظا للمسائل ، وبوب « المستخرجة » للحكم المستنصر بالله (٤٤) .

أما ما هو مثير للانتباه حقا ، وجدير بالملاحظة ، فهو تلك الروح العلمية الحقة للحكم المستنصر بالله ، ومعرفته لشروط تأليف الكتب ، من تهيئة المراجع واعداد المكان،ومتابعةالعاملين، فالحكم لم يكتف بالمساعدات المالية ، بل ساعد أيضا فى الناحية العلمية بامداد العلماء بما يحتاجون اليه من مصادر ، فقد أرسل الى الكاتب المصرى أبى سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب (تاريخ مصر والمغرب) كتابا استعان به هذا المؤرخ فى تصنيف كتابه فيما يخص الأندلس(٤٥) .

وكذلك أمر الحكم المستنصر بالله ، محمد بن الحسين ، وابنه سيد ، وأبا على القالى ، بمقابلة كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، فى دار الملك التى بقصر قرطبة . وأحضر من الكتاب نسخا كثيرة فى جملتها نسخة القاضى منذر بن سعيد ، التى رواها بمصر عن ابن ولاد ، «فمر لنا صور من الكتاب بالمقابلة،

---

(٤٣) الضبى : بغية الملتمس ، ص ١٥١ .
(٤٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٦٨ .
(٤٥) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ٣١٤ .

فدخل علينا الحكم فى بعض الأيام فسألنا عن النسخ » (٤٦) ، وتمضى القصة طويلة بعد ذلك فيما لا يهمنا ولا يعنينا ، ولكننا يجب أن نتوقف أمام هذه الأفكار العلمية السليمة فى القيام بتحقيق النصوص تحقيقا سليما ، وذلك بالتزود بكل ما هو مطلوب لذلك من الحصول على كافة النسخ ، ثم ايجاد المكان الصالح للعمل كما هو الحال فى أيامنا هذه .

سادسا — وجه الحكم عناية خاصة الى المكتبات ، حتى استطاع أن يجمع فى قصره مكتبة يصل عدد مجلداتها الى ٤٠٠٠٠٠ مجلد، وان فهارسها شغلت أربعة وأربعين مجلدا ، وليس هنا المكان المناسب لمناقشة صحة هذا الرقم ، ولكن جميع المصادر ، قديمها وحديثها ، العربية منها وغير العربية ، تؤكد هذا الرقم وتردده . وهناك فى هذا المجال دلائل صحة ، وعلامات شك . فمن علامات الشك التى راودتنى فى هذا الموضوع ، ما أثاره الدكتور ميكيل دى ابالثا (أستاذ تاريخ اسلامى بجامعة كومياس اللاهوتية بمدريد)، فى المناقشة التى تبعت محاضرتى عن « تدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس » (٤٧) ، حول ضخامة هذا الرقم واستحالته ، وخاصة اذا تمت مقارنته ببعض المكتبات الكبرى فى العالم اليوم ، مع اختلاف العصر . ولقد فكرت فى ذلك أيضا بعد ذلك ، ووجدتنى أمام عبارة أخرى ترددها الكتب التى تتحدث عن هذه المكتبة مفادها : « أن فهارس هذه المكتبة كانت أربعة وأربعين مجلدا ، فى كل واحد

---

(٤٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٤٧ — ٤٩ .

(٤٧) محاضرة القيتها بدعوة من المعهد الاسبانى العربى للثقافة فى ١٩٧٨/٢/٢١ م .

منها عشرون ورقة[٤٨] • ومعنى ذلك أن هناك ٤٤ مجلد × ٢٠ ورقة = ٨٨٠ ورقة × صفحتين لكل ورقة = ١٧٦٠ صـــفحة • فاذا افترضـــنا أن أقصى حمولة لعمود الصفحة الواحدة ٣٠ سطرا ، فان الاجمالى فى هذه الحالة سيكون ٥٢٨٠٠ عنوان • صحيح من الممكن أن يكون هناك من بعض العناوين عشرات النســـخ ، أو أن بعض الكتب تتكون من عشرات الأجـــزاء والمجلدات ، ولكن مع ذلك يبدو الفارق واسعا والبون شاسعا ، حتى اذا أخـــذنا بقول ابن حزم فى الجمهرة ، بأن كل مجلد من الفهرس يحتوى على خمسين ورقة[٤٩] ، وقمنا بالعمليـــة الحسابية المذكورة فان الرقم يصل الى ١٣٢٠٠٠ عنوان فقط، ولكن هذا الرقم الأخير قد يقترب بى الى تصديق الرقم الكلى للمكتبة الذى أورده كثير من المؤرخين ، وخاصـــة اذا ما علمنا بأن « القرطبيين جميعا كانوا فى هذه الفترة يعشقون الكتب ، وأنه فى الربض الغربى من المدينة ، كان حوالى مائة وسبعون امرأة يكسبن رزقهن من نسخ الكتب » [٥٠] • ويشك الدكتور غلاب فى هـــذا الرقم ، مرجعا ذلك الى الاسراف الذى كان يلجأ اليه المؤلفون المسلمون عادة عند ذكر الأرقام » [٥١] •

---

(٤٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ١٨١ •
ابن عذارى : البيـــان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ •
سالم : تاريخ المسلمين ، ص ٣١٤ •
(٤٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٢ •
ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا ، جـ ٢ ، ص ٣١٩ •
ابن الأبار : الحلة السيراء — جـ ١ ، ص ٢٠٣ — تحقيق د• حسين مؤنس •
(٥٠) سانشيث البرنوبث : اسبانيا الاسلامية ، جـ ١ ، ص ٤١٥ •
Sanchez Al-bornoz : La Espana Musulmana ; 1 : 415
مانويل ريو : محاضرات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٩٦ •
Rie ; Manuel : Lecciones de Ho Medieval ; 196
(٥١) محمـــد غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٠٥ •

ولكى يصل الحكم الى هذا المستوى فى جمع الكتب ، فانه لجأ الى عدة أساليب ناجحة منها : —

(أ) أنه وجه رسلا الى بلاد المشرق ، وخاصة الى بغداد ودمشق والقاهرة ، لشراء الكتب ، باذلا فى سبيلها أحسن الأثمان . ولعل أجمل وصف لذلك ، ما يقوله ابن الأبار عن الحكم المستنصر من أنه « كان شغوفا بالعلوم ، حريصا على اقتناء دواوينها ، يبعث فيها الى الأقطار والبلدان ويبذل فى أعلاقها ودفاترها أحسن الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت من كل جهة اليه ، والملك سوق ، ما نفق فيها ، جلب اليه ، حتى غصت بها بيوته ، وضاقت عنها خزائنه » (٥٢) .

ولقد جعل الحكم ، فى هذه البلاد ، مندوبين دائمين له ، لترقب هذه الكتب ، وتوافيه بها ، ويذكر لنا التاريخ أن من « وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة »(٥٣) .

(ب) استخدام الحكم عددا كبيرا من النساخ فى منزله يتولون نسخ الكتب النادرة ، بل انه أقام صناعة متكاملة فى داره ، تضم النساخين والمجلدين ، والضابطين ، يقول لنا ابن خلدون « ان الحكم جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ ، والمهرة فى الضبط ، والاجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله » (٥٤) . كما أن عباس بن عمر بن حرون الكتابى (توفى ٣٧٩هـ/٩٨٩م)، من أهل صقلية « قد خرج الى الأندلس ، فقدمها عام ٣٣٦هـ،

---

(٥٢) ابن الأبار : الحلة السيراء — ج ١ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .
ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ص ١٨١ .
المقرى : نفح الطيب — ج ١ ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .
(٥٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٢ .
فوثالبيس : الكتب والمكتبات ، ص ٣٥ — ٣٦ .
(٥٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .

واتصل بولى العهــد ، الحكم بن عبد الرحمن ، رحمه الله . « فتوسع له فى الورق ، وصار فى جملة الوراقين » (٥٥) .

(جـ) مساهمته فى جعل الأندلس أكبر أسواق الأدب والعلم ، فكان المؤلفون يؤمونها من جميــع البقاع ، حاملين انتاجهم فاذا مثلوا فيها ، اشترى منهم الخليفة هذه المنتجات بأثمــان حرية بتشجيعهم ،ويحيلهم على العودة بأضعاف ما كان معهم. ويقول الدكتور غلاب « ان التاريخ يحدثنا أن الحكم الثانى كان له فضل التفوق فى جمــع هذه الثروة العظيمة التى كان لها فيما بعد أثرها البارز فى بناء صرح المدنية الانسانية ، بما أحدثته من انقلاب فى الأفــكار الأوروبية فى أواخــر القرون الوسطى ، مما كان أحد الأسباب القوية والمباشرة للنهضــة الأوروبية » (٥٦) .

وكما أشرت من قبل ، لقد ساعد على ذلك أن الحكم لم يكن راعيا للعلوم والآداب فحسب ، بل كان عالمــا ، يعرف قيمة العلماء ويعرف قيمة الكتاب، ومع التسليم بمبالغة الكتاب والمؤلفين فى اضفاء الألقاب والأوصاف الا أنه لا شك فى أن لذلك ظلا من الحقيقة ولو نوعا ما ، فيقول ابن الأبار واصفا الحكم المستنصر « كان مع هذا كثير التهمم بكتبه والتصحيح لهــا والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد له كتابا كان فى خزانته الا وله فيه قراءة ونظر ، من أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ، ويكتب فيه بخطه ، اما فى أوله أو فى آخره ، أو فى تضاعيفه ، وفى نسب المؤلف ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهــذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا

---

(٥٥) ابن الفرضى : علمـــاء الأندلس ، ص ٢٤٧ .
(٥٦) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٤ .

عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ، ويحاضرون به » (٥٧) .

والحميــدى يؤكد أنه رأى بنفسه خط الحكم المستنصر على كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه ، حيث قيد الحكم تاريخ ميلاد ابن عبد ربه (٢٤٦هـ / ٨٦٠م) ، وتاريخ وفاته (٣٢٨هـ / ٩٣٩م) ويقول : هــذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا ، لأنه كان عالمــا ثبتا (٥٨) . كما أن القاضى عياض يقول عنه « وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم » (٥٩) .

لقد أطلت الكلام عن الحكم المستنصر بالله ، أو أن شئت أطلت الكلام عن فترة الخلافة ، لأنها « العصر الذهبى » (٦٠) لأسبانيا الاسلامية فى كافة المجالات ، ولأنها الفترة التى ألح فيها أســتاذى الدكتور « لويس سواريث فرنانديث » ، فى أكثر من مرة تحادثنا فيها ، على أنها أكثر فترات تاريخ أسبانيا الاسلامية تحديدا للذات ، ونضوجا للشخصية . هذا ولقد كتب المستشرق الأســبانى « ميالتثــور مارتينيث أنطونيا » عن بلاط الحكم المســتنصر العلمى مقالا وافيا ، فيه الغنــاء لمن

---

(٥٧) ابن الآبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

(٥٨) الضبى : بغيــة الملتمس ، ص ١٤٨ .

ليفى بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

Léve Provencal : Espana Musulmana, 2 : 317.

(٥٩) اليحصبى : ترتيب المدارك ، جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٦٠) ريبوبيس ، خوسيه : تاريخ أسبانيا — جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

Repollés Aguilar ; J. Ho de Espana, 2 : 129.

يريد الاطلاع على المزيد (٦١) .

ولكن الى أى مـدى يمكن لنا الانطـلاق فى الحديث عن رعاية الحكم المستنصر للعلوم والاداب ؟ كما قلت سـابقا ، لم يكن هذا هو المجال لنحديث تطويلا عن الاهتمامات العلمية للحكم ، ولذلك لم آستوف كثيرا مما تحت يدى مما قيل فى حق هذا الخليفة العظيم ، وأقول مرة اخرى ليس هنا المجال المناسـب تماما ، لتبيان الى أى مـدى كانت هـذه الرعاية والعناية ، فقط أود أن أشير الى بعض الملاحظات التى يمكن أن تلقى ظلالا ، ولو باهتة ، على اندفاع كل من يكتب فى الثناء على الحكم المستنصر .

ان ما حدث من اضطهاد لاتباع ابن مسرة على عهد والده . عبد الرحمن الناصر ، والتاريخ المحدد الذى بدأت فيه هـذه الحملة ، يؤكد أن الحكم فى تلك الفترة ، كان يناهز الأربعين من عمره ، كما أنه كان يتمتع بسلطة حقيقية ، ولكننا لم نسمع له صـوتا فى حماية هؤلاء مما أوقع بهم من عذاب ، بل ان نهايات حكم الحكم قد شهدت أيضا محاولات لتتبع الفلاسفة وعقابهم ، وأرجع كثير من المؤرخين ذلك ، الى ضعف الحكم وشـيخوخته ، ورغبته فى التكفير عن خطاياه ، بالتسامح مع الفلاسفة خلال حكمه (٦٢) .

---

(٦١) انطونيـا : بلاط الحـكم المستنصر العلمى ، نشر بمجلة الآباء الأغسطونيين بمكتبة الاسكوريال عام ١٩٢٩ .
Antuna. M.M. : La Corte Literaria de Alhaquem II en Cordoba ; en Religiôn y Cultura ; Revista de los P.A., 1929.

(٦٢) آسين بلاثيوس : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٩٠ .

علاوة على ذلك ، فان تربية الحكم كانت تربية دينية تقليدية، مما قد يجعل من الصعب عليه الانطلاق الى حدود بعيدة فى مسألة التسامح ، واعطاء الحرية لتبادل العلوم ، وينقل لنا القاضى عياض رأى الحكم المستنصر فى كل من هو على غير المذهب المالكى ، ومن ذلك الرأى يمكن لنا أن نقف ، ولو قليلا ، أمام ذلك الاندفاع الهائل فى تقييم الحكم المستنصر ونص القاضى عياض كالتالى :

«وفى كتاب الحكم المستنصر الى الفقيه أبى ابراهيم(٦٣)، وكان الحكم ممن طالع الكتب ، ونقر عن أخبار الرجال تنقيرا لم يبلغ فيه شأوه كثير من أهل العلم ، فقال فى كتابه :

وكل من زاغ عن مذهب مالك ، فانه ممن رين على قلبه وزين له سوء عمله » (٦٤) .

---

(٦٣) أنظر العلاقة التى نربط الحكم بالفقيه ابى ابراهيم من خلال القصة الواردة فى هذه الأطروحة ، ص ٧٥ — ٧٧ .
(٦٤) اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(هـ) الدولة العـامرية :

الحديث عن الدولة العامرية ، ليس الا امتدادا للحديث عن فترة الخلافة فى الأندلس ، ولكن أغلب المؤرخين يميل الى اطلاق هذا الاسم على حكم المنصور بن أبى عامر وولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، حيث أنهم قد استولوا على السلطة الحقيقية فى الأندلس ، ولم يتركوا للخليفة « هشام الثانى » الذى حكم من (٣٦٦ — ٣٩٩هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٩م) ، الا السلطة الاسمية •

وأورد هنا ما كتبه المستشرق الفرنسى الكبير «ليفى بروفنسال» عن التغير السياسى ، الذى وقع فى هذه الفترة :

« بدأت أسبانيا الاسلامية ، بعد وفاة الحكم الثانى ، فترة جديدة تعرضت فيها سلطة الخلافة لضربة قوية لم يكن لهـا سابق أو نذير ، حيث أن الخليفة الجديد ، علاوة على كونه حدثا صغير السن ، كان أيضا أضعف من أن يمارس بنفسه مهام الخلافة ، وأضعف من أن يطالب بذلك حتى بعد أن صار شابا أو رجلا كبيرا ، لقد انتقلت هذه المهام ، وتلك المسئوليات الى يد ديكتاتور حقيقى ، أو الى «الحاجب» الذى كان رجلا شهما ، غير هياب أو متردد • انتقلت هذه المسئوليات الى يد عامل أو موظف ، لم يعرف لطموحاته حدود ، ارادته من حديد، ذو قدرة سياسية فائقة ومقدرة حربية لا ينازع عليها ، ومهارة لاتخطىء فى اقتناص واستغلال الفرص ، مما مكنه من الصعود الى أعلى مراتب الشرف والرياسة فى ذلك الوقت ، لقد كان يكفى مرور عدة أعوام ، تمكن فيها من القضاء على كافة منافسيه ، ليحدث ما يمكن أن نطلق عليه « انقلابا » وليوضع بين يديه ، دون منازعة ، سلطة الحكم فى الأندلس ، ومن ذلك الحين ، سيصعد هذا الشاب طريقا مكللا بالغار ، مؤكدا أنه ، ربما أكثر مما كان عبد الرحمن الناصر ، فارس وبطل مجد الاسلام على شبه الجزيرة الأيبيرية دون منازع ،

وأنه قد سجل فى سجلات تاريخ الامبراطورية الأسبانية الاسـلامية (الأندلس) أعظم انتصاراتها رنينا ودويا ، فقد أخضع بيد حازمة ، ثورات السكان ، وتمردات المدن، وقضى على نفوذ الأرستقراطية العربية، وسلطة الصقالبة وأعاد تنظيم الجيش ضاما اليه قوات تدين له بالولاء والطاعة العمياء • لقد كان هذا الرجل ، على مدى أكثر من عشرين عاما، الحاكم الأوحد ، والسلطان المطلق فى الأندلس ، بينما لم يكن للخليفة الحقيقى الا اللقب ، والمراسم المظهرية » (٦٥) •

لقد قلت فى أول هذا الباب ، أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن التعليم أو عن رعاية العلوم والآداب ، وأن العامل السياسى ، يتدخل دائما ، لكى يجعل من العامل التعليمى أداة لخدمة السياسة ، والمثال الحالى للمنصـور بن أبى عامر ، مثال حى على محـاولات التقرب ، ولو ظاهريا لمشاعر العامة ، واستمالة رجال الدين ، ويصف لنا صاعد الطبقى المتوفى (٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) ما حدث بقوله « تولى هشام وهو غلام لا يحتلم بعد فتغلب على تدبير ملكه بالأندلس ، حاجبه أبو عامر محمد بن عبد الله وعمد أول تغلبه عليـه الى خزائن أبيه « الحـكم » الجامعة للكتب المذكورة وغيرها ، وأبرز ما فيها من ضروب التآليف بمحضر من خواص أهل العلم بالدين ، وأمرهم باخراج ما فى جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى علوم المنطق ، وعلوم النجوم ، وغير ذلك من علوم الأوائل ، حاشا كتب الطب والحساب ، فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة فى اللغة والنحو ، والأشعار ، والأخبار ، والطب

---

(٦٥) ليفى بروفنسال : اسبانيا الاسـلامية ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ، وانظر ايضا فى هـذا المجـال : كارل غبريمبرج : العصـور الوسطى ، ص ١٣٤ — ١٣٨ • واميليومتر : اسـبانيا العصـور الوسـطى ، ص ٩٣ ، ٩٤ •

Léve Provencal : Espana Musulmana ; 1 : 497.
Grimberg ; Carl : La Edad Media : 134 - 138.
Mitre ; Emilio : La Espana Medieval, 93 - 94.

والفقه ، والحديث ، وغير ذلك ، من العلوم المباحة عند أهل الأندلس، الا ما أفلت منهـا ، وذلك أقلها ، أمر باحراقها وافسـادها ، فأحرق بعضها ، وطرح بعضها فى آبار القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة، وغيرت بضروب من التغابير ، وفعـل ذلك تحببا الى عوام الأندلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهما عنـدهم بالخروج عن الملـة ومظنونا به الالحاد فى الشريعة ، فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك ، وخملت نفوسهم وتستروا بما كان عنـدهم من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ، ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحسـاب والفرائض والطب ، وما أشبه ذلك ، الى أن انقرضت دولة بنى أمية ، من الأندلس » (٦٦) .

ومن ناحية أخرى ، شهدت فترة المنصور ، اضطهادا حقيقيا لأتباع ابن مسرة ، وتولى القاضى محمد بيقى بن زرب — على ما بينت سابقا — مسألة الرد عليهم ، كما أنه تولى احراق كتب ومؤلفات كل من كان يشك فى أنه من أتباع ابن مسرة ، أمام المسجد الجامع بقرطبة ، وعلى مرأى جمع غفير من الناس ، من بينهم أصحاب هذه المؤلفات — أورد ذلك النباهى (توفى قبل عام ٨٠٠ هـ/١٣٩٨ م) ، ولكن النباهى أخطـأ فى تحديد عام ٣٥٠هـ /٩٦١م ، كسنة احراق كتب أتباع ابن مسرة ، وتابعه على ذلك الخطـأ الدكتور جودة عبد الرحمن فى مقالته المنشـورة عن القاضى أبى الوليـد الباجى (٦٧) ، يقـول النباهى : « اعتنى القاضى ابن زرب بطلب أصـحاب ابن مسرة ، والكشف عنهم ، واستتابة من علم أنه يعتقد مذهبهم ، وأظهر للناس كتابا حسنا وضعه فى الرد على

---

(٦٦) صاعد الطبقى : طبقات الامم ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٦٧) جودة عبد الرحمن : وصـية القـاضى أبى الوليد الباجى ، ص ٢٢ .

ابن مسرة ، قرىء عليه وأخذ عنه ، وفى سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، استتاب جملة من الناس ، جيء بهم اليه ، من أتباع ابن مسرة ، ثم خرج الى جانب المسجد الجامع الشرقى ، وقعد هناك ، فأحرق بين يديه ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه ، وهم ينظرون اليه فى سائر الحاضرين » (٦٨) .

والخطأ فى تحديد التاريخ هنا ، حيث كان منذر بن سعيد البلوطى هو قاضى الجماعة فى قرطبة حتى وفاته فى عام ٣٥٥هـ / ٩٦٧م ، وتبعه القاضى محمد بن السليم(٦٩) ، وتولى ابن يبقى القضاء بعد وفاة محمد بن السليم فى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ، وعند ذلك ، تولى تعقب أتباع ابن مسرة(٧٠) ، ويبدو أن النباهى لا يعول عليه كثيرا فى التواريخ ، والدليل على ذلك ، ذكره عند الحديث عن القاضى منذر ، أنه « ظل قاضيا الى أن توفى فى عقب ذى القعدة سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م » (٧١) ، ثم ذكره لنص كتاب الحكم المستنصر بالله ، فى تولية محمد بن السليم القضاء ، وأن هذا الكتاب قد صدر فى سنة ٣٥٣ هـ/٩٦٤ م (٧٢) . والصحيح أنه تولى سنة ٣٥٦ .

سمة ثالثة ، يمكن أن تطلعنا على التداخل بين السياسة والعلم ، حيث أن المنصور بن أبى عامر ، لم يواصل اكرام بعض العلماء الذين أعتبرهم صنائع الحكم المستنصر ، ونستدل على ذلك مما يقوله ابن فرحون عند حديثه عن محمد بن حارث الخشنى (توفى ٣٧١هـ / ٩٨١م)

---

(٦٨) النباهى : تاريخ قضاة الاندلس ، ص ٧٨ .

(٦٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٤٠ .

النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ . المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ط ٧ ، ص ٤٧ .

(٧٠) أنظر ما قاله آسين بلاثيوس فى : ابن مسرة ومدرسته ، ص ٨٩ — ٩٠ .

بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢١٦ .

(٧١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٥ .

(٧٢) نفس المصدر : ص ٧٦ . وانظر التاريخ الصحيح عند ابن الفرضى ، ص ٣٧٢ .

من أنه « قد آلت به الحال بعد موت الحكم ، وتقصير ابن أبى عامر بصنائع الحكم ، الى الجلوس فى حانوت لبيع الأدهان » (٧٣) .

ومن ناحية أخرى ، كان للمنصور اهتماماته العلمية ، وجهوده فى الوصول بالأندلس من الناحية الثقافية الى مستوى أرفع مما كانت عليه خلال فترة الخلافة على عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى،فقدمضى على نفس الأساليب تقريبا فى تشجيع العلم والعلماء . ويمكن تلخيص جهوده فى ذلك المجال فى النقاط التالية :

أولا — الحث على تأليف الكتب ، وتقديم العطايا الضخمة لمن يقومون بها ، فقد دفع لصاعد الطبقى خمسة آلاف دينار ثمنا لكتابه « الفصوص » (٧٤) ، كما أن « أبو مروان القرشى المعيطى ، جمع فى أقاويل مالك بن أنس وروايات أصحابه عنه كتابا ، اجتمع على جمعه مع الفقيه أبى عمر أحمد بن عبد الملك ، المعروف بابن المكوى ، بأمر المنصور بن أبى عامر » (٧٥) .

كما أن حسان بن مالك بن أبى عبده ، حينما رأى المنصور بن أبى عامر مهتما بكتاب كتب «فىأيامالرشيد» ، فقام بتأليف كتاب للمنصور على مثال هذا الكتاب ويقول الضبى أن « سبب تأليفه اياه ، أنه دخل على المنصور وبين يديه كتاب أبى السرى يعجب به ، فخرج من عنده ، وعمل هـذا الكتاب وفرغ منه تأليفا ونسخا ، وتصويرا ، وجاء به فى مثـل ذلك اليوم من الجمعة الأخرى وأراه اياه ، فسر به ، ووصـله عليه » (٧٦) .

---

(٧٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ .
(٧٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ .
عنـان : دولة الاسـلام فى الأندلس — العصر الأول — القسـم الثانى ، ص ٥٢٧ .
(٧٥) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٧٧ .
الضبى : بغيـة الملتمس ، ص ٥١٤ .
(٧٦) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٨٣ .
الضبى : بغية الملتمس ، ص ٢٧١ .

ثانيا — أن المنصور قد شجع أيضا قدوم العلماء المشارقة الى الأندلس ، وأعطاهم نفس الفرصة فى احضار المزيد من الكتب المشرقية الى قرطبة، واذاعتها بين الناس، كما أنه حثهم على تأليف كتب جديدة، ربما لا تقل فىأهميتها عن الكتب التى ألفت على عهد عبد الرحمن الناصر أو الحكم المستنصر ، ومن أشهر الوافدين على المنصور ، أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعى ، اللغوى (المتوفى ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م) ، وألف للمنصور مجموعة كتب أوردها الحميدى الذى يقول أن المنصور كان كثير الشغف بأحدها — كتاب الحواس — « حتى رتب له من يخرجه أمامه فى كل ليلة » (٧٧) .

ثالثا — اتخذ المنصور مجلسا علميا خاصا كل أسبوع كان يلتقى فيه مع العلماء والأدباء ، مما أثار حماس الحركة الأدبية على عصره ، وجعل التنافس بين العلماء يزداد ، وخاصة فى المجالات اللغوية والشعر ، وتجمع الكتب تقريبا على أن المنصور « كان محبا للعلم ، مؤثرا لأهل الأدب ، مفرطا فى اكرام من ينتسب اليهما ويفد عليه متوسلا بهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ومشاركته فيهما ، وكان له مجلس معروف فى الأسبوع ، يجتمع فيه من أهل العلوم ، للكلام فيها بحضرته، من كان مقيما فى قرطبة » (٧٨) .

رابعا — اهتم المنصور اهتماما كبيرا بالشعراء ، حتى وصل به الأمر الى انشاء ديوان خاص بالشعراء جعل له رئيسا مسئولا عنه هو « عبد الله بن محمد بن مسلمة » ، وتحدثنا كتب التاجم عن هذا

(٧٧) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٣ — ٢٢٧ .
الضبى : البغية ، ص ٣١٩ — ٣٢٣ .
المراكشى (عبدالواحد) : المعجب ، الطبعة السابعة ، ص ٥٠—٦٠ .
Pons Boigues : Bio Bibliografico, PP. p. 122.

(٧٨) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٣١ و ص ٣٨ .
ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٦١ .
عنان : المصدر المذكور ، ص ٥٢٥ — ٥٢٧ .

الرجل بأنه كان من أهل العلم والأدب ، ناقدا من نقاد الشعر ، كان رئيسا جليلا فى أيام المنصـــور بن أبى عامر ، وفى ديوانه كان زمام الشــــعر فى تلك الدولة ، وعلى يديه كانت تخرج صـــلاتهم ورسومهم وعلى ترتيبه كانت تجرى أمورهم (٧٩) .

وفى هذا الديوان ، كان يسجل كبار الشعراء وتصرف لهم رواتبهم حسب مكانتهم الأدبية ، وملكتهم الشعرية ، ووردت أخبار هذا الديوان فى معظم كتب التراجم وكتب الأدب وكتب التاريخ ، ووردت أخبـــار هذا الديوان كثيرا مع ترجمة « أحمد بن محمد بن دراج القســـطلى (المتوفى ٤٢١ هـ/١٠٢٧ م) (٨٠) .

خامسا ـــ قام المنصور بنفسه باختبار العلماء ، سواء القادمون عليه من المشرق أو ممن كانوا من أهل الأندلس ، وكان يعقد لهم مجلسا للمناظـــرة يحضره كبار العلمـــاء والأدباء والشـــعراء ، واذا ما أثبت المتحن قوته وبراعته ، ونجاحه فى الاختبار ، فان المنصور كان يهديه هدية ، ويقدم له مبلغا من المـــال كبيرا ، وأورد هنا حادثتين للدلالة على ذلك ، أولاهما مع الشاعر « ابن دراج القسطلى » المذكور آنفا ، الذى « سعى به الى المنصور ، وأنه منتحل ، سارق لا يســـتحق أن يثبت فى ديوان العطـــاء ، فاســـتحضره المنصـــور واختبره ، واقترح

---

(٧٩) الحميـــدى : جـــذوة المقتبس ، ص ٢٣٩ .
الضبى : البغية ، ص ٣٢٣–٣٢٤ « طبعة مدريد » ، و ص ٣٣٦ — ٣٣٧ « طبعة القاهرة » .
(٨٠) الحميـــدى : الجذوة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
الضبى ، بغيـــة الملتمس ، ص ١٥٨ ـــ ١٦١ « طبعة القـــاهرة » ، و ص ١٤٩ ، ٥٠ « طبعة مدريد » .
ابن بشكوال : الصلة ، ص ٤٠ .
محمود على مكى : ديوان ابن دراج القسطلى ، المقـــدمة .

عليه ، فبرز ، وسبق وزالت التهمة عنه فوصله بماية دينار ، وأجرى عليه البرزق ، وأثبته فى جملة الشعراء » (٨١) •

أما الحادثة الثانية ، فقد حدثت مع صاعد البغدادى ، الذى كان حاضرا مجلس المنصور يوما فأحضرت له وردة فى غير وقتها لم يستتم فتحها فأنشد صاعد بديهة بيتين جميلين من الشعر ، أعجب بهما المنصور أيما اعجاب ، فحسده على ذلك « ابن العريف ، وقال لابن أبى عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه • فقال المنصور : أرنيه ، فخرج الرجل وذهب الى صديق له « ابن بدر » ، وحكى له القصة ، فأنشد له أبياتا على نفس الوزن والقافية ، وضمن هذه الأبيات بيتى صاعد • وأخذ «ابن العريف » هذه الأبيات ، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى ، ومداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها ، اشتد غيظه على صاعد ، وقال لحاضرين ، « غدا أمتحنه ، فان فضحه الامتحان ، أخرجته من البلاد ، ولم يبق فى موضع ، لى عليه سلطان » •

فلما أصبح وجه اليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء فدخل بهم الى مجلس محفل قد أعد فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ، ووضع على السقائف لعب من الياسمين فى شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصباء، وفى البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : ان هذا اليوم اما أن تسعد فيه معنا واما أن تشقى بالضد عندنا ، لأن قوما قد زعموا أن كل ما تأتى به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدى ملك قبلى شكله ،

---

(٨١) أنظر المراجع المذكورة فى الملاحظة السابقة ، كما أن القصة كاملة واردة فى عدد كبير من كتب الأدب الأندلسى التى تحدثت عن « ابن‌دراج القسطلى » ، كما أشار الى ذلك الدكتور « أحمد هيكل » فى محاضرة له بالمعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد •

فصفه بجميع ما فيه ، « فأنشد صاعد قصيدة رائعة فى ذلك ، تفوق بها على الجميع ، وأمر له المنصـــور بألف دينار ، ومائة ثوب ، ورتب له فى كل شهر ثلاثين دينارا ، وألحقه بالندماء » (٨٢) .

وهذا الاختبار الذى تعرض له صـــاعد اللغوى ، ليس الأول من نوعه ، بل لقد عقد له امتحان آخر عند وصـــوله ، ووردت تفاصـــيله أيضا فى « نفح الطيب » ، حيث يقول : ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصـــور جلس يوما ، وعنده أعيـــان مملكته ودولته من أهل العلم ، كالزبيدى والعاص ، وابن العريف ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا ، يزعم أنه متقـــدم فى هذه العلوم ، واحب أن يمتحن ، فوجه اليه ، فلما مثـــل بين يديه والمجلس قد احتفل ، أخجل ، فرفع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن « أبى سعيد السيرافى » فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب « ســـيبويه » فبادره العاص بالســـؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل صناعته ، فقال الزبيدى ، « صاحبكم ممخرق » (أى كاذب ومموه) فقال صاعد : أخال الشيخ صناعته الأبنية ؟ ، قال الزبيدى : أجل . قال صاعد : وبضاعتى أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار وفك المعتمى ، وعلم الموسيقى ... (٨٣) .

ويبدو أن ابن المنصور ، الذى ولى الحجـــابة بعـــده ، المظفر عبد الملك ، قد واصل سياسة الأهتمام بالعلم والعلماء ، فعلى الرغم من فترة حكمه القصيرة ، والمشاغل العسكرية التى خاضها ، الا أننا نراه

---

(٨٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ .
ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، جـ ١ ، الصفحات ١٤ — ١٩ (طبعـــة احسان عباس) .
المقـــرى : نفح الطيب ، ص ٧٩ — ٨١ .

(٨٣) المقـــرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٧٨ .

يقوم بزيارة لبعض الفقهاء فى أماكن تدريسه ليتحدث معه ، ويطلب منه الدعاء له (٨٤) .

كما أنه قد قام بنقل العالم أبى محمد مكى بن أبى طالب المقرى (المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) « الى جامع الزاهرة ، فاقرأ فيه حتى انصرمت دولة آل عامر . فنقله محمد بن هشام المهدى الى المسجد الجامع بقرطبة ، وأقرأ فيه الفتنة كلها » (٨٥) .

وسقطت الدولة العامرية ، وتعرضت الأندلس للفتنة الكبرى ، ويحدثنا ابن حيان عن مقتل أكثر من ستين مؤدبا فى مدينة قرطبة وحدها ، مما يدل على كثرة انتشار مراكز التعليم فى قرطبة فى هذه الفترة . ولقد نقل الينا ابن بسام نص أبى حيان قائلا : « قال أبو حيان : وأصيب فى تلك الوقعة من المؤدبين خاصة ، نيف وستون ، عريت سقائفهم فى غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم ، لعدمهم » (٨٦).

وعلى الرغم من الفتنة العنيفة التى أحاطت بقرطبة ، والظروف السياسية السيئة ، وتقلب الأمراء عليها ، الا أننا لا نعدم بعضهم ممن يهتم بالعلم والعلماء ، بل ويجعل من ضمن الوظائف الكبرى فى قصره ، خدمة خزانة الطب والحكمة ، فالخليفة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، الذى تولى فى عشر من شهر رمضان سنة ٤١٤ هـ ، ديسمبر ١٠٢٣ م ، والملقب بالمستظهر بالله ، اتخذ بعد توليته ، قرارا ببعض الوظائف ، أوردها ابن حيان على النحو التالى :

---

(٨٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٨٤ .

(٨٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٣١ — ٦٣٢ .
عجيل حسن : الحياة العلمية فى مدينة بلنسية ، ص ٢٠٩ .

(٨٦) ابن بسام : الذخيرة ، م ١ ، ج ١ ، ص ٣١ ، وطبعة احسان عباس ، ج ١ ، ص ٤٤ .
عبد الله جمال الدين : رسالته للدكتوراه ، ص ٧ .

خدمة المدينتين ، والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناضى والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة وخدمة الطراز ، وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها ؛ وخدمة الهواية والقنص والدفع ، وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، **وخدمة خزانة الطب والحكمة** ، وخدمة الانزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق (٨٧) •

قرطبـة الخلافة :

اتخذ المسلمون مدينة قرطبة عاصمة لهم ، لأول مرة ، فى عام ٩٩ هـ/٧١٩ م ، وحظيت بنصيب كبير من عناية ولاة الأندلس منذ ذلك التاريخ • والتغير الكبير الذى طرأ على المدينة بدأ مع بداية عهد عبد الرحمن الداخل الذى عمد الى « تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها ، فشيد الدور وأقام القصور » (٨٨) •

ويقول المقرى عن عبد الرحمن الداخل « انه لما تمهد ملكه شرع

---

(٨٧) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، طبعة احسان عباس ، جـ ١ ، ص ٥١ •
عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، ص ٦١٩ •
عبد الله جمال الدين : رسالة للدكتوراه ، ص ١٤ •
وقد شن الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم هجوما عنيفا على هذه الملاحظة قائلا : ليس فى هذا ما يدل على الاهتمام بالعلم والعلماء ، فبعد تبديد خزانة القصر ، وتدمير الزهراء والزاهرة وقرطبة والرصافة وقتل المؤدبين والاطاحة بالشعراء وتفريقهم الى شرق الأندلس تتحدث عن اهتمام بالعلم والعلماء على أساس أقوال لا قيمة لها ، نفس ابن حيان يعلق عليها بقوله : « هذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .... » فله شكرى على هذا التصحيح •
(٨٨) عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ص ٤٦ •

فى تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالســـور ، وابتنى مدينه قصر الامارة ، والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، واصلح مساجد الكور ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا ، وجنانا واسعه ، نقل اليها غرائب الغراس ، وكرائم الشـــجر من بلاد الشام ، وغيرها من الاقطار » . كما أنه يعود الى القول فى موضع اخر : « ان عبد الرحمن الداخل لـــا استقر أمره ، وعظم ، بنى القصر بقرطبة ، وبنى المسجد الجامع وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى بقرطبة الرصافة ، تشبها برصافة جده هشام » (٨٩) .

كما أن عبد الرحمن الداخل قد بدأ فى بناء المسجد الجامع — ذلك المسجد الذى تطور فيما بعد لكى يصبح أكبر مسجد فى غرب الاسلام على الاطلاق ، وواحدا من أكبر المساجد ، فى العالم الاسلامى بأكمله .

وشهدت قرطبة تطورا كبيرا على عهد الأمير هشام « الذى زاد فى مسجد أبيه ، وشيد غيره من المساجد فى أنحاء البـــلاد ، وعنى بنشر اللغة العربية وتدريسها حتى أصبحت تدرس فى مدارس اليهود ، كما جمل مدينة قرطبة ، وزينها بالحدائق والبســـاتين ، والمبانى الجميلة . وكثيرا ما كان هشام يشاهد متجولا فى طرقات قرطبة ، يخالط الناس ، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم » (٩٠) .

أما عصر عبد الرحمن الثانى فقد شهد ما يمكن أن نطلق عليه انقلابا اجتماعيا كبيرا ، حيث شهدت المدينة سيلا من التأثيرات المشرقية عامة والعراقية خاصة ، ساهمت فى تطوير المستوى الاجتماعى والأدبى والفنى بالمدينـــــة . ساعـــد على ذلك كـــون الأمير عالمـــا متبحرا فى علوم الشريعة والفلسفة (٩١) ، علاوة على كونه شاعرا مطبوعا ، ذا همة عالية ،

---

(٨٩) المقـــرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٨٣ .

(٩٠) عبد الشـــافى غنيم : محاضرات فى التـــاريخ الاندلسى : عصر الامارة .

(٩١) ابن خلدون : التاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ .
المقـــرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣٢٥ .

احتضن العلماء والأدباء ، ورفع قدر رجال العلم والأدب والفن ، ممن ضاق المشرق بمواهبهم ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم وفادتهم .

ويرى الدكتور عبد العزيز سالم « أن المجتمع القرطبى قد تأثر فى عصر عبد الرحمن الثانى ، بالتقاليد العراقية التى أخذت تغزو الأندلس ، وتمتزج بالتقاليد الشامية ، وتؤلف فيما بعد طابعا أندلسيا أصيلا تميزت به الأندلس منذ خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله حتى سقوط مملكة غرناطة » (٩٢) .

وعلاوة على ذلك ، فان عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط قد شهد قدوم الموسيقى ، الفنان الشهير الحسن بن على بن نافع المعروف بزرياب والذى سبقت الاشارة اليه قبلا ، ويعتبر زرياب ، بلا شك ، بداية عصر اجتماعى جديد ، لا فى مجال الموسيقى والغناء فحسب ، ولكن فى مجالات الحياة الاجتماعية حيث عمل على تطعيم هذه الحياة بكثير من التقاليد العراقية والفارسية ، واذا كان وصول زرياب وما قدمه لصالح الآداب الاجتماعية القرطبية ، يعتبر نقطة حاسمة ، فان الفضل فى ذلك يرجع أيضا الى الأمير الأندلسى « الذى جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة » (٩٣) .

ويرى المستشرق الأسبانى أنخيل غونثاليث بالنسيا أن زرياب « لم يستهو أفئدة أهل قرطبة بصوته وجمال أغانيه فحسب ، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته فى ارسال شعره ، وولائمه البديعة التى كان يتفنن فى ترتيبها ، فأخذ الناس عنه ذلك كله ، وأصبح ذوقه مقياس الذوق لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذى يحتذيه القرطبيون

---

(٩٢) عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ١ ، ص ٥٦ .

(٩٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٦ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

فى اعداد مناربهم ، ومن ذلك الحين ، جهد حكام الأندلس ، فى أن يكون لقصورهم مجد أدبى يحاكى ما كان لقصور خلفاء المشرق « فاهتموا برعاية الاداب والعلوم والفنون ، حتى تصل قرطبة الى مستوى يضاهى ما وصلت اليه دمشق وبغداد »[٩٤] .

ولقد كانت قرطبة فى مبدأ نهضتها ، تتخذ من بغداد مثلا أعلى ، تسير على نموذجه ، وتنسج على منواله فى كل شىء ، « فى الآداب والفن ، وفى الموسيقى والفلك ، وفى الطب والكيمياء ، وفى العلم والحكمة ، وفى الاخلاق والسياسه ، وبالاجمال فى كل نواحى الحياة الثقافية »[٩٥] ، وهذا صحيح نوعا ما ، ولكن الحال لم يبق كذلك دائما ، لأن قرطبة على عهد عبد الرحمن الثالث ، والحكم المستنصر ، والخليفة هشام الثانى (فترة المنصور بن أبى عامر) ، قد شهدت تطورا عمرانيا وعلميا واجتماعيا ، جعلها من أعظم المدائن فى الغرب ، ان لم تكن احسنها فى العالم كله ، وتركت قرطبة آثرها الخالد على كافة الكتاب والمؤلفين فى الشرق والغرب ، واعترف العالم كله بعظمتها وجلالها ، ويكفى ان نلقى نظرة على ما قاله فى حقها بعض المؤلفين العرب والأجانب لكى نصل الى تصور حقيقى لهذه المدينة :

« ... أما قرطبة فهى قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم وأم مدائنها ومساكنها ، ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة فى النصرانية والاسلام[٩٦] ، ومدينة العلم ، ومقر السنة والجماعة ، نزلها فيما

---

(٩٤) غونثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٤٨ — ٥٠ .
عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة — ج ١ ، ص ٥٧،٥٨ .

(٩٥) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٣ .

(٩٦) فى هذه الجملة نوع من المبالغة ، لأن قرطبة لم تكن يوما دار المملكة فى النصرانية فقبل فتح المسلمين للأندلس ، كانت طليطلة ، أما أثناء حرب الاسترداد وبعدها فلقد اتخذت أكثر من مدينة فى اسبانيا ، عاصمة لأسبانيا ، كما أن اسبانيا فى ذلك الوقت كانت مقسمة الى ممالك عدة ، لكل منها عاصمة ، وحين توحدت اسبانيا على يد الملكين الكاثوليكيين كانت عاصمة أسبانيا هى المدينة التى يوجد بها البرلمان الاسبانى ، ثم اتخذ فيليب الثانى مدريد عاصمة له فى عام ١٥٦١ م .

نــزل جــل من الصـــحابة ، وجمـــلة من التابعين ، رضى اللـــه عنهم أجمعين » (٩٧) .

ويزيد الادريسى (٥٦٠هـ / ١١٦٤م) (٩٨) فى وصف المدينة فيقول :

« ومدينة قرطبة ، قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدائنها ودار الخلافة الاسلامية ، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستتر ، واليهم الانتهاء فى السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ، وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق ، وحميد الطرائق ، ولم تخل قرطبة من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم مراكب ، وهم علية ، وهى فى ذاتها خمس مدن يتلو بعضها بعضا ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنـــادق والحمامات وســـائر الصـــناعات (٩٩) . وفى طولها من غربيها الى شرقيها ٣ أميال ، وكذلك عرضها من باب القنطرة الى باب اليهود بشمالها ميل واحد ، وهى فى سفح جبل مطل عليها ، يسمى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هى

---

(٩٧) مجهول : جغرافية الاندلس وتاريخها ، المخطـــوط رقم ٣٦ ، بالمعهـــد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، ص ١١ ، ١٢ .

د. حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبـــة الاسلامية ، مجلة المعهد المصرى ، العـــدد ١٣ ، ص ١٦٤ .

(٩٨) انظـــر : تاريخ الجغرافيـــة والجغـــرافيين فى الأندلس من ص ١٦٥ الى ص ٢٨٠ .

(٩٩) يورد الدكتور حسين مؤنس تفسيرا لهذه العبارة ، عند حديثه عن « طبوغرافيـــة قرطبة » ، مفاده انقسام قرطبـــة الى خمســـة اقسام رئيسية يتـــولى مسئولية الحراسة فى كل منها عريف ، او ان المدينـــة خلال زيارة الأدريسى لهـــا لم تعد مدينـــة واحـــدة ، وانمـــا خمس مدائن متجاورة يشرف على الأمن فى كل منها عريف مستعينا بعدد من الحـــراس ، او ان ذلك هو التقسيم الذى أقامه المرابطون فى الأندلس ، انظر فى ذلك « تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » ، ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ .

التى فيها باب القنطرة (١٠٠) ، وفيها المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميقا ، طولا وعرضا » (١٠١) .

أما المقرى ، فقد خصص صفحات طويلة للحديث عن قرطبة ، والاشادة بجمالها وعظمتها ولا أجد داعيا لذكرها هنا لطولها ، ولكن سأورد ما نقله عن الحجارى (المتوفى ٥٥٠هـ / ١١٥٥م) :

« حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة ، كانت منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وأم القرى ، وقرارة أولى الفضل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض ، وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة .

والسبب فى تبريز القوم حديثا وقديما على من سواهم ، أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط ، الا على البحث والطلب ، لأنواع الفنون والأدب » (١٠٢) .

---

(١٠٠) بالنسبة للمدينة الوسطى — انظر الدكتور عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية ، جـ ١ ، ص ١٧٥ ، وعن القنطرة ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .
وإميليو غارثيا غومث فى : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، مجلة الأندلس ، العدد ٣٠ ، ص ٣١٩ — ٣٨١ .
Garcia Gomez : Notas Sobre la Topografia Cordibesa en Los «Anales de al Hakam II» por Isa al Razi. Al Andalus XXX ; 319.

(١٠١) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٠٨ .

(١٠٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٩ .
وانظر أيضا فى نفس الجزء الصفحات ٨ ، ١٠ ، ١١ ، وجـ ١ ، ص ١٤٧ .

أما عن الكتاب الغربيين عامة ، والأسبان خاصة ، فقد أعطوا المدينة حقها من الوصف والتقدير ، وسنشير باختصار الى بعض أقوالهم :

« كما كان القرن العاشر الميلادى قرن الكمال بالنسبة للخلافة ، فهو أيضا كذلك بالنسبة لقرطبة ، تلك المدينة الواقعة بين الشرق والغرب ، كانت مثل بيزنطة ، ملتقى للتيارين . وعلى عهد عبد الرحمن الناصر ، وصلت مساجدها الى ألف وستمائة مسجد وحماماتها لا يحصيها عدد . ازدانت المدينة بالقصور الفخمة ، والعلماء الأجلاء ، الذين من أجلهم جمع الحكم الثانى مكتبته الشهيرة ذات الأربعمائة ألف مجلد » (١٠٣) .

« قرطبة ، العاصمة الخلافية ، وصلت الى قمة لمعانها ، الى أن تصبح أكثر مدن عصرها ازدهارا وجمالا » (١٠٤) .

« ما أسرع ما وصلت قرطبة الى أن تكون مدينة رائعة مأهولة مثل بغداد ذاتها ، لقد وصل تعدادها الى أكثر من نصف مليون ساكن ، كانت عامرة بالقصور الفخمة ، والمساجد الشامخة ، والمكتبات الوافرة ، والمدارس الشهيرة ، حيث علم أعظم الرجال علما فى ذلك الوقت » (١٠٥) .

« لقد ترك العرب اسمهم خالدا على هذه المدينة ، ان أكثر من خمسمائة عام من الحكم العربى للمدينة ، قد جعل من قرطبة ، مدينة

---

(١٠٣) سواريث فرنانديث : مجمل التاريخ العالمى ، ج ٣ ، العصور الوسطى ، ص ٢٦٩ .
وانظر أيضا كتابه « تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى » ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(١٠٤) سانتا ماريا : تاريخ اسبانيا العالمى ، ص ١٠٧ .
Santamaria A. : Ho Universal de Espana 107.

(١٠٥) خوسيه اجيلار : تاريخ اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٢٨ .
Repolles Aguilar : Ho de Espana. 1 : 128.

خاصة بهم ، بمـــا قاموا به فيها • نعم ، لقد كانت خضارتهم أصيلة تطعمت بما حصلوا عليه من لقائهم مع العناصر القديمة للثقافة الاسبانية الرومانية » (١٠٦) •

ويقول فى مكان آخر من نفس الكتاب متحدثا عن القرن العاشر :

« انه قرن العظمة فى قرطبة ، فاليها جاءت سفارات كل الأمم : خوان جورتز Juan de Gortz (٩٥٣م) قدمها سفيرا باسم الامبراطور الألمـــانى « أتون العظيم » Otôn el Grande ، وقد ترك لنا هذا السفير ، وصفا رائعا وشيقا لهذه الرحلة ، ومن قبله كان قد وصل الى قرطبة سفراء القسطنطينية ،وامبراطورها البيزنطى»(١٠٧)•

« على عهد الخـــلافة فى قرطبة ، نمت كل عناصر العظمة ، تلك العناصر التى غرست على عهد الامارة ، فوصلت قرطبة الى نصـــف مليون نسمة ، واحتوت على ثلاثة آلاف مســـجد ، ومائة وثلاثة عشر ألف منزل ، بالاضافة الى مائتى حمام » (١٠٨) •

أما المستشرقة الألمـــانية « زيغريد هونكه » فتقول عنها :

« تجتذب قرطبة طلاب العلم من كل أنحاء الشرق ، بل والغرب أيضا — تجذبهم بمدارسها العليا ، ومكتبتها العظيمة التى جمع لها الخليفة

---

(١٠٦) انطونيو خاتن : تاريخ مدينـــة قرطبـــة ، ص ١٢ •
Jaen, Antonio : Ho de la ciuded de Cordoba p. 120.

(١٠٧) نفس المصـــدر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ ، ص ٦٢ ، ٦٣ •
وانظـــر أيضا ما يقوله سانشيت البرنوس فى كتابه الجديد « صفحات جديدة عن ماضى اسبانيا » ، ص ٧٢ وما بعدها •
Sanchez Albornos :
Neuvas Pâginas sobre el pasado de Espana ; pp. 71 - 107, Madrid, 1979.

(١٠٨) بوليكاريو : تاريخ اسبانيا ، ص ٧٨ •
Policarpo Mingot : Historia de Espana ; p. 78.

الحكم الثانى ، وهو من أشــهر علماء عصره ، نصف مليون من الكتب تقريبا ، جمعها له عشرات من رجاله ، وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته التى حدثت قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاما » (١٠٩) .

وعلى الرغــم من اعترافنا بالمبالغة التى يلجأ اليهــا المؤرخون والجغرافيون العرب فى اعطائهم الأرقام ، الا أن الحقيقة التى لا جدال فيها هى أن هذه الأرقام ، رغم ما فيها من مبالغة . ليست الا تعبيرا عن عظمة هذه المدينة ، التى وصل عدد سكانها فى هذه الفترة لأكثر من نصف مليون نسمة ، وامتدت مساحتها الى مسافات بعيــدة : تصورها لنا المخطوطة الخاصة بجغرافية الأندلس قائلة :

واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراســخ طولا ، وفى عرضها فرسخين وذلك بالأميال أربعة وعشرون ميلا فى الطول ، وستة أميال فى العرض (١١٠) ، كل ذلك ديار ، وقصور ، وبساتين ، ومساجد ، وقيسارات ، وخانات ، وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادى المسمى بالوادى الكبير .

وتواصــل المخطوطة الحــديث عن أبواب قرطبة ، وســورها ، وقصرها وأبوابه الرئيسية ، وأرباضها البالغة واحدا وعشرين ربضا ، ثم يورد أسماء هذه الأحياء بالأسم الى أن يصل الى القول :

« وأحصيت دور قرطبة التى بها وبأرباضها ، فى أيام الحاجب المنصور

---

(١٠٩) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب « الترجمة العربيــة » ، ص ٣٥٣ .

(١١٠) يرى الدكتور حسين مؤنس ان ذلك مقبول ، اذا كان المقصود المدينــة وما يتبعها اداريا ومالبــا من القــرى والأراضى (انظر تحقيقه لهــذا الجــزء المنشور بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد ١٣ ، ص ١٦٦ ، التعليق رقم ٥) .

محمـــد بن أبى عامر ، فكانت مائة ألف دار (هنــا سقطت كلمة من المخطوطة يعتقد الدكتور مؤنس أنها « أو مائتين ») ، وثلاث عشر ألف دار ، وســبعة وسبعين دارا ، وهــذه دور الرعية ؟ أما دور الأمراء والأكابر والوزراء ، والرؤساء ، والقواد ، والكتاب ، والأجناد ، وخاصة الملك ، فســتون ألف دار وثلاثمــائة دار ، ســوى مصــارى الكراء والحمامات والخانات .

وكان بها من المساجد ثلاثة عشر ألف مسجد وثمانمائة مسجد ، ونيف وسبعون مســجدا ، وكان بربض شقندة خاصة ثمانمائة مســجد (هنا يلاحظ الدكتور مؤنس أن المؤلف قد خلط بين عدد الدور وعــدد المســاجد ، ويبين أن الرقم قد ورد عند المقرى ج ٢ ص ٧٩ ، ٣٨٧٧ مسجدا ، ويعيــد التذكير بأن الكثيرين من المؤلفين القــدامى لم يكن لديهم تصور سليم عن الأرقام ــ انظر ص ١٦٩ ــ التعليق ٩) .

وكان عدد حماماتها ثلاثة آلاف حمام ، وسبعمائة حمام وأحدعشر حماما وكان بها من الفنادق والخانات ألف وستمائة فندق لسكنى التجار والمسافرين والعزاب والغرباء وغيرهم .

وكان بها من الحوانيت ثلاثون ألف حــانوت ، وأربعمائة واثنان وخمسون حانوتا .

وانتهت دور قصرها الكبــير الذى ينزله الخلفاء والمــلوك الى أربعمائة دار ونيف وثلاثين دارا ، كلها للملك وحرمه وفتياته » (١١١) .

ولا يكتمل الحــديث عن عظمة مدينة قرطبة على عصر الخلافة ، الا بالحديث عن مدينتى الزهراء والزاهرة ، والمسجد الجامع وقنطرة الوادى .

---

(١١١) مجهول : جغرافيــة الأندلس ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ص ١٦٦ ــ ١٧٠ .
Lève Provencal : Espana Musulmana, Vol. 11, 195—256.

ومدينة الزهراء تمثل عظمة الخلافة على عهد عبد الرحمن الناصر، ويحيط بدوافع انشائها وبنائها أساطير كثيرة ، وحكايات خيالية جامحة وتقع شمالى غربى مدينة قرطبة على مسافة ١٠ كيلو مترات تقريبا ، وشرع فى بنائها عام ٣٢٥هـ ، الموافق ٩٣٦م ، وعهد الناصر الى ولده الحكم المستنصر بالأشراف على بناء المدينة ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، وكتب التاريخ والآثار حافلة بالأرقام الخاصة بعدد العمال والرواتب وتكاليف ذلك بالدنانير والدراهم ، وأسعار شراء الرخام من القسطنطينية ومن قرطاجنة وأفريقية ، وتونس ومن سائر بلاد الأندلس ، مما لا أجد داعيا للاشارة اليه هنا (١١٢) .

ومنذ تأسيس قصرها الرئيسى ومسجدها ، اتخذت مقرا للخلافة، ونقل اليها بيت مال المسلمين ، والديوان والمطبق والخزائن (١١٣) و « أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس ألا من يبتنى دارا

---

(١١٢) للحصول على تفصيلات وافية عن مدينة الزهراء ، يمكن الاطلاع على بعض الأعمال التالية :

المقرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٠١ — ١٠٤ . وأزهار الرياض ج ٢ ، ص ٢٦٧ — ٢٧٢ .

الأدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٢٦٢ .

مجهول : جغرافية الأندلس ، ص ١٧٠ .

العذرى : نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٣ .

ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٣١ — ٣٣ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ١ ، ص٢٢٩—٢٥٨ . تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٤٠٧ — ٤١١ .

عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، ص ٣٩٥ — ٤٠٥ . الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، ص ٣٥ وما بعدها .

Terres Balbas; Ciudades Hisano Musulmanes. 1 : 63.

(١١٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٠٨ .

أو أن يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيها الرغبة » (١١٤) ، وتوفى عبد الرحمن الثالث بمدينة الزهراء فى عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م ، وواصل الحكم المستنصر من بعده العناية بالمدينة حتى وفاته ، ولقد وضعت وفاة الحكم وانشاء المنصور لمدينته الجديدة الزاهرة ، حدا لتوسع الزهراء بل والبداية للقضاء عليها .

أما عن مدينة الزاهرة ، فلقد كان المنصور بن أبى عامر يهدف الى أن يثبت أنه لا يقل عظمة وسلطانا ، عن الخليفتين الناصر والمستنصر ، فشرع فى بنائها فى عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨م ، « وشحنها بجميع أسلحته ، وأمواله وأمتعته واتخذ فيها الدواوين ، وعمل فى داخلها الأهراء ، وأطلق بساحتها الأرجاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور ، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازه المشيدة ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها ، للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حوله ، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة » (١١٥) .

---

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(١١٥) ابن عذارى : جـ ٢ ، ص ٤١٢ .

المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٢٣ .

عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ص ٢٥٨—٢٦٣ .

عنان : دولة الاسلام فى الأندلس — العصر الأول ، القسم الثانى ص ٥٢٢ . علاوة على أن معظم المصادر المشار اليها عند الحديث عن مدينة الزهراء وعن مدينة قرطبة ، قد تناولت أيضا مدينة الزاهرة .

انظر :

Torres Balbas : Madina al Zahira

la Ciudad de Almanzor, Al Andalus V. XXI (1956)

p. 254.

Ciudades Hispano — Musulmanes ; 1 : 66.

أما المسجد الجامع الذى امتازت به مدينة قرطبة عن باقى مدن الأندلس بكاملها فسوف تأتى الاشارة اليه عند الحديث عن المؤسسات التعليمية فى الأندلس ، ولهذا لا أجد داعيا لذكره فى هذا المجال .

أما قنطرة قرطبة ، فعلى الرغم من كونها معلما رئيسيا من معالم مدينة قرطبة ، حتى تعد أولى أربع مظاهر تتميز بها مدينة الخلفاء ، ويجمع أحد الشعراء هذه المزايا فى بيتين هما :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها (١١٦) .

ولم يكن قصدى من ذلك الذى عرضته عن قرطبة وأرباضها وضواحيها أن أقدم وصفا تاريخيا أو وصفا للمدينة ، لأن ذلك موضوع يحتاج الى مجلدات كاملة ، وهناك بالفعل عشرات المجلدات تناولت هذه المدينة عمرانيا ، وحضاريا واجتماعيا وفنيا ، ومن الصعب على دارس فى غير هذه التخصصات ، أن يلم بكل ما كتب عن هذه المدينة العظيمة ، وانما قصدت مما كتبته عنها ، اعطاء صورة عن الحياة الحضارية للمدينة ، يمكن أن تقودنا الى تصور الحياة العلمية والتعليمية التى تخللت هذه الأحياء الواسعة ، وعمرت بها تلك المساجد الكثيرة ، وحفلت بها المكاتب ، والمجالس ، أردت أن أصل الى الحقيقة التى عبر عنها عبقرية زمانه ، فيلسوف التاريخ ، وأشهر وأبرز علماء الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون ، الذى صاغ أفضل معادلة بين الحضارة والتعليم ، حين قرر أن « التعليم للعلم من

---

(١١٦) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ، ص ٣١٠ .
Gayangos : The History of the Mohammedan Dunasties in Spain ; 1 : 327.

جملة الصنائع » (١١٧) ، ضاربا الأمثلة الحية بالوقائع التاريخية التى مر بها عالم المغرب الاسلامى فقال : « اعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانه ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم ، لامتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة، فلما خرجتا ، انقطع التعاليم من المغرب ، الا قليلا » (١١٨) .

ويعود ابن خلدون لتأكيد فكرته ، مبينا أن انقطاع التعليم بالأندلس سببه تناقص العمران ، وأن استمراره بالمشرق يرجع الى اتصال العمران فيقول :

« وأما أهل الأندلس ، فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين السنين .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه »(١١٩).

« فالعلم من جملة الصنائع ، والصنائع تكثر فى الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة .. الخ » (١٢٠) .

وأجد أيضا فى ذلك المجال ، أن أستاذى ، الدكتور لويس سواريث

---

(١١٧) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٨٥ .
(١١٨) نفس المصدر ، ص ٩٨٦ .
(١١٩) نفس المصدر ، ص ٩٨٨ .
(١٢٠) نفس المصدر ، ص ٩٩٠ — ٩٩١ .
وانظر أيضا عجيل حسن : الحياة العلمية فى مدينة بلنسية ، ص ١٧٦ .

فرنانديث ، على حق فى تصوره لقرطبة فى القرن العاشر الميلادى ، وكأن كل شارع منها ، وكل ركن من المدينة حافلان بالطلبة والمعلمين ، من كل الطبقات والأديان ، كل منهم يسعى الى علم معين ، أو الىأستاذ معين وليس غريبا أن تتطابق تلك الصورة التى يرسمها الدكتور سواريث وهو المؤرخ الوسيط ، الذى يركز معظم اهتماماته على دراسة تاريخ أسبانيا المسيحية مع ما يقوله الدكتور حسين مؤنس المؤرخ المصرى ، المتعمق فى الدراسات الأندلسية ، حين يصف مناخ قرطبة خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، بقوله :

« يمكن أن تتصـــور البيئة العلمية الأندلسية ، فى ذلك العصر بيئة تأليف وترجمة ، وتجديد ، وطلب للعلم والمعرفة ، مما جعل قرطبة خـــلال القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميـــلادى ، مركزا من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة فى العالم كله » (١٢١) .

---

(١٢١) مؤنس : تاريخ الجغـــرافيـــة والجغـــرافيين فى الأندلس ، ص ٥٦ .

هذا وقد تعرض هـــذا الجزء من الرسالة لنقد عنيف من الدكتور عبد العزيز سالم على أساس تركيزه على مدينة قرطبة فقط وعدم الاهتمام بالحواضر الأندلسية الكبرى . ووصفه بأنه خارج عن موضوع الرسالة ، ومع تسليمى بصحة رأى سيادته فى أنه قـــد يبتعد بالقـــارىء عن الموضوع الأصلى الا أننى رأيت التركيز عن قرطبة ، على أساس أنهـــا العاصمة ، وبوصفها مثالا للمستوى الاجتماعى الذى شهدته المدن الأخرى ، ولم أرغب فى الخـــرج عن الموضوع أكثر من ذلك .

الفصل الثانى

منـذ سقوط الدولة الأموية الى سقوط غرناطة

(أ) عصر الطوائف :

تعرضت الأندلس لفترة من التمزق السياسى ، وذلك بانقسامها الى ممالك صغيرة متنازعة فيما بينها ، وتعتبر هذه الفترة من أسوأ عهود الأندلس سياسيا ولكنها على العكس من ذلك ، كانت فترة ثقافية لامعة حيث أعطت فترة الاستقرار السابقة ثمارها خلال عصر الطوائف ، فبرز كثير من العلماء والأدباء والشعراء . ولقد حاول ملوك الطوائف الاحتواء على أكبر عدد من هؤلاء فى ممالكهم الصغيرة ، مما أشعل روح التنافس العلمى والثقافى . وينقل المقرى قول الشقندى : وكان فى تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد ، اذ نفقوا سوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور المنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم الا قول : العالم الفلانى عند الملك الفلانى ، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى(1) .

ولقد عرفت كثير من هذه الممالك بتشجيعها لمجالات أدبية معينة على ما مالت اليه مشارب الحكام ، ففى أشبيلية ، ازدهر الشعر على أيام ابن عباد ، لان الأمير نفسه كان شاعرا واتخذ وزراءه وكتابه من الشعراء ، بينما لم يجد الشعراء عند صاحب دانية مجالا واسعا رغم اهتمامه بالعلوم والأدب اهتماما كبيرا جدا . ويصف ابن حيان مجاهد العامرى صاحب دانية بقوله : كان مجاهد فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن — عنى بذلك من صباه ، وابتداء حالة الى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن

---

(1) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ١٧٩ .
خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس ، ص ٦٧ — ٧٠ .
عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٧٤ .
الركابى : فى الأدب الأندلسى ، ص ٢٥ .

لتزيد عظيم ما مارس من الحروب برا وبحرا ، حتى صار فى المعرفة نسيج وحده وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصــة وأسراها صحابة ، لانتحاله العلم والفهم ، فأمه جملة العلمــاء ، وأنســوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة وحلبة ظاهرة ، على أنه كان فيمــا بلغنى مع أدبه من أزهد الناس فى الشــعر ، وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشــده لا يزال يتعقبه عليه كلمة كلمة ، كاشفا لما زاغ فيه من لفظة وسرقة ، فلا تسلم على نقده قافية ، ثم لا يفوز المتخلص من مضماره على الجهد لديه بطائل ، ولا يحظى منه بنائل ، فأقصر الشعراء لذلك عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره (٢) .

ولن استطرد فى الحديث كثيرا عن اهتمامات مجاهد حاكم دانية ، لأن ذلك موضوع طويل (٣) ، ولكن تكفى الاشارة الى أنه حاول أن يدفع ١٠٠٠ دينار لأبى غالب ، المعروف بابن التبان المرسى ، على أن يزيد فى ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لابى الجيش مجاهد ، فرد الفقيه المــال ، وأنف من ذلك قائلا : والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، فانى لم أجمعه لك خاصة ، وأنما جمعته لكل طالب علم عامة (٤) .

أما فى دولة بنى المظفر أمراء بطليوس ، فكانت أيامهم فى غرب

---

(٢) ابن بسام : الذخيرة — القسم الثالث — ج ١ ، ص ٢٣ ، تحقيق احسان عباس .
عنــان : دول الطوائف منذ قيامهــا حتى الفتح المرابطى ، ط ١ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .
(٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ١١٠ .
انظر مختار العبادى : الصقالبة فى اسبانيا ، ص ٢٢ — ٢٣ .
(٤) مختار العبادى : الصقالبة فى اسبانيا ، ص ٢٢ ، ٢٣ .
عنــان : دول الطوائف ، ص ١٩٤ .

الأندلس أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الأدب ، وكان المظفر يحيى ابن منصور المتوفى ٤٦٠هـ/١٠٦٧م ، أحرص الناس على جمع علوم الأدب، خاصة من النحو والشعر ، ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتابا كبيرا ترجمه باسمه » (٥) . كما كانت بطليوس زمن المتوكل ، دار أدب وشعر ونحو وعلم ، وأحاط به مجموعة جمة من كبار الشعراء .

أما عن أبى القاسم بن عباد المعتمد على الله ، فلقد اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ، ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان « مقتصرا من العلوم ، على علم الأدب ، وما يتعلق وينضم اليه » (٦) .

وازدهرت الحياة الأدبية والعلمية فى باقى أقاليم الأندلس الأخرى ، مثل بلنسية (٧) ، سرقسطة (٨) ، وملقة (٩) ، والمرية (١٠) ، وقرطبة (١١) . ولقد سبق القول أن « السلطان سوق ، يجلب اليه ما

---

(٥) المراكشى : المعجب ، ص ١١١ .
وعن بطليوس وبنى الأفطس . انظر كتاب مانويل تورون : « أرض بنى الأفطس » .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٩ .
وانظر أيضا : صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس .
(٧) عجيل حسن : الحياة العلمية فى مدينة بلنسية .
(٨) ترك : مملكة سرقسطة فى القرن الحادى عشر الميلادى .
Afif Turk : Reino de Zaragoza en S. XI.
(٩) روبلس : تاريخ مالقة الاسلامية .
Guillen Robles : Malaga Musulmana.
(١٠) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٧٤ — ١٨٥ .
محمد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية (رسالة ماجستير بجامعة الاسكندرية) .
(١١) خالد الصوفى : بنو جهور فى قرطبة .
Khalid Soufi : Los Banu Gahwar en Cordoba.

ينفق لديه » (١٣) .

ولقد برز فى تلك الفترة ، عدد كبير من العلماء والأدباء والفقها ، والشعراء ، والمؤرخين ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

ابن حيان (المتوفى ٤٧٦ هـ/١٠٨٣ م) ، وهو من أشهر مؤرخى المسلمين فى العصور الوسطى (١٣) ، وصاعد الطبقى (المتوفى ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ م) ، وصاحب كتاب « طبقات الأمم » (١٤) ، وأبو الوليدالباجى ، الذى أدخل الأندلس علوما كثيرة وتناظر مع ابن حزم (المتوفى ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١ م) (١٥) ، وابن حزم الظاهرى (المتوفى ٤٥٦هـ/١٠٦٤ م) (١٦) ، الذى يعتبر قمة من قمم الفكر الانسانى .

ومن الشعراء الذين برزوا فى تلك الفترة يمكن الاشارة الى ابن دراج القسطلى ، وابن زيدون ، وابن عمـار ، وابن شـهيد . وحتى لاأكثر من الأسماء اللامعة فى مجال الأدب ، فاننى أشير على القارىء المتعطش أن يلقى نظرة على ذخيرة ابن بسام الشنتريني ، التى أعاد تحقيقها واستكملها مؤخرا ، الدكتور احسان عباس (١٧) .

---

(١٢) ابن بسـام : الذخـيرة ، قسـم ٢ ، جـ ١ — تحقيق : لطفى عبد البديع ، ص ٤ .
وبصورة عامة أنظر : عبد الله عنـان : ملوك الطوائف .
(١٣) انظر ترجمة ابن حيان : المقدمة التى كتبها الدكتور محمود على مكى ، لتحقيـقه للجـزء الثانى من المقتبس ورسالة دكتـوراه عبد الله جمـال الدين .
(١٤) طبع الكتاب اكثر من مرة فى القاهرة وغيرها من بلدان العـالم .
ابن حيـان : نصوص من كتاب المتين ، اعداد عبد الله جمال الدين .
(١٥)
(15) Turki, A. : Polemiques Entre Ibn Hazem et Bayi....
Asin Palacica : Abenhazam de Cordoba y su Historia....
ابن بسام : الذخيرة ، الجزء الثالث ، القسم الأول ، ص ٩٠ (طبعة بيروت) .
(١٦) الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة) .
خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس ، ص ١٦١ — ١٦٧ و ص ٢٠٣ .
(١٧) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس — ٨ أجزاء — بيروت — ١٩٧٥ .

ولم تخل الفترة أيضا من بعض الاضطهاد للعلماء وخاصة ما تعرض له ابن حزم من مطاردة من مكان الى آخر ، حيث استقر به المقام فى قرية صغيرة لا يؤمه فيها الاصغار الطلبة ، وأحرقت كتبه فى أشبيلية ويقول ابن حيان عنه :

طفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ،الى أن انتهوا الى منقطع أثره تربية بلدة من بادية لبلة ، وبها توفى رحمه الله ٤٥٦ هـ ، وهو فى ذلك غير مرتدع ، ولا راجع الى ما أرادوا به ، بث علمه فيمن ينتابه من بادية بلده من عامة المقتبسين منهم ، من أصاغر الطلبة (١٨) .

(ب) المرابطـون والموحدون :

قابل تدهور الأمور السياسية فى الأندلس ، ازدياد قوة أسبانيا المسيحية . وخاصـة مملكة قشتالة ، التى تمكنت من فرض حمايتها على الدويلات الاسـلامية ، وطمعت فى السيطرة عليها واحدة بعـد الأخرى .

كما أن تلك الفترة شهدت ظهور دولة جديدة على الجانب المقابل للأنـدلس من البحر المتوسـط ، أى فى المغرب الأقصى ، هى دولة المرابطين (١٩) التى وصلت الى قمة عظمتها وقوتها على عهـد أميرها

---

(١٨) انظر المراجع المذكورة عاليه — وراجع ايضا :
الحموى : معجم الأدباء ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ، طبع فريد الرفاعى .
أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٧ ، و ص ٥٤ ، ٥٥ .
ومن النقاط التى اثارت نقاشا فى هذه الرسالة هو التطويل والتركيز على مدينـة قرطبة والاهمال أو شبه الاهمال لباقى حواضر الأندلس الكبرى وعذرى فى ذلك ان قرطبة هى قصبة الملك هناك ومجتمعها يمثل المجتمـع الأندلسى كلـه دون أن اقصد الاقلال من اهميـة المدن الأخرى . المؤلف .
(١٩) انظر فى تاريخ الدولة المرابطية بعض الأعمال التاريخية التالية :
ابن ابى زرع : روض القرطاس ، ج ٢ ، ص ٣ . المراكشى : المعجب ص ١٩٢ — ٢٦٠ .
حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ . عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القسم الثانى) القاهرة ١٩٦٤م .

يوسف بن تاشفين (٤٥٣ — ٥٠٠ هـ/١٠٦١ — ١١٠٧ م) وابنه الأمير علي بن يوسف .

هــذه الظروف مجتمعة دفعت بملوك الطوائف الى الاستعانة بالمرابطين ضد أسبانيا المسيحية ، ولكن المسألة انتهت بعد فترة من الزمن بالقضاء على ملوك الطوائف ، واستيلاء المرابطين على ممالكهم ، ودخول الأندلس ضمن الدولة المرابطية ، واستمرت كذلك الى أن سقطت الدولة المرابطية ، وحلت محلها الدولة الموحدية (٢٠) .

وكثير من المؤرخين الأسبان ، وخاصة غير المستشرقين ، يصفون فترة المرابطين والموحدين ، بحكم الأسرات الأفريقية ، وبعضهم يرى أنها فترة احتلال أجنبي ، ويرى الدكتور لويس سواريث ، فى نقاشاته معى أن أسبانيا الأسلامية ، كأسبانيا الأسبانية ، تجلت ذاتها فى مرحلتين فقط ، الأولى فى فترة الخلافة الأموية فى قرطبة ، والثانية فى دولة بنى نصر فى غرناطة ، ولذا كان رأية التركيز على هاتين الفترتين فى هــذه الدراسة ، ولقد كنت أرى باستمرار ، ومازال رأيي كذلك ، أن تاريخ

= وتاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين (ترجمة عنان ، القاهرة ١٩٥١) . ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٤ ، تحقيق احسان عبــاس بيروت ١٩٦٧ .

١٩٥١) . ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٤ ، تحقيق احسان عبــاس،

(٢٠) أنظر فى تاريخ الموحدين بعض الأعمال التاريخية التالية :

ابن عذارى : البيان المغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق هويسى ميراندا .

« الحلل الموشية » المنسوب خطأ لابن الخطيب ، تحقيق البشير الفورتى ، تونس ، ص ٧٨ وما بعدها روض القرطاس ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ . نظــم الجمان ، ص ١٠٢ . والتاريخ السياسى للامبراطورية الموحدية للمستشرق الأسبانى « هويسى ميراندا ، جزءان » تطوان ١٩٥٦ .

Huici Miranda, A. : Historia politica del Imperio Almohade.... 2 tomos, Tetuan, 1956.

ابن صاحب الصــلاة : كتــاب المن بالامامة (تحقيق عبد الهــادى التازى) .

عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب .

المغرب والأندلس يتصل ببعضه صلة قوية ، الى درجة يستحيل معها الفصل ، بل ما هو أكثر من ذلك ، ان تاريخ الأقاليم الاسلامية الكبرى ومنها اقليم غرب العالم الاسلامى، يرتبط ببعضه ، وأن محاولات التقسيم الجغرافى ، محاولات مبتسرة ، وتجزئة غير سليمة ، ولعلى لا أبعد كثيرا اذا قلت أن تاريخ العالم الاسلامى بأكمله خلال العصور الوسطى متشابك ، ومتصل ومتقارب ، واذا كانت الصورة غير واضحة أو مختفية فى المجالات السياسية ، فهى ولا شك حية قوية واضحة فى المجالات الثقافية والاجتماعية ، ولست أقصد من ذلك القول بصورة واحدة تماما وانما أقول أن لكل منطقة ، علاوة على السمات العامة التى تربطها بغيرها من مناطق الاسلام ، لها سماتها الخاصة ، ومميزاتها النوعية .

ولقد شرحت وجهة نظرى لأستاذى ، باستحالة فصل الفترة التاريخية للمرابطين والموحدين عن مسار التاريخ العام للأندلس ، وخاصة فى مجال التعليم ، حيث أن المؤسسات التعليمية كانت قد استقرت أسسها منذ فترة طويلة ، وواصلت عملها رغم التغيرات السياسية التى طرأت على الأندلس .

لقد شهدت فترة المرابطين اهتماما نوعيا بالعلوم ، فلقد كان لها فكرها الخاص الذى طبع التعليم فى الأندلس ، ونتيجة لتعصبهم الدينى ، ازدهرت علوم واضمحلت علوم أخرى ، فهم قد اهتموا اهتماما كبيرا بالمذهب المالكى ، وأهملوا ما عدا ذلك ، واضطهدوا علماء الكلام ، مما طبع عصرهم بطابع معين من الدراسات ، يقول المراكشى حين يتحدث عن الأمير يوسف بن تاشفين :

« واشتد ايثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمرا فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان اذا ولى أحدا من قضاته ، كان فيما يعهد اليه ألا يقطع أمرا ولا يبت فى صغير من الأمور أو كبير ، الا بمحضر من أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة اليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس اليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم » (٢١) .

ويقول فى موضع آخر :

«ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده ، الا من علم علم الفروع ، أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتفكير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام . وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره الى اختلال فى العقائد ، فى أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه فى كل وقت الى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله (المتوفى ٥٠٥ هـ/١١١٢م) المغرب ، أمر أمير المسلمين باحراقها وتقدم بالوعيد الشديد — من سفك الدم واستئصال المال — الى من وجد عنده شىء منها ، واشتد الأمر فى ذلك » (٢٢) .

---

(٢١) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٢٥٣ ، والطبعة القديمة ص ١٧٧ .

(٢٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ . ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٤ ، ١٥ .

الناصرى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ص ٦٧ ، ج ٢ .

عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، ط ١٩٦٤ ، ص ١٧١ .

وأسرف الأمير يوسف بن تاشفين فى تقريب الفقهاء ورعايتهم ، وكان محبا لهم والعلماء والصلحاء ، مقربا لهم ، مكرما لهم ، أجرى سيهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه [٢٣] . أما ابنه على ، فقد جعل من بلاطه فى مراكش مركزا لكثير من رجال الأدب والعلم ، حيث قصده هناك أبو بكر بن الجد وابن القبطرنة وابن عبدون وابن أبى الخصال .

ولعل قصر فترة المرابطين ، وانشغالهم بالحروب الكثيرة فى تثبيت دعائم دولتهم ثم فى المحافظة عليها ، قد صبغ هذه الدولة بالطابع العسكرى ، ولم يعطها الفرصة الكبيرة لازدهار علوم أخرى كثيرة . أو حجب الأنشطة العلمية ، فلم يصل الينا الكثير من المعلومات عنها .

وعلى العكس من قلة المعلومات التى نجدها بين أيدينا ، عن دولة المرابطين فاننا نتمتع ببيانات وافرة ووثائق كثيرة عن الموحدين ، ولست أدرى السبب فى ذلك ولكن من المحتمل أن يكون كما سبق لى القول ، قصر فترة المربطين ثم امتداد حكم الموحدين لفترة طويلة جدا ، مما منع المؤرخين على عصرها من التأريخ للفترة السابقة .

هذا ولقد أبدت الدولة الموحدية بالتعليم اهتماما كبيرا جدا ، وذلك لقيامها على عقيدة دينية ، مما حتم ضرورة الاهتمام بنوعية التعليم حتى يمكن اقناع الناس بهذه العقيدة ، وحملهم على دراسة مؤلفات مؤسس هذه الدولة محمد بن تومرت [٢٤] ، ولقد وضع الموحدون لذلك برنامجا اجباريا أنقله هنا عن كتاب العلوم والفنون على عهد الموحدين (٤٨٧ — ٥٥٨ ه/١٠٩٤ — ١١٦٣ م م) [٢٥] .

---

(٢٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ .

(٢٤) عن الشيخ ابن تومرت ، انظر : ابن القطان : نظم الجمان - الصنهاجى : أبو بكر بن على المكنى بالبيدق : وكذلك اخبار المهدى ابن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر .
المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٢٦٢ — ٢٨٧ .

(٢٥) محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، تطوان ١٩٥٠ .

وضع هذا النظام للتعليم الاجبارى عبد المؤمن بن على ، ويقــوم هذا البرنامج على أنه يجب على كل من انضوى تحت راية الموحــدين ان يتعلم الضرورى من العقائد وما يتعلق بالصلاة ، ولقد بالغ فى هذا الأمر ، فجعله حتما لازما على كل مكلف ــ الرجال والنساء ، والأحرار والعبيد ــ ورخص لمن يفهم اللسان البربرى دون العربى أن يقــرأ بلسانهم ، عقيدة ابن تومرت ــ التوحيد ــ البربرية • أما الذين يفهمون العربية ، فكان لزاما عليهم أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت العربية ــ المرشدة ــ وأكد على الجميع فى حفظ ذلك وتدبره وملازمة قراءته ، وتعاهده ، كما أكد على العوام ، ومن فى الديار فى حفظ أم القرآن ، وما تيسر من القرآن ، وألزم نوابه أن يقيموا علمــاء أمناء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكر •

وزيادة فى الاهتمام ، نرى عبد المؤمن يشرف بنفسه على مباشرة هذا النوع من التعليم فى مراكش وناحيتها ، ويكتب الى نواحى المملكة الأخرى يقص عليهم عمله هذا ، ويأمرها بأن تحتذى حذوه ، وتقوم بدورها بتطبيق هذا المنهاج •

ويلحق بكتابى المهدى المقربين ، مجموع أحاديث الجهاد ، الذى أمر يوسف (٢٦) بتدوينه ليملى على الموحدين ليدرســوه ، فكان يمليه على الناس بنفسه ، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجىء بلوح يكتب فيه الاملاء •

---

(٢٦) بالنسبة لمجهودات كل خليفة موحدى على حدة سوف نتناولها لماما ضــمن هــذه الرسالة فى تناولنا لبعض المجالات المحــددة ، ومن السهل على من يرغب الاستزادة مراجعة مجموعة المصــادر المذكورة فى تاريخ دولتى المرابطين والموحدين وأخبار المهدى بن تومرت ، وفى هــذا المجــال بالذات يمكن مراجعة كتاب العلوم والآداب والفنون على عهــد الموحدين للمنونى ، وكتاب تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى للأســتاذ غنيمــة •

وكذا مجموع أحاديث الصلاة وما يتعلق بها ، الذى جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء ، فكان يمليه بنفسه على الناس ، ويأمرهم بحفظه ، وانتشر هـذا المجموع فى جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصـة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنى من الكسـا والأموال (٢٧) .

ولقد كان عبد المؤمن مؤثرا لأهل العلم ، محبـا لهم ، محسـنا اليهم ، يستدعيهم من البلاد الى السكن بجواره ، والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسـعة ، ويظهر التنوية بهم ، والاعظـام لهم (٢٨) .

ولقد اتخذت الدولة الموحدية مواقف محددة لصـبغ التعليم فى بلادها بصبغة جديدة ، وخاصة القضاء على المذهب المـالكى ، ودراسات الفروع ، والعودة الى دراسة الحديث والمدرسة الظاهرية ، فالأمير عبد المؤمن قد أمر فى سنة ٥٥٠هـ / ١١٢٤م ، بأصلاح المساجد وبنائها فى جميـع بلاده ، وتغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ، ورد الناس الى قراءة الحديث ، وكتب بذلك الى جميع طلبة المغرب والعدوة (٢٩) .

وهنـاك من يتحدث عن حرية كبيرة سادت عصر الموحدين حيث يقول الأستاذ عبد الهادى التازى بأنه « كان من رأى الموحدين — على العموم — أن لا يحجروا على الناس فى تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة ، وارتفعت رءوس المفكرين فى كل زاوية ، بل ان أفقهم كان لايضيق عن سماع النقد ، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلوا رجال الفكر والعلم ، يستقبلونهم فى صدر ما يستقبلون ويؤثرونهم على غيرهم فى الولايات والتكريمات ، والمظاهر السامية » (٣٠) .

---

(٢٧) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص ٢٧ ، ٢٨ .
المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٢٩٣ .
(٢٨) نفس المصـدر ، ص ٢٩٣ .
(٢٩) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ .
(٣٠) عبد الهـادى التازى : مقـدمة كتاب المن بالأمانة ، ص ٦٢ .

لكن من الصـــعب التصديق بذلك ، حيث أن الموحدين تعصـــبوا كثيرا ضـــد المذهب المـــالكى ، ولعل فى قصة الفقيه محمد بن عبد الله بن خيرة القرطبى ، المـــالكى (المتوفى ٥٥١هـ / ١١٥٦م) ، ما ينفى تلك الحرية التى تطلق على الموحدين ، فلقد كان من جلة العلماء الحفاظ ، متفننا فى المعارف كلها ، جامعا لها ، كثير الرواية ، واســـع المعرفة ، حافل الأدب .

كان من كبار فقهاء المـــالكية ، يتصرف فى علوم شتى ، وانتفع به أهل قرطبة فى الفقة والأصول، وقدم مصرهاربا من بنى عبد المؤمنودولته (الموحدون) ، لمـــا ظهر بالمغرب ، ثم خاف أن يســـتولى على مصر ، فقدم الحجاز ، فخاف أن يحجه فدخل اليمن (٣١) .

أما على عهد أبى يوسف يعقوب (٥٨٠ — ٥٩٥هـ / ١١٨٤ — ١١٩٩م) ، فقد انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن يخرجوا منها ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيـــد ومختصره ، وكتـــاب التهـــذيب للبرادعى ، وواضـــحة ابن حبيب ، وما جانس هـــذه الكتب ونحا نحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار ، وتقدم الى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة (٣٢) .

صحيح أن الفلسفة قد شهدت على عهد الموحدين ازدهارا كبيرا، وخاصة على يدى ابن طفيل وابن رشد ، وأن بعض الأمراء الموحدين كانوا متضلعين فى تلك المـــادة ، ولكن ذلك لم يمنـــع من أن يتعرض

---

(٣١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٦٠ .
ابن فرحون : الديباج ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ .
(٣٢) المراكشى : المعجب ، ص ٤٠٠ .

ابن رشد للايذاء ، وأن يكتب أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب « بالتقدم الى الناس فى ترك هذه العلوم جملة — أى الفلسفة — وباحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علـم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمت القبلة فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد ، وعمل بمقتضاها » (٣٣) ، وسوف أتناول ذلك تفصيلا عند الحديث عن الفلسفة ، وغيرها من العلوم المنتشرة فى الأندلس .

هناك جانب آخر من جوانب الاهتمام بالتعليم يعزى الى الدولة الموحدية ، ألا وهو انشـاء المدارس فى مناطق كثيرة من الامبراطورية الموحدية بشـطريها الأفريقى والأندلسى ، وبما أننى سـوف أتناول مسألة المدارس فى الأندلس فى فصل خاص ، فسأترك ذلك الموضوع ، لمعالجته هناك .

(جـ) الدولة النصرية :

بعد فترة من الازدهار السياسى ، والعسكرى ، والثقافى ، أصاب دولة الموحدين التدهور السريع ، وخاصة بعد معركة العقاب (١٥ صفر ٦٠٩هـ — ١٦ يولية ١٢١٢م) (٣٤) . ويرى ابن عذارى ، أنها كانت السبب فى هلاك الأندلس الى الآن (٣٥) (أى الى عهـد المؤلف) وقامت فى

---

(٣٣) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٤٣٧ .

(٣٤) انظر عن معركة العقاب بعض الأعمال التاريخية مثل :

هويسى ميراندا : من الأرك الى العقاب ، معارك الاسترداد الكبرى .

Huici Mirande : las Grandes Batalles de La Reconquista ....

اجوادى بلاى : مجمل تاريخ اسبانيا ، جـ ١ ، ص ٦٤٥ .

Aguado pleye : Manual de Historia de Espana 1. 645.

(٣٥) ابن عذارى : البيـان المغـرب ، تحقيق هويسى ميراندا ، جـ ٣ ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

الأندلس عدة ثورات محلية منفصلة عن الدولة الموحدية ، وعادت الأندلس الى فترة تشبه فترة ملوك الطوائف ، وتقدمت الجيوش الأسبانية المسيحية ، تسترد المدن والقواعد الأندلسية الكبرى ، وخيم على الأندلس شبح النهاية المحتومة للدولة الاسلامية هناك ، وخلال هذا الظلام والغبار تمكن أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصارى (٥٩٥ — ٦٧١هـ / ١١٩٨ — ١٢٧٣م) ، من أن يؤسس له امارة ، ما لبثت بعد دخوله غرناطة فى عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م واتخاذها عاصمة له ، أن نمت وتطورت ، وأصبحت دولة صمدت للتيارات السياسية ولحركة الاسترداد الاسبانية مدة تزيد على مائتين وخمسين عاما ، ولقد عرفت هذه الدولة فى التاريخ باسم الدولة النصرية ، أو دولة بنى الأحمر ، وتتميز بأنها صورة مصغرة لدولة الأندلس الكبرى على عهد الخلافة فعلى عهدها لم تعد غرناطة أو لم يعد الأندلس جزءا تابعا لامبراطورية شمال أفريقية ، دون أن يعنى ذلك انقطاع الصلة مع هذه المنطقة من العالم .

هذا ولقد شهدت الدولة النصرية فى غرناطة مراحل من القوة والضعف ودورات من الانتصارات والهزائم ، وسلسلة من المحالفات والمعاهدات مع ممالك أسبانيا المسيحية وخاصة قشتالة وأراجون ومع ممالك العالم الاسلامى الأخرى ، وليس هذا هو مجال التطويل فى هذه الموضوعات التى سبقنى غيرى من الأساتذة والباحثين الى دراستها (٣٦) .

---

(٣٦) الدراسات الخاصة بمملكة غرناطة كثيرة جدا ومتنوعة ومن الصعب حصرها وتكفى الاشارة الى بعض الكتب التاريخية مثل :

ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، واعمال ابن الخطيب الأخرى .

الطوخى (احمد محمد محمود) : مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة .

شبانة (محمد كمال) : يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة .

العبادى (احمد مختار) : مملكة غرناطة على عهد ملكها محمد الخامس .

=

هذا ولقد أسرفت كتب التاريخ والرحلات والجغرافية فى وصف غرناطة وابراز محاسنها ، فيقول عنها المقرى « غرناطة من أحسن بلاد الأندلس ، وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شيء بها ويشقها نهر حدرة ، ويطل عليها الجبل المسمى بشلير ، الذى لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفا ، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد ، وفى أعلاه الأزاهر الكثيرة ، وأجانس الأفاويه الرفيعة » (٣٧) .

وينقل المقرى وصف ابن بطوطة لغرناطة بأنها « قاعدة بلاد الأندلس ، وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا ، يخترقها نهر شنيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين الجليلة ، والجنات والرياضات والقصور ، والكروم محدقة بها من كل جهة ... » (٣٨) . أما عن الرحالة المصرى عبد الباسط ، فقد زار غرناطة قبل سقوطها بحوالى خمسة وعشرين عاما ، ووصفها لنا قائلا :

« ورأيت غرناطة ، فاذا بها بلدة نزهة عظيمة ، من أعظم بلاد الأندلس وهى قاعدة ملك الاسلام بالأندلس ، وتخت السلطنة بها . غريبة الوضع ، حسنة الأبنية ظريفة ، أنيقة ، بديعة الوضع ، بها سائر أرباب الصنائع ، وهى كدمشق الشام ، وبها المياه الجارية والبساتين والأجنة والكرم ، وهى مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء ،

Prieto Vivos ; A. : Formacion del R. de Granada. =
Simonet ; F. : Descripcion del R. de Graada .... Lafuente Alcantra : Historia de Granada.
Gallego Burin : Los Moriscos del R. de Granada Segun el rienado de Guadix.
Caro Barojs ; A. ; los Moriscos del R. de Grana da Granada. Ladero Quesado : Granada Historia de un Pais Islamico (1232—1561).

(٣٧) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٦ .
(٣٨) المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

وأرباب الفنون والكمالات ، وبهـا بقايا الناس ، والآثار العظيمـة والأمكنة للنزهة .... الخ » (٣٩) . ويستطرد الرحالة المصرى بعد ذلك ؛ متحدثا عن علماء غرناطة ومشايخها ورجال الأدب والفكر فيها مما يدل على مدى التقدم الثقافى الذى وصلت اليه هذه المملكة على الرغم من انهيارها السياسى والعسكرى والصراع الأسرى الذى اوقعها فريسة سهلة على يد الملكين الكاثوليكيين ، سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م (٤٠) .

بدأ الازدهـار الثقافى فى مملكة غرناطة على عهـد ثانى أمرائها أبى عبد الله محمد ، الملقب « بالفقيه » ، لمـا اشتهر به من العلم والفقه، ولقد ولد هـذا الأمير بغرناطة عـام ٦٣٣هـ — ١٢٣٥م ، ويقول ابن الخطيب أنه يؤثر عنه « تنظيم دواوين المملكة ، وتقـدير الضرائب ، وترتيب رسوم الملك والألقاب على خدمتها ، وعرف ببراعته فى السياسة وسـعة أفقه ، وتوفره على المزيد من الخلال الفاضلة ، بالاضافة الى العلم ، وممارسة الشعر ، وايثاره مجالس الأدباء والفقهـاء » (٤١) . ومن المصادفات الغريبة ، معاصرته للملك القشتالى ألفونسو العاشر ؛ الملقب بالعالم ، مما قد يوحى بنوع من التأثر فى اتخاذ الألقاب ، وان قال ابن خلدون انه عرف باسم الفقيه ، لانتحاله طلب العلم أيام أبيه ؛ ولاشتغاله بالفقه زمنا فى صباه (٤٢) ، وتوفى هذا الأمير عام ٧٠١هـ — ١٣٠٢م .

---

(٣٩) مملكة غرناطة ، عام١٤٦٥ ، ١٤٦٦ م ، مذكرات رحالة مصرى، الأندلس ، العـدد الأول ، ص ٣١٣ — ٣١٤ .

Levi Della Vide : EL Regno Granata, Nel 1465—1466 ;
Nei Ricorde di un Viaggiatore Egipziano. (al Andalus 1. 1933 ; 307.

(٤٠) سواريث فرنانديث : تاريخ أسبانيا (غزو مملكة غرناطة) ، ص ٥٩٦ ٦٠٤ .

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٥٦٥ .
شبانة : يوسف الأول ، ص ٢٧ .
الطوخى : مظاهر الحضارة فى غرناطة ، ص ٦ .

(٤٢) الطوخى : الرسالة المذكورة ، ص ٦ .

ولقد عمل هذا السلطان على احضار العلماء من المدن الأندلسية الى غرناطة ، يقول ابن الخطيب عند الحديث عن محمد بن ابراهيم ابن محمد الأوسى (توفى ٧١٥ هـ/١٣١٥ م) ، أنه من أهل مرسية ، وأنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثانى الملوك من بنى نصر من مدينة بجاية فانتفع الناس به (٤٣) ، كما أن الفقيه الكبير أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد (المتوفى ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م) والذى انتهت اليه الرياسة بالأندلس فى صناعة العربية وتجويد القرآن ، ورواية الحديث ، حين نشأت بينه وبين المتغلب على مالقة وحشة ، أكدتها سعاية ، وكبس منزله فى حينه ، واستولت الأيدى على ذخائره وكتبه ، وفوائد تقييده عن شيوخه ، لحق بغرناطة ، آويا الى كنف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر ، فأكرم مثواه وعرف حقه (٤٤) .

ويعد هذا من أكبر مظاهر اهتمام الأسرة النصرية بالعلماء والمعلمين حيث أننا نجد جميع أمراء هذه الأسرة يواصلون هذه السياسة ، وساعدهم وزراؤهم فى ذلك ، فنجد الوزير ابن الحكيم يهش لقدوم الفقيه محمد بن خميس (المتوفى عام ٧٠٨ هـ/١٣٠٩ م) الى غرناطة فى عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٤م ، ويمت اليه بالوسيلة العلمية واجتذبه بخطبة التلميذ ، واستفزه بتأنيسه وبره ، وأقعده للاقراء بجواره (٤٥) .

ولا شك أن أكبر عناية بالمعلمين والتعليم قد شهدتها غرناطة على يدى ملكيها الكبيرين يوسف الأول (٤٦) ، ومحمد الخامس (٤٧) ، حيث أجريا الجراية على العلماء والمعلمين وأوليا اليهم وظائف كثيرة ،

---

(٤٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، حـ ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٤٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٨٨ — ١٩٣ .
(٤٥) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٢٥٩ — ٥٦٢ .
(٤٦) شبانة : يوسف الأول ملك غرناطة .
(٤٧) العبادى : مملكة غرناطة ، على عهد محمد الخامس .

وأوكلا اليهم أعمالا يتقاضون منها جراية ، ثم لكى يقـدموا فى نفس الوقت بالتدريس وتعليم الناس ، فالفقيه محمـد بن محمـد التمرى الضرير (المتوفى ٧٣٦ هـ/١٣٣٥ م) كان حافظا للقرآن أستاذا ، يقوم على العربية خير قيـام « توفى بغرناطـة تحت جراية من أمرائها ، لاختصاصه بقراءة القرآن على قبورهم » (٤٨) .

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بنقل الفقيه محمـد بن محمـد العبدرى من سبتة الى غرناطـة ، حيث قعـد للاقراء ، الى أن توفى عام ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م (٤٩) .

كما أن ابن الخطيب يقول فى ترجمة محمد بن عبد الولى الرعينى (المتوفى ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) بأنه « طلب الى التصدر للاقراء ، فأبى لشدة انقباضه فنبهت بالباب السـلطانى على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك فى شهر شعبان من عام وفاته » (٥٠) .

أما الوزير أبو عبد الله المحروق فقد اختص بالفقيه محمد بن أحمد ابن فتـوح بن شـقرال (المتـوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م) ، ورتب له بالحمراء جراية وقلده نظر خزانة الكتب السلطانية (٥١) .

وعلى عهد السلطان يوسف الأول شهدت غرناطة حدثا تاريخيـا فيما يتعلق بالعملية التعليمية ، أقصد بذلك تأسيس المدرسة النصرية فى غرناطة ، كما أن هناك ما قد يبين تأسيس مدارس أخرى على عهد الملك محمد الخامس . وسوف أتناول هذه النقطة بالتفصيل ، فى الفصل الخاص بالمدارس فى الأندلس .

---

(٤٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣١ — ٣٣ .
(٤٩) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٧ — ٢٨ .
(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ .
(٥١) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٢٣ — ٢٥ .

ولقد كان لسقوط المدن الأندلسية الكبرى ، قرطبة وبلنسية وأشبيلية ومورسية وغيرها ، وهجرة كثير من علمائها الى غرناطة ، أثره الكبير فى ارتفاع المستوى الثقافى لهذه المملكة الى درجة تعيد الى الأذهان الفترة التى كانت عليها قرطبة على عهد الحكم المستنصر بالله .

ولقد لمعت أسماء كثيرة جدا فى المجالات العلمية والأدبية ولا أجد داعيا للاشارة الى بعضها لأن ذلك قد يوحى بعكس ما أريد ، ولكن من يلقى نظرة متعجلة على مؤلفات ابن الخطيب أو على مؤلفات أبى الوليد بن الأحمر (المتوفى ٨٠٧ هـ/١٤٠٤ م) (٥٢) ، وغير ذلك من الكتب يمكنه أن يقدر اهتمام الدولة النصرية بالعلم والعلماء .

وأود أن أشير الى أن هذه الحركة الفكرية الكبيرة لم تقتصر على مدينة غرناطة ، وانما نافستها مدينة مالقة ، ومدينة وادى آش حيث كان لمجلس الاقراء بالمسجد الجامع بمالقة شهرة علمية كبيرة ، وعاش فى المدينة عدد كبير من العلماء اللامعين ، والمعلمين المعروفين .

ويقول روبلس فى كتابه عن تاريخ مالقة :

« ان الحركة الأدبية والعلمية فى مالقة كانت تتمتع بمستوى عالٍ ومكانة مرموقة خلال الفترة التى أركز فيها هذه الدراسة ، وتزداد وضوحا أمامى كلما ركزت انتباهى على مجال من المجالات . لقد وجدت فيها أكاديمية،وبمساجدها مكتبات تنمو وتزداد،من هبات العلماء » (٥٣).

---

(٥٢) انظر مثلا : زمامة (عبد القادر) : أبو الوليد بن الأحمر .
(53) Gullen Robles : Malaga Musulmana, p. 391.

الفصل الثالث

بعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم

فى الأندلس

تدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس ، مسألة اختلف حولها الباحثون والدارسون كثيرا باختلاف الفترة الزمنية ، وباختلاف مفهومهم لمعنى تدخل الدولة فى التعليم ــ فهناك من ركز آراءه حول مسألة انشاء المراكز التعليمية ، ومن اعتمد على العملية التدريسية ذاتها ، ومن انطلق فى آرائه على نظام التعليم . وفى كل نقطة من هذه النقاط ، تعارضت الآراء وتباينت ، واختلفت التعبيرات ، ولنحاول أن نلقى نظرة سريعة على هذه الآراء ، لنوضح مدى الفرق فى اختلاف وجهات النظر .

ومن الممكن تصنيف هذه الآراء الى مجموعتين ، أولاهما تميل الى الرأى القائل بالتدخل المباشر والواضح للدولة فى نظام التعليم ، وتتشكل هذه المجموعة من عدد لا بأس به من المؤرخين العرب والمتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية من غير العرب ، وينسب هؤلاء الى بنى أمية فى الأندلس قيامهم بتأسيس مجمع للعلوم فى قرطبة حيث كانوا يعملون على الطريقة الشرقية ،علوم الكلام والفقه ... الخ، ونستعرض فيما يلى بعض هذه الآراء :

يرى الدكتور عبد الغنى عبود أن الدولة فى الاسلام تتدخل فى التعليم بوصفها ممثلا للجماعة الاسلامية ، عندما تحس قصورا أو عجز فى بعض المجالات أو الاتجاهات (1) .

ويقول الأستاذ أحمد أنور الجندى :«لقد كان الملك الاسلامى مملوءا

---

(1) عبد الغنى عبود : فى التربية الاسلامية ، ص ١١٦ .

بالمدارس والكليات ، وكانوا يكفون التلاميذ الفقراء مؤونة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة » (٢)

ويقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجة فى كتابه عن قصة الأدب فى الأندلس « لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم فى الأندلس أن بنوا القصور ، وأنشأوا الجامعات ، وأقاموا المكتبات » (٣) .

وفى موضع آخر يصف مدينة قرطبة بأنها « كانت من أشهر مدن الأندلس الاسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن ، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم ، واشتهرت بمبانيها العظيمة ومساجدها التى أشهرها مسجد قرطبة الكبير ، وقد كان من أكثر جامعات العلوم الاسلامية ، تخرج منه العلماء والفلاسفة » (٤) .

ويقول الدكتور غلاب « أن الحكم الثانى كان شديد العناية بمعهد قرطبة الذى كانوا يعدون طلبته بالآلاف ، وأنه أعلن التسامح الدينى الذى أمر به الاسلام ، وأباح حرية الجدل والنقاش فى جميع المسائل الحيوية » (٥) .

أما الأستاذ محمد يوسف ، فيرى أن بنى أمية قد قاموا بتأسيس مجمع للعلوم فى قرطبة حيث كانوا يعلمون على الطريقة الشرقية علم الكلام والفقة والفلسفة (٦) . ويميل الى هذا الرأى أيضا المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان (٧) .

أما الدكتور حسين مؤنس ، فانه يصوغ العلاقة بين الدولة وبين

---

(٢) احمد انور الجندى : مجلة دعوة الحق ، العدد ١٠٢٩ ، ص ٤٠ .

(٣) خفاجة : قصة الادب فى الاندلس ، ص ٢٥ — ٢٦ .

(٤) خفاجة : نفس المصدر ، ص ٨ .

(٥) غلاب : الفلسفة الاسلامية ، ص ١٦ .

(٦) محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة فى راى ابن راشد وفلاسفة العصور الوسطى ، ص ٨ .

(٧) محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الأول ، القسم الثانى ، ص ٤٥٧ .

الفقهاء على أساس أنها أولا علاقة مصلحة وبحث من جانب الدولة على التأييد الشرعى من جانب الفقهاء [٨] .

ولم يقف الأمر على الباحثين والدارسين العرب فقط ، وانما شاركهم الرأى عدد من المستشرقين المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية ، ومن هؤلاء مثلا :

يقول انخيل غونثالث بالنسيا : « كان من نتائج سياسة التسامح ـ ورعاية الثقافة التى بدأها الحكم المستنصر أن ظهرت المدارس ، واجتمع المشتغلون بكل علم من العلوم ، بعضهم الى بعض » [٩] .

ويتحدث خوسيه انطونيو كوندى عن ذهاب الأميرين هشام وسليمان ابنى عبد الرحمن بأنهما كانا يحتفلان بعيد ميلاد والدهما ويقدمان هدايا عظيمة الى الرجال المثقفين الذين يتوافدون على الأكاديمية والتى كانت تحتفل بهذه المناسبة » [١٠] .

أما المستشرق الفرنسى الكبير ليفى بروفنسال ، فانه يشير الى هذه المسألة عند حديثه عن انتشار المذهب المالكى فى الأندلس ، قائلا عن مجموعة الفقهاء الذين تتلمذوا على يد مالك بن أنس بأنهم « عند عودتهم الى وطنهم قاموا بالدعاية فى قرطبة وفى المدن الكبرى بالأندلس للمذهب المالكى ، وذلك بالموافقة الصريحة للأميرين هشام والحكم » [١١] .

ويقول نفس المستشرق الفرنسى فى موضع آخر « ان هشاما بالاضافة الى تقواه وامتداد ثقافته ، كان يميل دائما الى ما يقوله الأساتذة القرطبيون ، والذين أتيحت لهم فرصة الحج وزيارة الأماكن المقدسة الاسلامية ، وخلال حكمه فضل على قدر الامكان ، هؤلاء

---

(٨) انظر حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الأندلس ، ص ٧ـ٢٥ .

(٩) غونثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ٤٤٨ .

(١٠)كوندى : تاريخ الحكم العربى فى اسبانيا ، ص ٥٥ ، ط ١٨٧٤م .

(١١) ليفى بروفنسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ، النص الأسبانى ، جـ ١ ، ص ٩٨ .

الحجــاج من رعاياه ، واهتم اهتماما شــخصيا بكل ما أحضروه الى أســبانيا من بيانات ومعــلومات ، عن تطــور العلــوم الاســلامية فى المشرق » (١٢) .

ولم يقتصر الأمر على الباحثين المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية فحسب ، ولكنه انتقل أيضا الى بعض مؤرخى العصــور الوسطى الأسبان مثل سانشيث البرنوس ، وأجواد وبلايى — وأنقل ما يقوله أجواد وبلايى عن الحكم المستنصر :

« لقد كان الحكم متحررا مع الكتاب والعلماء على عصره ، حمى التعليم وأسس فى قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية ، أما عن جامعة قرطبة فلقد كانت صاحبة الصدى الشديد والرنين الطنان فى العالم كله على عهدها، ففيها علم أبو بكر المروانى القرشى الذى كان يشرح السنة ، وأبو على القالى البغدادى الذى أعطى دروسه فى اللغة والشعر ، وابن القوطية ، ذلك الذى كان موضع تقدير القالى ورأى فيه أنه أكثر علماء الأندلس علما بقواعد العربية ، ولقد كان هناك للعلوم الأخرى أساتذة لا يقلون بريقا ولمعانا ، أما غالبية الدارسين ، فلقد كانوا يدرسون الفقه ، أى علم اللاهوت والقانون الاسلامى ، ذلك العلم الذى يمكن دارسه من ارتقاء أعلى المناصب » (١٣) .

وانتقلت هذه الآراء الى الكتب العامة ورددها بعض من كتب فى تاريخ أسبانيا ، ولا أجد داعيا للاستطراد فيما تقصه هذه الكتب عن مدينة قرطبة وعن قصورها الشماء ، ومساجدها العلياء ، ومدارســها الشهيرة التى أنجبت أكثر علماء العصر علما ، لقد أسس الحكم فى كل البلاد المدارس المجانية وجعل التعليم العام بطريقة تسمح بالقول بأنه قليــلا جدا أو نادرا ما نجــد فى الأندلس من لا يعــرف القــراءة والكتابة » (١٤) .

---

(١٢) نفس المصــدر ، ص ٩٧ .
(١٣) اجوادوا بلايى : تاريخ أسبانيا ، جـ ١ ، ص ٣٢ .
(١٤) اجيليرا : تاريخ أسبانيا ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ .

أما المجموعة الأخرى من الباحثين والأساتذة ، فهى التى ترفض رفضا باتا أن يكون للدولة دور مباشر فى العملية التعليمية ، ومثلها مثل المجموعة الأولى تضم عددا من الباحثين العرب والمستشرقين على حد سواء ، ولا بد لنا من الوقوف ، لعرض بعض آراء هذه المجموعة ، حتى يمكن أن نتبين مدى الفرق الكبير بين آراء كل منهما .

يقول الدكتور الأهوانى عند حديثه عن التعليم الأولى والكتاب :

« يقوم بالتعليم فى هذا المكتب معلم ، هو الذى يستأجر الكتاب ، ويتخذه مكانا للتعليم ، وقد يشترك معلمان أو أكثر فى التعليم بالكتاب، اذا كان عدد الصبيان كثيرا ، ولكن الغالب أنه معلم واحد ، وليس للحاكم سلطان على هذه الكتاتيب ، فهو لا ينشئها ، ولا يشرف على سير التعليم فيها ، ولا شأن له بها وانما يفتتح المعلمون الكتاب من تلقاء أنفسهم » (١٥) .

أما الدكتور محمد أسعد طلس فهو يقرر « أن الحكومة لم تكن تشرف فى صدر الملة الاسلامية ، على المعلمين وكتاتيبهم ، وانما كانت الرقابة متروكة لدين المعلم ووجدانه وخلقه » (١٦) .

أما الدكتور أحمد شلبى ، فقد تطرف كثيرا فى هذه النحرية ، فيقول ضمن حديثه عن العلاقة بين الحكومة والمدرسين ، أنهم كانوا « يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل — القيام بالتدريس — دون انتظار من يحثهم على الذهاب ، وظل الناس يلتفون حولهم ، ويأخذون عنهم ، من غير أن تتدخل الحكومات فى ذلك ، فقد كان هذا العمل غير داخل فى دائرة سلطانها ، فما دام المعلم غير معين منها ، ومادام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجرا ، فقد ترك له أن يدرس ما شاء وقتما شاء » (١٧) .

---

(١٥) احمد فؤاد الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ٦٤ .
(١٦) محمد اسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ٧٠ .
(١٧) احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٢١٣ .

أما عن الأساتذة الأسبان اغناثيو باورو[١٨] وغاليرموا غوثالبيس[١٩]، وانطونيو بايسترو[٢٠] ، فانهم يذهبون الى الحرية المطلقة ، وحيث ان ثلاثتهم يعتمدون كليا على آراء المستشرق الأسبانى الكبير خوليان ريبيرا ، فأركز على آرائه باعتباره أفضل من تناول تاريخ التعليم فى الأندلس بالدراسة والبحث — يقول خوليان ريبيرا :

« ماذا علينا أن نقول لكى ننفى التأكيد بأن هشام الأول انشأ مدرسة حسب ما يقول « كوندى » وما يردده الكثيرون ممن تابعوه ونقلوا منه ، أو أن بنى أمية أسسوا أكاديمية تعلم فيها الفنون والعلوم ، على ما يقول « دوجات » . انى لايمكننى الاجابة بطريقة أخرى غير القول بأننا لم نجد آثارا أو بقايا لما يقال فى أى مدونة جديرة بالاحترام ، بل على العكس ، فان كل المعلمين فى الأزمنة الباكرة لم يكونوا ملحقين بأية منظمة تعليمية ، وأن تعليمهم كان خاصا بصورة محضة . أقصد أن أقول ، ان المعلمين والطلبة ، كانوا مستقلين تماما عن السلطة العامة » [٢١] .

واذا عاد المستشرق الأسبانى ، ليتأمل فى بعض أعمال الحكم الثانى ، واجدا فيها بعض الشك ، فانه يعود وينفى عنه تماما أى تدخل فى التعليم ، وأنقل ما يقول :

« حقق الحكم الثانى بعض الأعمال التى يمكن أن تفسح مجالا للتمعن فى هذه المسألة — ويسرد هذه الأعمال ثم يحكم عليها بعد ذلك

---

(١٨) اغناثيو باورو : عن تاريخ التعليم الأسبانى الاسلامى فى العصور الوسطى (محاضرة باللغة الأسبانية ، نشرت ١٩٣٤) .

(١٩) غاليرموا غوثالبيس :

La Ensenanza en la Espana Musulmana

(٢٠) بايسترى (انطونيو) : تاريخ اسبانيا وتأثيرها على التاريخ العالمى ، ص ١٥٠ .

Ballesteros : Ho de Espana y su influencia sobre la Ho Universal. p. 150.

(٢١) خوليان ريبيرا : تاريخ التعليم بين المسلمين الأسبان ، ص ١١ — ١٢ .

قائلا : « ولكن النظرة المتمعنة تبين لنا أن هذه الأعمال لا تكفى لكى تعطينا الاحساس بأن السلطان كان مكلفا ، كمسئول عن الدولة ، بتعليم وتثقيف رعاياه » (٢٢) .

ويصـــدر الأستاذ حكما فاصلا تماما فى هـــذا الأمر حين يقولها صراحة : من المناسب منذ اللحظة الأولى تأكيد ما ساد بصفة رئيسية خلال هذه الفترة ، وبالتالى فى كل الموضوعات التى ندرســـها فى هذا المجال، الا وهو وضوح عدم تدخل الدولة المباشر فى شئون التعليم(٢٣)، ويستطرد الى أن يصل الى القول : باختصار شديد ، لقد جرت أيام حكم العرب لأســـبانيا دون أن يبدو تدخل مباشر للســـلطة العامة فى التعليم ــ ما عدا فى نهايات هذا الحكم (٢٤) .

الى أين نمضى بين تلك الآراء المتضاربة تماما ؟ لا شك أن لكل من هذه الآراء وجهة نظر خاصة يعتمد عليها ، وينطلق منها فى اصدار أحكامه وآرائه . وحتى يمكن لنا أن نحلل الأمر تحليلا علميا ، لابد لنـــا أيضا من وضع تعريف محدد لمعنى تدخل الدولة فى التعليم ، حتى يمكن أن ننطلق منه لعرض ما نراه مناسبا ، ولابد من وضع قواعد محددة نستهدى بها طريقنا فى التعرض لمشكلة غامضة تتضارب حولها الآراء تضـــاربا حقيقيا ، وما أريد قوله هو : ماذا نقصـــد بتدخل الدولة فى التعليم ؟ .

١ ــ هل نقصـــد بذلك قيام الدولة بانشاء هيئة تنظيمية تتولى الاشراف على المعلمين وأماكن التعليم والطلبة ... الخ ؟ .

٢ ــ هل نقصد قيام الدولة ببناء المدارس والانفاق عليها ؟ .

(٢٢) نفس المصـــدر ، ص ١٢ .
(٢٣) نفس المصـــدر ، ص ١١ .
(٢٤) نفس المصـــدر ، ص ٢١ ــ ٢٢ .

٣ — هل نقصـــد تولى الدولة وضع المنهج والمحتوى التعليمى وتوجيهه فى اطار يتفق وسياسة الدولة ؟ •

٤ — أم نقصـــد انفاق الدولة على المعلمين ، واعطاءهم مرتبـــات شهرية ؟ •

٥ — أم نقصد قيام الدولة بذلك كله ؟ •

المشكلة الحقيقية التى تواجه الباحث فى هذا المجال هى محاولات تطبيق مفاهيم ومعايير معاصرة على فترة زمنية يفصـــل بيننا وبينها أكثر من ألف عام فى بعض فتراتها ، وأقل من خمسمائة عام فى بعضها الآخر ، ونتيجة لاتساع المفهوم الخاص بتدخل الدولة أو مدى الحرية، فاننى أرى أن للجانب الذى يقول بعدم وجود تدخل للدولة فى التعليم بعض الحق ، اذا كان قصدهم عدم وجود هيئة رسمية تحمل اســـم الاشراف على التعليم •

كما أن للدكتور ريبيرا الحق فى الاعتماد على ابن ســـعيد القائل بأن أهل الأندلس لم يكن عندهم مدارس ، تمولها الدولة •

اننى شخصيا أعتقد بممارسة الدولة لنوع من التدخل فى التعليم فى الأندلس وأن ذلك التدخل قد شمل كافة النقاط التى بينتها ، وان كان ذلك يتباين من فترة الى أخرى ومن عصر الى عصر ، ولنستعرض معا بعض ما يثبت هذا الرأى ، على الأقل من وجهة نظرى •

لقد أشرت فى بداية هذا الباب الى التكليف الدينى الخاص بتحمل الحاكم مســـئولية تعليم الناس الدين الجـــديد ، وخاصة فى البـــلاد المفتوحة ، ودور الولاة وأمراء بنى أمية فى نشر الدين واللغة العربية ، كما بينت الأهمية فى عبور عـــدد من التابعين الى الأندلس ، وكيف أن مهمتهم الرئيسية هى تعليم البربر وأهـــل الأندلس ، قواعد الدين ، وأصول اللغة العربية ، كما أننى استعرضت الاهتمام الذى بذله حكام

الأندلس بالعلم والعلماء ، وأثر ذلك على تطور المستوى الثقافى ووصوله الى درجة عاليه ، مبينا مظاهر اهتمامهم نقطة نقطه •

اولا — التدخل فى المنهج التعليمى :

١ — ينقل لنا ابن القوطية [٢٥] (القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) ، نصا لطيفا ، ولكنه يحمل معنى كبيرا وذلك عند حديثه عن الصميل بن حاتم فيقول « ومن أخبار الصميل ، أنه خطر يوما بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ « وتلك الأيام نداولها بين الناس » [٢٦] ، فقال الصميل نداولها بين العرب ، فقال المؤدب : بين الناس ، فقال الصميل : وهكذا نزلت الآية ؟ قال : نعم هكذا نزلت • قال الصميل : والله انى أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل»[٢٧]•

ويرى المستشرق الاسبانى خوليان ريبيرا فى هذا الموقف الفرق بين رجل السياسة ورجل الدين ، فالأول يسعى لتركيز السلطة فى يده عن طريق السيف أو غيره بينما الثانى بما يمتلكه من حماس دينى يسعى لنشر الدين بين الأسبان الجدد [٢٨] ، لكن النظرة المتأنية لهذا النص قد توحى بما هو أكثر من ذلك ، أولا وقبل كل شىء الشك فى صحة هذا الخبر،واحتمال أنه خبر موضوع للتهجم على العرب ونقدهم، وخاصة أن كاتبه « ابن القوطية » من أصل أسبانى ، وأن المولدين كانوا قد أحسوا بشخصيتهم ونفوذهم ، وأنهم قد قاموا بأكبر الثورات ضد قرطبة على يد عمرو بن حفصون • وعواملى للشك هى : أولا أن الفترة الزمنية الفاصلة بين الحديث وراويه ، حوالى مائتى عام تقريبا ،

---

(٢٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس — جـ ٢ ، ص ٧٦ •
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٦٩ •
الضبى : بغية الملتمس ، ص ١١٢ •
الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ١٦٠ — ١٦١ •
(٢٦) القرآن الكريم : السورة الثالثة ، الآية ١٣٩ •
(٢٧) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٤٠ — ٤١ •
(٢٨) ريبيرا : التعليم بين الأسبان المسلمين ، ص ٢٣ •

وهى فترة طويلة نسبيا ان لم يكن الخبر مدونا • وثانيا ، ذلك التصادف الغريب بين مرور الصميل وقراءة هذه الآية بالذات •

من ناحية أخرى هناك من العوامل ما يدفع الى قبول هذا النص منها مثلا أن ابن القوطية على الرغم من أصله الأسبانى ، الا أنه لايتطرق أى شك فى ايمانه ، ولقد احتل مكانه بارزة على عهد عبد الرحمن الناصر بل كان أفضل الأندلسيين علما باللغة العربية وذلك بشهادة أبى على القالى(٢٩) ، كما أن الفترة التى عاش فيها ، عصر عبد الرحمن الناصر لم تكن تسمح له بايراد شىء ضد العرب ، ان لم يكن له أصل من الحقيقة ، علاوة على ذلك فقد قبلها وسجلها كافة المؤرخين سواء من العرب أم من غيرهم •

واذا قبلنا هذه الرواية ، مثلما قبلها الجميع ، فاننى أستشف منها معانى كثيرة منها : وجود مكان لتعليم الأطفال ، وأن هذا المكان يمكن المرور عليه ، ورؤيته ، وسماع مايدور فيه • ومنها أيضا أن المسئولين كانوا يتفقدون هذه الأماكن التعليمية ليطلعوا على ما يقوم به المؤدب ، ومنها ما هو أكثر احتمالا،وهو قيام هؤلاء المسؤلين بمحاولة فرض منهج تعليمى محدد يتماشى وسياسة هؤلاء الحكام •

٢ — ملاحظة أخرى ينقلها الينا ابن القوطية أيضا ، تبدو أكثر وضوحا ودلالة،عند حديثه عن القاضى أمية بن عيسى،أحد وزراء الأمير محمد الذى حكم خلال الفترة من عام ٢٣٨ الى ٢٧٣هـ (٨٥٢—٨٨٦م) ، يقول : لقد خطر يوما بدار الرهائن المجاورة لباب القنطرة (٣٠) ، ورهائن بنى قيس ينشدون شعر عنترة (٣١) ، فقال لبعض الأعوان : ائتنى بالمؤدب ، فلما نزل الى فراش المدينة ، وأتاه المؤدب ، قال له :

(٢٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان — جـ ٤ ، ص ٤ .

(٣٠) عن دار الرهائن وباب القنطرة ، انظر غارثيا غومث : ملاحظات حول طبوغرافية قرطبة ، الاندلس — العدد ٣٠ — ١٩٦٥ ، و ٣٤٦ .

(٣١) الشاعر الجاهلى المشهور عنترة بن شداد ، شاعر قبيلة عبس.

لولا أنى أعذرك بالجهل لأدبتك ، تعمد الى شياطين شجى ، بهم الخلفا فترويهم الشعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ، كف عن هـذا ، ولا تروهم الا خمريات الحسن بن هانى وشبهها من الأهزال (٣٢) .

وفى هذا النص نجد أيضا أن معلما تعينه الدولة ، ويهتم — حتى ولو بطريقـة غير مباشرة — بوضـع منهج خاص يتلاءم وظروفهـم الخاصة .

٣ — قبول المذهب المـالكى كمذهب رسمى للدولة ، مما صبغ التعليم كله خلال كافة مراحله بصبغة هذا المذهب ، واذا كان الخلاف بين الباحثين والمؤرخين حول اسم أول أمير أندلسى ، قام بفرض هذا المذهب ، واذا كانوا قد انقسموا فى أقوالهم بأنه الأمير هشام الأول أو الحكم الربضى، أو أنه عبد الرحمن الأوسط ، فليس ذلك مما يعنينى كثيرا ، لكن المهم أن هذا المذهب قد عرف فى الأندلس ، على أنه المذهب الرسمى الوحيد (٣٣) ، وأنه لقى مسـاندة واضحة من الأمراء ، وهى بالتالى مساندة لنوع معين من التعليم فى بلادهم ، وقصرهم الوظائف العامة على من يتبع ذلك النوع من التعليم ، وما هو أكثر دلالة قيامهم بمحاربة ومطاردة كل من يخالف هـذا المذهب ، مثلما هو الحـال فى مطاردتهم لكل المذاهب الدينية الأخرى كالشـيعة والمعتزلة والخوارج ... الخ ، وكـذلك مقاومتهم الشـديدة والقاسية أحيـانا لمن يتعاطى الفلسفة ، مثلما حدث مع ابن مسرة القرطبى ، وليس الأمر كما يحاول أن يصوره بعض الباحثين ، على أنه استرضاء للعامة ، وخضوع للفقهاء ، لأننا نرى أن الخلفاء يتدخلون لحمـاية بعض العلمـاء على الرغم من معارضـة الفقهاء لهم ، مثلما حـدث مع بقى بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الخشنى وغيرهم .

---

(٣٢) ابن قرطبة : نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٣٣) بن عبود (محمد) : التاريخ السـياسى والاجتماعى لاشبيلية على عهد بنى عبـاد (نظـام اشبيلية القضائى) — رسالة دكتوراه — لم تطبع بعد .

٤ — شهد العصر المرابطى والموحدى تدخلا سافرا لفرض مناهج تعليمية معينة ، تتناسب والعقيدة التى تقوم عليها الدولة ، فبينما نجد أن المرابطين يهتمون بأهل الفقــه والدين ، حتى بلغ الفقهاء فى أيامهم مبلغا عظيما ، لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ويصف المراكشى هذه الحالة بقوله : فعظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس اليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم[٣٤] ، نجد أن الموحدين يميلون الى المذهب الظاهرى ، « ويأمرون بقطع علم الفروع ، وأن الأمير أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » ، « تقدم الى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة فى الصلاة ، وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ، فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع ، فى جميع المغرب ، وحفظه الناس ، من العوام والخواص ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنى ، من الكسا والأموال . وكان قصده فى الجملة ، هو محو مذهب مالك ، وازالته من المغرب مرة واحدة ، وجعل الناس على الظاهر من القرآن والحديث[٣٥] ، ويؤكد ابن فرحون ذلك حين يترجــم لمحمد بن أبى عبد الله محمد بن ســعيد بن زرقون الأشــبيلى (المتــوفى ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) فيقول بأنه « شــيخ المــالكية ، وكان من كبار المتعصبين للمذهب ، فأوذى من جهة بنى عبد المؤمن ، ولمــا أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر ، صنف كتاب » المعلى فى الرد على المحلى « لابن حزم » [٣٦] .

وبينما نجد أن المرابطين يحاربون محاربة شديدة كل من له صلة

---

(٣٤) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٢٥٣ .
عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٧١ .
(٣٥) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٤٠٠ — ٤٠٢ .
عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٠٣ .
(٣٦) ابن فرحون : الديباج — ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

بعلم الكلام ، وأن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ — ٥٣٧هـ / ١١٠٧ — ١١٤٣م) قد « استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله وكان يكتب عنه فى كل وقت للبلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى — رحمه الله — المغرب ، أمر أمير المسلمين بحرقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال الى من وجد عنده شىء منها ، واشتد الأمر فى ذلك » (٣٧) ، نجد أن الفلسفة تزدهر ، على عهد الموحدين ، وأنه قد ظهر على أيامهم عدد من الفلاسفة ، مثل أبى بكر محمد بن طفيل (المتوفى ٥٨١هـ/١١٨٥م) وأبى الوليد محمد بن رشد (المتوفى ٥٨٥هـ / ١١٨٩م) ، ولقد كان أمير المؤمنين أبو يعقوب (٥٥٨ — ٥٨٠هـ / ١١٦٣ — ١١٨٤م) شديد الشغف بابن طفيل الى درجة أن ابن طفيل كان يقيم فى القصر أياما ليلا ونهارا لا يظهر ، ويقول المراكشى : ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الأقطار ، وينبهه عليهم ، ويحضه على اكرامهم ، والتنويه بهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد محمد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ، ونبه قدره عندهم (٣٨) .

ثانيا — التدخل فى شئون المعلمين :

فى هذا المجال ، أخذ تدخل الدولة عدة أشكال منها : —

١ — نقل المعلمين من القرى والمدن الاقليمية الى العاصمة لكى يقوموا بالتدريس بها ، وبين أيدينا حالات كثيرة جدا ، لا أجد داعيه لذكرها لتوقى الاطالة — ومن أمثلتهم ، على سبيل المثال :

محمد بن مروان بن زريق من أهل بطليوس كان « شيخا عاقلا حليما وسيما ، وكان تاجرا ، استقدمه الحكم المستنصر بالله ، رحمه الله ،

---

(٣٧) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٥٥ . ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٤ — ١٥ .

(٣٨) أنظر اهتمام هذا الخليفة الموحدى بالفلسفة فى : المراكشى : المعجب ، ص ٣٤٧ — ٣٥٤ .

وكتب عنه » (٣٩) .

محمد بن فرج بن سـيعون النحلى (٣٦٧هـ / ٩٧٧م) ، من أهل بجانة استقدمه الحكم المستنصر الى قرطبة فسمع منه غير واحد (٤٠).

وهبـة بن مسرة بن مفرح الحجارى (توفى ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) ، استقدم الى قرطبة بكتبه ، وأخرجت اليه أصول بن وضاح التى سمع فيها فسمعت عليه وسمع منه علم كثير ثم انصرف الى بلده (٤١) .

واستمرت حركة نقل المعلمين من القرى الى العاصـمة ، على مدار فترة الوجود الاسلامى فى الأندلس ، ونجـد أمثلة كثيرة خـلال العصر الناصرى بغرناطة وخاصة فترة الأمير محمد الفقيه ثم عهـد أبى الحجاج يوسف وابنه محمد الغنى بالله ، وتكفى هنا الأشارة الى :

محمـد بن ابراهيـم بن محمد الأوسى (٧١٥هـ / ١٣١٥م) ، من أهل مرسية ، أقرأ التعاليم والطب والأصـول بغرناطة ، لمـا استقدمه السـلطان ثـانى المـلوك من بنى نصر ، من مدينة بجـاية ، فانتفع الناس به (٤٢) .

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى القيجاطى (المتوفى ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م) كان أوحد زمانه علما وتخلقا وتواضعا وتفننا ،ورد غرناطة مستدعىعام ٧١٢هـ / ١٣١٢م ، وقعد بمسجدها الأعظم ، يقرىء فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٤٣) .

ولقد قام الوزير ابن الخطيب بمجهود كبير فى البحث عن العلمـاء

---

(٣٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ٣٥٤ .
(٤٠) نفس المصـدر ، ص ٣٧٣ .
(٤١) ابن فرحون : الديباج ـ ج ٢ ، ص ٣٥ .
جذوة المقتبس ، ص ٣٣٨ .
(٤٢) ابن الخطيب : الاحاطة ـ ج ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٤٣) المقـرى : نفح الطيب ـ ج ٨ ، ص ٢٢ .

والتنبيه عليهم ونقلهم الى غرناطة (٤٤) ، يقول ابن الخطيب عند ترجمته لأبى جعفر أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صفوان القيسى :

« الى أن نظرت فى أمور الملك ، فانتشلته من مهــواه ، ودللت البر على مثواه ، وأســنيت له الجراية ، ونشرت من تعظيمه الراية » (٤٥) .

ويقول عنــد ترجمته لمحمد بن الولى الرعينى (المتــوفى ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) ، « بأنه طلب للتصــدير للاقراء فأبى لشــدة انقباضه فنبهت بالباب السلطانى على وجوب نصبه للناس ، فكان ذلك فى شهر شــعبان من عام وفاته » (٤٦) .

ويقول ابن الخطيب فى رسالة على لسان سلطانه انه كان « ينــدب الناس الى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم » (٤٧) .

ومما يدل على أن الاقراء فى الجامع كان يتم بمشــاورة الخليفة ، ان لم يكن بأمر مباشر منه ما يرويه القاضى عيــاض ، نقلا عن ابن عبــد البر ، فى ترجمته لأحمد بن خالد (المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) ، من أنه كان يقعد للناس فى مجلســه حيث انتهى به المجلس ولايبتسم « وعزم عليه آخــرا فى الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بد ، وعمارته ، بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة (٣١٤هـ / ٩٢٦م) ، فأجاب الى ذلك بعد اباية شديدة » (٤٨) .

وما يروى عن سعيد بن عمير بن عبد الرحمن (المتوفى ٣٠١ هـ / ٩١٣م) من أنه كان يسكن بلاط مغيث ، فنقله الأمير عبدالله الى المدينــة

---

(٤٤) انظر : الاحاطة ــ ج ٢ ، ص ٢٧ و ص ٣٣ ــ ٣٥ .
(٤٥) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٢١٦ .
(٤٦) ابن الخطيب : الاحاطة ــ ج ٣ ، ص ٣٣ ــ ٣٥ .
(٤٧) المقــرى : نفح الطيب ــ ج ٩ ، ص ١١٠ .
(٤٨) اليحصبى : ترتيب المدارك ــ ج ٥ ، ص ١٧٧ .
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١١٣ .

بغرب الجامع (٤٩) .

٢ ــ أجر المعلمين ، وفى هذا المجال فان الصــورة قد أخذت أشكالا متعددة ، فبينما كان عبد الرحمن الثالث يمنح جوائزه للمعلمين ،نجدأن المستنصر بالله قد أوقف حوانيت السراجين للانفاق على معلمى الكتاتيب التى أنشــأها بقرطبة ، ولدينــا نص صريح على دفع مرتبات للمدرسين أورده الضبى فى كتابه بغية الملتمس عند ترجمته ليحيى بن بقى المعروف بالسلاوى (توفى بمرسية سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م) ، حيث يقول عنه :

« الواعظ ، الفقيه ، عارف بالتفســير ، أديب ، طبيب ...أقام بمرســية أعواما جمة يعظ الناس ، ولم يكن يأخذ شــيئا من أحد ، كان الأمير بمرسية محمد بن ســعد (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) قد جعل له مرتبا ثم قطع عنه ، فاشتغل بالطب ، وظهر فيه ، فكان يعين نفسه مما يعود عليه منه ، ولا يسأل أحدا شيئا » (٥٠) .

ومن الجــدير بالذكر فى هــذا المجــال ما يقال عن الأمير المرابطى يوسف بن تاشفين من أنه « كان يسير فى أعماله فيتفقد أحوال رعيتــه فى كل سنة ، وكان محبا للفقهاء والعلماء والصلحاء ، مقربا لهم ، صادرا عن رأيهم مكرما لهــم ، أجــرى عليهــم الأرزاق من بيت المــال طوال حياته » (٥١) .

أما عن عبد المؤمن بن على ــ أول خليفة موحــدى ــ فلقــد كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم ، محسنا اليهم ، يســتدعيهم من البلاد الى السكون عنده ، والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والاعظام لهم » (٥٢) .

---

(٤٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ١٦٣ .
الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢١٣ .
(٥٠) الضبى : بغية الملتمس ، ص ٤٩٨ .
(٥١) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٣٨ .
(٥٢) المراكشى : المعجب ، ص ٢٩٣ .

وهناك مظهر آخر من مظاهر حصول المعلمين على الأجر ، ألا وهو تعيينهـم فى وظائف معينة ، وأكثر هذه الوظائف كانت العمل فى أحد المسـاجد اما خطيبا أو مقرئا أو اماما ، وانني على يقين من أن اسـناد هذه الوظائف كان يهدف فى الدرجة الأولى ، الى اعطائه الفرصة للقيام بالتعليم فى هـذا المكان ، علاوة على أن كثيرا من وظائف الدولة كانت تسند الى العلماء والفقهاء وغيرهم من رجال العلم ، ونستدل على ذلك بما تنقله لنا كتب التراجم — مثلا :

خلف بن رزق الأموى المقرىء ، من أهل قرطبـة (المتوفى ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) ، كان امام مسجد الزجاجين بقرطبـة ، وصاحب الصـلاة بالمسجد الجامع بقرطبة ، وكان يقرىء القـرآن ، ويعلم العربيـة ، وكان حسن التلقين ، جيد التعليم (٥٣) .

ابراهيم بن محمد بن على ، أصله من جزيرة طريف ، ونشأ بغرناطة ولى الخطابة والامامة بجامعها سنة (٧١٦هـ / ١٣١٧م) ، وجمع بين القراءة والتدريس فكان مقرئا للقرآن ، مبرزا فى تجويـده ، مدرسـا للعربية والفقه ، آخذا فى الأدب ، متكلما فى التفسير ، ظريف الخط(٥٤) .

وهناك من النصوص الكثيرة ما يؤكد أن اسـناد مثل هذه الوظائف كان يرجع الى شخصيات رئيسـية فى الدولة ، ان لم يكن الى الخليفة نفسه — يقول ابن الأبار نقلا عن القاضى نذير بن وهب بن نذير الفهرى ، أنه : كان بشنتمرية (٥٥) ، معلم كتاب يؤدبهـم ، ويؤم فى مسـجدين : أحدهما يصلى فيه نهارا والثانى ليـلا ، فكتب الى الحاجب أبى مروان

---

(٥٣) ابن بشكوال : الصلة ، ص ١٦٩ .

(٥٤) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٣٧٤ .

(٥٥) أورد الأستاذ عنان بأنها شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين انظر ص ٧ ، فى كتابه « طبوغرافية عربية اسبانية » ، وأنظر تعليق حسين مؤنس ؛ على ابن الأبار : الحلة السيراء — ج ٢ ، ص ١٠٩ .

عبد الملك (٤٩٦هـ / ١١٠٣م) (٥٦) يسـألـه التقديم فى المسـجد الجامع للصلاة فى الدولة مع سائر الأئمة ، فوقع له فى مكتوبه :

أيطيق تأديبـا وعقـد امامـة

فى مسـجدين وجامع أنسـاك

أثبت على احدى المراتب لا تزد

فمن الزيادة يتقى النقصان (٥٧)

بالاضافة الى هـذه المظاهر كلها من تدخل فى شـئون المعلمين فان كتب التاريخ قد حفظت لنا نصا قيما جدا يبين لنا تدخل الأمراء فى بعض النواحى الشخصية جدامن حياة المعلمين، ومن أمثلتها مايحكى عنحبيب بن دحون (توفى فى سـنة ٣٠٠هـ / ٨١٥ — ٨١٦م) ، من أنه كان فقيهـا فاضـلا ، قدم الأندلس بعلم كثير ، فذهب الى نشره ، فكان يتحلق اليه فى المسجد الجامعبقرطبة، وهو يلبس الوشى الهاشمى(٥٨) ، وما شاكله، فتكاثر الناس عليه ، فكره الأمير عبد الرحمن ذلك ، وأوصى اليه بترك التحلق (٥٩) .

ثالثا — الاشراف على اماكن التعليم وعلى انتظامه :

فى هـذا المجال أيضا تعددت مظاهر تدخل الدولة فى التعليم ويمكن حصرها فى عدة نقاط منها :

١ — زيارة الأماكن التعليمية ، ولقد سبقت الاشـارة الى زيارة الصميل لمؤدب يعلم الصـبيان ، وزيارة القاضى أ[illegible]ة بن عيسى لدار

(٥٦) أنظر عن ابى مروان : عبـد الله جمال ، تعليقـات رسالته للدكتوراه ، التعليق رقم ١٢٩ ، ص ٤٠ .
(٥٧) ابن الأبار : الحلة السيراء — جـ ٢ ، ص ١١٣ ، ١١٤ .
(٥٨) يقول الدكتور محمود على مكى ، أنه كان نوعا من الخز الثمين .
(٥٩) ابن حيان : المقتبس (تحقيق مكى) ، ص ٩٤ — ٩٦ .

الرهائن فى ساعة من ساعات تعليم هؤلاء الصبيان ولدينا زيارات أخرى كثيرة قام بها رجال مسئولون فى الدولة للمعلمين أثناء قيامهم بالتعليم. فقد قام الوزير الشهير هاشم بن عبد العزيز بزيارة الفقيه وهب ابن عبد الأعلى فى مجلس علمه(٦٠) ، والخليفة الحكم المستنصر بالله قد قام بزيارة الفقيه أبى الحسن الأنطاكى ، وعين له الأنطاكى بعض من يقرأ القرآن أثناء هذه الزيارة(٦١) • وعلى عهد الموحدين كان الخليفة يحضر مجالس التعليم بنفسه ، ويقوم بتشجيع الحاضرين ومساعدتهم(٦٢) •

يضاف الى ذلك المناظرات العلمية ، والمجالس التى كان يعقدها الخلفاء والأمراء ، ولسوف أتناول دور هذه فى العملية التعليمية فى مجال منفصل •

٢ — دور القضاة فى التدخل فى بعض مظاهر العملية التعليمية ، فهناك شبه اجماع من جميع من تناولوا العملية التعليمية فى الأندلس ، أو كتبوا عنها بعض الفصول ، على أن « الكتاتيب » ، أو ان شئت ، المدارس الأولية — كانت خاضعة نظريا لاشراف المحتسب (٦٣) •

وان كان ما أثار انتباهى هو الدور الذى كان يلعبه القضاة حيث توقفت طويلا أمام ظاهرة تردد أسمائهم مرتبطة ببعض المسائل الخاصة بالتعليم ، وتدخلهم فى بعض شئونها ، والمشكلة بالنسبة لى ، التى صعبت على حلها أو الوصول الى رأى نهائى فيها هى ، هل كان القضاة يقومون

---

(٦٠) ابن الأبار : تكملة الصلة — ج ٢ ، ص ٤٢٠ ، مدريد ١٨٨٠ •
(٦١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٦ •
(٦٢) انظر القصة الطويلة الواردة فى المعجب ، ص ٣٦٩ ، مع هلال ابن سعد بن مردنيش •
(٦٣) مكى (الطاهر احمد) : دراسات عن ابن حزم وكتابه « طوق الحمامة » ، ص ٥٢ •
موسى القبال : الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب العربى ، ص ٢٧ ، ٩٧ •
ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٧ — ١٣٨ •

ببعض هذه التصرفات بصفة شخصية أم بصفتهم الوظيفية ؟ ، فالقاضى أمية بن عيسى هوالذى تدخل لدى معظم الرهائن ، ليوصيه بعدم تعليمهم شعر عنترة ، وأن يعلمهم أشعار الحسن بن هانى ، وصاحب السوق على عهد الأمير محمد هو الذى تولى أيضا محاسبة الفقية محمد بن عبدالله الخشنى ، وصاحب المدينة على عهد عبد الرحمن الناصر هو الذى طارد فرقة ابن مسرة ، وصاحب المدينة هو الذى طرد ابن حزم ومسعود بن مفلت، ومنعهم من التدريس فى الجامع، والقاضى ابن ذكوان على عهد المنصور بن أبى عامر هو الذى نوه بعلى بن أبى طالب (المتوفى ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م) ، وأجلسه فى الجامع ، فنشر علمه وعلا ذكره ، ورحل الناس اليه من كل قطر وولى الخطبة والشورى والصلاة الى أن قعد عنها (٦٤)، والمعلم أبو جعفر الحميرى المؤدب (المتوفى ٦١٠هـ / ١٢٢٣م) ، حينما هجاه أحد طلبته شعرا « أنهى خبره الى القاضى أبى الوليد بن رشد ، فأوجعه ضربا » (٦٥) ، ومحمد بن عياض بن محمد بن عياض (٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) « كان محبا للعلم مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ؛ ليحبب اليهم العلم والتمسك به » (٦٦) ؛ وما هو أكثر من ذلك أن عبد الله بن موسى بن سعيد الأنصارى ،كان فى آخر أمره قد عزم على الحج ثانى مرة ، فأرسل اليه القاضى زيد بن الحشا ، وقال له : « قد قمت بالفرض ، فهذه المرة الثانية هى نافلة ، والذى أنت فيه الآن أوكد » فمنعه من الخروج حرصا على وجوده فى طليطلة معلما ومهذبا للناس » (٦٧) .

رابعا — استقبال المعلمين المشرقيين فى الأندلس :

فى هذا المجال فان هناك اجماعا تقريبا ، على دور الدولة والخلفاء ،

---

(٦٤) ابن فرحون : الديباج المذهب — جـ ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(٦٥) المراكشى : المعجب ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، والقديمة ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .
(٦٦) ابن فرحون : الديباج — جـ ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٦٧) ارسلان (شكيب) : الحلل السندسية — جـ ٢ ، ص ١٥ .

فى الترحيب بالعلمـاء المشـارقة الذين هاجروا الى الأندلس ، ولقـد استمرت هذه الحركة ، منذ بداية الفتح الاسلامى لشبه الجزيرة الأيبيرية ، والى قرب سقوط غرناطة ، ولقد قام هؤلاء العلماء بالتعليم فى المساجد الجامعة فى قرطبة والزهراء والزاهرة ، وغيرها من مسـاجد الأندلس ، وتلقوا من الخلفاء والأمراء أكبر رعاية ممكنة ، ولعب المسـتنصر بالله فى هذا المجال دورا كبيرا •

وفى مقابل وصول العلماء المشارقة الى الأندلس ، فان سماح حكام الأندلس برحلات الأندلسيين الى المشرق على الرغم من العداء السياسى الكبير الموجود بين الأمويين هنا والعباسيين هناك ، يعتبر دليلا آخر من دلائل التدخل غير المباشر فى العمليـة التعليمية ، لأن السـماح بالرحلة واكرام العلماء بعد العودة ، واسناد الوظائف اليهم ، قد شجع من هذه الرحـلات ، وسمح بنقل علـوم وكتب المشـارقة الى الأندلس بأسرع ما يكون •

خامسا — بنـاء الأماكن التعليمية :

احتل بناء المساجد المقام الأول فى هـذا المجال ، وليس من شـك فى أن بنـاء المساجد لم يكن يهدف فى الدرجة الأولى الى ايجاد مكان للتعليم ، بقدر ما هو مكان للعبادة ، لكن المسجد كان من جانب آخر ، أكبر مؤسسة تعليمية فى الأسلام ، وسوف أتناول دور المسجد تفصـيلا فى مجال آخر ، ويهمنى التأكيد على أن قيام الحكام فى الأندلس ببناء المساجد والتشجيع على بنائها ، قد دفع بالتعليم فى هـذه المنطقة ، خطوات واسعة الى الأمام •

ولم يقتصر بناء الأماكن التعليمية على المساجد فحسب ، بل قام الحكم المستنصر ببناء سبعة وعشرين مكتبا لتعليم الأطفال ، وجعـل الموحدون عرائش بجوار القصر يقيم بها الأشـياخ والكتبة ، وبنيت المدارس ، ولسوف أتناول المدرسة فى الأندلس ضمن باب المؤسسات التعليمية •

وأختتم هذا الحديث عن دلائل تدخل الدولة فى التعليم ، بالاشارة الى مسألة دواوين العطاء ، التى كان يسجل فيها القادمون الى الأندلس مثلما حدث مع محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله (المتوفى ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥م) ، الذى وصـل الى الأندلس سـنة ٣٤٩هـ (٩٦٠م) ، فأمر المستنصر باللـه بانزاله ، وتوسع له فى العطاء ، وأثبتـه فى ديوان قريش (٦٨) ، ومحمد بن أحمـد بن إبراهيم ، وصـل الى الأنـدلس ٣٦١ هـ/٩٧٢ م فأكرمه أمير المؤمنين ، وأمر باجراء النزل عليه (٦٩) ؛ ومحمد بن العباس بن يحيى (المتوفى ٣٧٦ هـ/٩٨٧ م) ، قدم الأندلس على أمير المؤمنين المسـتنصر بالله ، فكان يجـرى عليه النـزل مـع الأضياف (٧٠) .

وأنننى آمل فى دراسة خاصة عن نواحى التوزيع المعتمدة فى هذه الـدواوين ، تكشـف بوضـوح أكثر ، عن دور هـذه الـدواوين ، فى تقديم العطاء للمعلمين وغيرهم .

---

(٦٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ــ جـ ٢ ، ص ١١٦ .
(٦٩) نفس المصـدر ، ص ١١٤ .
(٧٠) نفس المصـدر ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .

الباب الثانى

المراحل التعليمية فى الأندلس

مقـــدمة :

مراحل التعليم ومؤسساته فى الأندلس لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها فى العالم الاسلامى بأكمله .

ويقصد بالمراحل التعليمية، الفترات التى يمربها الطفل منذ صغره، حتى ينتهى من التعليم المتوسط ، ويلتحق بالتعليم العـالى ، أو يترك التعليم ، الى عمـل ما ، ويحددها المفكر المصرى أحمـد أمين بقوله : « أن التعليم كان مرحلة تبتدىء بالكتاب أو بالمعلمين الخاصين ، وتنتهى بأن تكون حلقة فى مسجد » (1) .

ولقد تعارف الناس على تقسيم التعليم فى العالم الاسلامى الى مراحل ثلاث ، دون أن يعنى ذلك الفصل الواضح والمحدد بين كل مرحلة أخـرى ، والتقسـيم هنا يقوم أولا على أسـاس السـن والمكان والمـادة التعليمية .

فالمرحلة الأولى هى التى يحفظ فيها الطفل القرآن الكريم ويتعلم القراءة والكتابة ، وبعض العلوم الأخرى . ولقد تباين ذلك من منطقة الى أخرى فى العالم الاسلامى من حيث التركيز على مادة أو اهمال أخرى . وكما قلت ، فان التعليم فى العالم الاسلامى كله متشابه ولكنه يختلف من مكان الى آخر حسب بعض الظروف التاريخية أو الشروط الجغرافية أو الأحوال الاقتصادية والاجتماعية .

أما المرحلة الثانية ، فان الطفـل كان يتلقى فيها تعليما أوسـع وأشمل . وأكثر تركيزا حيث أصبح فى امكانه تلقى شروح القـرآن وتفسيراته ، وقراءاته ، وكذا الحديث والآراء الفقهية ، وما الى ذلك

---

(1) أحمـد أمين : ضحى الاسلام ـ ج ٢ ، ص ٦٦ .

من علوم الدين ، أو العلوم الانسانية عامة ، كما أنه يمكن له أن يبدأ في دراسة العلوم العقلية .

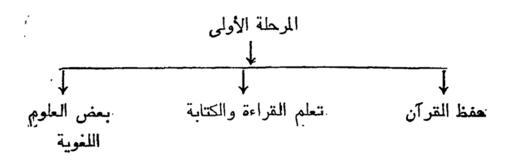
وفى المرحلة الثالثة ، يقوم بالرحلة والانتقال من مكان الى مكان ، بغرض التركيز ، والتخصص ما أمكن ، فى ناحية أو فى عدة نواح من العلوم ، التى سبق وبدأ تعلمها فى المرحلة الثانية .

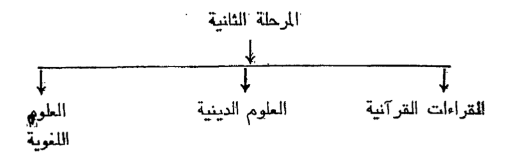
ويمكن تقسيم المراحل التعليمية أيضا الى ثلاث من ناحية مكان التعليم ، فالمرحلة الأولى يتعلمها الطفل فى البيت أو فى المكتب ، والثانية اما فى المسجد أو فى بيت المعلم ، أما الثالثة فلقد كانت تتم فى المسجد وفى المنزل وفى المدرسة — أو فى أى مكان عام أو خاص ، يمكن فيه الحديث مع الأستاذ المعلم .

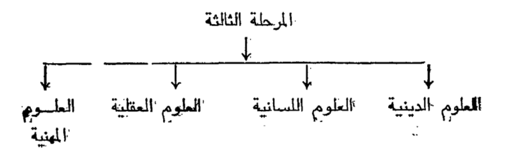
ولكى لا يكون الحديث مكررا فانني سأتناول كل مرحلة تناولا كاملا ، أقصد بذلك أنه عند الحديث عن المرحلة الأولى أو الثانية أو الثالثة فانني سأتناول كل الجوانب المتعلقة بهذه المرحلة — المكان — المحتوى الدراسى — المعلم — التلميذ — العلاقة بين المعلم والتلميذ — الجزاء ، سواء كان مكافأة أو عقابا — أجر التعليم — العلاقة بين الأسرة والمعلم ، الى آخر هذه المظاهر .

وأود الاشارة منذ البداية الى أن ذلك التقسيم المرحلى ، ليس الا بغرض التسهيل الدراسى فقط ، لأنه من الصعب جدا وضع حواجز فاصلة تماما بين مرحلة تعليمية وأخرى ، أو بين تعليم مادة وتعليم مادة أخرى .

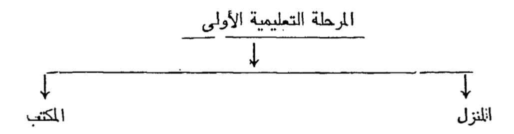
المراحل التعليمية حسب المنهج التعليمى

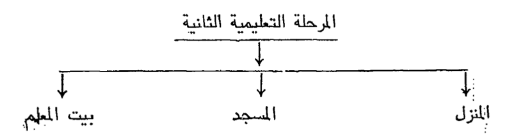


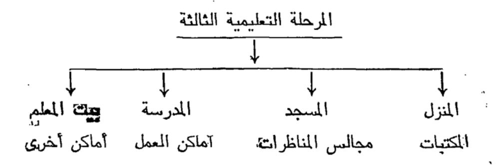




المراحل التعليمية حسب مكان الدراسة







الفصـــل الرابع

المرحلة التعليمية الأولى

أقصـــد بذلك نوع التعليم ، الذى يتلقاه الطفل فى ســنى عمره الأولى ــ أى تلك الفترة التى تبدأ بمحاولة الوالدين أو المعلم ، سواء فى البيت أم خارجه ، تعليم الصــغير القــراءة والكتــابة ، أو تلقينـه الآيات القرآنية ، حتى ينتقل بعد ذلك الى مجالس المعلمين والمؤدبين فى المساجد أو فى غيرها من أماكن التعليم .

المكـــان :

حسب ما بينت فى الجدول السابق ، فان المرحلة الأولى يتم تلقيها فى كل من المنزل والكتاب ، وتتناول دور كل منهما فيما يلى :

دور المنزل :

لاشك أن المنزل يلعب الدور الأساسى فى التكوين العقلى للطفل ، وأنه يترك بصــمته الاجتماعية والاقتصــادية والثقافية على تربيــة الأبناء ، والوالدان والأقربون بحكم ثقافتهم وعلمهم يتركون فى نفوس أبنائهم حب العلم عامة وحب مادة ما أو مواد يعمــل بهـا الوالدان أو الأقربون . ولم تهمــل كتب التراجــم الاشـــارة الى تأثــير البيت فى عدد كبــير من الشخصيات العلميــة والأدبيــة الأندلســية حيث يشار اليهم بأنهم من بيت علم فقيل عن أحمد بن محمد بن على ــ قاضى الجماعة بقرطبة ــ توفى ٥٢١ هـ/١١٢٧ م ، أنه أخذ عن أبيه وتفقه عنده ، وهو من بيئة علم ودين (١) . وأحمد بن محمد بن أحمد

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ــ جـ ١ ، ص ٧٨ .

ابن مخلد المتوفى ٥٣٢هـ / ١١٣٧م ، سمع من أبيه بعض ما عنده ، وهو من بيت علم ونباهة وفضل وصيانة (٢) . أما خليل بن اسماعيل بن عبد الملك المتوفى ٥٥٧ فهو من بيت علم ودين وفقه ، ســواء فى ذلك رجالهم ونساؤهم وخدمهم (٣) .

ولاشــك أن الوالدين أو أهــل المنزل قد حاولوا دائما ، منــذ الأعوام الأولى لطفلهم ، تعليمــه بعض الآيات القــرآنية أو القراءة والكتابة أو الأعداد ، وذلك قبل ذهابه الى المكتب ، أو قبل أن يبــدأ معه معلمه تعليمه ، سواء فى منزل الصبى ، أو فى مكان تعليم المعلم .

ولقد لعب الوالد دورا رئيسيا فى هذه الناحية ، وواصل دوره ، بعد ذلك مع ابنه ، فى مراحل تعليمه التالية ، حتى أننا يمكن لنا دون أدنى تردد — اعتبــار الوالد المعلم الأول فى حيــاة طفله ، ســواء بطريقة مباشرة ، أى بأن يتولى بنفسه تعليم صغيره أو بطريقة غير مباشرة كأن يحثه على التعليم ، ويساعده على ذلك . فأحمد بن يحيى ابن أحمد المعروف بابن الحذاء (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) ، روى عن أبيه أكثر رواياته ، وندبه صغيرا الى طلب العلم والسماع من الشيوخ الجلة فى وقته ، فحصل له بذلك سماع عال ، أدرك به درجة أبيه » (٤) .

ويقول ابن الأبار عن نفسه ، أنه قرأ القرآن على والده ، وسمع منه أخبارا وأشعارا ، وأنه استظهر عليه مرارا أيام أخذه على الشيوخ ، يمتحن بذلك حفظه » (٥) .

---

(٢) ابن بشكوال : الصــلة — ج ١ ، ص ٧٩ .
(٣) السيوطى : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ٥٦١ .
(٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٦٢ .
(٥) ابن الأبار : الحلة الســيراء — ج ١ ، ص ١٥ (من مقــدمة الدكتــور حسين مؤنس) .

وقد اتخذ المنزل أحيانا كمكان لتعليم الأطفال ، وان كانت الاشارات الى ذلك ليست كثيرة ، ولكن يقال عن حزم المعلم ، أنه كان هو وابنه محمد وابنته ، تجمعهم فى تعليمهم ، دار واحدة (٦) .

الى جانب ذلك يتحمل المنزل مسئوليات أخرى فى متابعة الطفل عند ذهابه للمكتب ، وفى تطور تعليمه ، ودفع أجر التعليم وتحديد الفترة التى يجب أن يستمر فيها الطفل فى المكتب والسن التى توجب عليه الانتقال الى حلقات المدرسين بالمساجد أو غيرها ، ثم يواصل المنزل بعد ذلك دوره ، فى المراحل التالية من تعليم الطفل ، وسأشير الى ذلك فى حينه .

المكتب :

تطلق هذه الكلمة على المكان الذى يتعلم فيه الصغار ، وقد تطلق عليه كلمة « كتاب » (٧) والجمع مكاتب أو كتاتيب . والمعلم الذى يتولى التعليم فيه ، يسمى أحيانا « بالمكتب » (٨) أو « المرجل (٩) » . أما كلمة « المعلم » ، فهى الأعم والأكثر استعمالا . ويرى الدكتور أحمد شلبى ، أن المكتب لا يرجع الى فترة تاريخية مبكرة جدا من تاريخ الاسلام ، مخالفا فى ذلك ما قاله جولد زيهر Gold Ziher فى دائرة معارف الأديان والأخلاق (١٠) ، مؤكدا أن ظهور المكتب فى الاسلام كان فى نهاية القرن الأول أو مطالع القرن الثانى من الهجرة ، وأنه حتى فى هذا التاريخ ، كان « حديث الوجود وقليل الانتشار »(١١) .

---

(٦) ابن الأبار : تكملة الصلة — ج ١ ، ص ٣٤ .
(٧) أحمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٤٤ .
(٨) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٣ — ٣٥ .
(٩) أى الذى يصنع من الطفل رجلا .
أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٤٩ .
(10) Encycloqaedia of Religions and Ethies, Vol. v. p. 199.
(١١) أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٥٣ .

ولقد قام الدكتور شلبى بدراسة تاريخية مطولة عن المكاتب أو الكتاتيب فى الاسلام ، بين فيها أن أرض الجزيرة العربية وبلاد الشام قد شهدت نوعين من المكاتب ، الأول منهما خاص بتعليم القراءة والكتابة ، وأرجع ذلك النوع الى ما قبل الاسلام ، وأن الذين تولوا التعليم فيه ، خاصة فى الفترة الاسلامية الأولى ، كانوا من غير المسلمين (١٢) ، أما الثانى فهو كتاب « لتعليم القرآن ومبادىء الدين الاسلامى » (١٣) ، وهذا النوع جاء متأخرا على ما يرى ، واعتبره تطورا لما كان يحدث من تعليم أبناء الملوك والعظماء فى قصور ذويهم ، وتعليم الأولاد بمعرفة أهليهم (١٤) .

المكتب فى الأندلس :

ظهر المكتب فى الأندلس فى فترة مبكرة من بعد الفتح العربى لشبه الجزيرة الأيبيرية ، ولقد سبق لى أن بينت فى رسالتى الصغرى (١٥) أنه من الطبيعى أن التعليم فى الأندلس بدأ بالكبار سنا بقصد تعليمهم الدين الجديد واللغة العربية ، كما قلت بأنه كان من الطبيعى أن تظهر المكاتب الخاصة بتعليم الأطفال بسرعة ، لأنه اذا كان رجال الجيش قد تزوجوا من نساء أهل البلاد كما فعل عبد العزيز بن موسى بن نصير بزواجه من أرملة آخر ملوك القوط ، وأن هذا الاختلاط قد أثر على الأجيال الجديدة . واذا ما كانت السن المعقولة لبدء التعليم ، هى ما بين الخامسة الى السابعة ، فان ذلك يقودنا حتما الى القول بأن الاتجاه لتعليم الصبيان فى الأندلس ، قد بدأ خلال العقد الأول من الفتح ، لا أكثر .

واذا افترضنا أن بعض العائلات العربية قد عبرت الى الأندلس بعد اتمام عملية الفتح السريعة ، وأن هذه العائلات قد اصطحبت

---

(١٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ .
(١٣) نفس المصدر ، ص ٤٩ .
(١٤) نفس المصدر ، ص ٥٢ .
(١٥) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس منذ الفتح حتى الخلافة ، ص ٤٧ من النص العربى .

معها نساءها وأولادها فمن الجائز القول بأن الكتاتيب قد بدأت فى الأندلس فى فترة مبكرة عما ذكرنا ، وعلى كل حال فانها لم تتأخر عن السنوات العشر الأولى — والاشارة الأولى ، التى وردت عن تأديب الصبيان أوردها لنا ابن القوطية ، فى كتابه عن افتتاح الأندلس ، حيث ذكر أن الصميل قد تناقش مع مؤدب للأطفال حين خطر به يوما ، ومن هذا النقاش نستنتج وجود مكان لتأديب الأطفال ، يمكن المرور عليه ورؤيته ، وسماع ما يدور فيه (١٦) . ولقد وقع ذلك بالتأكيد قبل عام ١٣٨ هـ/٧٥٧ م ، أى قبل تولى عبد الرحمن الداخل الامارة الأندلسية .

كما أن الزبيدى فى كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصا قيما عن الغازى بن قيس المتوفى ١٩٩هـ / ٨١٤م ، يمكن لنا أن نستنتج منه ، أنه فى أيام دخول عبد الرحمن الداخل كان الغازى يمارس التأديب ، بل أن مهنة التأديب كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس ، وأن هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب أن يتقاضوا فى مقابلها أتعابا ، ويتجمعون للدفاع عنها ، يقول النص بأن الغازى بن قيس « كان ملتزما بالتأديب فى قرطبة أيام دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨/١٧٢ — ٧٥٦/٧٨٨م) . وذكر محمد بن عمر بن لبابة (٣٠٤/٩١٦) أن رجلا حاكر بعض المؤدبين فى الحذقة (أى فيما يجب أن يدفعه مقابلا للحذقة) ، فمنعها المؤدب فناظره فى ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة وأشفقوا أن ينفتح عليهم فى ذلك باب منع ، فأتوا غازى ابن قيس فقالوا : ياسيدنا — تعريضا له بالتأديب — عرض غرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جرى عليه الناس » (١٧) .

كما أن لدينا نصا آخر عن معلم صبيان قاد ثورة ضد عبد الرحمن

---

(١٦) انظر النص والتعليق فى صفحة ١٩٥ من الكتاب .

(١٧) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

الداخل وكان يسمى «شقيا» وتم القضاء عليه عام ١٥٢هـ / ٧٦٩م([١٨])، ولعل فى هذا ما يمكن أن يلقى ظلالا ولو باهتة على رأى الدكتور أحمد شلبى فى مسألة تأخر ظهور المكتب فى العالم الاسلامى، الى أوائل القرن الثانى من الهجرة، لأنها اذا كانت مؤكدة فى الأندلس بعد حوالى ٤٠ سنة ومحتملة قبل ذلك بكثير، فليس من المحتمل أنها قد تأخرت فى بلاد المشرق الى أكثر من مائة عام . ومما يؤكد ظهور المكتب الخاص بتعليم القرآن فى السنوات الأولى من عمر الاسلام ما جاء عند ابن سحنون والقابسى، من أنه سئل أنس (القرن الأول من الهجرة/السابع الميلادى) كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، رضوان الله عليهم — قال أنس : كان المؤدب له أنجانه، وكل صبى يجىء كل يوم بنوبته بماء طاهر فيصبه، فيمحون به ألواحهم . قال أنس : ثم يحفرون له حفرة فى الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف ([١٩]) .

وعلى العموم فليس من غرض هذا البحث التأريخ للمكتب فى الاسلام، بل فى أسبانيا الاسلامية فقط، حيث نعود فنؤكد رأينا، من أنه من المحتمل أنه لم يتأخر فى الظهور عن السنوات العشر الأولى، وأنه أصبح مؤكدا خلال الأربعين سنة الأولى .

نقطة أخرى، لم أجد فى كافة المصادر الأندلسية ما يمكن أن يدل على وجود النوع الأول الذى أشار اليه الدكتور شلبى، وانما هناك نوع واحد لا غير، يتعلم فيه الأولاد القراءة والكتابة، وبقية العلوم، كما سنبينها فيما بعد .

اماكن وجود المكتب :

المكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال، وقد يكون غرفة فى منزل، أو حانوتا يكترى، أو فناء، ولم يكن له مكان معين يقام

---

(١٨) مجهول : أخبار مجموعة (ط . مدريد)، ص ١٧ .
ابن حيان : المقتبس (تحقيق مكى)، ص ٢٦٦ .
(١٩) القابسى : احوال المتعلمين، ص ٣١٦، وآداب المعلمين، ص ٣٥٣ .

فيه ، ولقد كان عادة يقام بالقرب من المسجد وربما فى داخله ، ولقد نهى بعض المربين عن اقامة المكتب داخل المسجد ، وذلك بسبب ما يسببه الصبيان من القذارة وامتثالا لحديث الرسول « صلى الله عليه وسلم » القائل : جنبوا صبيانكم المساجد (٢٠) ، وأجمع على ذلك رجال الحسبة ، فجعلوا من واجب المحتسب أن « ينهى عن الخط للصبيان والمجانين فى وسط المساجد ، لأن الرسول ، أمر بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين ، ولأنهم يسودون حيطانها ، وينجسون أرضها ، وما فيها من الحصر والفرش ، اذ أنهم لا يحترزون من البول ، وسائر النجاسات ، واذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يتخذ المؤدبون أمكنة ، يعلمون فيها صبيانهم ، ويراعى فيها أن تكون على الدروب وأطراف الأسواق » (٢١) .

أما ابن عبدون الأشبيلى ، فيقول : المساجد هى بيوت الله ومواضع الذكر ، ومواضع العبادة ، مشهورة بالطهارة ، ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان ، فانهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم فان كان ولا بد ففى السقائف (٢٢) .

أما السقطى فيرى أن معلمى الصبيان يجب أن يكونوا بالشوارع العامرة بالناس ، وأصحاب الحوانيت (٢٣) .

ورغم هذه التوصيات الواضحة ، فاننا نرى أن المعلمين والمؤدبين فى الأندلس لم يلتزموا بها التزاما كبيرا ، حيث نجدهم قد اتخذوا من المساجد مكانا لتعليم الأحداث ،ولدى ملاحظتان واضحتان على ذلك، أولاهما : قال عثمان بن محمد ، أخبرنى أبى قال : شهدت مجلس عمرو ابن عبد الله (القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) يوما من الأيام

---

(٢٠) ابن ماجة ، سنن « مساجد » ، ص ٥ .
(٢١) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢٢) ابن عبدون : الحسبة ، ص ٣١٤ .
(٢٣) السقطى : كتاب فى آداب الحسبة ، ص ٦٨ .

فى المسجد المجـــاور لداره ، فرأيته جالسا ، يحـــكم بين الناس ••• وهو جـــالس فى ركن المسجد مـــع من جلس اليه من أهل الحـــوائج والخصومات وفى الركن الثانى الذى يقابله مؤمن بن سعيد وقد جلس مع من جلس من الأحداث حيث قذف طفل آخر بالحذاء ، وسقط الحذاء فى مجلس القاضى — مما يدل على قرب المسافة بين المجلسين — وكيف أن القاضى لم يغضب ، وانما قال : لقد آذانا الصـــبيان الذين تسللوا واحدا بعد الآخر خارج المسجد (٢٤) •

أما الملاحظة الثانية فتتحدث عن الأديب الأندلسى الشهير ، أحمد ابن محمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب العقد الفريد (توفى ٣٢٨/٩٣٩م) قائلة بأنه وقف يوما تحت دوش لبعض الرؤساء ، وقد سمع غناء حسنا فرش بالمـــاء ولم يعرف من هو • فمال الى مسجد قريب من المكان ، واستدعى بعض ألواح الصبيان ، وكتب :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد

ما كنت أحسب هذا البخل فى أحد (٢٥)

ولعل السبب فى استخدام المساجد كمكان لتعليم الأطفال يرجع الى أن كثيرا من خدمة المساجد كانوا يحترفون هذه المهنة ، ممـــا جعل من السهل عليهم ممارسة العملين فى وقت واحد ، حيث نجد أن أحمد ابن خلف الأموى (٤٩٩/١١٠٥ م) ، من أهل قرطبة « كان معلم كتاب ، وصاحب صلاة » (٢٦) •

---

(٢٤) الخشنى : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ١٠٤ ، ص ٦٧ ، ط ، القـــاهرة (•)

Ribera, J. : Historia de los Jueces de Corboda, pp. 445-447.

(٢٥) الحميدى : الجذوة ، ص ٩٤ ، ٩٥ •

الضبى : بغية الملتمس ، ص ١٤٩ •

لم نترجم الشعر لأنه لا محل له •

(٢٦) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٧٥ •

كما وجدت المكاتب فى المنازل حيث نجد أن ابن حزم المعلم قد استخدم داره مكانا للتأديب ، وساعده فى ذلك ابنه وابنته (٣٧) .

وحينما أنشأ الحكم المستنصر سبعة وعشرين مكتبا فى مدينة قرطبة جعل ثلاثة بجوار المسجد الجامع ، والباقى فى أحياء المدينة (٣٨) .

وهناك من كان يتخذ من دكانه مكانا يقرىء فيه الأولاد فيحكى عن ابراهيم بن مبشر بن شريف البكرى (المتـوفى فى ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) ، أنه كان يقرىء فى دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة وينقط المصاحف ويعلم المبتدئين (٣٩) .

أما من ناحية الانتشار ، فمن الطبيعى أن المكتب قد وجـد فى كافة الأحيـاء بالمدن ، وفى القرى (٣٠) ويرى الدكتور شلبى أن عـدد المكاتب وعدد معلمى الأطفال قـد زاد فى القرن الثانى الهجرى ، وما تلاه من قرون ، وكانت زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب ، بـل ربما وجد فيها أكثر من كتـاب ، وقـد ذكر ابن حوقل أنه عـد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية (٣١) .

وفى الأندلس ، انتشرت هذه المكاتب انتشارا واسعا ، بدليل كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين ضمن كتب التراجم الأندلسـية ، ولا يسعنا هنا أن نذكر أسماء هؤلاء ، لأن ذلك معناه أن ننقل مئات الصفحات من هذه الكتب الى هذه الرسالة ، وتكفى الاشـارة الى أنه فى موقعة قنتش (٣٢) سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، أصيب من المؤدبين خاصة ، ما نيف على ستين ،

(٢٧) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس ــ ج ١ ، ص ٢٥ .
ابن الأبار : التكملة ــ ج ١ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .
(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب (ط بيروت) ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٢٩) ابن بشكوال : الصلة ــ ج ١ ، ص ٨٨ .
(٣٠) انظر الأهوانى : فى التربية الاسلامية ، ص ٦٤ .
(٣١) أحمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٥٤ — ٥٥ .
(٣٢) ابن الأبار : الحـلة السـيراء ــ ج ٢ ، ص ٦ ، التعليـق رقـم (٢) .

عريت سقائفهم فى غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم لعدمهم (٣٣) .

سن الذهاب الى المكتب :

ان تحديد سـنة واحـدة معينة لذهاب الأطفال الى المكتب ، عملية صعبة جدا . انها نفس المشكلة ، التى يواجهها أبناؤنا اليوم ، عند تحديد سن ذهابهم الى المدرسة الأولية ، فلقد كان الآباء على ذلك العهد ، مثلما هو الحال مع آباء اليوم ، يحرصون على أن يبدأ أولادهم التعليم فى سن مبكرة ما أمكن ذلك .

والآراء التربوية الحاثة على بدء التعليم فى الصغر كثيرة ومعقولة ، فيقول الشاعر :

علم بنيك صـغارا قبل كبرتهـم

اذ ليس ينفع بعـد الكبرة الأدب

ان الغصـون اذا قومتها اعتدلت

ولن تلين اذا قومتها الخشب (٣٤)

ويرى ابن خلدون أهمية تعليم الصغر فيقول : وسبب ذلك أن تعليم الصبى فى الصغر أشد رسـوخا ، وهو أصـل لمـا بعده ، لأن السـابق الأول للقلوب الأساس للملكات ، وعلى حساب الأساس وأساليبه ، يكون حال ما ينبنى عليه (٣٥) .

كمـا أوصى ابن الجزار ، توفى ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م ، بضرورة التأديب فى الصغر ، لأن الصغير أساس قيادة ، وأحسن مواتاة ، وقال : لقد أمرنا أن يؤدب الصبيان وهم صـغار ، لأنهم ليس لهـم عادات تصرفهم لمـا

---

(٣٣) ابن بسام : الذخيرة ـ جـ ١ ، ص ٢٤ (تحقيق احسان عباس) .
(٣٤) المغراوى : جامع جوامع الاختصار والتبيان ، ص ٤١ .
(٣٥) ابن خلدون : المقـدمة ـ جـ ٣ ، ص ١٢٤٠ .

يؤمرون به من المذاهب الجميلة ، والأفعال الحميدة ، والطرائق المثلى ، اذ لم تغلب عليهم بعد عادة رديئة تمنعهم من اتباع ما يراد بهم من ذلك ، فمن عود ابنه الأدب والأفعال الحميدة والمذاهب الجميلة ، فى الصغر ، حاز بذلك الفضيلة ، ونال المحبة والكرامة ، وبلغ غاية السعادة ، ومن ترك فعل ذلك ، وتخلى عن العناية به ، أداه ذلك الى عظيم النقص والخساسة ، ولعله يعرف فضيلة ذلك فى وقت ، لا يمكنه تلافيه (٣٦) .

ويقول الدكتور الأهوانى : « ان الواقع أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل فى تلقى العلم ، وانما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان ، فاذا وجدوا الطفل بدأ فى التمييز والادراك ، دفعوا به الى الكتاب » (٣٧) .

ويرى أبو بكر بن العربى الأندلسى (٥٤٣هـ/١١٤٨م) أن « للقوم فى التعليم سيرة بديعة ، وهو أن الصغير منهم اذا عقل ، بعثوه الى المكتب » (٣٨) .

ولقد اهتم كثير من الأندلسيين بأن يبدأ أولادهم التعليم فى مرحلة مبكرة ، مما كان سببا فى نبوغهم فى سن مبكرة ووصولهم الى درجة عالية من العلم ، ولقد سبقت الاشارة الى أحمد بن يحيى بن أحمد الذى ندبه والده صغيرا ، لطلب العلم ، والسماع من الشيوخ الجلل فى وقته ، فأدرك بذلك سماعا عاليا أدرك به درجة أبيه (٣٩) .

كما أن لدينا اشارات أخرى على بدء المرحلة التعليمية الثانية فى سن مبكرة جدا ، مما يدعونا الى الاعتقاد بأن هؤلاء الأطفال قد بدءوا

(٣٦) ابن الجزار : سياسة الصبيان ، ص ١٣٤ — ١٣٨ .
(٣٧) أحمد فؤاد الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ٦٠ .
(٣٨) ابن العربى : احكام القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .
(٣٩) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٢ .

مرحلة دراستهم الأولى فى سن مبكرة ، فيقال مثلا ان ابن مريوال بن جراح بن حاتم المتوفى ٤٢٠ هـ/١٠٢٩ م ، بدأ بالسماع ، وعمره لايتجاوز احدى عشرة سنة (٤٠) .

وسليمان بن حسان ، المعروف بابن جلجل ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، سمع الحديث بقرطبة سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٤م ، وهو أبن عشرسنين بمسجد أبى علاقة وبجامعها وبالزهراء (٤١) .

وكذلك يقـال عن أبى عبـد الله محمد بن طاهر القيسى التدميرى انه « طلب العلم فى حدثان سنه » (٤٢) .

وعن المنصور بن أبى عامر « أنه طلب العلم فى حداثته » (٤٣) .

وأميل شخصيا الى تحـديد سن الذهاب الى المكتب فى الأندلس بالعام السادس من العمر حتى بين أبناء الامراء أنفسـهم ، ولقد وردت أكثر من اشارة ، الى تحديد السن فى هذه المرحلة ، فيقال عن عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر أنه ولد له ولد عاش الى أن دخـل الكتـاب ، وظهرت منه نجابة ، فأول لوح كتبه بعث به الى أخيه الحكم المستنصر ، وكتب اليه من شعره هذه الأبيات :

هـاك يامولاى خطـا

مطـه فى اللوح مطـا

ابن سـبع فى سـنيه

لم يطق للـوح ضـبطا

---

(٤٠) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٣٨ — ٣٩ .
(٤١) المراكشى : الذيل والتكملة ، جـ ٤ ، ص ٦٢ .
(٤٢) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٣ ، ص ٤ .
(٤٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٣٨٣ .

دمت يامولاى حتـــى

يولد ابن ابنك سبطا (٤٤)

وهناك أيضا ملاحظة أخرى ،واضحة الدلالة ، ينقلها لنا ابن‌عذارى، يقول : « قال ابن جرير : كنت قاعدا يوما مع المنصـــور اذ طلع ابنـــه عبد الرحمن ، وهو يومئذ ابن سبع سنين ، خارجا الى المكتب » (٤٥) .

أما المدة التى يقضيها الطفل فى المكتب ، فهى أيضـــا تختلف حسب قدرة الطفل على التعلم ، وامكانياته فى الانتقـــال الى المرحلة التعليمية التالية ، ولذلك من الصعب أن نحدد سنا معينة يترك الطفل فيها المكتب ، ويتوجه الى الدراسة على الأساتذة فى الأماكن الأخرى . ويمكن أن نقول : ان الطفل كان يستمر فى المكتب حتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تقريبا ، لأن القابسى يوصى معلم الأطفال قائلا : « وانه لينبغى للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض اذا كان فيهم من يخشى فساده ، يناهز الاحتلام » (٤٦) .

هذا ولقد سبق أن أشرت الى بعض الأطفال الذين أنهوا دراستهم فى المكتب ، وبدءوا فى التردد على حلقات المعلمين ، فى الحادية عشرة أو العاشرة ، لكن الغالب أن يتردد الطفل الى هذه المرحلة التعليمية فيما بعد الرابعة عشرة .

فيقال عن عبد الجبار بن فتح بن منتصر البلوى المتوفى ٢٥٨ هـ/ ٨٧١م « انه طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة » (٤٧) .

---

(٤٤) الحميدى : الجـذوة ، ص ٢٧٠ .
الضبى : البغيـــة ، ص ٣٧٢ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ .
(٤٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ، ص ٦٥ .
(٤٦) الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٣٠ .
(٤٧) ابن الفرضى : علمـــاء الأندلس ، جـ ١ ، ص ٢٨٣ .

ويقول الدكتور هيكل عن ابن حزم انه « بعد الخامسة عشرة تقريبا ، تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهى مرحلة الخروج الى الحياة ، والتحصيل والدرس ، والتعلم خارج البيت » (٤٨) •

المنهج التعليمى فى المرحلة الاولى :

يقول المؤرخ المصرى الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، أن التربية فى العصور الوسطى — فى الشرق والغرب — كانت تربية دينية ، ترمى قبل كل شىء الى تهذيب النفس والروح ، ورياضتها ، وكانت خاضعة كل الخضوع للسلطة والتحكم وكانت قائمة على النقل لا العقل ، والتعليم فيها شكلى محض ، يعنى كل العناية بالألفاظ ويهمل الروح واللب •

وفى موضع آخر يقول : ان التعليم الدينى كان يرمى فى الشرق والغرب ، فى الاسلام والمسيحية على السواء ، الى تهذيب روحانى ، أى الى تربية دينية أخلاقية تعد الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة ، والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل اليه الا بعد أن تخلص روحه من أدرانها • لم يكن هذا التعليم يهتم باعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه أو بما يكسبه قوة ومهارة فى معالجة أسباب المعاش ؛ بقدر ما كان يهتم بعلاقة الفرد بخالقه كما كانت تتصورها عقلية العصور الوسطى (٤٩) •

والحقيقة أن تقديم الحركة التعليمية فى العصور الوسطى بأنها دينية محضة ، فيه ظلم كبير ، وحتى يمكن لنا أن نتبين بوضوح المنهج

---

(٤٨) هيكل : الأدب الأندلسى ، ص ٣٥٧ .

(٤٩) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤ ، ٥ .

التعليمى فى المراحل التعليمية بصفة عامة ،والمرحلة الأولى بصفةخاصة، فمن الضرورى أن نتفهم الغايات التى كان يقصدها هــذا التعليم ، أقصد بذلك ، لكى نعرف ماذا نتعلم ؟ ــ علينا أن نعرف مــاذا نعلم ؟ ثم يأتى بعد ذلك كيف نعلم ؟ ويكون الترتيب كالتالى :

لمــاذا نعلم ــــ ماذا نعلم ــــ كيف نعلم ؟

بالنســبة للزرنوجى المتوفى ٥٩١ هـ/١١٩٤ م هــو : أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضاء الله تعالى ، والدار الآخرة ، وازالة الجهل عن نفسه ، وعن سائر الجهال ، واحياء الدين ، وابقاء الاسلام ، فان بقاء الاسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل ، قال محمد ابن الحسن رحمه الله : لو كان الناس كلهم عبيدى لأعتقتهم ، وتبرأت عن ولائهم ، وذلك لأن من وجد لذة العلم والعمل به ، قلما يرغب فيما عند الناس .

وينبغى لطالب العلم ألا يذل نفسه ، بالطمع فى غير مطمع ،ويتحرز عما فيه مذلة العلم وأهله ، ويكون متواضعا (٥٠) .

والبدر الغزى يرى أن يقصد وجه الله بأشغاله وألا يريد بعلمه غير الله (٥١) .

أما ابن جماعة المتوفى ٧٣٣ هـ/١٣٣٢ م ، فهو يركز فضيلة العلم والعلماء فيمن يقصدون به وجه الله الكريم (٥٢) .

وهناك آراء أخرى كثيرة تركز على أن التعليم قد أخذ وجهــة دينية بحتة ، ألا وهى الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى ، والاذعان

---

(٥٠) الزرنوجى : تعليم المتعلم ، ص ١٢ .
(٥١) الغزى : المعيد فى آداب المفيد والمستفيد ، ص ٢٢ .
(٥٢) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ١٣ .

لتعاليم رسوله عليه السلام والغاية الأصيلة هى رضا الله .. والذى يعلم ولده فيحسن تعليمه ، ويؤدبه فيحسن تأديبه ، فقد عمل فى ولده عملا حسنا ، يرجى له من تضعيف الأجر فيه ، كما قال الله تعالى : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة)(٥٣) . ومن هنا نتبين بوضوح ، أن الهـدف الدينى فى التربية ، كان هو المهيمن والمسيطر ، سيطرة شاملة على التربية ، فى العـالم الاسلامى (٥٤) .

ولكن لم يكن الهدف الدينى للتعليم هو الهدف النهائى والوحيد ، ولكن كان للتعليم أيضا هدفه الدنيوى ، فقد كان العـلم هو الوسيلة الوحيدة لتغيير المستوى الاجتماعى ، وكان كل من يستطيع أن يتعلم ، يستطيع أن يصل الى أعلى المراتب السياسية والاجتماعية فى المجتمع ، ومن هنا كان العلم هدفا ووسيلة فى حد ذاته ، وكان للعـلم فوائده الدنيوية التى لا شـك فيها ، والمنـاظرة التى حدثت بين ابن حـزم وأبى الوليد الباجى فى غرض تعلم كل منهما يمكن أن تبين لنا بوضوح ، أنه لدى كل من العالمين الكبيرين ، كان الغرض الدنيوى واضحا ودافعا لـما حصلاه من علم ، فأبو الوليد الباجى يقول لابن حزم :

أنا أبعد منك همة فى طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه ، فتسهر فى مشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر فى قنديل بائت السوق .

فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك انما طلبت العلم وأنت فى هـذه الحال وجاء تبديلها بمثل حالى ، وانما طلبته فى حال ما تعلمه ، وما ذكرته ، علم لا أرجو به الا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخـرة (٥٥) .

---

(٥٣) أحمـد فؤاد الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ١٢٠ .
(٥٤) الحون : أهداف التربية فى العصر العباسى ، ص ٥٦ .
(٥٥) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

ولقد تشابك الغرضان تشابكا كبيرا ، حتى أصبح من الصعب الفصل بينهما ، ويمكن القول بأن الهدف الأول كان اجباريا ، بينما الهدف الثانى كان اختياريا ، ولذلك فان القابسى (٤٠٣هـ / ١٠١٢م) يضع منهجه التعليمى فى قسمين : اجبارى ويشمل علوم القرآن ، الصلاة ، الدعاء ، بعض النحو والعربية والقراءة والكتابة ، وعلوم اختيارية هى الحساب ، جميع النحو ، العربية ، الشعر ، أيام العرب .... الخ ، ولقد كان هذا هو المنهج السائد فى كل من القرنين الثالث والرابع .

ومن الغايات الدنيوية التى يحققها الوالد من تعليم ابنه ، أن يكون سعيدا ، أو كما قال القابسى : فمن رغب الى ربه أن يجعل له من ذريته قرة عين ، لم يبخل على ولده بما ينفق عليه فى تعليم القرآن (٥٦) .

وهناك من يرى أن يضع هدفا ثالثا من أهداف التربيةعندالمسلمين، ألا وهو هدف اللذة الروحية من العلم ، وهو الهدف الذى يدفع صاحبه الى التعلم والبحث ، لا لشىء سوى البحث والتعلم لذاتهما مكتفيا بلذة البحث عن الحقيقة والتفتيش عن دقائق المعرفة ، ولقد تعرض كثيرون من مؤرخى التربية الاسلامية الى هـذه النقطة ، وتكفى الاشارة الى أن الغزالى كان يرى « العلم فضيلة فى ذاته ، على الاطلاق »(٥٧) .

ولعل من المفيد هنا ، أن أعرض لرأى الدكتور محمد أسعد طلس القائل « والرأى عندنا أنه لا توجد أغراض للتربية عند العرب على الاطلاق ، وانما يجب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم المـذهب ، فطريقة التعليم مستمدة من مذهب صاحبها » (٥٨) .

---

(٥٦) الأهوانى : التربيـة الاسلامية ، ص ١٢٩ .
(٥٧) الغزالى : الأحياء ، ج ١ .
فتحية حسن : التربية عند الغزالى ، ص ١٧ .
(٥٨) محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ١٤٣ .

لقد عرض الدكتور طلس لآراء القابسى ، وآراء الدكتور الأهوانى وأساء فهم آرائهما حين عرضها قائلا : « أما القول بأن التعليم انما كان له هدف واحد ، كما ذهب اليه القابسى والأهوانى ، فهو قول المتزمت البالغ » (٥٩) •

فلم يقل القابسى اطلاقا بهدف واحد للتعليم ، والأهوانى لم يقل ذلك أيضا ، ولقد سبقت الاشارة ، الى أن القابسى قد وضع غرضا أصليا ، هو تعلم الدين ، وجعل ذلك فى مرتبة اجبارية ، وجعل أيضا للتعليم أغراضا معيشية يقرها ويسمح بها ، وجعل تعليم ذلك من المسائل الاختيارية •

وبالنسبة للرأى القائل ، بأن الغرض من التعليم انما هو على حسب المذهب ، فهو قول بين السقوط بنفسه ، فالمذاهب الاسلامية على اختلافها وتنوعها كانت تعمل على اعداد الفرد لشيئين :

أولهما : ارضاء اللـه سبحانه وتعالى ، وتنفيذ ارادته •

ثانيا : اعداد الانسان لحياة سليمة وصالحة ، وتقول الدكتورة فتحية سليمان : ان أهم ما يسترعى الانتباه فى دراسة الغزالى من الناحية التربوية هو شدة اهتمامه بالعلم والتعليم وقوة عقيدته فى أن التعليم الصحيح هو السبيل الى القرب من الله ، وسعادة الدنيا والآخرة، وبهذا رفع الغزالى من مكانة المعلم ، ووضع ثقته فى المعلم الصالح ، الذى اعتبره خير مرشد ومهذب ، ولا يقتصر الأمر عند الغزالى على التعلم فحسب ، ولكنه يشترط العمل بما تعلم الانسان ، وأن يعلمه لغيره ، فمن علم وعمل بما علم ، فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فانه كالشمس ، تضىء لغيرها ، وهى مضيئة بنفسها (٦٠) •

---

(٥٩) محمد أسعد طلس : نفس المصدر ، ص ١٤٤ •

(٦٠) فتحية حسن : المذهب التربوي عند الغزالي ، ص ١٤ ، ١٥ •

نعم يمكن القول بأن الغاية من التعليم قد اختلفت فى تفصيلاتها من معلم الى آخر ، نتيجة وجهة نظره الدينية ، أو مذهبه التعليمى ، أو الاقليم الذى نشأ فيه ، أو الظروف السياسية والاقتصادية المحيطة به، ولكن يبقى بعد ذلك أهداف علمية للجميع : التعليم من أجل الكمال الانسانى الذى غايته ارضاء الله ، التعليم من أجل الكمال الانسانى الذى غايته السعادة فى الدنيا .

كان ذلك الغاية من التعليم فى الاسلام بصورة عامة ، وأسبانيا الاسلامية قد شكلت جزءا من هذا المجتمع ، واذا كان ذلك كذلك ، فماذا نعلم ؟ .

السياسة التعليمية عند أبى الوليد الباجى هى : حفظ القرآن الكريم ، وحفظ الحديث النبوى الشريف ، والتعرف على ما كان منه صحيحا ، وما كان غير صحيح ، ودراسة علم أصول الفقه الذى هو أصل لمعرفة القرآن ، ومعرفة الحديث ، ويجب على الطالب أن يتدرب تدريبا سليما على معرفة طرق النظر ، وتصحيح الأدلة ، واقامة البرهان (٦١) .

ومن هنا كان تعليم القرآن الكريم وتحفيظه هو الهدف السائد فى هذه المرحلة فى كافة أنحاء البلاد الاسلامية . ويصف ابن خلدون ذلك بقوله :

واعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده ، من آيات القرآن ، وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات (٦٢) .

---

(٦١) جودة عبد الرحمن : وصية القاضى ابو الوليد الباجى ، ص ١٧ .

(٦٢) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٣٩ .

ومن ناحية آخرى يقرر المستعرب الأسبانى الكبير عند حديثه عن تعليم ابن حزم بأن : الفقة والسنة النبوية كانا الأساس النظرى للثقافة الاسلامية بأجمعها (٦٣) .

هذا هو الأساس العام فيما يجب أن يتعلمه الأطفال ولكن تختلف طرائق تعليم القرآن للولدان باختلاف الأقاليم والشعوب باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات (٦٤) .

ولقد عقد ابن خلدون فصلا فى تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى طرقه فقال :

« اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات . وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخا وهو أصل لما بعده ، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبنى عليه .

واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان ، الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، الى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه فى الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة

---

(63) Asin Palacios : Aben hazam de Cordoba, I. 33.

(٦٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ .

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب فى ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة • وكذا فى الكبير اذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره • فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم •

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو ، وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم • فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ، بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب • ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة ، لو كان فيها سند لتعليم العلوم • لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم •

وأما أهل أفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان اياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع لذلك • وبالجملة فطريقتهم فى تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم فى ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك •

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدرى

بم عنايتهم منها • والذى ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها فى مكاتب الصبيان • واذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الاجادة • ومن أراد تعلم الخط ، فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك ، من الهمــة فى طلبــه ، ويبتغيه من أهل صنعته •

فأما أهل افريقية والمغرب ، فأفادهم الاقتصارعلىالقرآنالقصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه فى الغالب ملكة ، لمــا أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة فى غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى ، وحظه الجمود فىالعبارات، وقلة التصرف فى الكلام ، وربما كان أهل أفريقية فى ذلك أخف من أهل المغرب ، لمــا يخلطون فى تعليمهم القرآن ، بعبارات العلوم فى قوانينها كما قلناه ، فيقتدرون على شى من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا أن ملكتهم فى ذلك قاصرة عن البلاغة ، لمــا أن أكثر محفوظهــم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتى فى فصله •

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسه العربية من أول العمر ، حصول ملكة صــاروا بهــا أعرف فى اللسان العربى ، وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصــبا » [٦٥] •

ويفهم من كلام ابن خلدون أن الأندلسيين اهتموا أساسا بتعليم القرآن لأولادهم ، شأنهم فى ذلك شأن بلاد المغرب الاسلامى كلها •

---

(٦٥) ابن خلدون : المقدمة — ج ٣ ، ص ١٢٣٩ — ١٢٤٢ •

والدلائل كثيرة على قيام أهل الأندلس بتعليم القرآن لأولادهم فى المكتب ، منها قول ابن العربى : « وصار الصبى اذا عقل ، وسلكوا به أمثل طريقة لهم ، علموه كتاب الله تعالى » (٦٦) • ومن وصية ابن‌هود ، الذى حكم بشرق الأندلس من ٦٢٥ الى ٦٣٥هـ / ١٢٢٨ الى ١٢٣٧م ، الى أخيه يقول : « ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى ، فان تعليمه للصغار يطفىء غضب الرب » (٦٧)• وابن الخطيب يقول عن سلطان غرناطة بأنه كان « يندب الناس لتعليم القرآن لصبيانهم فذلك أصل أديانهم » (٦٨) •

ومن ناحية أخرى اهتم الأندلسيون بأن يخلطوا فى تعليمهم القرآن بعض المواد الأخرى مثل رواية الشعر ، وبعض العربية ، وأعطوا اهتماما خاصا بتعليم القراءة والكتابة ، وتحسين الخط حتى تميز صنف خطهم الأندلسى ، ينقل هنرى بيريس عن ابن خلدون وتميز ملك الأندلس بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، فتميز خطهم الأندلسى ، كما هو معروف الرسم لهذا العهد (٦٩) •

كما أشار ابن خلدون الى أهمية قيام الأندلسيين بتعليم أولادهم الشعر والعربية فى تكوين ملكة اللغة العربية ، وتفوقهم فى الخط والأدب فقال :

وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروابها أعرف فى اللسان العربى ، وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث ، الذى هو أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل

---

(٦٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٢١ « نقلا عن كتاب العاصم من العواصم » .
(٦٧) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١٠ ، ص ٢٦٩ .
(٦٨) المقرى : النفح ، جـ ٩ ، ص ١١٠ .
(٦٩) هنرى بيريس : منتخبات من مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٨.

خط ، وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا [٧٠] .

ولكن العالم الأشبيلى الكبير أبو بكر بن العربى لم يكن راضيا عن هذا المحتوى أو بمعنى أصح على أن يكون القرآن الكريم هو أول ما يعلم للأطفال ، ولذلك أختتم حديثى عن محتوى التعليم فى المكتب بذكر رأى هذا المفكر التربوى الأشبيلى ، كما يلخصه الأستاذ الطالبى ، باعتباره واحدا من أشهر المتحدثين فى مجال التربية فى الأندلس :

« ان لابن العربى نظرات ناقدة فى مجال التربية ، وفى طرق التعليم ، حصل ذلك عن طريق رحلاته ، وعن طريق خبرته بالطرق التربوية المستعملة فى أنحاء العالم الاسلامى ، مشرقه ومغربه » .

وقد عرض القاضى للطرق التعليمية فى المغرب العربى ، ونقدها نقدا لاذعا ، وكذلك للطريقة الأندلسية ، فانه لم يقبل أن يبدأ الأمر بتعليم الأطفال للقرآن « ياغفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ولا يفهم ، وينصب فى أمر ، ويرى أنه على فرض أن الصبى استطاع أن يفهم بعض الألفاظ المستعملة عنده ، فى حياته اليومية ، كجاء ، وقام ، وقعد فانه لا يستطيع أن يؤلف بينها ، ولا أن يفهم ما تدل عليه من المعانى ، اذا انتظمت فى تركيب » [٧١] .

طريقة ابى بكر بن العربى فى التربية :

عمل أبو بكر بن العربى على وضع طريقة جديدة للتعليم ، بين هذه الطريقة فى عدة من مصنفاته ، شرحها فى « كتاب التعليم » الذى جعله جزءا من كتابه « قانون التأويل » ولم يصلنا هذا الجزء مع

---

(٧٠) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٢ .
(٧١) عمار الطالبى : آراء أبى بكر بن العربى الكلامية ، ص ٢٣٤ — الجزائر .
ابن خلدون : المقدمة — ج ٣ ، ص ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ .

الأسف الشـــديد . وان كانت بعض فقراته منشـــورة فى عدة مؤلفات أخـــرى .

وبينها أيضـــا فى كتابـــه « ترتيب الرحلة للترغيب فى المـــلة » على ما قال به ابن خلدون ، وفى كتابه « سراج المريدين » ، وفى مؤلفه « العواصم من القواصم » .

ومن هذا كله يتبين اهتمام الفقيه الأندلسى بالتعليم وأهميته ، وما يمكن أن نصل اليه حين يوضع البرنامج الحسن للتربية .

ويرى أبو بكر بن العربى ، أنه فى عصور الاسلام الأولى لم يكن العرب فى حاجة الى تعلم اللغـــة العربية لأنهم فى ذلك الوقت كانوا يتكلمونها بطريقة سليمة ، خالية من الأخطـــاء اللغوية ، وخالية مـــن الكلمات الأجنبية ، وبعد ذلك حينما اختلط العرب بشعوب أخرى ذات لغة وثقافة مختلفة ، تطرق الفساد الى الألسن ، ونفد اللحن الى اللغة، فعميت الحقائق عن بعض القلوب ، وغمضت فأصـــبح من الضرورى أن يكون تعليم اللغة هو الأساس ، وذلك عن طريق الاهتمام بتعليم الألفاظ ومعانيها ، وأساليب تكوين الجملة ، وطرق دلالتها على ما تردد التعبير عنه ، لقد أحس أبو بكر بن العربى ، بضرورة العودة الى لغة القرآن ، الى اللغـــة العربيـــة الفصحى ، حيث قال : ينبغى أن ينشأ الطفل على تعلم العربيـــة ومقاطع الكلام ، ويحفظ أشـــعار العرب ، وأمثالها .

ثم ينتقل ابن العربى بعد ذلك الى شرح قيمة تعليم الحســـاب وأهميته لأن الحســـاب فيه فائدة نظرية ، هى شحذ الذهن ، وتمرين الفهم ، وفائدة عملية ، ترجع الى منفعته فى القوانين الفقهية فى قســـمة التركات والمساحات ، وما اليها من مسائل فى الحياة العملية (٧٢) .

---

(٧٢) أشار عمـــار الطالبى فى كتابه من آراء أبى بكر بن العـــربى الكلامية الى طريقته فى التربية بتفصيل واســـع ويمكن الاطـــلاع عليهـــا فى الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤٠ .

فاذا تعلم الطفل شيئا من ذلك انتقل الى تعلم الشعر — وكل ذلك لكي يمهد له دراسة القرآن ، لأنه اذا أخذ الطفل حظه من هذه الوسائل اللغوية والحسابية ، ودرس خلال ذلك شيئا من مفصل القرآن ، واشتد ساعده فى هذه العلوم التى تعتبر مقدمة لدراسة القرآن انتقل الى دراسة القرآن نفسه ، حيث أن اللغة ، والشعر ، ومعرفة الكتابة ، بمثابة وسائل ميسرة ، لتعليم القرآن ، وفهمه [٧٣] ٠

لقد أشار ابن خلدون الى هذه الطريقة فى التعليم ، شرحها وعرضها ، وأعجب بها ، ولكنه أكد استحالة تطبيقها لأن الظروف لا تساعد على ذلك ، مؤكدا أن قوة العادة وشدة التأثير الدينى ، تدفع بالناس الى ما هم عليه — يقول :

ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته [٧٤] ، الى طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس [٧٥] ، قال : لأن الشعر ديوان العرب ، ويدعو الى تقديمه ، وتعليم العربية فى التعليم ضرورة لفساد اللغة ، ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن عليه حتى يرى القوانين ، ثم ينتقل الى درس القرآن ، فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ٠ ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم ، وينصب فى أمر غيره أهم عليه » ، ثم قال « ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ، ثم الحديث وعلومه » ٠

---

(٧٣) عمار الطالبى : آراء أبو بكر بن العربى ، ص ٢٣٣ — وانظر تعليق هنرى بيريس على هذه الطريقة فى كتابه « الشعر الأندلسى ، ص ٣٣ » ٠

(٧٤) يقصد كتاب ترتيب الرحلة لابن عربى ٠

(٧٥) يلاحظ هنا بان مذهب اهل الأندلس لم يكن تقديم العربية والشعر والا لما هاجم ابو بكر هذه الطريقة ، وانما كانوا يعلمون هذه العلوم فى نفس الوقت مع القرآن ٠
انظر احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ، ص ٣٤ ٠

ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علما الا أن يكون المتعلم قابلا لذلك ، بجودة الفهم والنشاط :

« هـذا ما أشار اليه القاضى أبو بكر رحمه الله ، وهو لعمـرى مذهب حسن ، الا أن العوائد لا تساعد عليه ، وهى أملك بالأحوال ، ووجه ما اختصت به العوائد من تقـدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات ، والقواطع عن العلم ، فيفوته القـرآن ، لأنه ما دام فى الحجر ، انقاد للحكم ، فاذا تجاوز البلوغ وانحـل من ربقـة القهر ، فربما عصفت به رياح الشبيبة ، فألقته بساحل البطالة ، فيغتنمون فى زمان الحجر ، وربقـة الحكم ، تحصـيل القرآن ، لئلا يذهب خلوا منه .

ولو حصل التيقن باستمراره فى طـلب العلم ، وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أولى مما أخـذ به أهل المغـرب والمشرق ، ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا معقب لحكمه » (٧٦) .

طريقـة التعليم فى المكتب :

من الطبيعى أن تكون الأيام الأولى للطفل صـعبة ، وكان على المعلم وأهل الطفل العمل على تعويده على المناخ الجديد .

كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتاب مبكرا ، حيث يظل هناك الى منتصف النهار ، ويعود الطفل الى منزله للغذاء والراحـة قليلا ، بعد ذلك يتجه الى الكتاب مرة ثانية لكى يبدأ الدراسـة فترة ثانية من وسط النهار حتى بعد العصر بقليل فينصرف الى منزله على أن يعود فى صباح اليوم التالى .

ويرتكز ذلك على ما أوثر عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنـه ،

---

(٧٦) ابن خلدون : المقـدمة ج ٣ ؛ ص ١٢٤٢ — ١٢٤٣ .

حين أمر عابد بن عبد الله الخزاعى ، بأن يلازم تعليم الصبيان « بعد صلاة الصبح الى الضحى الأعلى ، ثم من الظهر الى صلاة العصر ، ويسرحهم بقية النهار ، ولا يلزمه الله بشرط أو عادة ، قلت : كعادة أهل البادية فى اقرائهم السور ليلا » (٧٧) .

وأيام التعليم خمسة أيام : السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء وصبيحة الخميس ، « وكان للأطفال نصف يوم الخميس ، وطول يوم الجمعة عطلة للراحة ، وبالاضافة الى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض أيام المناسبات العامة » (٧٨) .

وهناك رأى آخر فى مسألة الوقت ، يسوقه المؤرخ التونسى ، المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، فى مقدمته للكتاب « آداب المعلمين »، قائلا : أما أوقات التعليم — فيما مضى — فليس لدينا ما ينبىء على تعيين ابتدائها صباحا ، ولا وقت انتهائها مساء وغاية ما نعلمه فى خصوصها ، ما روى عن أحد مشاهير علماء القيروان ، قال الونشريسى : « وسئل أبو طيب عبد المنعم بن خلدون الكندى (توفى بالقيروان ، ٤٢١ هـ/١٠٣٠ م) (٧٩) ، هل يجلس المعلم من الصبح الى المغرب ، أو عند طلوع الشمس الى الاسفار ، فأجاب : أما وقت جلوس المعلم وقيامه ، فبحسب العرف ، وما تعاهده أهل التعليم فى كل بلد » (٨٠) .

وهناك من المؤرخين ، من يرفض رفضا قاطعا هذه الاستثناءات ، ويميل كافة مؤرخى التربية الاسلامية الى أن فترات التعليم كانت تمارس ، على وجه الخصوص فى المرحلة الأولى ، على مدار النهار

---

(٧٧) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٥١ .
(٧٨) أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ص ٧٠ .
(٧٩) الونشريسى : المعيار ، جـ ٨ ، ص ١٥٢ .
(٨٠) حسن حسنى عبد الوهاب : آداب المعلمين (المقدمة) ، ص ٤٦ .

وامتداده من الصـــباح الى العصر ، راجــع فى ذلك ما كتبه الدكتور الأهوانى (٨١) .

وطريقة التعليم فى الكتاب تتلخص فى أن المعلم يقوم بقراءة آية من آيات القرآن ، ثم يقوم الطفل بترديدها حتى يحفظها ، ثم ينتقل الى آية آخرى وهكذا ، وهناك بعض المعلمين ممن كانوا يلجأون الى تعليم الأطفال السور القرآنية القصيرة أولا ، وبعضهم كان يبدأ حسب ترتيب المصحف فيقول ابن مرشد :

« أول ما يبدأ به المؤدب فى تعليمه الصبى ، تحذيقه كتابة الحرف ، وقراءتهـــا حتى يألف ذلك ، ثم يشرع فى تحفيظـــه الســـور القصـــار من القرآن » (٨٢) .

وعندما ينتقل الصبى من جزء الى آخر ، كان عليه أن يقرأ على معلمه ما قد سبق وتعلمه ، وهكذا يمضى الصبى من جزء الى جـــزء آخر حتى يتم حفظ القرآن ، ويمـــكن لنا أن نتبين فى هذه المســـألة خطوتين رئيسيتين :

أولاهما : التلقين ، وهوالجزء الجديد ، ويقرأه الأستاذ للطفل الذى يقوم بالترديد خلف المعلم ، وحتى اذا كان الطفل قد وصل الى مرحلة تسمح له بالقراءة ، حتى يعرف الطفل القراءة السليمة ، وهنا أود أن أشير الى أن المغراوى يرى أن العرف كان قد جرى فى الأندلس بالقراءة فى المصحف لا فى الألواح ، ولا فرق بينهما (٨٣) .

ثانيا : الاستظهار ، وهو مراجعة ما كان الطفل قد درسه من قبل ،

---

(٨١) أحمد فؤاد الأهـــوانى : التربيـــــة الاســـلامية ، ص ١٧٦ (القاهرة ـــ ١٩٥٥) .

(٨٢) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٨ .

(٨٣) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ١٩ .

وذلك بأن يخصص المعلم للطفل وقتا يستمع منه فيه الى جزء مما قد حفظه الصبى ، واذا أخطأ الطفل كثيرا فى حفظه فان عليه أن يدرس ثم يعود للقراءة ، فى اليوم التالى .

ولقد كان معلم الكتاب مسئولا عن تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ولذلك كان على الأطفال أن يحملوا معهم ألواحهم ومحابرهم، ولقد كانت تلك الألواح تصنع من الحجر أو الخشب ، وكان من السهل محوها بالماء أو بقطعة من القماش ، ويصف ذلك البروفيسور خوليان ريبيرا فيقول : « استعمل الأطفال ألواحا قوية من الخشب ، كانوا يكتبون عليها بأقلمة من القصب ، يغمسونها فى الحبر ، وعند الانتهاء من تمرين ما ، فانهم يقومون بمحوها بقطعة من القماش مبللة ، ثم يعاودون الكتابة » (٨٤) .

ومما يثير الدهشة ، أن يقول الدكتور أسعد طلس : « وطريقة التعليم فى الكتاب ، هى أن يقرأ المعلم آية من القرآن ، ثم يرددها الطفل حتى يحفظها ، فينتقل الى آية أخرى سواها ، أو يكتب الآيات المطلوبة فى لوح » (٨٥) .

وأن يقول الدكتور الأهوانى « على أن أهم ما يدرس للصبى هو حفظ القرآن على الطريقة الفردية أو الجمعية ، اذ يبدأ المعلم أو العريف بآية يرددها الصبيان من بعده ، ولكل صبى لوح يكتب فيه ، يثبت فيه ما يريد أن يحفظه ، ثم يمحوه ليكتب شيئا جديدا » (٨٦) .

---

(84) Ribera, J. : Ha de la Ensenanza entre los Musulmanes espanoles, p. 34.

Galino, Angeles : Ha de la Educacion Eded Antigua y medieval, p. 463.

(٨٥) أسعد طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨ .

(٨٦) الأهوانى : التربية فى الاسلام ، ص ٥٣ .

ان وجه الغرابة هنا هو متى تعلم الصبى القراءة والكتابة حتى يستطيع آن يسجل ما يملى عليه •

ان الدكتور الأهوانى عند تقسيمه لليوم المدرسى يقول :

وتوزيع العلوم على اليوم المدرسى كالنظام الآتى :

أ — يدرس الصبيان القرآن من أول النهار فى وقت مبكر حتي الضحى •

ب — يتعلمون الكتابة من الضحى الى الظهر ••• الخ (٨٧) •

ونفس التقسيم تقريبا ، يضعه الدكتور طلس فيقول : « كان من العادة أن يذهب الطفل الى الكتـــاب مبكرا ، فيبدأ يومه بحفظ حزب من القرآن الكريم ، وبعد أن يحفظه يبدأ بالنسخ والكتابة والتمرن على تجويد الحفظ الى وقت الظهر ، ثم يعود الى بيته للغداء ، أو يتغدى فى الكتاب ، ثم يبدأ عمله ثانيا بعد صلاة الظهر حتى فترة العصر يقرأ ويكتب ، الى حين الانصراف الى أهله بعد العصر •• » (٨٨) •

ومن دراسة هـــذا التقسيم يتبين استحالة أن يكتب الطفــل ، وخاصة فى الأعوام الأولى ، ما يتلى عليه من آيات القـــرآن ، بسبب الصعوبة فى تعلم القراءة والكتابة •

ويمكن لنا أن نتصور حلا للمشكلة ، بأنه خلال الأعوام الأولى ، يعتمد المعلم على التلقين والتحفيظ ، فى الوقت الذى يعمل فيه علىتعليم الطفل القراءة والكتابة ، الى أن يصـــل الى مستوى يسمح له بكتابة ما يملى عليه مباشرة ، ليتولى حفظه بعد ذلك ، أو أن يتمكن من القراءة فى المصحف • هذا ولقد نص ابن سحنون على أن من واجبات المعلم« أن يجعل للأولاد وقتا يعلمهم فيه الكتب » (٨٩) ، ويفضل ابن سحنون أن

(٨٧) الأهوانى : نفس المصدر ، ص ١٧٦ •
(٨٨)طلس : المصدر المذكور ، ص ٧٨ •
(٨٩) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ١٠٠ •

يكون ذلك الوقت من الضحى الى وقت الظهر تقريبا فيقول : « وليجعل الكتب من الضحى الى وقت الانقلاب » (٩٠) .

ويذهب الدكتور أحمد شلبى الى رأى آخر يقسم تلك المرحلة من التعليم الى قسمين ، أو يفرق فى الكتاب بين نوعين : نوع أولى لتعليم القراءة والكتابة فقط ، ثم ينتقل منه الطفل بعد ذلك الى تعلم القرآن وباقى العلوم فى مكتب آخر ، وأورد طائفة كبيرة من الآراء التى يستند عليها ، وان كان من الواضح أن ذلك النوع من المكاتب ، ان كان قد وجد ، كان فى المشرق فقط ، حيث لم يأت الدكتور شلبى بأى نص ، يمكن أن يستدل منه على وجود نوعين من المكاتب فى الأندلس (٩١) .

أما بالنسبة للأندلس ، فأعتقد بوجود نوع واحد من المكاتب يتم فيه تعليم القراءة والكتابة ، والقرآن ، وبعض العلوم الأخرى كما سبق أن أوضحت وعلى ما يبينه صراحة ابن خلدون (٩٢) .

بعض النواحى التربوية فى المرحلة الأولى :

يرى ابن عبدون أن التعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ، فانه كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ، ويقبل التعليم (٩٣) .

ولقد أعطى المعلم سلطة واسعة ، ان لم تكن مطلقة على الأولاد ، ورفعته الى مكانة الوالد بالنسبة لهم ، فعلاوة على مسئولياته التعليمية ، فهو مسئول أيضا عن النواحى التربوية ، وأهم ما يجب أن يكون موضع اهتمام المعلم : تعليم الأولاد الصلاة ، وطاعة الوالدين ، والبعد عن

---

(٩٠) ابن سحنون : نفس المصدر ، ص ١٠٦ .
(٩١) أحمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٤٤ — ٥٨ .
(٩٢) انظر مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ، ص ١٢٤٠ — ١٢٤١ .
(٩٣) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون .

الأخلاق الفاسدة ، وله الحق فى عقاب الأولاد بالضرب لحملهم على هذه الأخلاق الحميدة ، وهنا شروط كثيرة تمنـــع أن يسرف المعلم فى عقاب الأولاد لأن ذلك مضر بالمتعلمين ، ويقول ابن خلدون فى ذلك :

« ان ارهاف الحد فى العقوبة ، مضر بالتعليم ، سيما فى أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الانسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضـــــائل والخلق الجميــل ، فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها ، فارتكس ، وعاد أسفل السافلين » (٩٤) .

ويرى السقطى أن لا يضرب الصـــبى الا تحت قدميه ، ثلاثا ، أو خمسة (٩٥) .

ولقد تحرز المربون الاســـلاميون كثيرا من اعطاء سلطة الضرب الشديد الى المعلمين ، وذلك لأهميتها فى نفسية الطفل ، فابن سحنون يقول : لا بأس أن نضربهم على منافعهم ، ولا يجاوز بالأدب ثلاثا ، الا أن يأذن الأب فى أكثر من ذلك اذا آذى أحدا ، ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالأدب عشرة ، وأما على قراءة القرآن فلايجاوز أدبه ثلاثا (٩٦) .

---

(٩٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ١٢٤٤ .
(٩٥) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٦٨ .
(٩٦) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٨٩ .

أما العقبانى ، فـيرى ألا يزيد المكتب على ثلاثة ، فان زاد على ثلاثة ، اقتضى منه (٩٧) .

وابن مرشد يقول : ولا يضرب صبيا بعصا غليظة ، تكسر العظم ، ولا رقيقة تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا ، ويتخذ مجلدا عريض السير ، ويعتمد فى ضربه على الأفخاذ والالية ، وأسفل الرجلين ، لأن هـذه المواضع لايخشى من الضرب فيها مرض ولاغائلة (٩٨) .

ولقد منع ضرب الصبى على ظهره أو على بطنه ، ويضرب فقط أسفل قدميه (٩٩) ، كما حددت المجالات التى يعاقب فيها الصبى ومنها : الهرب ، وعدم الحفظ ، اسـاءة الأدب والفحش فى الكلام ، والقيام بالألعاب المحرمة كاللعب بالقمار ، وبصفة عامة القيام بأفعال شائنة ، وأكثر الأدوات استخدما لضرب الأولاد ، وأشدها قسوة ، كانت الفلقة ، وان اقتصر استعمالها على الأمور الكبيرة (١٠٠) .

كما أن على المعلم أن يراعى حاجات الطفل الأساسية ، كأن يسمح له بالانصراف لقضاء حاجته ، ولا يؤخره فيورثه بعض الآلام أو بعض الأمراض فى جهازه البولى (١٠١) .

كما كان على المعلم أن يراعى وقت غدائهم وراحتهم (١٠٢) ، ولم يكن مسموحا له باستخدامهم فى حوائجه وأشغاله ، التى فيها عار على آبائهم كحمل الحجارة أو نقل الزبل أو غير ذلك (١٠٣) .

---

(٩٧) العقبانى : تحفة الناظر ، ص ٣٢٦ .
(٩٨) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٨ .
(٩٩) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .
(١٠٠)
(100) Canard, M. : Falaqa (Arabica, 1954), p. 331.
Ribera, J. : Ha de la ensenaza..., pp. 35,36.
(١٠١) المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٠ .
(١٠٢) السقطى : آداب الحسبة ، ص ٦٨ .
(١٠٣) ابن مرشد : نظام الحسبة فى الاسلام ، ص ١٣٨ .

وحيث أن المكتب كان يضم أولادا من سن متباينة فقد ســمح للمعلم باستعمال بعضهم فى تعليم البعض الآخر ، كأن يقوم طفل بأمر طفل آخر ، ولكنه لم يكن يسمح لطفل بعقاب طفل آخر ، حيث يقول ابن سحنون بأن « لا يولى أحدا من الصبيان ضرب غيره ، ولا يجعل لهم عريفا منهم ، الا أن يكون الصبى قد ختم وعرف القرآن » (١٠٤).

ولقد فصل المغراوى فى رسالته تفصــيلا مطولا عددا كبيرا من آراء المربين المسلمين فى مســألة العقاب ، ولا أجد داعيا لذكرها هنا ، لعدم التطويل (١٠٥) .

ونقطة أخرى مهمة جدا فى الناحية التربوية ، ويجب أن يراعيها المعلم فى المكتب ، ألا وهى العدل بين الصبيان ، واجب عليه : العدل بينهم فى جلوسهم وكتبهم وتجويدهم ، وعرضهم ، وتقليب ألواحهم وضبطها ، واصلاحها (١٠٦) .

المعلمــون :

يرى البروفيسور خوليان ريبيرا أن التعليم فى العالم الاسلامى « قد بدأ بأكبر الشخصيات الاسلامية ، وأكثرهم نبلا وجاها ، ثم مضى يهبط على مدار الزمن ، حتى استقر فى أيدى أكثر أفراد المجتمع وضاعة وسفالة ، والسبب فى ذلك : أنه فى الأعوام الأولى من عمر الاســلام وحسب مايقول ابن خلدون ، كان التعليم يتركز فى الرواية الى الآخرين ، الأوامر والنواهى التى سمعت من فم المشرع ، وكذلك ايصال مبادئه ، وبصورة مجانية محضة . ولقد كان عظماء الرجال ومشايخ القبائل ، ممن

---

(١٠٤) ابن سحنون : آداب المعلمين ، ص ٩٨ .
المغراوى : جامع جوامع الاختصار ، ص ٤٣ .
(١٠٥) انظر : المغراوى فى جامع جوامع الاختصار — الصفحات من ٣٩ — ٤٧ .
(١٠٦) نفس المصدر ، ص ٤٦ .

قاتلوا من أجـــل نشر الدين الذى أوحى به الله الى نبيه ، هم الذين قاموا بتعليم القرآن ، الذى كانت تعاليمه ، هى الأساس القوى لأخلاقهم وسلوكهم • ولقد قاموا بهذه الطريقة أو بهذا المجهود دون أن يتوقفوا لحظة أمام أى شك قد يثور فى نفوســهم منبعه الاحساس الشخصى أو الكبرياء ، والدليل أمامهـــم أن النبى عليه الســـلام — عند وداعه لوفود القبائل العربية ، أصحبهم بمجموعة من أكابر صحابته ، وكلف هؤلاء بتعليم هذه الشعوب الدين الذى حمله الى الانسانية ، ولقد عهد بهـــذه المهمة الى عشرة من أكابر صحابته ، وبعد ذلك الى أناس ممن كانوا أقل مكانة •

ولكن عندما انتشر الاسلام بين أمم كثـــيرة ، وكان من الواجب أن يستخرج من الكتاب الشريف أقصى ما يمكن لحل المشـــكلات التى تبدت أمام المحاكم والقضاء ، تطلب هذا الأمر تعليما مستمرا وثابتا مما جعل من المهنة عملا يمكن الارتزاق منه ، ورؤساء القبائل اضطروا ، لاهتمامهم بالمحافظة على السلطة داخل الامبراطورية وعلى سيطرتهم التحكميـــة ، الى أن يهجروا العلوم الى هؤلاء الراغبين فى التخصص فيها ،منتقلة بذلك الى أيدى ليس لها مكانة كبيرة وموضع احتقار النبلاء وكبار الشخصيات • وهذه الآراء ، التى عرضها أكبر مؤرخى الاسلام نفاذ بصر ، يمكن تطبيقها على أسبانيا ، مع بعض التحفظات » (١٠٧) •

ثم يمضى المستعرب الأسبانى متكلما عن أسبانيا ، شارحا كيف بدأ التعليم فيها على يد كبار الناس مجانا ، ثم تحوله الى مهنة يرتزق منهـــا ، قائلا أن ذلك قد يرجع تقريبا الى عهـــد الحكم المســـتنصر بالله (١٠٨) •

والحقيقة أن معلمى المرحلة الأولية ، قد تعرضوا لانتقادات كثيرة

(157) Ribera, J. : Ha de la ensenanza los musulmanes espandes, pp. 30,31.

(108) Ribesa, J. ; Op. Cit., pp. 31,32.

بسبب بعض التصرفات السيئة ، التى ارتكبها بعد الدخلاء على المهنة وحيث أن تعليم الأولاد القرآن ، والقراءة والكتابة ، قد بدا لكثير من الناس أنه عمل سهل ، فلقد اندس عدد كبير من المعلمين فى هذه المهنة متخذين منها حرفة ، وهؤلاء تسببوا فى عدد كبير من الحماقات ، التى اتخذت موضوعا أدبيا طريفا ، وخاصة فى المشرق .

لكن دراسة مكانة معلمى الكتاب فى الأندلس ، من خلال التراجم الجمة والوافرة التى احتفظت لنا بها كتب التراث الأندلسى تسمح لنا بأن نرسم صورة حقيقية للمعلمين ، بعيدا عن ترهات الأدباء ، أو قصائد الشعراء .

وقبل أن ننتقل الى الجانب التاريخى ، أود الاشارة الى أن المعلمين فى الأندلس لم يسلموا من بعض الاتهامات الأدبية ، مثل تلك التى صبها عليهم الوزير أبو عامر بن شهيد ، ونقلها الينا ابن بسام ، حيث يقول : « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ، ممن أتى على أجزاء من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها فى شعاع الرقة ، ولا مدب لها فى أنوار البيان .... » .

وفى مجال آخر يقول :

« ومن دليل تقصير عصابة المعلمين ، أنهم لا يقدرون أن يجعلوا ما يحملونه من المعرفة تصنيفا ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفا وانما تفسو بها أنفاسهم فسوا ، بين تلاميذهم .... » .

والنص يحتوى على سباب واحتقار كبير لاأجد داعيا لذكره هنا ، ولكن كما قلت ، المسألة هنا موضوع أدبى لا يمكن التعويل عليه كثيرا فى النواحى التاريخية (١٠٩) .

---

(١٠٩) ابن بسام : الذخيرة (القسم الأول) — المجلد الأول ، ص ٢٠٦ — ٢٠٩ .

ولست أعنى بذلك أن كافة معلمى المرحلة الأولى فى الأندلس كانوا أبرياء تماما ، من التهم الموجهة الى معلمى الأطفال فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، ولكن أريد أن أقول ان أخبارهم السيئة، على الأقل لم تنتشر على الملأ بتلك الصورة المظلمة ، التى يقدمها الجاحظ مثلا عن معلمى الكتاب فى المشرق .

وفى الأندلس نرى ابن عبدون الأشبيلى، ينقد بعض المعلمين ، لكن بصورة مهذبة ورقيقة فيقول :

« ويجب أن لا يكون المؤدب عزبا ولا شابا بل يكون شيخا خيرا دينا عفيفا ورعا قليل الكلام والشهوة الى استماع ما لا يعنيه ، وأن لا يحضر الجنائز البعيدة ، ولا يكثر من البطالة ، ولا يهمل الصبيان ولا يزول عنهم الا لأخذ الغدا والوضوء ، ويكون راتبا فى مكانه محافظا على حوائج صبيانه ، ويجب للحاكم والقاضى ، اذا رأوا مؤدبا يكثر من الاقبال اليهما فى الشهادات ، أن يسألاه عن الحضار ، فان كان صاحب محضره فلا تقبل شهادته لأنه انما يطلب الظهور ، وأن يتسم باسم العدالة ، ليرتشى أو تودع عنده الودائع ، وينال رفعة الذكر والشهرة فى الخير ، وهو عنهما بعيد فان لم تكن عنده محضرة وعرف خيره ، وسمع القاضى حسن الثناء عليه قبله ، وانى لأعرف منهم جماعة بالوصف الذى وصفت ، فيا أسفا عليهم ، مساكين » (١١٠) .

هناك أيضا بعض الانتقادات الأخرى التى وجهت الى هؤلاء المعلمين تتناول بعض تصرفاتهم الشخصية أو أساليبهم التعليمية .

وعلى الرغم من هذا كله ، فلقد تمتع المعلمون ، ومن بينهم معلمو الكتاتيب ، بمكانة اجتماعية طيبة ، وتمتع بعضهم بمكانة اجتماعية عالية جدا .

---

(١١٠) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون ، ص ٢٣ — ٢٤ .

وأول مظاهر التقدير فى الأندلس لهؤلاء ، أن لقب « معلم كتاب » أطلق عليهم ، وتصدر أول ترجماتهم ، وبيان فضائلهم ، وذلك دليل على مكانة هؤلاء ، يقول ابن الفرضى أن :

محمد بن عبد الله بن محمد البهرانى المؤدب (توفى ٣٨٥ هـ/٩٩٥م) من أصل قرطبه ، كان معلم هجاء ، وكان خير الرواية ، حدث وكتب عنه غير واحد من أصحابنا (١١١) .

وحبيب بن أحمد بن ابراهيم المتوفى ٣٣٧هـ/٩٤٨م ، أنه كان معلم كتاب ، وحدث عنه أحمد بن عون وغيره (١١٢) .

ويشير ابن الخطيب الى أحمد بن عبد الملك العدوى قائلا : « وهو اليوم من معلمى الكتاب » (١١٣) .

وهناك مئات التراجم التى تتحدث عن المعلمين والمؤدبين فى الأندلس ، ذاكرة فضائلهم وعلمهم وشيوخهم وتلاميذهم ، ولا أجد داعيا لذكرها هنا (١١٤) .

علاوة على ذلك فان المستوى الثقافى لمعلمى الكتاب فى الأندلس ، كان مرتفعا نسبيا ، ويفسر ذلك كثرة التراجم الواردة عنهم ، بل ان بعضهم قد ترك آثارا ثقافية كبيرة ، فيقال عن عمر بن عبادل الرعينى ، من أهل « رية » أنه سكن قرطبة ، وكان يكنى أبا جعفر جعفر (توفى ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م) ، كان معلم كتاب ، وكان رجلا صالحا زاهدا ورعا ، حدث عنه القاضى يونس ، فى غير موضع من تصانيفه (١١٥) .

---

(١١١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .
(١١٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ص ١٠٧ .
(١١٣) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٢٧٨ .
(١١٤) أنظر على سبيل المثال فى كتاب علماء الأندلس فقط الصفحات ٩ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٧ (طبعة كوديرا) .
(١١٥) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .

أما محمد بن محمد — المعروف بالأشبيلى — من أهـل قرطبـة (المتوفى ٣٢٥هـ/٩٣٦ م) ، فقد كان معلم كتاب ، روى عن محمد بن وضاح وغيره ، وكان يجتمع اليه أهل الحسبة والمعلمـون ، ويقرءون عليه ، وكان يدخـل على أمير المؤمنين عبـد الرحمن بن محمـد ، ويأخـذ جوايزه (١١٦) .

ومن هذه المـلاحظة يمكن أن نستخلص نتيجتين هامتين :

أولاها : أن بعض معلمى الكتاب كانت تصل به ثقافته وعلومه الى درجـة تجعله يعطى من وقته لارشـاد زمـلائه المعـلمين وتوجيههم أو تثقيفهم فى القراءات وغيرها ، كمـا أن المعلمين من ناحيتهم كانـوا يسعون الى تحسين مستواهم الثقافى دون خجل ، ويجلسون الى واحد منهم يدرسون على يديه .

والثانية : الاهتمام الذى قدمه بنو أمية فى الأندلس للتعليـم الأولى وللمعلمين ، وذلك بالسماح لهم ، بأن يستقبلوا فى مجالسـهم وتقـديم الجوائز لهم ، مما يعتبر دليـلا على قيمة المعلم ومكانتـه الاجتماعية .

دليل آخر على أن مهنة تعليم الأطفال لم تكن فى يد أكثر طبقات المجتمع سفالة ، بل العكس من ذلك مارسها رجال من الطبقة العالية جدا ، هو أن الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الناصر خرج من الأندلس ، واشـتغل فى برقة بتعليم الصـبيان وتلقينهـم القرآن (١١٧) .

ومن ناحية أخرى فان الخليفة المعيطى ، خليفة ميورقة ، انتهز فرصة غياب مجاهد العامرى ، فى سردانية فى عام ٤٠٦هـ / ١٠١٥م ، وحاول

---

(١١٦) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٤٤ .
(١١٧) المقـرى : النفح ، ج ٣ ، ص ٤١٢ .

الاستئثار بملكه ، ولكن شعب ميورقة لم يؤيده ، وعلم مجاهد بهـذا كله ، فأمر حين عودته بعزله وارساله الى بجاية حيث استقر بها معلما لصبيان البربر (١١٨) .

كما أن مهنة تأديب الاصغار يمكن أن تكون سلما يرتفع بصاحبه الى مكانة عالية ، فمحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى ، قدم قرطبة، فلزم التأديب فى داره ، ثم انتقل الى أحد الحديريين ، ثم اســتخدمه عبد الرحمن الناصر ، لتأديب المغيرة (١١٩) .

وأخيرا فان الأدب الأندلسى لم ينس أن يبجل هذه المهنة والقائمين بها ، فلقد كتب صاحب الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الى صديقه أبى عبد الله اليتيم رسالة نقتطف منها :

« وتعرفت ما كان من مراجعة سيدى لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين الى العهد القديم ، فسررت باســتقامة حاله ، وفضل ماله ، وان لاحظ اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعتراض لايرد ، وقياس لايطرد، حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الاحسان ومشاهدة الصور الحسان ، رعينا أن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وأنى لأنظر منهــم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدرة ، متقطب الأسرة ، متنمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو الى مكتبه كالأمير فى موكب ، حتى اذا استقل فى فرشه ، واســتوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالوته وورشه ، أظهر للخلق احتقارا ، وأزرى بالجبــال وقارا ، ورفعت اليــه الخصــوم ، ووقف بين يديه الظالم

---

(١١٨) العبادى : الصقالبة فى اسبانيا ، ص ٢٦ .

(١١٩) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ — ٣٤٠ .

— Al — Abbadi : Los eslavos en Espana, p. 26. El texto ara be, p. 26.

والمظلوم ، فتقول كسرى فى ايوانه ، والرشيد فى أوانه ، أو الحجاج بين أعوانه » (١٢٠) •

اجرة التعليم :

مسالة الأجر على التعليم من المسائل المعقدة ، على الأقل من الناحية النظرية ، حيث أن الرسول عليه السلام قد قام بتعليم الناس القرآن ، دون أن يسأل احدا أجرا ، وتابعه على ذلك الصحابة ، وعدد كبير من التابعين ومن جاء بعدهم ، وهناك الكثير من الأحاديث الحاثة على التعليم مجاناً وخاصة القرآن الكريم ، وضم الى القرآن أحاديث رسول الله ، وذهبت طوائف كثيرة من العلماء والفقهاء ، الى أنه لا يجوز قبول الأجر على تعليم القرآن والحديث •

وتطورت الأمور وامتدت لتشتمل على الدراسات الدينية عامة وقال الناس ان التعليم يجب أن يكون مجانا ، والأجر الوحيد المقبول على ذلك هو جزاء الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ، وسار على هذا المنوال ، عدد كبير من معلمى المسلمين ، سواء الأغنياء منهم والفقراء •

ومن ناحية أخرى ، فاننا نجد أن عددا كبيرا أيضا من الفقهاء ومن بينهم الأندلسيون ، يباركون أخذ الأجر ، معللين ذلك بأن من الضرورى أن يوجد من يقوم بتعليم أبناء المسلمين ، وانه لابد لضمان ذلك من دفع أجر على التعليم ، ويرى الدكتور أحمد شلبى أن فكرة اعطاء المرتبات لمن يخدمون العلم ، ويسهمون فى رفع المستوى الثقافى ، قد بدأت فى عهد مبكر ، قد ترجع الى عهد أبى بكر ، حين جلس بعض الناس فى المساجد ليسمعوا الناس بعض الأشياء التى لم يكن المقصود منها خدمة العلم ولا وجه الله ، ثم لاستعانة المسلمين بغير المسلمين ، للقيام ببعض الأعمال الخاصة مثل الترجمة وغيرها ، وأن هذه الفكرة تطورت مع الزمن ، ونسى الناس الحقائق الأولى الخاصة بالتعليم

(١٢٠) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ •

مجانا ، خدمة لله ، وأصبح دفع المرتبات للمدرسين شيئا عاديا ، أيا كان الموضوع الذى يدرسونه ، وأيا كان الدين الذى يعتنقونه [١٢١] .

ودراســة الكتب التى تناولت تاريخ التربية الاسلامية ، تعطينا فكرة واضحة جدا عن أن المستوى الاقتصادى لمعلمى الكتاب فى المشرق كان مستوى متواضعا ، ان لم يكن فقيرا ، ويورد الدكتور شلبى أمثلة كثيرة تدل على ذلك ، حتى فى صــقلية فانه يورد ما ينعيه ابن حوقل على معلمى الكتاتيب فى صقلية رضاهم بشظف العيش . وقلة الدخل ، اذ ما كان يتجاوز ايراد الواحد منهم ، عشرة دنانير فى العام ، بل ربما لا يصل ايرداه الى هذا الحد [١٢٢] .

أما فى الأندلس ، فلقد أفتى الفقهــاء بجواز الأجر على تعليم القرآن ، وخاصة ابن حبيب ، وابن حبيب هو فقيه الأندلس ، ولآرائه التشريعية مكانة خاصة ، ولقد برر قبول الأجر على العكس مما عمل به الصحابة الأولون قائلا : وتأويل النهى أن ذلك كان فى مبتدأ الاسلام وحين كان القرآن قليلا فى صدور الرجال ، غير فاش ولا مستفيض فى الناس وكان الأخذ على تعليمه يومئذ وفى تلك الحال ، انما كان ثمنــا للقرآن أما بعد أن صــار فاشيا فى الناس ، فقد أثبتوه فى المصاحف ، وصارت المصــاحف وما فيها مباحة للجاهل والعالم ، وللقارىء وغير القارىء ، غير محجوبة ولا ممنوعة ، ولا مطلوبة لقــوم دون قوم ، ولا مخصوص بها قوم دون غيرهم ، فانها الاجارة على تعليمه اجارة البدن المشتغل بذلك ، وليس ثمنا للقرآن [١٢٣] .

وكذلك ، نستدل على أن الأندلسيين قد قبلوا بالأجر ، من مجموعة الوثائق والعقود والآراء التشريعية الصادرة عن ابن حبيب وغيره من

---

(١٢١) احمــد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ٢٣٦ .
(١٢٢) أحمد شلبى : التربية الاســلامية ، ص ٢٣٩ ، نقــلا عن : ابن حوقل : صورة الأرض ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .
(١٢٣) احمد فؤاد الاهوانى : التربية الاسلامية ، ص ٢١٨ .

فقهاء الأندلس ، تلك الوثائق المستخرجة من بعض كتب الفقه ، التى نشرها البروفيسور الأسبانى خوليان ريبيرا ، ضمن كتابه عن تاريخ التعليم بين الأسبان المسلمين ، ونعيد نشرها ضمن هذه الرسالة بعد أن اطلعنا على الأصل المخطوط لها بمدرسة الدراسات العربية بمدريد ، بفضل تعاون الدكتور فرناندو دى لاجرانخا « مدير المدرسة » .

لكن على الرغم من كثرة البحث والتنقيب فى المصادر التاريخية الأندلسية ، فاننى لم أتمكن من العثور على البيانات الكافية التى تمكننى من الحكم على المستوى الاقتصادى لمعلمى الكتاب فى الأندلس بدقة وافية ، وعلى العموم ، اذا كانت كتب الأدب أو التاريخ قد قدمت صورة مظلمة عن حياة معلمى الكتاب فى المشرق وفى صقلية ، فاننا لا نستطيع أن نطبق هـذا الحكم فى الأندلس ، لأن مصادرنا الأندلسية ، سواء الأدبية والتاريخية منها ، لم تشر الى مثل هذه الأحوال السيئة ، بل ان ما يمكن أن توحى به ، قد يكون العكس من ذلك تماما .

فى الأندلس لم تغفل كتب التراجم والتاريخ أخبار معلمى الكتاب بل ذكرت أسماء الكثيرين منهم ، مصحوبة بأطيب الألقاب والصفات العلمية ، وسبق لى الاشارة الى بعض هذه الأسماء [١٢٤] بل اننى أشرت الى قيام بعض الشخصيات النبيلة بتعليم الأطفال مثلما قام به الخليفة المعيطى .

أما من ناحية الأجر فقد بدأ المعلمون فى قبوله فى فترة مبكرة من تاريخ أسبانيا الاسلامية ، وأول المعلومات التى بين أيدينا فى هذا الشأن هى التى أوردها الزبيدى ، عند حديثه عن الغازى بن قيس ، الذى كان ملتزما بالتأديب بقرطبة أيام دخول عبد الرحمن الداخل الذى حكم فى الأندلس عام ١٣٨هـ / ٧٥٧ م ، فيقول : ذكر محمد بن عمر بن لبابة المتوفى ٣٠٤هـ / ٩١٦م ، أن رجلا حاور بعض المؤدبين فى الحذقة

---

(١٢٤) انظر الملاحظات الواردة عند الحديث عن المعلم ، فى هذا الفصل .

(والحذقة هى ما يدفع للمعلم عند تعلم الصبى القــرآن) فمنعهـا المؤدب ، فناظره فى ذلك ، وتعصب له المؤدبون بقرطبة ، وأشـــفقوا أن ينفتح عليهم فى ذلك باب منع ، فأتـــوا غازى بن قيس ، فقالوا : ياسيدنا ــ تعرضـــا له بالتأديب ــ عرض غـــرض لنا كيت وكيت ، فقال : يغرمها صاغرا قميئا ، وقضى لهم بذلك ، اذ هو مما جـــرى عليه أمر الناس (١٢٥) ٠

وعبارة « اذ هو مما جرى عليه أمر الناس » تدل على أن دفع الأجر للمعلمين كان جاريا فى الأندلس حتى قبل هذا التاريخ ٠

ومن ناحية أخرى ، لم أجد من البيانات ما أستطيع أن أحدد به بالضبط ما كان يدفع من أجر للمعلم ، ولكن الشائع هو أن ذلك كان يختلف من معلم الى آخر ومن صبى الى آخر حسب المكانة الاقتصادية لوالد الطفل وشهرة المعلم ، ويقول المستعرب الأسبانى فى ذلك الأمر :

والمعلم ، من الممكن أن يكون أى شخص يرغب فى التخصص فى المهنة ، يتفق مباشرة مع الوالد أو الصبى على المـــادة التى سيعلمها للطفل ، والوقت وطريقة التعليم وشروط الدفع ٠٠٠ الخ ، حيث أن العقد بينهما عقد حر وخاص ٠

وبصورة عامة ــ يواصل المستشرق الأسبانى ــ فان العقـــد كان يبرم لمـــدة عام مع الوضع فى الاعتبار مصلحة الطرفين ، أما المرتب وطريقة الدفع ، فلقد كانت العـــادة أن يكون جزء منهما نقدا ، وهـــذا يدفع شهريا والبعض عينا أى من الحبوب ، والعادة أنها كانت تتراوح بين كيلتين أو ثلاث من القمح ، ونصف مكيال من الزيت ، وفى مقابل ذلك ، يعد المعلم ، ببذل كل طاقته فى تعليم الطفل ٠

ولقد كان الشائع جـــدا تقديم الهـــدايا للمعـــلم فى العيدين ، وان حمل ذلك المشرعين على الافصاح كثيرا بأن هـــذا ليس ضروريا

---

(١٢٥) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ ٠

أو اجباريا . والحقيقة أنهم لم يكونوا يشترطون ذلك أو يطلبونه ، حققا مسلما .

وفى أحيان أخرى ، بـدلا من أن يتعاقـد مع المعلم لمدة عام ، أو لعدة شهور ، فانه كان يتعاقد على كمية محددة أو جزء محدد ، يتم تعليمه ، وهذا كان يحمل المعلم ، على أن يعلم الطفل مادة ، أو جزءا من مادة ما ، وفى هذه الحالة يجب التأكيد على أهلية الطفـل للتعلم حتى لا يخدع فى الثمن وبالتالى يتحصن الوالد ضد شكايات المعلم مسـتقبلا والتى قد يقدمها ، متعللا بعدم قدرة الطفل على التعلم (١٢٦) .

لكن هناك طريقة أخرى كان يتم بها دفع مرتبات معلمى الكتاب فى الأندلس ، وان كنا نجهل كذلك الكمية أو النوعية التى كان يتم بهـا الدفع ، أقصـد بذلك المرتبات التى كانت تدفع لمعلمى الكتاتيب ، من الأراضى أو العقارات المحبوسة على هذا السبيل ، فاذا كان الحـكم المستنصر بالله قد أوقف حـوانيت السراجين لدفع مرتبات معـلمى الـ ٢٧ مكتبـا التى أنشـأها فى قرطبـة ، فلابد وأن هناك كثيرا من الأغنياء قد قاموا هم أيضا بتقليد الحكم فى ذلك ، وأنهم تولوا دفع مرتبات المعلمين (١٢٧) .

وفى مقابل الأجر الذى كان يتقاضاه المعلم كان عليـه أن يستأجر الكتاب ، وأن يتحمل كل تكاليف المكان .

هـذا ولقـد أفتى الفقهاء بجواز الشركة فى الكتاب ، بل فضلوا ذلك ، لأنه فى حالة مرض واحد منهما يمكن للثانى أن يحل محله ، وهناك

---

(126) Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes Espanoles, pp. 34 , 35.

(١٢٧) انظـر :

Ribera, J. : Ha de la ensenanza entre los musulmanes espanoles, p. 32.

من فصل الشركة على أن يكون أحد المعلمين للقــرآن ، والآخر للغــة العربية ، وفى حالة المشاركة حــدد الفقهاء نصــيب كل منهما مــن الدخل ، اما حسب عمله ، أو حسب علمه •

تعليم البنــات فى المكتب :

بالنسبة لتعــليم البنات فى المكتب فى الأنــدلس لم أجــد من النصوص ما يؤكد ذهاب البنت الى المكتب ، والآراء الفقهيــة التى نقلت الينا عن ابن ســحنون والقابسى لا تــرى أن تذهب البنت الى المكتب ، على أن النهى عن تعليم البنت فى الكتاب لا يعنى أنها لم تكن تتعلم ، فقد ألزم القابسى بضرورة تعليمها ، لضرورة معرفتها الدين والعبادات وقد جرت العــادة على تعليم البنات داخل الدور •

واننا لنجــد أســماء كثيرة لنساء أندلسيات ، تلمع بعد ذلك فى مجالس العلم وفى مجالات الأدب والشعر مما يدل على انتشار التعليم بينهن فى الصــغر •

لكن ما هو مؤكد لدينا هو قيام عــدد من النساء الأندلســيات بممارســة مهنة التعليم ، ومنهن ابنة حزم المعلم ، التى كانت تؤدب مع والدها وأخيها فى دار واحدة (١٢٨) •

وكذلك ذكرت لنا « معلمة » أخرى اســمها « فخر » ولم يشر الى أكــثر من أنهــا كانت معلمة ، وقــال الرازى أنهــا توفــيت سنة ٣١٧ هـ/(١٢٩) •

---

(١٢٨) ابن الابــار : تكمــلة الصــلة ـــ ج ٢ ، ص ٩٣ ، ٩٤ (طبعــة مدريــد) •

(١٢٩) نفس المصدر •

والمعلمة الثالثة اسمها غالبة بنت محمد ، المعلمة الأندلسية — على حد ما يسميها ابن بشكوال (١٣٠) .

أما الدور الأكبر للنساء فى هذه المرحلة ، فقد مارسنه فى بيوت الأمراء والأغنياء على ما سبق أن وضحت ، فى تعليم الخاصة .

---

(١٣٠) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٦٩١ .

الفصل الخامس

المرحلة التعليمية الثانية

تختلف هـذه المرحلة من التعليم الاسلامى فى العصور الوسطى عن المرحلة التعليمية الثانية ، المتبعة حاليا فى مراحل التعليم بالعـالم الاسلامى المعاصر ، كما أنها بالطبع تختلف عن المفهوم الغربى للمرحلة الثانية ، وان تشابهت مع هـذه المرحلة فى بعض الملامح .

تشابه المرحلة التعليمية الثانية فى العصـور الوسطى مثيلاتهـا فى العصر الحديث فى أنهـا تتجه الى طلبة فى سن المراهقـة ومراحل الشباب الأولى ، وتتشابه معها فى أن الطالب يخرج من بيته متجهـا الى المكان الذى يتلقى فيه التعليم ـ لكنها تختلف عن هـذه المراحل فى كونها ليست مرحلة ثانوية تعد الطالب للحياة الجامعية ، على ما هو الحال فى المراحل الثانوية الحالية ، لكنهـا تعد مرحلة ثانوية وختامية فى ذات الوقت ، حيث يستكمل الطالب خلالها تكوينـه الثقافى ويتجه بعدها الى العمـل ، فهى فى حالات الغالبية الشائعة من الطلاب تعتبر مرحلة نهائية ، وان كانت فى حياة الكثـيرين ، مرحلة يمكن أن تتبعها مراحل التخصص الدقيق ، أى ما يمكن أن يطلق عليه اسـم المرحلة التعليمية الثالثـة .

اماكن التعليم فى هـــذه المرحلة

(أ) المنزل :

واصـل المنزل دوره فى هـذه المرحلة ، مثلما مارسه فى المرحلة التعليمية الأولى ، لكن دور المنزل هنا كان أكثر تأثيرا ، حيث قام كثير من الآباء بالتدريس لأبنائهم . بل ان بعض التلاميذ قـد اكتفوا فقط بمـا علمـه لهم الآباء ، مرتفعين بذلك الى درجة علميـة كبيرة ، ومن الطلبـة الذين تعلموا على آبائهم نذكر ، على سبيل المثال لا الحصر .

عبد الواحد بن محمد بن دينار ، من أهل قرطبة ، توفى ٢٨٢ﻫ / ٨٩٥ م ، سمع من أبيه ومن أخيــه ، ورحل معهما ، وبلغ مبلغ أكابر أهله فى العلم (١) .

وأحمد بن مسعود بن مفرج ، المتوفى ٤٧٨ ﻫ / ١٠٨٥ م ، روى عن أبيــه وتفقه عنده (٢) .

أحمد بن محمد بن على بن محمد ، المتوفى ٥٢١ ﻫ / ١١٢٧ م ، أخذ عن أبيه ، وتفقه عنده (٣) .

وممن اقتصر على السماع عن والده ، ومــع ذلك حاز شــهرة واسعة وصل الى أن يكون قاضى قرطبــة ، الفقيه أحمــد بن بقى ابن مخلد الذى يقول عنه ابنه الفرضى : كان قاضى قرطبة ، لا أعلمه سمع من غير أبيه ، وكان زاهدا فاضلا . توفى ٣٤٤ ﻫ / ٩٥٥ م (٤) .

وكذلك يقول ابن الفرضى عن محمد بن محمد بن عبد الســلام ابن ثعلبة الخشنى من أهل قرطبــة ، المتوفى ٣٣٣ ﻫ / ٩٤٤ م ، أنه سمع من أبيــه أكثر علمه ولا أعلمه روى عن غيره ، وكان مشــاورا فى الأحكام ، وانفرد عن أبيه برواية كتب لم يروها غيره (٥) .

أما عن استخدام المنزل كمكان للتدريس خــلال هــذه المرحلة ، فلقد كان شائعــا أن يتخذ بعض المعلمين مكانا منفصــلا فى منزلهم لاستعماله مقــرا لتعليمهم ، فلقد ذكر بعض طلبة ابن وضاح المتوفى ٢٨٦ ﻫ / ٨٩٩ م ، أنهم كانوا فى السماع عنده فى غرفة له فدخل عليه رجل وأخبره بوفاة ابنــه ، فلم يكترث له ، وأقبل على ما كان فيــه

---

(١) ابن الفرضى : علماء الاندلس ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ .
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٦٧ .
(٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٨١ .
(٤) ابن الفرضى : علماء الاندلس ، جـ ١ ، ص ٣٣ .
(٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٥٣ .

من امساك كتابه ، وأمر القارىء أن يتمادى فى قراءته (٦) .

وحكى بعض أصحاب الفقيه أبى اسحق بن ابراهيم بن محمد ابن باز المعروف بابن القزاز ، من أهل قرطبة ، المتوفى ٢٤٧هـ / ٨٨٧م ، قال : كنا نسمع عنده فى غرفة له اذ صعدت امرأة عجوز تسأله أن يعينها فى فداء ولد مأسور لها ببلد العدو (ثم يواصل حكاية القصة الى أن يصل الى قوله) وبعد شهر ونحن قعود فى تلك الغرفة اذ صعدت العجوز ومعها فتى وقالت هذا ابنى ... (٧) .

أما ابن خير الأشبيلى ، فلقد ذكر أنه قرأ الملخص لمسند موطأ مالك بن أنس ، لأبى الحسن على بن محمد بن خلف القابسى الفقيه رحمه الله — قرأه عليه فى منزله ، وكذلك حدثه به الشيخ الفقيه القاضى محمد بن عبد الحق بن عطية المحاربى — قرأه عليه فى منزله بالمرية فى ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م (٨) .

وأنه قرأ كتاب «النقض» على نفس الفقيه بمنزله فى المرية (٩) ، كما أنه قرأ كتاب « تفسير غريب الموطأ » لأحمد بن عمران بن سلامة على الشيخ أبى الحسن يونس بن محمد بن مغيث — قرأه عليه فى منزله (١٠) .

ويبدو أن مسألة اتخاذ مكان فى سطح المنزل للتعليم كان شائعا أيضا فى شمال أفريقية — يحكى ابن فرحون عن حاتم بن محمد ابن عبد الرحمن التميمى القرطبى المتوفى ٤٦٩ هـ / ١١٠٢ م ، قوله :

---

(٦) ابن عاصم : جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى — المخطوط رقم ٢٦٤٨ ، ص ١٧٨ ، وانظر :
عياض : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٠ .
(٧) ابن عاصم : المخطوط المذكور ، ص ٢٣٩ ، وانظر أيضا : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ .
(٨) ابن خير : الفهرسة ، ص ٩٠ .
(٩) ابن خير : نفس المصدر ، ص ٩١ .
(١٠) ابن خير : الفهرسة ، ص ٩١ .

كنا عند أبى الحسن القابسى نحو ثمانين رجلا من طلبة العلم ، وكنا فى علية له (والعلية هى المصرية أو المشربية ، وهى غرفة عليا تطل على الشارع بحيث تبرز عن جدران البيت) ، فصعد الينا الشيخ يوما وقد شق عليه الصعود ، فقام قائما ، وتنفس الصعداء ، وقال ، والله لقد قطعتم أبهرى (١١) •

(ب) المسجد :

يعتبر المسجد أهم مؤسسة تعليمية اسلامية على الاطلاق ودراسة هذه المؤسسة فى أى منطقة من العالم الاسلامى ، هى دراسة المكان الرئيسى للحياة الثقافية الاسلامية فى أى فترة من فترات تاريخها ، والمسجد هو أقدم مؤسسة تعليمية اسلامية ، فلقد أسس الرسول المساجد ، بعد هجرته مباشرة ، وتابعه الناس بعد ذلك • ولعل السبب الرئيسى فى اتخاذ المسجد مركزا ثقافيا يرجع الى أن الدراسات الاسلامية فى تلك الفترة المبكرة كانت دراسات دينية تتضمن تعليم الدين الجديد وتفسيره وشرحه ، وتوضح أسسه وأحكامه ، وتلك العلوم ترتبط بالمساجد أوثق ارتباط ، بل لعلها جزء من العبادة ، ومن هنا كان من السهل على المسلم التوجه الى المسجد للتفقه فى الدين وأداء الفروض الدينية •

والحقيقة أن المسجد قد لعب دورا أكبر بكثير جدا من كونه مجرد بناء ، لأداء فروض الدين ، وأكبر من كونه مركزا للتعليم ، فهو علاوة على ذلك كان مقر القضاء ، وموطن بيت المال ، وساحة الاجتماعات العامة ••• الخ (١٢) •

ويرى الدكتور شلبى أن الذى دعا المسلمين الى التبكير بانشاء المسجد هو احساسهم بأن البيوت الخاصة تضيق باجتماعاتهم

---

(١١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٥٧ — ١٦٠ •
ابن فرحون : الديباج ، ص ٣٤٥ •
(١٢) محمود (عبد الحليم) : المسجد وأثره فى المجتمع الاسلامى •

ولا تمنحهم حرية العبادة واللقـاء كما يشتهون ، ومن هنا — فيمـا يبـدو — أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت اللـه » اشارة الى أنه لا يحتاج الداخل فيه الى استئناس ولا استئذان (١٣) •

وهناك من يرى أن المسلمين قد أسسوا المساجد تقليدا لليهـود والنصارى الذين كانت لهم بيع وكنائس يتعبدون فيهـا ، لكن الأكثر صوابا هـو أن العرب فى بنائهم المسجد ، لم يفعلوا أكثر من مواصلة تقليد عريق لهم فى شبه الجزيرة يتمثل فى اللقـاءات والعبادات التى مارسوها قبل الاسـلام ، فى البيت الحـرام أو الكعبة المكرمة التى أسسها أبو الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام (١٤) ، ولقـد صـلى المسلمون فى الكعبة قبل هجرتهم من مكة الى المدينة بالرغم من عـداوة قريش لهم ، وايذائها اياهم •

وأول مسجد بنى فى الاسلام هـو مسجد « قبـاء » ويقال أن الرسول قـد أسسه أثناء هجرته من مكة الى المدينة ، وهناك من يقول أن بعض المسلمين الذين سبقوا الرسـول فى الهجرة هم الذين تولوا تأسيسه ، وعندما وصل الرسول — عليه السلام — الى المدينة كان أول عمل قام به هو بنـاء مسجده الذى عمل فيه بنفسه وكانت حلقات العلم تعقد فى مسجد قبـاء ، كمـا كان من عادة الرسول أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه دينهم (١٥) •

وكثرت بعد ذلك المسـاجد وزاد انتشارها بتوسـع الاسـلام وأصبحت العـادة أن يبنى مسجد أو أكثر فى كل مكان فتحه المسلمون أو فى كل قرية أو مدينة أسسوها — روى أنه لمـا فتحت البلدان ، كتب عمر الى أبى موسى وهو على البصرة يأمره بأن يتخذ مسجدا للجماعة ، وأن يتخذ مسـاجد للقبائل فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد

---

(١٣) أحمد شلبى : التربية الاسلامية ، ص ١٠٢ •
(١٤) نفس المصدر ، ص ١٠٢ •
(١٥) شلبى : التربية الاسلامية ، ص ١٠٤ •

الجماعة ، وكتب الى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك [١٦] .

أما فى الأندلس ، فانه يقال ان أول مسجد تم بناؤه بها هو « مسجد الرايات » الذى أسسه موسى بن نصير فى الجزيرة الخضراء ويقول الادريسى « الجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس فى صدر الاسلام وذلك فى سنة ٩٠ من الهجرة (٧٠٩ م) — افتتحها موسى بن نصير [١٧] من قبل المروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله ابن ونمو الزناتى (طارق بن زياد) ومعه قبائل البربر ، فكانت هذه الجزيرة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت ، وبها على باب البحر مسجد يسمى « بمسجد الرايات » ، ويقال انه هناك ، اجتمعت رايات القوم للرأى [١٨] .

أما فى باقى مدن أسبانيا الأخرى التى فتحها المسلمون ، فلقد قاموا فى البداية ، وبسبب ظروف الحرب ، بمشاركة المسيحيين كنائسهم ، واتخاذ جزء من هذه الكنائس مكانا للعبادة ، مثلما حدث فى قرطبة ، حيث شارك المسلمون النصارى فى كنيستهم الكبرى ، المعروفة باسم « شنت بيجنت » ، وأقاموا فى شطرهم مسجدا ركز قبلته حنش الصنعانى التابعى [١٩] .

هذا ولقد انتشرت المساجد فى الأندلس انتشارا كبيرا جدا فقام الخلفاء والأمراء ببناء المساجد الجامعة فى كل مدينة وفى كل قرية ، كما قام الأغنياء والعلماء والفقهاء ببناء مساجد خاصة بهم ومن الصعب جدا حصر العدد الذى وصلت اليه المساجد فى الأندلس ،

---

(١٦) نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

(١٧) أخطأ الادريسى فى تحديد التاريخ ، ولعله خطأ من الناسخ ، اذ من المعروف أن عبور موسى الى الأندلس كان فى عام ٩٣هـ/٧١٢م .

(١٨) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(١٩) عبد العزيز سالم : العمارة الدينية بالأندلس ، دائرة معارف الشعب ، رقم ٢ ، ص ١٠٧ .

ولكن يكفى القاء نظرة واحـــدة على « قائمة أسماء الأماكن والبلدان الواردة فى كتاب « الصـــلة » لابن بشكوال (٢٠) ، لنرى أن المؤلفة أشـــار الى المســـجد الجامع فى قرطبة ٧٣ مرة والى جامع الزهراء ١١ مرة ، وأن الكتاب قـــد تضمن أسماء ٧٥ مسجدا خاصا أقامهـــا الأفراد أو بنتهـــا العـــائلات (٢١) . واذا علمنا أن فتح بن ابراهيم الأمـــوى المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م قـــد بنى بطليطلة مســـجدين ، أحدهما بالجبل البارد والثانى بالدباغين (٢٢) ، واذا علمنا أن بمنطقـــة قرطبة فقط كان يأتى لصـــلاة الجمعة مع عبد الرحمن الثالث أكثر من ٣٠٠ فقيه ، يضع كل منهم القـــالص على رأسه (ولا يضع القـــالص الا من حفظ الموطأ أو المدونة) من القرى القريبة لكى يحيطوا الخليفة علما بمـــا يحدث فى قراهم (٢٣) ، أمكن لنا أن نتصور الرقم الكبير ، لعـــدد المساجد فى الأندلس . ويذكر أحـــد المؤرخين أنه كان بقرطبة فقط ١٣٨٧٠ مسجدا ، وأن ربض شقندة فقط ، كان به ٨٠٠ مسجد (٢٤) ، وعلى الرغم من اتفـــاقى مع الدكتور حسين مؤنس على أن ذلك وهم من المؤلف وأن المؤلفين القـــدامى كانوا يبالغـــون فى الأرقام كثيرا ، الا أن ذلك الرقم يعكس حقيقة هامة وواقعية ألا وهى كثرة انتشـــار المســـاجد ووفرتهـــا فى قرطبة . كما أن هـــذه الأرقام تمثل بالنسبة لهؤلاء المؤلفين على الأقل رقما مثاليا .

ولقـــد قصـــدت من التركيز على كثرة المساجد فى الأندلس ، أن أبين كثرة انتشار مراكز التعليم فى الأندلس ، فلقـــد كان كل مسجد

---

(٢٠) رودلف سنجر : قائمـــة بأســـماء الأماكن والبلدان الواردة فى كتاب « الصلة » لابن بشكوال — مجلة المعهـــد المصرى رقم ١٥ — عام ١٩٧٠ م .

(٢١) انظر صفحات المقـــال المذكـــور ، ص ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٢٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٥ .

(٢٣) المقـــرى : نفـــح الطيب ، جـ ١ ، ص ٤٥٨ (طبعة احسان عباس) .

(٢٤) حسين مؤنس : وصف جديد لقرطبـــة ، ص ١٦٦ .

منها مركزا للتعليم ، واذا وضعنا فى الاعتبار أن المساجد الجامعة كان يدرس بها أكثر من معلم واحد ، بدليل أن الدور كان يقسم فى المسجد الجامع بين الفقهاء ، كما كان هناك أكثر من مجلس للمعلمين فى أنحاء المسجد المختلفة — أمكن لنا أن نقول بكل اطمئنان ، ان عدد المجالس التعليمية ، وبالتالى حلقات المعلمين قد زادت كثيرا عن عدد المساجد التى كانت قائمة فى الأندلس .

وحيث أنه من الصعب حصر كل المعلمين الذين تولوا التدريس فى مساجدهم الخاصة أو كل المعلمين الذين جلسوا للتعليم فى مسجد واحد فى وقت واحد أو فى أوقات متقاربة ، فاننى أقدم هنا بعض الأمثلة على سبيل المثال — لا الحصر :

مفرج بن يونس بن مفرج بن محمود ، المكتب ، سكن قرطبة وكان يعلم بمسجد سرور [٢٥] .

محمد بن يوسف بن محمد الأموى المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م كان من أهل الضبط ، والاتقان ، والمعرفة بما يقرأ ، وكان معه نصيب وافر من علم العربية ، وعلم العروض والحساب ، وأقرأ الناس بقرطبة فى مسجده ثم خرج عنها فى الفتنة واستوطن الثغر ، وأقرأ الناس به دهرا ، ثم انصرف الى قرطبة [٢٦] .

على بن أحمد بن أبى بكر الكنانى القرطبى كان مقرئا للقرآن العظيم ، كثير الاعتناء برواياته ، مجودا متقنا ، التزم الامامة بمسجده والاقراء فيه ٦٦ سنة الى أن توفى ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م [٢٧] .

---

(٢٥) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، جـ ١ ، ص ٧٢ ، بالنسبة لمسجد سرور . وانظر مقالة قائمة بأسماء الأماكن والبلدان الواردة ، فى كتاب « الصلة » لابن بشكوال ، مجلة المعهد المصرى بمدريد ، رقم ١٥ (١٩٧٠) ، ص ١٧٦ .

(٢٦) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ .

(٢٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، جـ ١ ، ص ١٥٠ — ١٥٣ .

أما فى المسجد الجامع بقرطبة فأشير الى :

عبد اللـه بن عمر بن أبا ، من أهـل قرطبـة ، كان متقـدما فى الفتيا ، متحلقا فى المسجد الجامع بقرطبة مع أبى زيد عبد الرحمن ابن ابراهيم ، كان نظره فى القدر والعلم ، وكان موصوفا بالفضل(٢٨) .

محمـد بن يحيى بن خليل اللخمى ، من أهـل قرطبـة ، توفى ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ، كان حافظا للمسـائل ، معتنيا فى السوق بالرأى ، وكان يفتى فى قرطبة ، ويجتمع اليه فى المسجد الجامع للمناظرة (٢٩) .

عبد الله بن محمد المقرى ، من أهـل قرطبة ، توفى ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ، كان يقرىء على باب المسجد الجامع بقرطبة (٣٠) .

سليمان بن عبـد الرحمن بن سليمان ، المتوفى ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م قرأ القـرآن على الأنطاكى وأتقنه ، كان يقرأ عليه على باب المسجد الجامع ، وكان أحد أئمة المسجد الجامع ، وأحد المؤذنين فيه (٣١) .

يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثى ، من أهل قرطبـة المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، رحـل الناس اليه من جميع كور الأندلس ، واختلفت اليه فى سماع الموطأ عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وكانت الدولة فيه فى أيام الجمع بالغدوات ، فتم سماعه منه ، وسمعت منه كتـاب التفسير لعبد الله بن نافع ، ولم أشـهد فى قرطبة مجلسا أكثر بشرا من مجلسنا فى الموطـأ الا ما كان من بعض مجالس يحيى بن مالك ابن عايذ (٣٢) .

---

(٢٨) ابن الفرضى : علمـاء الاندلس ، جـ ٢ ، ص ٢١٣ .
(٢٩) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٧٤ .
(٣٠) ابن الفرضى : علمـاء الاندلس ، جـ ١ ، ص ٢٤١ .
(٣١) نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .
(٣٢) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٩١ .

يحيى بن مالك بن عايذ « من أهل طرطوشة » (٣٠٠ — ٣٧٥ هـ / ٩١٢ — ٩٨٥ م) ، قدم طالبا سنة تسعة عشر (٣١٩ هـ / ٩٣١ م) ورحل الى المشرق سنة ٤٧ / ٣٤٨ هـ (٩٥٨ م) ، وحج سنة ٤٨ ، حدثنى أنه سمع ببغـداد من ٧٠٠ رجل ونيف وجمع علمـا عظيمـا لم يجمعه أحـد قبله من أصحابه الرحل الى المشرق ، وتردد بالمشرق نحـوا من اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن طبقات المحـدثين وكتب الناس عنه كثيرا بالمشرق ، وقـدم الأندلس فى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس ، وطبقات من طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملى فى المسـجد الجامع فى كل يوم جمعـة (٣٣) .

وتثير هاتان الملاحظتان سؤالا هاما ، وهو أنه اذا كان كل من هذين الأستاذين قـد خصص وقتا معينا لتدريسه ، أو لتدريس كتاب ما ، فهل وجدت هيئة حكومية أو أهليـة للقيام بهـذا التنظيم ؟ ان الأهمية التى كان يتمتع بها مسجد قرطبة ، وكثرة العلماء الراغبين فى ممارسة التعليم فى هـذا المكان العظيم ، توحى بضرورة وجود سلطة ما تعمـل على السماح لمعلم ما بالقيام بالتدريس فى هـذا المكان ، كما تعمل على تنظيم هـذه المسألة بصورة لا تسمح بالتعارض فيما بينها .

واذا كانت هاتان الملاحظتـان اللتـان أوردهما ابن الفرضى عن أستاذيه يحيى بن عبد اللـه ويحيى بن مالك تبين لنـا أن الأستاذ قـد خصص وقتا من كل أسبوع لتدريس كتاب معين ، أقصد بذلك تخصيص صباح الجمعة لتدريس كتاب الموطأ أو أنه قـد خصص وقتا لتدريسه مثل تخصيص يوم الجمعـة لاملائه فان الملاحظة التاليـة التى أوردها عن سعيد بن كرسلين ، المتوفى فى حدود عام ٣٠٠هـ / ٩١٢ م ، تبين لنا أنه كانت هناك مواضـع مخصصة لتدريس معلم ما ، فيقول :

---

(٣٣) نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٩٣ .

كان شـيخا فقيها ، وكانت فيـه دعابة ، سـمع بقرطبـة من ابن وضاح وابن باز وغيرهما ؛ وكان يتحلق فى المسجد الجامع بموضعه ويقـرأ عليه (٣٤) .

ويؤكد ذلك بما لا يدع مجالا للشك ، ما جاء فى ترجمـة عيسى ابن عبد الرحمن بن عقاب الغافقى ، من أنه كان مقرئا مجودا ، قـرأ القرآن طـويلا بجـامع قرطبـة ، وأتى يوما الى مصـطبة اقرائه ، فأخذ يتنفل ، فلما رفع رأسه من سجوده وأراد النهوض الى القيام ، عثر فى ثوبه فسقط على الأرض ميتا (٣٥) .

ملاحظة أخرى يمكن تبينها من دراسة المساجد الجامعة فى مدن الأندلس ، ألا وهى ضرورة وجود أحد كبار الشيوخ المعلمين لتـولى التدريس بالمسجد ، وأنه اذا ما خلا هـذا المكان بسبب الموت أو الهجرة أو الانتقال الى بلدة أخرى ، فان أهل المدينة أو الدولة كانوا يسـعون لاحضار معلم آخر لكى يحتل نفس المكان .

فيقال مثلا عن أحمد بن خالد (المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٣م) ، انه عزم عليه فى الانتقال الى الجامع بأمر أمير المؤمنين ، بما لم يجد منه بدا ، وعمارته بنشر العلم ، بعد موت محمد بن لبابة ، فأجاب الى ذلك بعد ابابة شديدة (٣٦) . وكان أبو محمد بن أبى طالب المتوفى ٤٣٧هـ/١٠٤٥م قـد دخل قرطبة أيام المظفر بن أبى عامر ولا يؤبه بذكره الى أن نوه بمكانه ابن ذكوان القـاضى ، وأجلسه فى الجامع فنشر علمـه (٣٧) .

---

(٣٤) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٣٥) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ، ص ٥٠٠ .
(٣٦) اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٧٧ .
(٣٧) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٥٩٧ .
اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ٤ ، ص ٧٣٧ .
ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

عمر بن عبد الغنى المتوفى ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م — وكان قد استدعاه أهل مالقة بعد ارتحال السهيلى — وقيل بعد موته — للتدريس بها والاقراء مكانه ، فأجابهم الى ذلك ، واستقر بها الى أن توفى (٣٨) .

أما محمد بن يحيى بن على بن مفرج الأنصارى المالقى المتوفى ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، فقد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبى عبد الله الطخالى (٣٩) .

على بن عمر بن ابراهيم بن عبد الله الكنانى (٦٥٠ — ٧٢٠ هـ / ١٢٥٢ — ١٣٢٠ م) ، أوحد زمانه علماء وتواضعا وتفننا ، ورد على غرناطة مستدعى عام ٧١٢هـ / ١٣١٢م ، وقعد بمسجدها الأعظم يقرىء فنونا من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب (٤٠) .

وبالاضافة الى ذلك ، يقال عن أحمد بن ابراهيم بن الزبير ، المتوفى ٧٠٨هـ/١٣٠٨م ، أنه أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرهما ، كان كثير الانصاف ، ناصحا فى الاقراء ، خرج من مالقة ومن طلبته أربعون يقرءون كتاب سيبويه ، ثم عرض له أن السلطان تغير عليه فجعل سجنه داره ، وأذن له فى حضور الجمعة ، فلما مات شيوخ غرناطة وشغر البلد من عالم رضى عليه وقعد بالجامع يفيد الناس (٤١) .

نقطة أخرى مهمة جدا فيما يتعلق بدور المسجد فى الحياة التعليمية فى الأندلس ، فعلاوة على كونه مقرا لممارسة التعليم فان دراسة عشرات من تراجم علماء الأندلس يمكن أن توحى لنا بأن بعض هذه الملاحظات واضحة جدا ، فى أن المعلم كان يسكن المسجد ،

---

(٣٨) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ، ص ٤٥٣ .

(٣٩) السيوطى : بغية الوعاة ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

(٤٠) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٨ ، ص ٢٢ .

(٤١) السيوطى ، بغية الوعاة ، جـ ١ ، ص ٢٩٢ .

وبعضها يشير الى الاقامة بحومة المسجد ، فان ذلك يبين أنه كانت تلحق بالمسجد بعض الحجرات لاقامة هؤلاء بهـا ، وخاصة اذا كانوا ممن يعملون فى خدمة هـذا المسجد ، أو أن هنـاك بعض الدور والمنـازل التى كانت تحبس على المسجد لتخصيصها لذلك الغرض .

فيقال عن أحمد بن خالد ، فقيه الأندلس وعالمها ، انه قـد وضع كتابا فى حق العلمـاء قبول جوائز السلطان ، حمله على وضعه وجمعه طعن أهل بلده عليه فى قبول جوائز عبد الرحمن النـاصر اذ نقله الى المدينة بقرطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع ، وقربه ، وأجرى عليـه الرزق ، من الطعام والادام والناض (٤٢) .

على بن معـاذ بن سمعان الرعينى ، بجانى ، كان لغـويا نسابا استقدمه الحكم المستنصر باللـه ليقتبس من علمـه ، وكان عنـده جميع كتب عبد الملك بن حبيب وروايته ، وأقام بقرطبة بحومة مسجد سلمـة نحوا من سنة ثم عاد الى بجانة مسكنه (٤٣) .

خلف بن على بن ناصر بن منصور ، المتوفى ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، قدم الأندلس من سبتة ، وقدم قرطبة وسكن مسجد متعة ، وتعبد فيه ، وسمع منه جماعة من علمـاء قرطبة وغيرها (٤٤) .

خلف المقرى ، من ساكنى طلبيرة ، توفى بعد عام ٤٠٨هـ/١٠١٧م ، كان يسكن المسجد ، ويقرأ عليه ، وكان يحاول عجن خبزه بيده (٤٥) .

أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد اللـه التميمى ، المتـوفى

---

(٤٢) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٢٢٠ .
ابو زهرة : ابن حزم ، ص ٥٩ .
(٤٣) المراكشى : الذيل والتكملة ، القسم الخامس ، الجـزء الأول ، ص ٤١٠ .
(٤٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٧٤ .
(٤٥) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

٣٩٥هـ/١٠٠٤م ، أتى مع أبيه الى قرطبة وهو ابن ثمانى سنين ، وكان سكناه بمسجد سرور واسماعه فى مسجد شريح (٤٦) .

أما من الناحية التشريعية فقد كان من المستحب أن يبنى بجوار المسجد بعض السقائف لكى يتمكن الغرباء من المبيت بها ، وأحيانا تمارس فيها النواحى التعليمية ، وفى ذلك يقول ابن عبدون :

ولو قدر على بناء سقائف لمبيت الغرباء حوله لكان من الفخر للرئيس ولأهل البلد بذلك .

يجب أن يجلس القاضى فى السقائف رجلا فقيها خيرا يعلم الناس مسائل الدين ، ويعظهم ، ويعلمهم الخير ، ويسهم له القاضى فى الوصايا اذا وقعت أو الصدقات نصيبا ، ويكون مأجورا ، ولا يترك أحدا يأكل فيه ولا ينام ، ولا يجهر بصوت الا بالقرآن ، ولا يدخله أحد بسلاح ، فانه لم يأت لحرب ، وانما يأتى متذللا خاشعا راجيا ثواب الله . لا يترك أحد يقرأ فى البلاطات الا القرآن والسنة ، وغير ذلك من العلوم فى السقائف (٤٧) .

أما مسألة بناء المساجد والمحافظة عليها ، فانها انقسمت الى قسمين ، الأول منهما هو المساجد الجامعة ، أو المساجد التى أنستها الدولة ، فليس من شك فى قيام حكام الأندلس ببناء المساجد فى جميع البلدان والقرى الأندلسية — بدأ هذا مع بداية الحكم الاسلامى فى أسبانيا وظل حتى نهاية هذا الحكم ، ولم تغفل المصادر الحديث عن نشاط الحكام فى هذا المجال ، فلقد أفاضت الحديث عن مساهمة أمراء بنى أمية فى تأسيس المساجد فى كافة بلاد الأندلس وخاصة دورهم فى التوسيعات التى طرأت على المسجد الجامع بقرطبة حتى أصبح أكبر مسجد فى غرب العالم الاسلامى .

(٤٦) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٧ .
(٤٧) ابن عبدون : الحسبة ، ص ٢١٣ .

فيقال مثلا عن عبد المؤمن بن على ، الخليفة الموحدى ، أنه عندما دخلت سنة خمسين وخمسمائة (١١٥٥) أمر باصلاح المساجد وبنائها فى جميع بلاده (٤٨) .

والانفاق على هذه المساجد والمحافظة عليها كان يتم اما من بيت مال المسلمين مباشرة أو من الأحباس الموقوفة على هذه المساجد ، ولم أتمكن من العثور على الوثائق الكافية المتعلقة بالوقف أو ما خصص منها لبعض المساجد المعينة ، فيقال مثلا عن فرح بن حديدة ، بطليوسى ، المتوفى عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، أنه كان عالما بالقراءات ، متصدرا للاقراء بها ، جرى بينه وبين أمير بلده ، المظفر أبى بكر محمد بن عبد الله ابن مسلمة بن الأفطس ما أوجب انتقاله الى أشبيلية فقدمها فى امارة المعتضد بن عباد ، ووافى حينئذ اكمال أمه السيدة بناء مسجدها المنسوب اليها ، فأجلسه المعتضد للاقراء به ، بعد أن أجرى عليه راتبا ونفقة من الأحباس ، فلزم الاقراء به الى أن توفى (٤٩) .

ولقد كان كثير من الأهالى يحبسون كثيرا من أراضيهم وبيوتهم أو بعض موارد دخلهم على المساجد مثلما فعل عبد الملك بن حبيب السلمى (٢٣٨هـ / ٨٥٢م) ، الذى كان له أرض وزيتون بقرية بيرة (٥٠) ، وهى احدى قرى طوق غرناطة ، وكان بها مسجد قراءته ، وحبس جميع ذلك على مسجد قرطبة (٥١) .

أما فرج بن أبى الحكم المتوفى ٤٤٨هـ/١٠٥٦م فقد حبس داره على طلبة السنة (٥٢) .

---

(٤٨) ابن ابى زرع : الأنيس المطرب ، ص ١٥٤ .
(٤٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثانى ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .
(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .
(٥١) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٥٤٨ — ٥٥٣ .
(٥٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٤٦١ .

من ناحية أخـــرى فان اسم « صاحب الأحباس » قــد ظهر فى أكثر من ترجمـــة ، مما يشير الى كثرة هـــذه الأحبـــاس الى درجـــة تحتم اعتبارها مهمة يعهد بالاشراف اليها كما هو الحال فى التنظيمات الادارية الأخرى فيقال عن محمد بن عمروس بن العاصى المتـــوفى ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م ، أنه انصرف الى الأندلس وشهر بالعلم ، وكان موسرا وتولى الأحباس بقرطبة (٥٣) .

محمد بن سليمان بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م ، وهو من تلاميذ أبى بكر ، ابن صاحب الأحباس (٥٤) .

ويشير ابن الخطيب عند حديثـــه عن القـــرى المحيطة بغرناطـــة والأملاك التى تتبعها فيقول :

وجملة المراجع العلمية المرتفعـــة فيها ، فى الأزمنة ، فى العـــام بتقريب ، ومعظمها السقى الغبيط المين ، العـــالى ، مايتـــا ألف ثنتان وستون ألفا ، يضاف الى ذلك مراجع الأملاك السلطانية ، ومواضـــع أحباس المساجد ، وسبل الخير ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفـــا ، والمستفاد فيها من الطعـــام المختلف الحبوب للجانب السلطانى ، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد ويشتمل سورها وما وراءه من الأرجاء الطاحنة بالمـــاء ، على ما ينيف على مائة وثلاثين رحى (٥٥) .

ولعـــل السبب فى اختفـــاء هـــــذه الوثائق ، هـــو الظـــروف الخاصة التى عاشتها الأندلس ، وتكفى نظـــرة واحدة على البيـــانات

---

(٥٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .
(٥٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥٧٩ .
(٥٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
Villanueva, Mo. : **Habices de las mezquitas de la civdad de Granada y sus Alquerias.** Madrid, — 1961.
Y véase también su obra : **Casas, mezquitas y Teindas de los Habices de las Iglesias de Granada.** Madrid, 1966.

الوافرة التى بقيت لنا عن مملكة غرناطة ، وهى الفترة الأخيرةوالواضحة أيضا لتعطى فكرة واضحة جدا عن الأحباس التى خصصت للخـدمات العـامة وخاصة للمساجد ، ولست أجد داعيا للحديث عن الأحباس فى هـذه المملكة حيث قامت الأستاذة « كارمن بيـا نوبيا » بدراستها دراسة واسعة مستوعبة (٥٦) •

أما عن المساجد الخاصة فلقد تولى أصحابها الانفاق عليها ثم أنها تمتعت بنصيب من دخل الأحباس •

وبالاضافة الى المنزل والمسجد ، قام بعض العلمـاء بالتدريس لطلبتهم خلال قيـامه بأعمـاله الخاصة ، وربما قام الطلبـة بمساعدته فى عمله خـلال ذلك ــ قال الفقيه محمد بن عمر بن لبابة : كنت يوما عند أبى وهب عبد الأعلى فى حبابه بقـرب مقبرة قريش ، وكان يعتمرها بيـده فى نفـر من الطلبـة تسمع عليه اذ حضر غداؤه ، فيقـدمه الينا لنأكل منه (٥٧) •

وهناك من الأماكن الأخرى ما ساهم فى الحركة التعليمية ، ومن هـذه الأماكن الرباطات التى كانت تتخذ للبعد عن العمـران وللدفاع عن الحدود ، وقد مورست خلالها حياة كاملة بكل مظاهرها ، وانتشرت الرباطات بصـورة كبيرة على عهد مملكة غرناطـة ، ربمـا بسبب تقدم حركة الاسترداد مما أدى الى زيادة الرغبة فى العزلة والزهد ، وربمـا بسبب انتشار المبـادىء الصوفيـة ، ولقد اتخذ التعليم فى هـذه

---

(56) Villanueva, Mo. : Habices de las mezquitas de la Ciudad de Granada y sus Alquerias. Ma. 1961.

وانظر أيضا كتاب المؤلفـة :

Villanueva, Mo : **Casas, mezquitas y tiendas** de las **Iglesias de Granada.** Ma. 1966.

(٥٧) ابن الأبار : تكملة الصلة ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠ .

Villanueva, Mo. : **Rabitas Granadinas.** pp. 79—86.

الأماكن صبغة معينة تميـل الى الدراسات الدينية عامة ، والصوفيـة خاصـة (٥٨) .

المنهج الدراسى

لم يكن لهـذه المرحلة التعليمية منهج محـدد ، يمكن أن يسير عليـه الطالب ، لكنها تميزت باتاحة الفرصة أمام الدارسين لكى ينهلوا من عدد واسع من المواد التعليمية ، ودراسة كتب التراجم تبـين لنـا أن المواد التعليمية التى كانت معروضة أمام الطلاب لتعلمها قد اتسعت لتشمل كل مناحى الثقافة المعروفة فى ذلك الوقت . واذا كان الطفل فى المرحلة التعليمية الأولى قد وجد منهجا محددا يتمثل فى حفظ القـرآن الكريم ، وتعلم القـراءة والكتابة ومعرفة شىء من اللغـة العربيـة والشعر العربى الجاهلى ، فانه بعد الانتهاء من هذه المرحلة لم يجـد نفسه مقيدا بتعلم مواد معينة ، بقـدر ما وجد أمامه الفرصـة لكى يكون ثقافته ويواصل تعليمه فى النـواحى التى توافق ميوله وقدراته العقلية . واذا كان الطفل فى المرحلة الأولى ، قـد وجد نفسه مرتبطا بالمكتب يغـدو اليه يوميا ملتزما بساعات الحضور والانصراف فانه فى هـذه المرحلة قـد تخلص من تلك القيود ، ووجـد أمامه حلقـات المعلمين فى المساجد وفى غيرها يختار من بينها الأستاذ الذى يميـل اليه والمـادة التى يهواها والوقت الذى يناسبه ، ولست أقصـد بذلك أن الحرية كانت مطلقـة ، لا ، لأنه كان هناك أيضا من القيود الاجتماعية والأخلاقية ما يحـد كثيرا من هـذه الحرية، ويعمل على عدم اساءة استعمالها ، ويمكن لنـا أن نجمع العلوم والمواد التى كانت تدرس فى هـذه المرحلة فى المجموعات التاليـة :

١ — العلوم الدينية ، وتشتمل على دراسة القـرآن والحديث ، وما نجـم عنهما من علوم مثل التفسـير ، والقراءات ، والفقـه ، والكلام .. الخ .

(٥٨) حكمت على الأوسى : الادب الاندلسى فى عصر الموحـدين ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

٢ — العلوم اللسانية ، وهى العلوم المتصلة باللغة العربية مثل النحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب ، وغير ذلك .

٣ — العلوم العقلية : وتتضمن الفلسفة والهندسة والرياضيات والفلك والتنجيم والموسيقى والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ والجغرافيا ... الخ .

١ — العلوم الدينية

تركزت الدراسات الدينية فى الأندلس ، كما كانت فى بقية أنحاء العالم الاسلامى فى دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما أساس الثقافة الاسلامية عامة . والحقيقة أن الدراسات القرآنية ودراسات الحديث الشريف قد منحت العقل الاسلامى فرصة واسعة لابداع علوم جديدة متعلقة بها ، ولخلق مجالات واسعة للتفكير نفسه ، فمن الدراسات القرآنية ما هو متعلق بالقرآن نفسه ومنها ما نجم عن هذه الدراسات .

فمن الدراسات المتعلقة بالقرآن ذاته ما لخصه السيوطى المتوفى ٩١١هـ / ١٥٠٥م فى كتابه الاتقان فى علوم القرآن على النحو التالى :

— معرفة سبب النزول .
— معرفة المناسبة بين الاثبات .
— الفواصل .
— معرفة الوجوه والنظائر .
— علم المتشابه .
— علم المبهمات .
— أسرار الفواتح .
— خواتم السور .

- المكى والمدنى .
- أول ما نزل .
- على كم لغة نزل .
- كيفية انزاله .
- بيان جمعه ومن حفظه من الصحابة .
- معرفة تقسيمه .
- معرفة أسمائه .
- معرفة ما وقع فيه من غير لغة الحجاز .
- معرفة ما فيه من غير لغة العرب .
- معرفة غريبه .
- معرفة التصريف .
- معرفة الأحكام .
- معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح .
- معرفة اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص .
- معرفة توجيه القرآن .
- معرفة الوقف .
- علم رسوم الخط .
- معرفة فضائله .
- معرفة خواصه .
- هل فى القرآن شىء أفضل من شىء .
- فى آداب تلاوته .
- فى أنه هل يجوز فى التصانيف والرسائل والخطب واستعمال بعض آيات القرآن .
- معرفة الأمثال الكامنة فيه .
- معرفة أحكامه .

ـ معـــرفة جدله .

ـ معرفة ناسخه من منسوخه .

ـ معرفة موهم المختلف .

ـ معرفة المحكم من المتشابه .

ـ فى حكم الآيات المتشابهات الواردة فى الصفات .

ـ معرفة اعجازه .

ـ معـــرفة وجوب متواتره .

ـ فى بيان معاضـــدة السنة والكتاب .

ـ معرفة تفســيره .

ـ معرفة وجوه المخاطبات .

ـ بيـــان حقيقته ومجازه .

ـ فى الكنايات والتعريض .

ـ فى أقســـام معنى الكلام .

ـ فى ذكـــر ما تيسر من أساليب القـــرآن .

ـ فى معرفة الأدوات .

ويعلق السيوطى على هـــــذا بقوله : واعلم أنه ما من نوع من هـــذه الأنواع الا ولو أراد الانسان استقصاءه لاستفرغ عمـــــره ثم لم يحكم أمره (٥٩) .

أما المواد الدراسية التى نجمت عن الدراسات القـــرآنيـــة فهى كثيرة أيضا ، ولكن أهمها تركز فى التفسير والقراءات والفقه . وأوجز هنا معنى كل علم من هـــذه العلوم ومكانته ضمن التعليم الدينى فى الأندلس وما ترتب عنه من العلوم الأخرى .

---

(٥٩) السيوطى : احكام القرآن ، جـ ١ ، ص ٦ .

علم التفسير :

وجدت مدرستان من مدارس التفسير فى الاسلام ، الأولى منهما هى مدرسة التفسير بالمأثور ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير النقلى ، الذى يستمد أصوله مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكبار صحابته ، والثانية هى مدرسة التفسير بالرأى ، ونظرية هذه المدرسة كانت تقوم على التفكير العقلى أو الفلسفى ، وكانت تستمد أصولها من الفكر العقلى المتحرر ، وأصحاب هذه المدرسة جلهم من المعتزلة (٦٠) .

والمدرسة التى سادت فى الأندلس هى المدرسة الأولى مع التذكير بوجود بعض بذور المدرسة الثانية ، وأشهر مفسريها ابن عباس وهو أول من وضع تفسيرا للقرآن الكريم ، مرتبا حسب السور والآيات — والسدى المتوفى ١٢٧هـ / ٤٧٦م ، وقد اعتمد تماما على ابن عباس — ومقاتل بن سليمان الأسدى المتوفى ١٥٠هـ/٧٦٧م ، ثم تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ، ويقع فى ثلاثين مجلدا حسب طبعة القاهرة ١٩٠٤م .

وأشهر المفسرين فى الأندلس ، بقى بن مخلد المتوفى٢٧٦هـ/٨٨٩م، ويقول ابن حزم عنه ما يلى :

وفى تفسير القرآن كتاب أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد فهو الكتاب الذى أقطع قطعا ، لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الاسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره (٦١) .

ويذهب ابن حزم لأبعد من هذا حيث يقرر أن قواعد ابن مخلد صارت أسسا للاسلام وأنه أصبح صاحب مذهب خاص لا يقلد فيه

---

(٦٠) عبد الشافى غنيم : الحضارة العربية (مجموعة محاضرات بكلية التربية عام ١٩٧٠) .

(٦١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ١٦٢ .

أحدا « صارت تآليف هـذا الامام الفاضـل قواعد الاسـلام ، لا نظير لهـا ، وكان متميزا لا يقلد أحدا ، وكان ذا خاصة من أحمـد ابن حنبل رضى الله عنه » (٦٢) .

وأبو محمد مكى بن أبى طالب المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م ، الذى كتب تفسيره المسمى « الهداية » وهو من عشرة أسفار ، ويعرف أيضـا باسم تفسير القرطبى (٦٣) .

ثم هناك محمد بن عطية الغرناطى (من القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى) ، صـاحب التفسير الكبير ، الذى ينشر حاليا بالمغرب ، ويقول عنه ابن سعيد ما يلى :

ولأبى محمد بن عطية الغرناطى فى تفسير القـرآن الكتاب الكبير الذى اشتهر وطار فى المغرب والشرق ، وصاحبه من فضـلاء المـائة السادسة (٦٤) .

علم القراءات القرآنية :

لقد وجه اهتمام الأندلسيين الأكبر فى مجال الدراسات الدينية الى حفظ القـرآن الـكريم وقراءاته ، ولقد كان من العـادة أن يعـين الأمراء فى المساجد بعض القـراء لكى يقوموا بقـراءة القـرآن فيها ، ومن يقرأ لهم القـرآن فى منازلهم ، وخاصـة فى شهر رمضـان . والموحدون قـد أخـذوا الناس بقراءة حزب من القـرآن يوميا ، بعد صـلاة الصبح ، كمـا أنه أكد على العـوام ومن فى الديار بحفظ أم القـرآن وما تيسر منه ، وألزم نوابه أن يقدموا علمـاء أمنـاء من قبلهم ليعلموا الناس ما ذكـر (٦٥) .

---

(٦٢) انظر نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٥٢ — ١٧٧ وكذلك :
Pellat, Ch. Ibn Hazm bibliographe at apologiste de l'Espagne **musulmane. pp. 53—103.**

(٦٣) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٦٤) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٦٥) المنونى : العلوم والآداب ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

وعلم القراءات من أهم العلوم القرآنية على الاطلاق ، ويرى بعض العلماء أنه فرع من فروع علم التفسير ، بل هو الأساس لذلك العلم لأن التفسير لا يتم الا بصحة القراءة ، كما أن التفسير يتأثر بأسلوب النطق ، وطريقة الرسم ، أى طريقة الكتابة ، وعلى هذا يكون علم القراءات هو المرحلة الأولى ، أو المدخل الصحيح لعلم التفسير ، ولذلك كان اهتمام الأندلسيين بهذا العلم كبيرا لدرجة أنه لم تخل مدينة أو بلدة أو مسجد من مقرىء يقوم بالقراءة الصحيحة للقرآن • ويقول ابن خلدون عن ذلك العلم ما يلى :

« القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتى المصحف وهو متواتر بين الأمة ، الا أن الصحابة رووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة فى بعض ألفاظه وكيفيات الحروف فى أدائها ، وتنوقل ذلك واشتهر ، الى أن استقرت منها سبع طرق معينة ، تواتر نقلها أيضا بأدائها ، واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير ، فصارت القراءات السبع أصولا للقراءة ، وربما زيد بعد ذلك قراءات أخرى لحقت بالسبع ، الا أنها عند أئمة القراءة ، لا تقوى قوتها فى النقل » (٦٦) •

ولا يتسع المجال هنا لحصر قراء الأندلس على مدى القرون الطويلة ، ولكن تكفى الاشارة الى أن كتاب « معرفة القراء الكبار » ، الذى تناول أكبر طبقات القراء فى العالم الاسلامى قد ضم من الأندلسيين ١٢٧ قارئا مشهورا ، وأشير فقط الى بعض المقرئين فى مدن الأندلس المختلفة ، فمن قراء قرطبة مثلا :

عبد الله بن محمد القضاعى الأندلسى ، نزيل بجاية ثم نزيل مالقة ثم نزيل قرطبة ، قدمها باستقدام الحكم المستنصر أمير المؤمنين بالأندلس ، فى حدود خمسين وثلاثمائة (٩٦١م) — قال أبو عمرو

(٦٦) ابن خلدون : المقدمة ، جـ ٣ ، ص ٩٩٤ ، والترجمة الاسبانية ، ص ٧٨٥ •

الدانى ، فأقرأ النـــاس بهـــا بحرف ورش ، وكان ينحو فى قـــراءته ، نحـــو مذهب القرويين والمصريين ، وتوفى عام ٣٧٨هـ / ٩٨٨م [٦٧] .

محمد بن يوسف بن محمد أبو عبد اللـــه الأموى ، كان من أهـــل الضبط والاتقـــان ، والمعرفة بما يقـــرى ، عن نصيب وافر من العربية وعلم الفرائض والحساب .

أقـــرأ الناس بقرطبة فى مسجده بعد سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢ م ، ثم نزح فى الفتنة ، وسكن الثغر ، وأقـــرأ الناس به دهـــرا . ثم رد الى قرطبـــة ، وبهـــا توفى فى عام ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م [٦٨] .

على بن عبد اللـــه بن فرج الطليطلى المتوفى ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، أقـــرأ النـــاس دهرا ، وكان ثقـــة عارفا بالفن ، صالحا واعظا ، قـــدم قرطبـــة ، وتصـــدر بجامعها للاقراء : فأقرأ الناس نحـــو شهرين ، ثم توفى [٦٩] .

محمد بن خير بن عمـــر الأشبيلى المتوفى ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، كان مكثرا للغـــاية ، تصـــدر بأشبيلية للاقراء والتسميع ، وكان قائما على الصناعتين مبرزا فيهما ، نحويا لغـــويا ثقـــة [٧٠] .

يوسف بن عبد الرحمن أبو الحجاج الأشبيلى المقـــرى ، توفى فى حـــدود ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م ، تصـــدر للاقراء بأشبيلية وانفـــرد بعـــلو الاســـناد [٧١] .

محمد بن خلف بن عبد الله بن صاف الأشبيلى المتوفى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، أحـــد الحذاق ، وأقرأ الناس نحوا من خمسين سنة [٧٢] .

---

(٦٧) الذهبى : معرفة القـــراء ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .
(٦٨) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣١١ .
(٦٩) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .
(٧٠) الذهبى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٤٥ .
(٧١) الذهبى : نفس المصـــدر ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .
(٧٢) الذهبى : معرفة القـــراء ، ص ٤٤٢ .

عبد الملك بن مسلمة الأموى الدمشقى ، المتوفى عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، أحد الحذاق ، وتصدر زمانا ببلنسية للاقراء والنحو (٧٣) .

محمد بن أيوب بن محمد بن وهب البلنسى المتوفى ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، لم يكن له فى زمانه بشرق الأندلس نظير ، كان من الراسخين فى العلم ، وصدرا فى المشاورين من الفقهاء ، قد برع فى علم القراءات والعربية والفقه والفتيا ... الخ .

أقرأ القراءات ، ودرس الفقه ، وعلم النحو ، ورحل الطلبة اليه (٧٤) .

محمد بن سعيد بن محمد المراوى المرسى ، توفى عام ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ، أخذ القراءات عن أبى الحسن بن هذيل ، وقال عنه ابن الأبار : كان خيرا فاضلا ، أخذ الناس عنه كثيرا (٧٥) .

محمد بن ابراهيم بن الياس المعروف بابن شعيب اللخمى ، تصدر بجامع المرية لاقراء القرآن والعربية والآداب (٧٦) .

على بن عبد الرحمن بن أحمد الشاطبى المقرى المتوفى ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م ، أقرأ الناس دهرا ، وكان ثقة فيما رواه وتوفى بشاطبة (٧٧) .

محمد بن عبد الرحمن بن عبادة الجيانى المتوفى عام ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، أقرأ الناس بجيان وشاطبة ، قال ابن الأبار : كان مقريا ماهرا (٧٨) .

محمد بن عبد الله بن مالك الطائى ، من أهل جيان ، وتوفى عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، أقرأ القراءات والنحو بجيان وغرناطة (٧٩) .

---

(٧٣) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٢٧ .
(٧٤) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٧٤ .
(٧٥) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٧٣ .
(٧٦) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٥٩ .
(٧٧) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
(٧٨) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٤٢٦ .
(٧٩) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

محمــد بن على بن عبــد الرحمن الأندلسى البياسى ، المتوفى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، ولى قضاء بياسة وخطابتها ، وتصدر للاقراء والتحديث وكان حاذقا بالصناعة مجودا ماهرا (٨٠) .

كما تصدر للاقراء بمالقة أحمد بن محمد بن عبد الله بن العباس ، المتوفى عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م (٨١) .

أحمد بن على بن أحمــد بن زرقون المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، تصدر للاقراء بالجزيرة الخضراء (٨٢) .

ولقــد ازدهرت القــراءات كثيرا فى شرق الأندلس على أيام ملوك الطوائف ، ويحدثنا ابن خلدون عن ذلك قائلا :

ولم يزل القراء يتداولون هــذه القراءات وروايتهــا ، الى أن كتبت العلوم ودونت فكتبت فيما كتب من العلوم ، وصــارت صناعة مخصوصة وعلمــا مفردا ، وتناقله الناس بالمشرق والأندلس ، جيلا بعد جيل ، الى أن ملك بشرق الأندلس مجاهد من موالى العامريين ، وكان معتنيا بهــذا الفن من فنون القــرآن ، لمــا أخــذه به مولاه المنصور بن أبى عامر ، واجتهد فى تعليمه وعرضــه على من كان من أئمــة القراء بحضرته ، فكان سهمه فى ذلك وافرا ، واختص مجاهد بعد ذلك بامارة دانيــة والجزائر الشرقية فنفقت بهــا سوق القراءة لمــا كان هو من أئمتهــا ، وبمــا كان له من العنــاية بسائر العــلوم وبالقراءات خصوصا ، فظهر لعهــده أبو عمرو الدانى وبلغ الغــاية فيها ، وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها ، واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له . ثم ظهر من بعــد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال ، أبو القاسم بن فيرة من أهل شاطبة ، فعمد الى تهذيب ما دونه أبو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كله فى قصيدة لغز فيهــا أســماء القراء بحروف

(٨٠) الذهبى : نفس المصــدر ، ص ٤٦٧ .
(٨١) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ .
(٨٢) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٠٩ .

(أ ب ج د) ، ترتيبا أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها ، فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس (٨٣) .

ولقد كان من الواجب أن يتمتع المقرىء بصفات خلقية عالية ، ومستوى علمى مرتفع ، حتى يثق به الناس وينصتوا اليه ، ولقد حفلت كتب التراجم بالثناء على المقرئين فى الأندلس ، ورفعت بعضهم الى مراكز الصدارة والمشيخة فيقال مثلا عن أبى عمر الطلمنكى المتوفى ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، انه كان رأسا فى علم القرآن ، قراءاته وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ... الخ (٨٤) .

أما عن سليمان أبى القاسم المقرى ، المتوفى ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م ، فقد كان من جلة المقرئين وفضلائهم وأخيارهم ، عالما بالقراءات وطرقها حسن الضبط ثقة دينا (٨٥) .

على بن خلف بن ذى النون الأشبيلى ثم القرطبى ، شيخ القراء بقرطبة ، توفى ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م ، كان من جلة المقرئين وعلمائهم ، ثقة شهر بالخير والزهد والتقلل والصلاح (٨٦) .

خلف بن ابراهيم بن خلف بن سعيد القرطبى المتوفى ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، كان مدار الاقراء عليه بقرطبة ، وكان ثقة صدوقا ، بليغ الموعظة فصيح اللسان ، حسن البيان ، جميل المنظر والملبس (٨٧) .

---

(٨٣) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٤ ، ٩٩٥ .
(٨٤) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٣٠٩ .
(٨٥) الذهبى : معرفة القراء ، ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
(٨٦) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .
(٨٧) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٧٧ .

الحسين بن محمد الحسين بن علي بن غريب الطرطوشي المتوفى ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م — كان رأسا في الاقراء ذا حلقة عظيمة ، وذا صلاح وتلطف ولين (٨٨) .

الحسين بن يوسف بن أحمد بن يوسف المتوفى ٦١٣هـ / ١٢١٦م ، انتهت اليه أستاذية الاقراء ، لاتقانه وتحقيقه ، وتجويده ، وعلو أستاذه وتفنينه ، وذكائه وكان ضريرا (٨٩) .

ولكي نتبين الحساسية التي كان يعامل بها الأندلسيون أساتذة الاقراء ، وعدم تساهلهم معهم حين يجول في صدورهم بعض الشك نحوهم ، نرى ما يقوله ابن الأبار ، عن محمد بن أحمد بن مسعود الشاطبي المتوفى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م ، بأنه لم يأخذ عنه لتسمحه في الاقراء ، والاسماع ، سمح الله له . ويضيف ابن الأبار ، قائلا : رأيت ما يدل على ذلك بخطه ، أن بعض القراء قرأ عليه في ليلة واحدة ختمة برواية نافع (٩٠) .

ويقول ابن بشكوال عن محمد بن المفرج بن ابراهيم البطليوسي المتوفى ٤٩٤هـ/١١٠٠م ، انه كان يكذب فيما ذكره (حين دون أساتذته) ، وقد وقف على ذلك كله أصحابنا ، وأنكروا ما ذكروا .
ويضيف أنه وقعت له بعض القراءات عن طريق هذا لكن باسناد واه (٩١) .

وعن منصور بن الخير أبو علي المالقي المتوفى ٥٢٦هـ/١١٣٢م ، يقول ابن بشكوال ، سمعت بعض شيوخنا يضعفه ، وتوفي بمالقة وقرأ عليه خلق (٩٢) .

---

(٨٨) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٤٢ .
(٨٩) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٤٧٨ .
(٩٠) الذهبي : معرفة القراء ، ص ٤٨٨ . نقلا عن ابن الابار .
(٩١) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٦٨ .
(٩٢) الذهبي : نفس المصدر ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

ولقــد ألف الأندلسيون فى هــذا العلم كثيرا ، وأشير الى بعض مؤلفيهم للدلالة فقط :

العاص بنخلف بن محمد الأشبيلى ، المتوفى ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ، صنف كتاب التذكرة فى القراءات السبع وكتاب التهذيب (٩٣) .

أحمد بن محمــد بن سعيد بن حرب ، توفى فى حدود ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، صنف كتاب التقريب فى القراءات السبع ، وتصدر للاقراء بأشبيلية (٩٤) .

محمد بن محمــد بن عبد الله بن معاذ الأشبيلى ، المتوفى عام ٥٥٣ هـ / ١١٣٨ م ، كان اماما فى صناعة الاقراء ، مشاركا فى العربية له كتاب فى القراءات سماه كتاب « الايماء » (٩٥) .

أحمد بن محمــد القيسى القرطبى ، تصدر للاقراء والعربية ، واختصر كتــاب التبصرة لمــكى فى القــراءات ، وتوفى ســـنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م (٩٦) .

وأختتم بالعالم الأندلسى الكبير ، محمد بن يوسف بنعلى بنحيان أثير الدين أبو حيــان الأندلسى الجيانى الغرناطى المتوفى بالقــاهرة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ، الذى كانت له اليــد الطولى فى الفقــه والآثار والقراءات واللغات ، وله مصنفات فى القراءات والنحو ، وهو مفخرة أهل مصرنا فى وقتنا فى العلم (٩٧) .

لقد نبغ الأندلسيون كثيرا فى هذا العلم ، حتى أننا نجد أسماءهم تلمع فى كثير من مناطق العــالم الاسلامى ، ومن ضمنها مدنه الزاهرة مثل بغداد أو القاهرة فيقال عن اليسع بن عيسى بن حزم أبو يحيى

---

(٩٣) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٧٣ .
(٩٤) الذهبى : نفس المصــدر ، ص ٣٩٧ .
(٩٥) الذهبى : معــرفة القــراء ، ص ٤٢٥ .
(٩٦) الذهبى : نفس المصــدر ، ص ٥١٣ .
(٩٧) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٥٧٧ .

الغافقى الأندلسى الجيانى ، المتوفى ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، بأنه رحـل فسكن الاسكندرية ، وأقرأ بهـا ثم رحـل الى مصر ، فاشتمل عليه الملك الناصر صلاح الدين ، ورتب له معلوما وافرا ٠ وكان صلاح الدين يكرمه ، ويشفعه فى مطالب الناس ، لأنه كان أول من خطب على منابر العبيدية عند نقـل الدعوة العباسية ، تجاسر على ذلك حـين تهيبه سواه (٩٨) ٠ وفى ذلك الخبر أهمية كبرى ، لاظهاره حرص الأندلسيين على السنة ، وسعيهم الى نشرها ، ومقاومتهم للأفكار الشيعية ٠

القاسم بن فـيرة بن خلف الشاطبى الضرير ، المتوفى ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ، استوطن مصر واشتهر اسمه ، وبعد صيته ، وقصده الطلبة من كل النواحى ، وكان **اماما علامة ، ذكيـا كثير الفنـون** منقطـع القرين ، رأسا فى القراءات ، حافظا للحديث ، بصيرا بالعربية ٠

تصدر للاقراء بمصر ، فعظم شأنه ، وبعد صيته ، وانتهت اليه الرياسة فى الاقراء ، وتصدر للاقراء بالمدرسة الفاضلية (٩٩) ٠

القاسم بن أحمد بن الموفق المرسى المتوفى ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ، فلقد أقرأ بالتربة العادلية بالقـاهرة (١٠٠) ٠

على بن أحمـد بن جبير القرطبى المتوفى ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م ، أقام تسعة أشهر يقرى ببيت المقـدس (١٠١) ٠

عتبة بن عبد الملك بن عاصـم الأندلسى ، نزيل بغـداد ، توفى ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، كان موصـوفا بالدين والصـلاح ، ومعـرفة القراءات ، عالى الاسناد ، عديم النظر (١٠٢) ٠

---

(٩٨) الذهبى : نفس المصـدر ، ص ٤٣٧ ٠
(٩٩) الذهبى : معـرفة القـراء ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ٠
(١٠٠) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٥١٦ ٠
(١٠١) الذهبى : نفس المصـدر ، ص ٤٣٨ ٠
(١٠٢) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٣٢٩ ٠

الحسين بن عبد العــزيز البلنسى ، المتوف ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ، كان يكتب المصاحف ، سكن تونس وأقرأ القراءات (١٠٣) .

ابراهيم بن محمد بن عبــد الرحمن الأندلسى الأشبيلى المتوف عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ، كان اماما مجــودا فى معرفة وجوه القراءات وعللها ، كثير الترحال والتنقل ، أقرأ بالموصل والشام (١٠٤) .

ولعله تجــدر الاشــارة الى ما يقال عن المقــرى البلنسى على ابن محمد بن على بن هذيل المتوف ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م ، من أنه كانت له ضيعة يخــرج لتفقدها فتصحبه الطلبة ، فمن قارىء ومن سامع ، وهو منشرح لذلك ، طويل الاحتمال على فرط ملازمتهم له ليلا ونهارا ، انتهت له رياسة الاقراء عامة عمره ، لعلو روايته وامامته فى التجــويد والاتقان (١٠٥) .

الفقــــه :

يتحــدث ابن خلدون عن علم الفقه قائلا : الفقه معرفة أحكام اللــه تعالى فى أفعال المكلفين ، بالوجوب والحظر والندب ، والكراهة والاباحة ، وهى متلقاه من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة ، فاذا استخرجب الأحكام من تلك الأدلة قيل لهــا فقه ، وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيمــا بينهم ، ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبهــا من النصوص وهى بلغــة العــرب ، وفى اقتضــاءات ألفاظهــا لكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف ، وأيضا السنة مختلفة الطرق فى الثبوت وتتعارض فى الأكثر أحكامها ، فتحتاج الى الترجيح وهو مختلف أيضــا ، والأدلة من غير النصوص مختلف فيها . وأيضــا فالوقائع المتجــددة لا توف بهــا النصوص ، وما كان منها غير ظاهر فى النصوص فيحمل على منصوص

---

(١٠٣) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤٩٥ .
(١٠٤) الذهبى : معرفة القــراء ، ص ٥٢٢ .
(١٠٥) الذهبى : نفس المصدر ، ص ٤١٧ .

لمشابهة بينهما ، وهــذه كلها مثارات للخلاف ضرورية الوقوع ، ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والأئمة من بعدهم •

ثم أن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم ، وانما كان ذلك مختصا بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ، ومتشابهــه ومحكمــه ، وسائر دلالته ، بمــا تلقوه عن النبى صلى اللــه عليه وسلم أو ممن سمعه منه من عليتهم ، وكانوا يسمون لذلك القراء أى الذين يقرءون الكتاب ، لأن العرب كانوا أمة أمية ، فاختص من كان منهم قارئا للكتاب بهذا الاسم . لغرابته يومئذ ، وبقى الأمر كذلك صــدر الملة •

ثم عظمت أمصار الاســلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط ، وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلما ، فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء ، وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة أهل الرأى والقياس ، وهم أهل العراق ، وطريقة أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز ، وكان الحديث قليلا فى أهل العراق لمــا قدمناه ، فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه ، فلذلك قيل أهل الرأى ، ومقدم جماعتهم الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه أبو حنيفة ، وأما أهل الحجاز ، فرأسهم مالك بن أنس والشافعى من بعده (١٠٦) •

ويرجع المستشرق الأسبانى أنخيل غونثالث بالنسيا ظهور الفقه الى اتســاع الاســلام وانتشاره من أسبانيا الى سمرقند واحتياج المسلمين الى معالجة قضايا شعوب ذات أصول متباينة ، وظهور قضايا لم يتعرض لهــا القرآن ولم ترد فى الســنة ، ومن هنــا كان لجــوء المسلمين الى الرأى والى القياس والى الاجماع ، قائلا ان أول المذاهب الفقهية ولد مع أبى حنيفة المتوفى عام ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ويصفه بأنه كان تحرريا فلسفيا وأنه أخضــع نصــوص القرآن للمنطق والحدس

---

(١٠٦) ابن خلدون : المقدمة ، جـ ٣ ، ص ١٠١١ — ١٠١٣ •

العقلى مائلا الى الاستحسان (١٠٧) .

ثم جاءت مدرســة مالك بن أنس المتوفى ١٧٩ هـ / ٧٩٥ ، وهى مدرســة جمعت بين التقليد عند الأوزاعى المتوفى ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م ، وحرية الرأى ، عند أبى حنيفــة معطيا الأهميــة الأولى للقــرآن والحــديث (١٠٨) .

ثم ظهرت الشــافعية التى توفى مؤسسها ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، ثم بعدها مدرسة أحمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م (١٠٩) .

وحيث أنه ليس من غرضنا التأريخ للمذاهب الفقهيــة ، فلننتقل الى الأندلس التى ساد فيها المذهب المــالكى ، وسبق لنا الاشارة الى انتشار هــذا المذهب فى الأندلس عند حديثنا عن عصر الأمير هشــام فى فصل « الدولة والتعليم » (١١٠) .

عكف الأندلسيون على دراسة المذهب المــالكى ، وانتشرت بينهم كتبه ومؤلفاته وخاصة موطأ مالك الذى أدخله الغازى بن قيس المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٤ م (١١١) ، فيقــال مثلا عن عبد الملك بن حبيب المتوفى ٢٣٨هـ / ٨٥٢م ، أنه كان يخرج من الجامع ، وخلفه نحو من ثلاثمائة ، بين طالب حديث وفرائض وفقــه واعراب ، وقــد رتب الدول عليه كل يوم ٣٠ دولة ، لا يقرأ عليه فيها شيئا الا كتبه وموطأ مالك (١١٢) .

(107) Gonzàlez Palencia : Ha de la literatura, p. 271.

(108) Gonzàlez Palencia : op. cit., p. 271.

(١٠٩) سعيد غراب : المذهب المــالكى عنصر ائتلاف فى المغــرب الاسلامى ، ص ٢٣٧ .

(١١٠) راجع فى انتشار المذهب المــالكى فى الأندلس المصــادر التى اوردتها عند تناولى لهــذا الموضوع .

وانظر : الملاحظات القيمة التى أوردها الاســتاذ ســعد غراب فى مقالته عن المذهب المــالكى عنصر ائتلاف ، ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

(١١١) ابن فرحون : الديباج ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

السيوطى : بغيــة الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٠ .

(١١٢) ابن فرحون : الديباج ، جـ ٢ .

وألف الأندلسيون كتبــا كثيرة جــدا فى الفقه المــالكى أهمهــا الواضحة لابن حبيب ، ثم المستخرجة أو العتبيـــة ، للعتبى المتوفى ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، ومن المستحيل حصر المؤلفات الأندلسية فى هــذا المجال أو حصر أشهر علماء الأندلس المــالكيين (١١٣) .

ومن دلائل اهتمام الأندلسيين بالفقه المــالكى ، أنهم كانوا أحرص عليه من علمــاء أى اقليم اســلامى آخر ، ويمكن لنا أن نتبين ذلك اذا وضعنا فى الاعتبار تلك الترجمــة الصغيرة التى أوردها الغبرينى فى دراسته لمدونة سحنون ، فنجد أن سلسلة الرواية من سحنون الى الغبرينى تمر عبر ثمانية أساتذة كلهم ، ما عدا الأخير ، من الأندلسيين وهم كالتــالى :

١ ــ عبد السلام بن سعيد التنوخى (سحنون)
١٦٠ ــ ٢٤٠ هـ / ٧٧٦ ــ ٨٥٤ م .

٢ ــ محمــد بن وضاح
١٩٩ ــ ٢٨٦ هـ / ٨١٥ ــ ٨٩٩ م .

٣ ــ محمد بن عبد الله بن أبى دليم
توفى ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م .

٤ ــ عبد الوارث بن سفيان
٣١٧ ــ ٣٩٥ هـ / ٩٢٩ ــ ١٠٠٤ م .

٥ ــ أبو عمر أحمد بن محمد بن الحذاء .
٣٨٠ ــ ٤٦٧ هـ / ٩٩٠ ــ ١٠٧٤ م .

٦ ــ يونس بن الصـــفار
٤٤٧ ــ ٥٣٢ هـ / ١٠٥٥ ــ ١١٣٧ م .

---

(١١٣) ارجع الى كتاب ترتيب المدارك للقــاضى عياض ، او الديباج لابن فرحون .

٧ — محمد بن عبيد الله الحجـرى
٥٠١ — ٥٩١ هـ / ١١١١ — ١١٩٥ م .

٨ — أبو بكر محمد بن محرز
٥٦٩ — ٦٥٥ هـ / ١١٧٣ — ١٢٥٥ م .

٩ — عبد العزيز بن عمر القيسى (أفريقى)
٦٠٢ — ٦٨٦ هـ / ١٢٠٥ — ١٢٨٧ م .

١٠ — أبو العباسى الغبرينى (أفريقى)
٦٤٤ — ٧١٤ هـ / ١٢٦٦ — ١٣١٥ م (١١٤) .

ولقـد اعتمـد الأندلسيون فى أول الأمر على دراسـة المصادر الرئيسية فى الفقه ، وخاصة موطأ مالك ، ومدونة سحنون ، والواضحة لابن حبيب ، والعتبية للعتبى ... الخ ، ولقـد سـبق لى أن أشرت الى أنه فى صـلاة الجمعة كان يأتى الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ثلاثمائة فقيه مقلص من قرى قرطبة لأداء صـلاة الجمعـة ولم يكن يلبس القالص من الفقهاء الا من كان يحفظ موطأ مالك (١١٥) ، ثم بعد ذلك انتقلوا الى الشروح والمختصرات ، وانخفض بذلك مسـتواهم العلمى ، ولعل ذلك هو السبب ، فى أن الطرطوشى (٤٥١ — ٥٢٥ هـ / ١٠٥٩ — ١١٣٠) اتهمهم بالجهـل حـين طلب منه تلميـذه أبو بكر ابن العربى أن يرحل الى الأندلس ، فأجابه لا أحب أن أدخل بلدا غلب عليه كثرة الجهل ، وقلة العقل (١١٦) . ولقـد أورد لنا المقرى نصا ، يصف فيه هـذه الحالة ، على النحو التالى :

---

(١١٤) أعد هـذا التسلسل الأسـتاذ الدكتـور خوسيه ماريا فورنياس ، الأستاذ بجامعة غرناطة ، ضمن بحث لم ينشر بعد عن انتشار المدونة فى الأندلس ، والقى البحث فى الملتقى الأسـبانى التونسى الرابع الذى عقد بجزيرة ميورقة فى المدة من ٣٠ اكتوبر الى ٦ نوفمبر ١٩٧٩ م . وأنظر الغبرينى : عنوان الدراية ، ص ٣٧٥ .

(١١٥) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤٥٨ (طبعـة احسان عباس) .

(١١٦) الطالبى : آراء ابى بكر بن العربى الكلامية ، ص ٥٨ .

فلقد تركوا كتب البراذعى على نبلها ، ولم يستعمل منهـا على كره من كثير منهم غير « التهـذيب » الذى هو المدونة اليوم لشهرة مسائله وموافقته فى أكثر ما خلف فيه المدونة لأبى محمد (سحنون) ، ثم كل أهل هذه المـائة عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات ، وشق الشروح والأصول الكبار ، فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حظه وأفنو أعمارهم ، فى فهم رموزه ، وحل لغوزه (١١٧) .

وظلت دراسات المذهب المـالكى فى الأندلس حتى نهـاية الدولة الاسلامية ، وبرز خلال هذه الفترة عدد جم من كبار الفقهاء والمعلمين ، ويقـول ابن الخطيب ضمن حديثه عن مملكة غرناطة ، ان « مذاهبهم على مذهب مالك بن أنس ، امام دار الهجرة ، جارية » (١١٨) .

ويقول المقرى عن أهل الأندلس ، انهم « لا مذهب لهم الا مذهب مالك ، وخواصهم يحفظرن من سـائر المذاهب ما يباحثون به بمحضر من ملوكهم ذوى الهمم فى العلوم ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذى يريدون تنويهـه بالفقيه ، وهى الآن بالمغرب بمنزلة القاضى بالمشرق ، وقـد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى فقيه لأنها عندهم أرفع السمات (١١٩) .

ولقد شهدت أسبانيا الاسلامية المذاهب الفقهية الأخـرى بكافة مدارسها ، ولقـد كانت قبل انتشـار المـالكية (١٢٠) ، مقرا لمذهب الأوزاعى . وعاصر الفكر المـالكى الشافعى أيضا ، ولقـد ظهر هـذا الفكر فى الأندلس مبكرا جـدا ، ثم انهـا ازدهرت بهـا أحيـانا دراسات المذهب الظاهرى الذى كان من أبرز رجاله فى الأندلس القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة على عهد عبد الرحمن الناصر ،

---

(١١٧) المقرى : النفح ، جـ ٥ ، ص ٢٧٦ (تحقيق احسان عباس) .
(١١٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .
(١١٩) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .
(120) Gonzàlez Palencia : Ha. de la literatura, A.E., 6,7.

وابن حزم الظاهرى على عهد ملوك الطوائف ، أما الفكر الشيعى فقد وجد له منفذا أيضا على الأرض الأسبانية ، وأشير فى هذا المجال الى دراسة الدكتور محمود على مكى (١٢١) ، حيث أنه ليس من هدفنا هنا ، التأريخ للمذاهب التشريعية أو الفقهية فى الأندلس .

علم الحديث :

يعتبر علم الحديث المصدر الثانى من مصادر التشريع الاسلامى وهو الى جانب ذلك يعتبر أحد أعمدة الحياة الفكرية الاسلامية ، وأحد مناهل الثقافة الاسلامية عامة ، فلقد أدى الاهتمام بعلم الحديث الى تعدد أساتذته ومدارسه فى مختلف مراكز الحياة الفكرية فى العراق ، كالكوفة والبصرة ، وفى الشام كصور وأنطاكية وصيدا وبيروت ودمشق وحمص ، وفى مصر كالفسطاط والاسكندرية ، وفى أفريقية كالقيروان وتونس وفاس ، وفى الأندلس كقرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية ، وفى صقلية كبالرموا وسراقوسة وغير ذلك من منارات الحياة الفكرية العربية .

والحديث هو كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من قول أو فعل أو تقرير شىء رآه ، وهو يأتى فى الأهمية بعد القرآن الكريم ، وذلك أن كثيرا من الآيات القرآنية جاءت مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء قول الرسول أو عمله فبينها أو قيدها أو خصصها .

وكان الصحابة المعاشرون للنبى يسمعون منه ويشاهدون فعله ، ثم يروون ما يرون وما يسمعون ، ثم جاء التابعون من بعدهم فعاشروا الصحابة وسمعوا منهم ورأو ما فعلوا ونقلوا عنهم كل هذا . ومن هذا كله نشأ علم الحديث . ويرى أستاذى الدكتور عبد الشافى غنيم ، أنه اذا كان القرآن الكريم قد نجا من كل ادخال أو تغيير ، الا أن

(١٢١) محمود على مكى : التشيع فى الاندلس ، مجلة المعهد المصرى بمدريد — ١٩٥٤ ، ص ٩٣ — ١٤٥ .

الحديث كان على العكس من ذلك حيث تعرض لكثير من عوامل الصناعة والخلق والاضافة مما جعل عمليـــة التعرف على الصحيح من المدسوس عمــلا لا يطيـــقه الا الراســخون فى العــلم ، المتضلعون فى النقد ، العارفون بتاريخ السير والأحداث والقدرة على تقييم المحــدثين من النساء والرجال ، ويرجــع السبب فى تعــرض الحــديث للكثــير من الادخال والزيف الى العوامل التالية :

١ ـــ تأخر تدوين الحديث ، حيث أنه لم يدون الا فى القرن الثانى من الهجـــرة .

٢ ـــ الخصومات السياسية التى نشـــأت فى الدولة الاســـلامية ومحاولة كل طرف الحصول على نص من الحديث يؤيد موقفه .

٣ ـــ الاسرائيليات ، ولقد لعب اليهـــود دورا بارزا فى هـــــذا المجـــال وذلك لتحقيق أغراضهم الخاصة .

٤ ـــ الخلافات الكلامية والفقهية .

٥ ـــ محاولات استرضاء أولى الأمر (١٢٢) .

ويرى صاحب كتـــاب « خلاصـــة تهذيب تهذيب الكمال » أنه فى أواخر عصر التابعين ، حين انتشر العلمـــاء فى الأمصار ، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ، دونت الأحاديث ممزوجة بأقوال الصحابة والتابعين (١٢٣) .

ونتيجة لذلك كلـــه فان العلوم المتشعبة عن الحديث كانت أيضا كثيرة جـــدا . وأستخلص مما كتبه ابن خلدون عن هـــذه العلوم ، الدراسات التالية :

---

(١٢٢) عبد الشافى غنيم : محاضرات فى الحضــــارة العربيـــــة (الحديث) .

(١٢٣) الخزرجى : خلاصة تهذيب تهذيب الكمال ، ص ٧ .

الناسخ والمنسوخ ، وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها (١٢٤) .

النظـر فى الأسانيد .

معرفة شروط السـند .

معرفة رواة الحـديث .

مراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك .

الألفـاظ ، الصـحيح والحسن والضعيف والمرسـل والمنقطع والشاذ والغريب .

الخلافات بين أئمـة الشأن .

الوفاق بين أئمـة الشأن ، وغير ذلك من الألقاب .

كيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض : قراءة أو كتـابة أو مناولة أو اجازة ، وتفاوت رتبها .

أحوال النقلة ... الخ (١٢٥) .

ولقد وضع المسلمون شروطا كثيرة لمن يقومون برواية الحديث ، أو الاشتغال بعلومه ، ووضعوا فى ذلك المؤلفـات الكثيرة (١٢٦) .

ومن ناحية أخرى ، فان علم الحديث قـد وضع الأساس ، أو أنه كان السبب الرئيسى فى حركة الرحلات التى تميزت بها الحياة العلميـة فى العصور الوسطى ، حيث أن الصحابة والتابعن ومن تبعهم بعد ذلك كانوا قـد تشتتوا فى الأمصار ، كل منهم يحمل فى صدره ما قـد وعاه عمن قبله ، وحين اتجهت جهـود المسلمين لتدوين الحـديث ، كان من

---

(١٢٤) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ .

(١٢٥) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٩٩٩ — ١٠١١ .

(١٢٦) اليحصبى : الالمـاع فى معرفة الرواية وتقييد السماع .
البغدادى : الكفاية فى علم الرواية .
ابن حجر : الاصابة فى تمييز الصحابة .
الزمخشرى : الفائق فى غريب الحديث .
ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .
صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه .

الضرورى التنقل من مكان الى آخر للقاء هؤلاء الذين يحفظون الأحاديث ويقومون بتدوينها عنهم .

ويرى الدكتور صبحى الصالح أن هذه الرحلات قد وثقت الأواصر بين بلدان العالم الاسلامى ، وأن ذلك أمر واضح تفرضه طبائع الأشياء ، وما كانت النتيجة لتتم على غير هذه الصورة ، لأن طواف الكثير منهم بالأقاليم ربط بين المشرق والمغرب ، وألغى السدود والحدود ، وجعل هذا العالم الاسلامى أشبه بالمدينة الواحدة (١٢٧) .

بذل المسلمون جهودا جبارة فى سبيل تدوين الحديث وتنقيحه وكتبوا فى ذلك مؤلفات لا تحصى ، لكن أشهر الكتب التى وضعت فى ذلك المجال هى المؤلفات الست التى تعتبر من أهم المصادر الموثوق بها فى دراسات الحديث النبوى وهى :

١ ــ صحيح البخارى ، وقام بوضعه محمد بن اسماعيل البخارى ، واشتمل كتابه على سبعة آلاف ومائتى حديث .

٢ ــ صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج القشيرى .

٣ ــ سنن أبى داود السجستانى .

٤ ــ جامع التفسير لأبى عيسى محمد الزندى .

٥ ــ تفسير النسائى .

٦ ــ سنن ابن ماجة .

وأخيرا علينا أن لا ننسى أن علم الحديث هو الذى خلق فكرة الاجازة ، وذلك لتشددهم فى عملية النقل والرواية .

هذا ولقد بدأت دراسات الحديث فى الأندلس منذ عهد مبكر جدا حيث أنهم قد عرفوا قيمة هذه المادة العلمية واعترفوا بحقها يقول ابن عبد البر القرطبى المتوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م :

---

(١٢٧) صبحى الصالح : علم الحديث ومصطلحه ، ص ٥٠ ، ٥١ .

ان أول ما نظر فيه الطالب ، وعنى به العالم ، بعد كتاب الله عز وجل ، سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهى المنبئة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه والدالة على حدوده والمفسرة له والهادية الى الصراط المستقيم (١٢٨) .

وليس من السهل الاشارة الى أشهر المحدثين الأندلسيين ونكتفى ببعضهم فقط :

بقى بن مخلد المتوفى ٢٧٦هـ / ٨٨٩م ، وهو الذى ملأ الأندلس حديثا ورواية ، ولقد ووجه بمقاومة شديدة من علماء الأندلس حيث أنكروا عليه ما أدخله الأندلس من كتب الاختلاف وغرايب الحديث ، وأغروا به السلطان ، وأخافوه به ، ثم أن الله بمنه وفضله أظهره عليهم ، وعصمه منهم ، فنشر حديثه وقرأ للناس روايته ، فمن يومئذ انتشر الحديث فى الأندلس . ثم تلاه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث واسناد ، وانما كان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١٢٩) ، ورغم تلك الأهمية الكبرى التى لبقى بن مخلد فى دراسات الحديث وانتشاره فى الأندلس الا أن المستشرق الأسبانى أنخيل غونثالث بالنسيا لم يذكره عند حديثه عن أئمة المحدثين فى الأندلس (١٣٠) . هذا ولقد وصل بقى بن مخلد الى درجة عالية من الشهرة وسعة العلم ، حتى كان يقال فى المشرق : وهل احتاج بلد فيه بقى بن مخلد ، أن يأتى الى هنا منه أحد ؟ وحملت تصانيفه فى الحديث الى المشرق فاعترف بفضلها وقيمتها (١٣١) .

محمد بن وضاح المتوفى ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ، الذى رحل الى المشرق مرتين ، ولقى من العلماء ١٧٥ رجلا ، وكان عالما بالحديث ، بصيرا

---

(١٢٨) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، ص ٢ .
(١٢٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ٩١ — ٩٣ .
الأوسى : فصول فى الأدب الأندلسى ، ص ٤٦ .
(130) Gonzalez Palencia, A. : **Ha. de la Literatura,** p. 263
(١٣١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ٩٢ .

بطــرقه ، متكلمــا على علله ، وبه وببقى بن مخــلد صارت الأندلس دار حديث (١٣٢) .

قاسم بن أصبغ (٢٤٤ — ٣٤٠ هـ / ٨٦١ — ٩٥١ م (١٣٣) .

محمــد بن عبد الســلام الخشنى (٢١٨ — ٢٨٦هـ / ٨٣٣ — ٨٩٩م) ، الذى عاد الى الأندلس بكثير من الكتب الجــديدة ، كان معظمها فى علم الحديث . يقول عنه السيوطى : انه أدخل الأندلس كثيرا من حديث الأئمــة (١٣٤) .

ومن محدثى الأندلس المشــهورين ابن القوطية المتــوفى ســنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م (١٣٥) .

ويعد ابن عبد البر القرطبى المتــوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م من أكبر المحدثين فى غرب الاسلام حسب شهادة ابن بشــكوال وعلى الرغم من أنه لم يرحل الى المشرق ، الا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون ضليعا فى الفقه والأنساب والأخبار (١٣٦) ، ومن أشهر مؤلفاته فى هــذا المجــال « الاستيعاب » و « التمهيد » (١٣٧) .

هذا ولقد أورد المستشرق الأسبانى انخيل غونثالث بالنسيا لائحة بأســماء أشــهر المحدثين فى الأندلس (١٣٨) .

---

(١٣٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٥ — ١٧ .
(١٣٣) ابن ماكولا : الاكمال ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
(١٣٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٤ .
السيوطى : بغيــة الوعاة ، ج ١ ، ص ١٢٧ .
الأوسى : فصول الأدب الأندلسى ، ص ٤٦ .
(١٣٥) ابن الفرضى : علمــاء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ .
Gonzàlez, P. A. : Historia de la Literatura, 263.
(136) Gonzalez, P., A. : op. cit., p. 264.
(١٣٧) ابن عبد البر : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .
ابن عبد البر : التمهيد لمــا فى الموطأ من المعــانى والأسانيد .
(138) Gonzalez Palencia, A. : **Ha da la literatura, 263 , 264.**
وترجمة حسين مؤنس ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

علم الكلام :

يحدد ابن خلدون هـذا العلم فيقول : انه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانيـة بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحـرفين فى الاعتقاد عن مذاهب السلف وأهل السنة (١٣٩) ، أما كيف وجد هـذا العـلم وكيف خلق فيقول :

اعلم أن الشارع لمـا أمرنا بالايمـان بهـذا الخـالق الذى رد الأفعال كلهـا اليه ، وأفرده به كما قدمناه ، وعرفنا أن فى هـذا الايمان نجاتنا عند الموت اذا حضرنا ، ولم يعرفنا بكنه حقيقة هـذا الخـالق المعبود ، اذ ذاك متعذر على ادراكنا ، ومن فوق طـورنا ، فكلفنا أولا اعتقاد تنزيهه فى ذاته عن مشابهة المخلوقين ، والا لمـا صح أنه خالق لهم لعـدم الفارق على هـذا التقدير ، ثم تنزيهه عن صفات النقص والا شابه المخلوقين ثم توحيده بالايجاد والا لم يتم الخلق للتمانع ، ثم اعتقاد أنه عالم قادر فبذلك تتم الأفعال شاهد قضيته لكمال الايجاد والخلق ، والا لم يتخصص شى من المخلوقات ، ومقـدر لكل كائن والا فالارادة حادثة ، وأنه يعيدنا بعد الموت ، تكميلا لعنايته بالايجاد الأول ، ولو كان للفنـاء الصرف كان عبثا ، فهو للبقاء السرمدى بعـد الموت ، ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هـذا المعاد لاختلاف أحواله بالشقاء والسعادة ، وعدم معرفتنا بذلك وتمـام لطفه بنـا فى الايتاء بذلك ، وبيـان الطريقين ، وأن الجنة للنعيم وجهنم للعذاب .

هـذه أمهات العقائد الايمانيـة معللة بأدلتها العقلية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة ، وعن تلك الأدلة أخذها السلف وأرشـد اليهـا العلمـاء ، وحققها الأئمـة .

الا أنه عرض بعد ذلك خلاف فى تفاصيل هـذه العقائد أكثر مثارها من الآى المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل

(١٣٩) ابن خلدون : المقـدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٣٥ ، والترجمـة ، ص ٨٣٤ .

زيادة الى النقل فحدث بذلك علم الكلام (١٤٠) .

وفى القرون الأولى من الاسلام ، قام السلف بقراءة آيات القرآن، وآمنوا بهـا كما هى ، ولم يتعرضوا لمعناها ببحث أو تأويل ولكن عندما كثرت العـلوم والصنائع ، وولع النـاس بالتدوين والبحث فى سـائر الأنحـاء ، حدثت بدعة المعتزلة ، وقالوا بخلق القـرآن ، وناظـروا فى كل شىء ، وخالفوا الأوائل ، وساندهم بعض الخلفاء العبـاسيين فى المشرق ، وحدثت فتن كثيرة ، كما سالت دماء غزيرة فى هـذا المجـال .

وتولى الأشعرية الرد على المعتزلة حتى تمكنـوا من القضـاء عليهم تماما .

فى أسبانيا الاسلامية ، تسربت آراء المعتزلة ، وظهر ابن مسرة القرطبى الذى ترك مدرسـة كاملة (١٤١) . وقـد سبق لى الحـديث عن موقف الدولة من هـذه الأفكار ، فى الفصـول السابقة ، وأود أن أؤكد هنـا أن الدراسات الكلامية لم تنتشر فى الأندلس انتشار غيرها من العـلوم ، وأورد هنا هـذه القصة التى تعبر تعبـيرا صادقا عن موقف أهل الأندلس ، من علم الكلام :

أحمد بن محمد بن سعدى أبو عمر ، فقيـه فاضـل محـدث رحل قبل الأربعمائة بمدة فلقى أبا محمد بن أبى زيد القيروانى وأبا بكر محمد بن عبد اللـه الأبهرى بالعـراق وغيرهما ، ورجع الى الأندلس وحدث . قال عبد اللـه بن الوليـد : سـمعت أبا محمد عبد اللـه ابن أبى زيد يسأل أبا عمر أحمـد بن محمد بن سـعدى المـالكى عند وصوله الى القيروان من ديار المشرق — وكان أبو عمر دخل بغـداد

(١٤٠) ابـن خلدون : المقـدمة ، ج ٣ ، ص ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، والترجمـة ، ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

(141) Asin Palacios, : Ibn Masarra y su Escuela.
Gonzalez, p., A. : Ha de la Literatura, p. 232.

فى حيـاة أبى بكر محمد بن عبد اللـه بن صالح الأبهرى ، فقـال له يوما : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال بلى ، حضرتهم مرتين ثم تركت مجالستهم ولم أعد اليها فقـال له أبو محمد : ولم ؟ قال : أما أول مجلس حضرته فرأيته مجلسا قـد جمع الفرق كلهـا المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسـائر أجنـاس الكفر ، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبـه ، ويجـادل عنه ، فاذا جاء رئيس من أى فرقة كان ، قامت الجماعة اليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسون بجلوسه ، فاذا تمضى المجلس بأهله ، ورأوا أنه لم يبق لهم أحد ينتظرونه ، قال قائل من الكفار : قـد اجتمعتم للمناظرة ، فلا يحتج علينا المسلمون بكتابهم ولا بقـول نبيهم فانمـا لا نصدق ذلك ولا نقربه ، وانما نتناظر بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، فيقولون نعم لك ذلك .

قال أبو عمر : فلما سمعت ذلك لم أعد الى ذلك المجلس ، ثم قيل لى ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت اليه فوجدتهم على مثل سـيرة أصحابهم ، سواء ، فقطعت مجالس أهل الكلام فلم أعد اليها ، فقـال أبو محمد بن أبى زيد : ورضى المسلمون بهذا من القـول والفعـل ؟ قال أبو عمر : هـذا الذى شاهدت منهم ، فجعل أبو محمد يتعجب من ذلك وقال : ذهبت العلماء ، وذهب الاسـلام وحقوقه ، وكيف يبيح المسلمون المناظرة بين المسلمين وبين الكفار ، وهـذا لا يجوز أن يفعل لأهل البـدع الذين هم مسلمون ويقرون بالاسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، وانمـا يدعى من كان على بدعـة من منتحلى الكلام الى الرجوع الى السنة والجماعة ، فان رجـع قبل منـه ، وان أبى ضرب عنقه ، وأما الكفار فانما يدعون الى الاسلام ، فان قبلوا كف عنهم وان أبوا وبذلوا الجـزية فى موضع يجوز قبولها ، كف عنهم ، وقبل منهم . وأما أن يناظـروا على ألا يحتج عليهم بكتابنـا ولا بنبينا ، فهـذا لا يجوز ، فانا للـه وانا اليـه راجعون .

أخبرنى غير واحد من أشياخى ، منهم القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد والزاهد أبو محمد بن عبيد الله والأديب الحافظ أبو جعفر أحمد بن أحمد الأزدى وغيرهم عن أبى موهب عن أبى عمر بن عبد البر أنه قال :

أجمع أهل الفقه والآثار ، فى جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع فى طبقات العلماء ، وانما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ويتفاضلون فى الاتقان والميز والفهم .

وقال أبو عمر فى كتاب « بيان العلم » (١٤٢) ، له : أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعرى ، ولا تقبل له شهادة فى الاسلام ويهجر ويؤدب على بدعته ، فان تمادى عليها استتيب منها . قال أبو عمر ليس فى الاعتقاد كله فى صفات الله وأسمائه الا ما جاء منصوصا فى كتاب الله أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اجتمعت عليه الأمة (١٤٣) .

وليست هذه كل العلوم الدينية التى كانت تدرس خلال هذه الفترة وانما هناك علوم أخرى كثيرة ، قد تكون بالنسبة للعصر الحالى غير ملائمة مثل معجزات بعض آيات القرآن ، أو غير ذلك .

٢ — العلوم اللسانية

أقصد بالعلوم اللسانية العلوم الضرورية التى تساعد على تفهم اللغة العربية تفهما جيدا ، والحديث بها بطريقة صحيحة ، واجادة التعبير بها نثرا أو شعرا ، وأركان هذه العلوم أربعة : اللغة والنحو والبيان والأدب .

---

(١٤٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله .
(١٤٣) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
الضبى : بغية الملتمس ، ص ١٥٥ — ١٥٧ .
Vernet, J. : La cultura hispanoarabe, pp. 16—17.

ولقد حظيت هـذه المواد بعناية الأندلسيين كثيرا وخاصة الحكام والأمراء الذين ركزوا اختيارهم لمناصب الكتاب والوزارة وتولي المناصب عامة من بين البارزين فى هـذه العلوم •

ولعل هـذا يرجع الى المجهود الذى كان من الواجب بذله لتعريب جموع سكان شبه الجزيرة ، واذا كانت مجمـوعة المواد الدينية قـد وجدت اهتماما بغرض المحافظة على الدين ونشره ، فلا شك أن العلوم اللسانية قـد حازت من النجاح فى الانتشار بين المسيحيين الأسبان ، أكثر من العلوم الدينية ، والدليل على ذلك أن المستعربين الذين حافظوا على دينهم الأصلى ، كانوا يتكلمون العربية بفصاحة وطلاقة ، ألفـوا مؤلفاتهم بالعربية ، ونظموا الشعر بها ، وأصبحت هى لغـة الحيـاة والعـائلة بالنسبة لهم •

وقـد يكون لذلك عوامله الأخرى المتمثلة فى تعـريب الدواوين والرسائل والمعاملات التجارية ، مما أجبر السكان جميعا على اختلاف أديانهم على تعلم العربيـة • ولعـل شكوى القـديس « ألفـارو » القرطبى الخاصة بأن أبنـاء ملتـه يعشقون العربية ويتكلمون بها أكثر من اللاتينية تقـدم دليـلا واضحا على الجهود التى بذلت خـلال عهد الامارة لتعريب اللسان فى أسبانيا الاسلامية •

اللغـــة :

موضوع هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية ، ويجنح الى حفظ الموضوعات اللغـوية بالكتابة والتدوين خشـية الاندراس وما قـد يترتب على ذلك من الجهل بالقـرآن والحـديث ، فقام كثـير من أئمة اللسان ببذل جهود كثيرة فى سبيل تأليف واملاء الدواوين •

وكان سابق الحلبة فى ذلك الخليل بن أحمـد ، الذى كتب كتاب « العين » ، فحصر فيه حروف المعجم كلهـا من الثنائى والثـلاثى والرباعى والخمـاسى ، وهو غاية ما ينتهى اليـه التركيب فى اللسان

العربى (١٤٤) ، ولقد دخل هـذا الكتاب الى الأندلس على يـد ثابت ابن عبد العزيز السرقسطى وابنه قاسم المتوفى سنة٣٠٢هـ/٩١٤م(١٤٥).

ولقد بدأت الدراسات اللغوية فى الأندلس مبكرة جـدا ، وقام علمـاؤه بالرحلة الى المشرق للدراسة واحضار الكتب الرئيسـية من هناك فنجد أن عبد الرحمن بن موسى الهوارى ، أول من جمع الفقه فى الدين وعلم العرب بالأندلس ، ورحـل فى خلافة الامام عبد الرحمن ابن معـاوية ، فلقى مالكا ونظراءه من الأئمـة ، ولقى الأصـمعى وأبا زيد الأنصـارى ونظراءهما ، وداخل الأعراب فى مجالها (١٤٦) .

أما محمد بن عبد الله بن الغـازى بن قيس القرطبى ، المتوفى ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، فقد أدخل الأندلس علما كثيرا من الشعر والعربية والخبر وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة (١٤٧) .

وتطورت هـذه المـادة تطورا كبيرا مع قدوم علماء من المشارقة وعودة من رحل من الأندلسيين ؛ ولقـد كان مستوى أسبانيا الاسلامية اللغوى طيبا ، عند قدوم أبى على القالى (٢٨٨/٣٥٦هـ ــ٩٠١/٩٦٧م) ، والقالى عالم كبير(١٤٨) ، قام بتدريس الحديث واللغة العربية وآدابها ، وأملى كتابه المشهور « الأمالى » ورفع مستوى أسبانيا الاسـلامية من الناحية اللغوية الى أقصى حـد ممكن ، ويحكى عن أبى على القالى أنه خـلال رحلته الى الأندلس قال : لمـا وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات فى الغباوة وقلة الفهم ،

---

(١٤٤) ابن خلدون : المقـدمة ، جـ ٤ ، ص ١٢٥٨ ، الترجمـة ، ص ١٠١٩ .

(١٤٥) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٣٠٩ .
ابن فرحون : الديباج ، ص ٢٢٢ .
السيوطى : بغيـة الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٢ .

(١٤٦) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣٤ (طبعة كوديرا) .
الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٢٧٥ .
السيوطى : البغية ، جـ ٢ ، ص ٩٠ .

(١٤٧) السيوطى : بغية الوعاة ، جـ ١ ، ص ١٣٩ .

(148) Riu, Manuel : Lecciones de Ho. Medieval, p. 196.

بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتى كأن منازلهم على الطريق هى منازلهم من العلم محاصة ومقايسة ، قال أبو على : قلت أن نقص أهـل الأندلس عن مقـادير من رأيت فى أفهـامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم ، فسأحتاج الى ترجمان بهذه الأوطان .

قال ابن بسام : فبلغنى أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هـذا الأفق فى ذكائهم (١٤٩) .

وحينما وصل أبو على الى الأندلس وجـد بها من يستحق تقديره واحترامه مثل محمد بن القوطية ، وينقل المقـرى عن ابن خلكان أنه كان يجتمع به ، وكان يبالغ فى تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن : من أنبل من رأيته ببلدنا هذا فى اللغة ؟ فقال : محمد بن القوطية (١٥٠) .

ويتحدث الدكتور نعمة رحيم عن المستوى اللغوى للأندلس مبينا أنها قـد ازدهرت تماما وخاصة فى القرن الرابع الهجرى (العـاشر الميلادى) محددا ملامح ازدهارها كالتالى :

١ ــ ظهور العالم اللغوى المتخصص ، ونبوغه الى درجة يماثل بها علماء المشرق ، مثل أبى بكر بن الزبيدى ، وتلامذة القالى .

٢ ــ استغناء الطـلاب الأندلسيين عن الرحلة الى المشرق ، لأن الأندلس أصبحت بيئة ثقافية ، ومركزا من مراكز العلم .

٣ ــ نشاط حركة التأليف (١٥١) .

ويعتبر أبو بكر الزبيدى قمـة تطور هـذا الفن فى الأندلس ، ومن بعده ابن سيدة المتوفى ٩٩٣ م (١٥٢) ، دون أن يعنى ذلك عـدم

---

(١٤٩) ابن بسـام : الذخيرة ، ج ١ ، ص ١٥ (تحقيق احسـان عبـاس) .
(١٥٠) المقـرى : النفح ، ج ٣ ، ص ٧٣ .
(١٥١) الـزاوى : ابو بكر الزبيدى الاندلسى ، ص ٤٩ ، ٥٠ .
(١٥٢) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٨١ .
ابن خلدون : المقـدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٦٠ .

وجود قمم شامخة فى هـذا العلم على مدار التاريخ الأندلسى بكامله ، ولقد اعترف ابن خلدون بمكانة أهل الأندلس فى صناعة العربية بالذات ، وأرجع ذلك الى نظام التعليم الأندلسى الذى كان يعطى اللغة العربية المكانة الأولى من اهتماماته ، يقول ابن خلدون عند حديثه عن الفرق بين ملكة اللسان ، وصناعة العربية : « وأهل صناعة العربية بالأندلس ، ومعلموها أقرب الى تحصيل هـذه الملكة وتعليمها عن سواهم ، لقيامهم فيهـا على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه فى الكثير من التراكيب فى مجالس تعليمهم فيسبق الى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتنقطع النفس لها ، وتستعد الى تحصيلها وقبولها » (١٥٣) .

ولقد بقى فن العربية مزدهرا فى الأندلس ، رغم انحطاط بعض العلوم الأخرى الى نهاية الحكم الاسلامى هناك ، ونعتمد أيضـا على شهادة ابن خلدون حيث يقول : وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بهـا منذ مئين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه (١٥٤) .

النحـــو :

يتحدث ابن خلدون عن الأسباب التى أدت الى وضع قواعد اللغة العربية فيحددها على الشكل التالى :

اعلم أن اللغة : التعارف ، وهى عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى ، ناشئة عن القصد لافادة الكلام ، فلابد أن تصير ملكة متقررة فى العضو الفاعل لهـا ، وهو اللسان ، وهو فى كل أمـة بحسب اصطلاحاتهم ، وكانت الملكة الحاصلة للعـرب من ذلك أحسن

---

(١٥٣) ابن خلدون : المقـــدمة ، جـ ٤ ، ص ١٢٧٨ (الترجمـة الأسبانية ، ص ١٠٤٤) .

(١٥٤) ابن خلدون : المقـــدمة ، جـ ٣ ، ص ٩٨٨ (الترجمـــة الأسبانية ، ص ٧٧٧) .

الملكات وأوضحها ابانة عن القاصد ، لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى ، مثل الحركات التى تعين الفاعل من المفعول من المجرور ، أعنى المضاف ، ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال الى الذوات ، من غير تكلف ألفـاظ أخرى •

فلمـا جاء الاسـلام ، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول ، وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليهـا السمع من المخالفات التى كانت للمتعربين من العجم ، والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغايرها لجنوحها اليه باعتياد السمع • وخشى أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ، ويطول العهـد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة ، مطردة شبه الكليـات والقواعد ، يقيسون عليهـا سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والفعل منصـوب ، والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هـذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته اعرابا وتسمية الموجب لذلك عاملا ، وأمثال ذلك • وصـارت كلهـا اصطلاحات خاصـة بهم فقيدوها بالكتـاب ، وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو • وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلى من بنى كنانة (١٥٥) •

وأشهر من كتب فى هـذا العلم الكسائى المتوفى ١٨٨ هـ / ٨٠٤ م ، وسيبويه والزجاجى ٣٣٧ هـ / ٩٤٩ م •

وفى أسبانيا الاسلامية ، كان لابد من بذل جهود مضاعفة وذلك لغلبة العنصر العجمى والبربرى ضمن سكانهـا ، فحملت اليهـا كتب المشارقة فى النحو ، ويقال ان جـودى بن عثمان ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ،

---

(١٥٥) ابـن خلدون : المقـدمة ، ج ٤ ، ص ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ؛ والترجمـة الاسبانية ، ص ١٠١٥ — ١٠١٧ .

هو أول من أدخل كتاب الكسائى (١٥٦) ، كذلك أحضرت الى الأندلس كتب سيبويه والزجاجى وغيرهما من المشارقة ، وبدأ الأندلسيون أنفسهم فى التأليف فى هذا الفرع من العلوم ، ويذكر الزبيدى أن لجودى بن عثمان تآليف فى النحو (١٥٧) ، وتأتى بعد ذلك مؤلفات أبى على القالى فى النحو ومن بعده الزبيدى (١٥٨) .

ويبدو أن الأندلسيين قد استغرقوا وقتا طويلا ، حتى أمكنهم الوصول الى نوع من الاستقرار فى تدريس هذه المادة ، وأنهم كانوا يخلطون بينها وبين علم اللغة حتى عاد محمد بن يحيى الرباحى ، المتوفى ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م ، من المشرق ، وعلمهم الطرق المشرقية السهلة فى تعليم العربية ، يقول الزبيدى :

ولم يكن عند مؤدبى العربية ولا عند غيرهم من عنى بالنحو كبير علم ، حتى ورد أبو عبد الله محمد بن يحيى الرباحى عليهم ، وذلك أن المؤدبين انما كانوا يعانون اقامة الصناعة فى تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعانى لهم فى ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها ، والاعتلال لمسائلها ، ثم كانوا لا ينظرون فى امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يجيبون فى شىء منها حتى نهج لهم سبيل النظر ، وأعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن فى المشرق ، من استقصاء الفن بوجوهه ، واستيفائه على حدوده وأنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة (١٥٩) .

وتطورت الدراسات النحوية فى الأندلس تطورا عظيما ، ويصفهم المقرى قائلا : والنحو عندهم فى نهاية علو الطبقة ، حتى أنهم فى هذا

---

(١٥٦) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .
السيوطى : بغية الوعاة ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .
(١٥٧) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٢٧٨ .
(158) Gonzalez Palencia : Ho. de la Literatura A.E., p. 136.
(١٥٩) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

العصر فيه كأصحاب الخليل وسيبويه لا يزداد مع قدم الزمان الا جدة ، وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو — بحيث لا تخفى عليه الدقائق — فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا بسالم من الازدراء (١٦٠) .

وظهر من بينهم أساتذة متخصصون فى تدريس النحو مثل أحمد ابن محمد بن هاشم القيسى المتوفى ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م ، الذى مال الى النحو فغلب عليه وأدب به (١٦١) .

ومهاب بن أدريس العدوى ، المتوفى ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، الذى كان عالما بالفرائض والحساب والاعراب ، وكان معلما بالفنيين جميعا(١٦٢).

ويبدو أن الأندلسيين كانوا يكتفون بتعليم أولادهم فى المراحل المتوسطة بعض كتب النحو البسيطة أو المختصرة ، بينما يتركون كتب كبار النحاة الى مرحلة متقدمة ، فيقول ابن حزم القرطبى عند حديثه عن ما يجب أن يدرس من النحو ، أن أقل ما يجزىء منه « كتاب الواضح » ، للزبيدى (٣١٦ — ٣٧٩ هـ / ٩٢٨ — ٩٨٩ م) ، أو ما نحا نحوه « كالموجز » ، لابن السرج (المتوفى ٣١٦هـ / ٩٢٨م) ، وما أشبه هذه الأوضاع الحقيقية وأما التعمق فى علم النحو ففضول لا منفعة بها ، بل هى مشغلة عن الأوكد (١٦٣) .

---

(١٦٠) المقرى : النفح ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .

(١٦١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ٤٢ .

(١٦٢) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٥٥ .

(١٦٣) ابن حزم : مراتب العلوم (ص ٥٦ ، من كتاب الفكر التربوى عند العرب) .

Asin Palacios : Un Codice enexplorado del Cordobes Ibn Hazm, pp. 46, 56.

Muinis H. : Clasificacion de las cieneias segun Ibn Hazm.

من ناحية أخرى فان كتاب سيبويه كان أساسيا فى علم العربية فى القرنين السابع والثامن ، حيث كان الناس يتساءلون : هل يقرأ كتاب « سيبويه » فان قيل لا ، فيقولون لا يعرف شيئا (١٦٤) •

ويقـول السيوطى : ان أحمـــد بن ابراهيم بن الزبير المتوفى ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م ، أقـرأ القرآن والنحـو والحديث بمالقة ، وأنه عندما خرج من مالقـة ، وترك هناك من طلبته أربعين يقرءون كتاب سيبويه (١٦٥) •

ويصف المستشرق الأسبانى خوليان ريبيرا دراسة علم النحـو فى أسبانيا الاسلامية على النحو التالى :

لقـد أعطى المسلمون الأسـبان أهمية كبرى لدراسات النحـو ولم يقنعوا الا بدراسة المؤلفات الأساسية ، وكان العـالم منهم الذى لا يتعمق فى النحـو حتى أعمق أعمـاقه ويتفهم كل شواذه وغرائبه ، لا يحظى باحترام كبير ، ومن أراد أن يسـلم من المزالق والسقطات فلابد وأن يدرس كتب المتخصصين المشارقة الضخمة ، وخاصـة كتاب سيبويه الذى كان موضع الاعجاب الكبير •

والحقيقة أن الناس فى الأندلس كانوا يقومون بهذه الدراسات ، بصورة تفوق كثيرا غيرهم فى المناطق الاسلامية الأخرى ، ويرجع ذلك الى أنهم كانوا يبدءون تعليم أطفالهم ببعض عناصر النحـو الأولية الى جانب بعض النصوص الشعرية والأدبية • ولقد كان ذلك يساعدهم على التأهيل فى الدراسات التى يتلقونها فى المراحل التالية ، أى أنهم كانوا يحوزون منـذ بداية عمرهم التعليمى ملكة عملية فى اللغـة ، ولم يكن يجرى مثل هـذا فى المغرب أو حتى فى تونس ، حيث كان تدريس هذه المـادة ، ينحو الى الناحية النظرية المحضة (١٦٦) •

(١٦٤) السيوطى : بغيـة الوعاة ، جـ ١ ، ص ٣٣١ .
(١٦٥) السيوطى : بغيـة الوعاة ، جـ ١ ، ص ٢٩٢ .
(166) Ribera, J. : Ho. da la Ensenanza entre los M. E. p. 5—52.

وليس معنى ذلك كله أن الأندلسيين كانوا فى حياتهم العـادية يتحدثون العربية الفصحى ، وانما كانت تجـرى بينهم الى جـانب معرفتهم اللغـة الرومانثية التى كانوا يجيدونهـا اجادة تامة ، حتى الخلفاء منهم (١٦٧) ، كلغة عامية . ويصف لنا المقرى هذه الحالة فيقول: « مع أن كلام أهل الأندلس الشائع فى الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبينى (عمر بن محمد بن عبد الله الأزدى النحـوى ، المعروف بالشلوبينى) ، المشـار اليه فى علم النحـو فى عصرنا ، الذى غربت تصانيفه وشرقت ، وهو يقرى دروسـه لضحك ملء فيه من شـدة التحريف الذى فى لسانه ، والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب ، وأخـذ يجـرى على قوانين النحو ، استثقلوه واستبردوه ، ولكن ذلك مراعى عندهم فى القراءات والمخاطبات والرسائل (١٦٨) .

علم البيـان :

يرى ابن خلدون أن « هذا العلم حادث فى الملة ، بعد علم العربية واللغـة ، وهـو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ، ويقصد بها الدلالة عليه من المعانى .

ولأن هذا العلم يقوم بالبحث عن هذه الدلالات ، التى للهيئات والأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصـناف ، الصنف الأول يبحث فيه عن هـذه الهيئات ، والأحوال التى تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ، ويسمى علم البلاغة . والصنف الثانى ، يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظى وملزومة ، وهى الاستعارة والكناية ، ويسمى علم البيـان ، وألحقوا بهما صنفا آخر وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق ، اما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصـود بابهـام معنى

---

(١٦٧) المقـرى : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .
هيكل : الأدب الأندلسى ، ص ٢١ ، ٢٢ .
(١٦٨) المقـرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، وأمثال ذلك ، ويسمى عنـدهم علم البديع . وأطلق على الأصـناف الثـلاثة عنـد المحـدثين ، اسـم البيـان (١٦٩) .

الأدب :

ازدهر الأدب فى الأندلس بصورة لم يصل اليها أى نوع آخر من العلوم ، ويقول ابن خلدون عن هذا العلم : انه « لا موضوع له ينظر فى اثبات عوارضه أو نفيها ، وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمـرته وهى بالاجـادة فى فن النظم والمنثـور على أسـاليب العـرب ومناحيهم » (١٧٠) .

ولقد ظل أهل الأندلس حتى عصر ابن خلدون على الأقل ، يقولون ان « أصول علم الأدب وأركانه أربعـة هى : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبى على القالى» وان الأندلسيين كانوا يطلبون أعمـال الأدباء المشرقيين وأشـعارهم بمجرد ظهورها هنـاك وقصة ارسال أبى الفرج الأصفهانى نسخة من كتاب الأغانى الى الحكم المستنصر باللـه بمجرد ظهوره معـروفة ، وقـد نقل ابن الأشج عن المتنبى ديوانه ، وقرأه فى قرطبة على طلابه وعشاقه ، كما نقل ديوان أبى تمـام بمجهود شاعر أندلسى هو مؤمن ابن سعيد ، عن أبى تمـام نفسـه ، وكان الطلاب يقرءونه عليه فى قرطبـة (١٧١) .

وينقسم الأدب الى قسمين رئيسيين هما : الأدب النثرى والشعر ، وكلاهما قـد ازدهر فى الأندلس بصورة كبيرة ، ووجد فى كل فن منهما

---

(١٦٩) ابـن خلدون : المقـدمة ، جـ ٤ ، ص ١٣٦٣ — ١٢٦٧ ، والترجمـة ، ص ١٠٢٤ — ١٠٢٦ .

(١٧٠) ابن خلدون : المقـدمة ، جـ ٤ ، ص ١٢٦٨ ، والترجمـة ، ص ١٠٢٨ .

(١٧١) انظر مقدمة كتـاب رايات المبرزين لابن سـعيد التى كتبها الدكتـور النعمان عبد المتعـال القاضى ، ص ٩ .

المتخصصون الضالعون وبعض المعلمين الذين يتولون التدريس فى كل فرع منهما على حدة ، وبعض المعلمين الذين يتولون تدريس الفنيين معا ، فيقال عن عباس بن ناصح الثقفى (أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) ، قاضى الجزيرة الخضراء ، أنه كان يفد على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها (١٧٢) .

أما الشيخ أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا المعروف بالاقليلى من أهل قرطبة المتوفى ٤٤١هـ / ١٠٤٦م ، فقد كان من أئمة النحو واللغة ، وله معرفة تامة بالكلام على معانى الشعر ، وشرح ديوان المتنبى شرحا جيدا ، وهو مشهور .

وكان متصدرا بالأندلس ، لاقراء الأدب وولى الوزارة للمكتفى بالله (محمد بن عبد الرحمن الذى حكم من ٤١٤ — ٤١٦هـ / ١٠٢٤— ١٠٢٥م) ، وكان حافظا للأشعار ، ذاكرا للأخبار ، وأيام الناس(١٧٣) .

وأحمد بن محمد بن يحيى الحميرى المتوفى عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م كان آخر من انتهى اليه علم الأدب فى الأندلس (١٧٤) .

أما على بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى ، المتوفى عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ، فقد كان متحققا بالنحو ، ذكيا ، بارع الخط والأدب ، درس العربية والأدب زمانا (١٧٥) .

والحقيقة أن فن النثر قد ارتقى فى الأندلس فى القرن السادس والسابع (الثالث عشر والرابع عشر) ارتقاء كبيرا ، ولست أجد دليلا على هذا أكثر من الاشارة الى الرسائل النثرية التى تبودلت

---

(١٧٢) المقرى : النفح ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
(١٧٣) ابن حيان : المتين ، ص ٦١ — ٦٣ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
(١٧٤) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٣٠٠ .
(١٧٥) المراكشى : عبد الملك : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ٢٣٢ .

بين عبد اللـــه بن الجنـــان ، وعلى بن محمـــد بن على ، أبو الحسن الرعينى (٥٩٢ — ٦٦٦هـ / ١١٩٥ — ١٢٦٧ م) ، فلقد ورد الى الأندلس الأديب أبو عبد اللـــه بن عابد ، وتولى الكتابة فكتب اليه عبد اللـــه ابن الجنان رسالة طويلة فى حوالى صفحتين ونصف ، التزم فيها حرف « العين » فى كل كلمة من كلماتها سواء فى النثر أو النظم ، ولمـــا عجـــز عبد اللـــه بن عابد عن الرد عليها ، رد الشـــيخ أبو الحسن الرعينى برسالة من أربع صفحات كاملة ، التزم فيها حرف العين فى كل كلمة من كلمات الرسالة نظما أو نثرا . فكتب اليه أبو عبد اللـــه بن الجنـــان رسالة أخرى ملتزما حرف العين فى كل كلمـــة منها نثرا أو نظما فى ست صفحات ونصف ، فرد الشيخ الرعينى ملتزما حرف العين فى كل كلمة بقصيدة من ٢٣ بيتا وخمس صفحات ونصف صفحة نثرا (١٧٦) .

ولقد أثارت هـــذه الرسائل حركة بين الأدباء فى الأندلس ، فكتب أبو المطرف بن عميرة (٥٨٠ — ٦٥٨هـ / ١١٨٧ — ١٢٦٠م) (١٧٧) ، رسالة التزم فيها حرف النـــون ، وهو الحرف المشترك فى اســـمى عبد اللـــه بن الجنـــان وأبى الحسن الرعينى ، فى كل كلمـــة من كلماتها نثرا ونظما ، من ثلاث صفحات ونصف (١٨ سطرا ، فى كل سطر ١٠ كلمات) (١٧٨) .

أما من ناحية الشعر ، فهناك مؤلفات لا تحصى ولا تعـــد حـــول الأدب الأندلسى ، تتناول بالتفصيل مكانة الأندلس الشـــعرية (١٧٩) ، ويرى الدكتور حكمت على الأوسى ، أن الشـــعراء الأندلسيين كانوا يصدرون عن سليقة وطبع ، كما أن الجو كان يساعد من له طبع وقابلية

---

(١٧٦) المراكشى : نفس المصدر ، ص ٣٢٣ — ٣٤٨ .

(١٧٧) ترجمة أبو المطرف بن عميرة منتشرة فى كل كتب التراجـــم والآداب الأندلسية ، أنظر د. حكمت الأوسى فى كتـــابه الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين ، ص ١٣٩ ، حيث أشار الى عدد كبير من المصادر .

(١٧٨) المراكشى : الذيل والتكملة ، الســـفر الخامس ، الجـــزء الأول ، ص ٣٤٨ — ٣٥٠ .

(179) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles. pp. 67—84.

شعرية على أن يبدع ويجيد في الشعر الفصيح ، وان لم يكن من الدارسين للشعر ولا للأدب ، كما هو شأن ابن مرج الكحل الذى كان شاعرا مبرزا ، بارع التوليد ، رقيق الغزل ، مطبوع الشعر ، وكان مع ذلك ، أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة (١٨٠) ، على العكس مما يقوله غارثيا غومث ، من أن الشعر الأندلسي كان شعرا فقيرا (١٨١) .

ومن المستحيل هنا الاشارة الى شعراء الأندلس ، أو الى المؤلفات الأندلسية التى تتناول هذا الشعر ، ويكفي القاء نظرة على الذخيرة لابن بسام (١٨٢) ، أو رايات المبرزين لابن سعيد (١٨٣) ، أو الاحاطة لابن الخطيب (١٨٤) ، أو نفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى(١٨٥) ... الخ .

ولقد أنشأ المنصور بن أبى عامر ديوانا خاصا بالشعراء ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على أقدارهم فى الشعر ، وشاع بين الناس الميل الى الشعر الجميل ، وشارك الأمراء أنفسهم فى قول الشعر . وأشهر حكام الأندلس شعرا : المعتمد بن عباد ، ملك أشبيلية (١٨٦) .

---

(١٨٠) المقرى : النفح ، ج ٦ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(١٨١) على الأوسى : الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين ، ص ٤٤ .

(١٨٢) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، ٨ اجزاء (تحقيق احسان عباس) .

(١٨٣) ابن سعيد : رايات المبرزين — تحقيق نعمان القاضى ، القاهرة . كذلك قام بتحقيقه وترجمته الى الأسبانية غارثيا غوميث .

(١٨٤) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ٤ أجزاء — تحقيق عنان .

(١٨٥) المقرى : نفح الطيب — ١٠ اجزاء ، تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد — و ٨ اجزاء ، تحقيق احسان عباس .
أزهار الرياض ، أعيد طبعه فى المغرب ، وحقق منه ايضا الجزء ٤ .

(186) Schack, A. F. : Poesia y Arte de los àrabes en Espan y Sicilia, 11,5—75.
Hagerty, M. J. : Poesia de la Muctamad.

ولقد كان تعليم الشعر يتم عفــوا أثنــاء تدريس العلوم الأخرى فحين يلاحظ الأستاذ موهبة تلميذه الشعرية ، فانه يعمــل على تنميتها وصقلها حتى يمكن له أن يصل الى مكانة جيدة فى الشعر فيحكى لنــا أن عباس بن ناصح الثقفى ، قاضى الجزيرة الخضراء ، كان يفــد على قرطبــة ويأخذ عنه أدباؤها ، ومرت عليهم قصيدته التى أولها :

لعمــرك ما البــلوى بعــار ولا العــدم
اذا المــرء لــم يعــدم تقى اللــه والكرم

حتى انتهى القــارىء الى قوله :

تجــاف عن الدنيـــا فمــا لمعجـــز
ولا عاجـــز الا الذى خط بالقـــــلم

فقــال له الغــزال (المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) (١٨٧) ، وكان فى الحلقة ، وهو اذ ذاك حدث نظام ، متأدب ذكى القريحة : أيها الشيخ ، وما الذى يصنع مفعل مع فاعل ؟ ، فقال له الشيخ : كيف تقول أنت ؟ فقال : كنت أقــول : فليس لعــاجز ولا جازم . فقال له عباس : والله يا بنى لقــد طلبها عمك فما وجدها (١٨٨) .

كما أن هناك قصة أخرى حدثت للقاضى منذر بن سعيد مع أستاذه أبى جعفر أحمد بن محمد بن النحاس النحوى ، وذلك أنه حضر مجلسه فى الاملاء ، فأملى الشيخ قول الشاعر :

خليــلى هــل بالشــام عين حزينـــة
تبــكى على ليـــلى لعـــلى أعينهـــا
قـــد أسـلمها البـــاكون الا حمـــامة
مطـــوقة بـــاتت وبـــات قرينهــــا

(187) Garcia Gomez, E , La Poesia Arabigo-Andaluza, p. 33.

فلى الأوسى : حكمت : فصول من الأدب الأندلسى ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

(١٨٨) المقــرى : النفح ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

فقال منذر : أيها الشيخ ، أعــزك اللــه ، باتا يصــنعان ماذا ؟ فقال أبو جعفر : فكيف تقول أنت ؟ فقال منــذر : بانت وبان قرينها ؛ فاستبان أبو جعفر ما قال ، وقال له : ارتفع ، ولم يزل يرفعه ، حتى أدناه منه ، وكان يعرف ذلك له بعد ذلك ويكرمه (١٨٩) .

وأبو جعفر الحميرى ، السابق الاشارة اليه ، كان يشجع تلميذه « أبو يوسف » ، على قول الشعر ، ويقيم المنافسة بينه وبين ابنــه ، ليساعد الاثنين على صياغة الشعر ، ويقول التلميذ ، لقد كنت أنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه ، وبعده عن الجودة أبيــاتا لا أعدها شيئا ، يحملنى على انشاده اياها ، فرط استدعائه ذلك منى ، فيلهج بها ويشتد استحسانا لها ، وربما درسها وحفظها (١٩٠) .

ويرى المستشرق الأسبانى أنخيل غونثا ليث بالنثيا أن صــاعد الطبقى قــد أدخل الى الأندلس طريقة جديدة فى درس الشعر الجاهلى تتلخص فى أن يقــرأ الطالب القصيدة ، ثم يسأله أستاذه عن معــانى الألفــاظ فيقوم بالشرح معتمدا على قائمــة من المعــانى يكون قــد استخرجها من المعاجم العربية (١٩١) .

أما الدكتور جودت الركابى فيرى أن الشاعر ، حتى يصبح شاعرا كان لابد وأن يتمتع بثقافة أدبية عالية (١٩٢) .

ولقد تفــوق الأندلسيون فى الشعر التعليمى فوضعوا منظومات علمية فى التاريخ والنحــو وغيره ، ومن ذلك أرجوزة ابن عبد ربه فى التاريخ وأرجوزته فى علم العروض التى يبتدئها بقوله :

---

(١٨٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(١٩٠) انظــر هـــذه القصــة الطــويلة فى المعجب للمراكشى ، ص ٤٢٩ — ٤٣٤ .

(١٩١) بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمــة حســين مؤنس ، ص ٦٦ .

(١٩٢) جودت الركابى : فى الأدب الاندلسى ، ص ٦٢ — ٧٤ .

بالله نبدأ وبه التمام
وباسمه يفتح الكلام

وكذلك الأرجوزة التى صدرها الشيخ يوسف بن محمد البلوى لكتابه « ألف باء » :

جعلت ما أؤلف فيه وأبنى
لعبد الرحيم ابنى
ليقرأه بعد موتى
وينظر الى منه بعد موتى (١٩٣)

٣ — العلوم العقلية

لا شك أن تعبير العلوم العقلية لا يدل دلالة واضحة على مجموعة العلوم التى نتناولها فى هذا المجال ، لأنه ما من مادة علمية الا وكان للعقل فيها نصيب ، قل هذا النصيب أو كثر . لكن العرب استخدموا هذا التعبير للتفرقة بين العلوم اللسانية والدينية من جهة ، وباقى العلوم الأخرى من جهة ثانية .

وفى الأندلس ، حظيت العلوم العقلية بمكانة طيبة ، لكنها لم تضارع ما وصلت اليه مجموعتا العلوم السابقتان ، مثلما يقول المستشرق الأسبانى خوان بيرنيت : بأن التعليم فى العالم الاسلامى كان موجها فى المقام الأول ، لاعداد الفرد للحياة الآخرة (١٩٤) . هذا ولقد اعترف كثير من العلماء بالمكانة العلمية لاسبانيا الاسلامية ، وتأثيرها القوى على الحياة فى أوربا الغربية ، أكتفى هنا بايراد ثلاث شهادات لثلاثة من رجال الفكر الأسبان :

---

(١٩٣) البلوى : الف — باء — طبعة القاهرة ، ١٢٨٧هـ .
حاجى خليفة : كشف الظنون ، ص ١٥٠ .
(195) Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 97.

يقـول خوان بيرنيت :

ان كميات هائلة من مترجمات اللغة العربية الى اللاتينية ، والتى تم القيـام بها فى أسبانيا خلال القـرنين الثانى عشر والثـالث عشر الميلاديين ، قـد أعيد طبعها مرات على مدار القـرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وعن طريق هـذه الأعمـال المترجمة كون العلمـاء ورجال الدراسات الانسانية صورة فذة ورائعة عن الحالة العلميـة التى كانت تتمتع بها أسبانيا الأسـلامية لدرجة أنهم قـد نسبوا كل الأعمـال المترجمة عن العـرب ، بمـا فى ذلك أعمـال ابن سينا الذى لم يطأ قدمه أرض شـبه الجزيرة ، الى أسـبانيا الاسـلامية ، ولذلك لم يكن من الغـريب أن لا يتردد ، ولو للحظـة واحدة ، مؤرخ العلم الذائع الصيت « سارتون » ، فى اعتبار أسبانيا الاسلامية أعظم مركز ثقافى وحضارى فى عالم العصور الوسطى(١٩٥) .

ويقول الدكتور غرنثاليس براتس عند دخوله الأكاديمية الملكيـة الطبية الأسبانية « هـذا الأندلس ، مركز ومنـار ، كان يوما مشرقا وزاهيا ، كان مطمـح الأطمـاع ، ومحط الأبصار النهمة الراغبة فى التعلم ، لأى فرع من فروع المعـرفة ، فى ذلك العصر الذى اتسـم بالفخار ، وبالجهود المضنية » (١٩٦) .

أما البروفيسـور سانشيث بيريث ، فانه يعطى أهميـة كبرى لوجود العرب فى أسبانيا عند تأريخه للعلوم عند العرب ، قائلا :

ان للوجود العربى فى أسبانيا أهميـة كبرى ، فعلى الرغم من أن اقليم شـمال شبه الجزيرة الأيبيرية قـد شهد صراعا بينهم وبين

(195) Vernet, J. : Ho. de la ciencia, espanola, p. 58.
Sarton : Introduction to the history of scicnce.
Millas Vallicrosa : Estudios sobre la historia de ia cioncia espanola.

(196) Gonzalez Prats, . : Las Alturas en las ciencias mèdicas en el Reino de al - Andalus, p. 20.

القشتاليين وأهل نبرة وأشتوريه والأراغونيين ، الا أن كل الأقسام الجنوبيـة قد عاشت عدة قرون تحت تنظيم سياسى محكم وثقافـة عربيـة ارتقت بصورة مدهشة (١٩٧) .

ودراسة ما تقدمه لنا كتب التراجم الأندلسية الخاصة بالمشتغلين فى مجال العلوم العقلية تطلعنا على موسوعية أصحابها ، حيث نجـد أن كلا منهم عالم متخصص فى أكثر من مادة واحدة ، ويمكننا من أجل التسـهيل الدراسى لا أكثر ، أن نقسـم العـلوم العقلية الى أربع مجموعات رئيسية :

١ ـ المجموعة الطبية ، وتضم : الطب والصيدلة وعلم النبات .

٢ ـ العلوم البحتة ، وتضم الرياضيات والطبيعـة والكيمياء والفلك .

٣ـ العلوم الفلسفية ، وتضم : الفلسفة والمنطق .

٤ ـ العلوم الاجتماعية : الجغرافيا والتاريخ والتراجم .. الخ .

(ا) المجمـوعة الطبيـة

١ ـ علم الطب والصيدلة :

اعتنى المسلمون بالطب عناية كبيرة منـذ بداية الاسلام وممـا يشهد لهذه الصناعة بعلو الشأن ، ورفعـة المكان ، قوله صلى اللـه عليه وسلم : « العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان » (١٩٨) .

ولقد عول الأندلسـيون فى الطب على كتـاب مترجم من كتب النصارى ، يقال له « الابريشم » «Aphorismi» ومعناه المجموع

(197) Sanchez Pérez, J. : La ciencia árabe en la Edad Media- p. 11.
Mielo, Aldo : Panorama general de la Ha. de las ciencias II, 48, (Traducción Espanola).
Millás Vallicrosa : Estudios sobre la Ha. de la ciencia espánola.

(١٩٨) ابن الخطيب : عمل من طب لمن حب ، ص ١ .

أو الجامع (١٩٩) .

ثم تطور العلم على يد أطبـاء أندلسيين عادوا من المشرق مثل الحرانى الأندلسى ، الذى عاد فى أيام الأمير محمـد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣هـ / ٨٥٧ — ٨٨٦م) ، ويقـول عنه صـاعد الطبقى : كانت عنده مجريات حسان فى الطب ، واشتهر بقرطبة (٢٠٠) .

ولقد شارك فى هـذه المهنة فى الأندلس كثير من الأطباء النصارى واليهود مثل ابن ملوكة النصرانى ، كان فى أواخر أيام الأمير عبد الله ، وأول دولة الأمير عبد الرحمن الناصر ، وكان يصنع بيـده ، ويفصـد العروق ، وكان على باب داره ثلاثون كرسيا لقعود الناس (٢٠١) .

ويحيى بن اسحق ، أحد وزراء الناصر ، ألف فى الطب كناشا يشتمل على خمسة أسفار ، ذهب فيـه مذهب الروم (٢٠٢) ، ولقد كان والده من قبله ، على أيام الأمير عبد اللـه (وكانت سكناه بقـرب مسجد طاهر ، مسيحى النحلة ، وكان صانعا بيده ، مجربا) (٢٠٣) .

ومن أشهر الأطباء اليهود فى تلك الفترة حسداى بن شبروط ، وكان وزيرا وسفيرا للخليفة عبد الرحمن الناصر (٢٠٤) .

ويعتبر عصر عبد الرحمن النـاصر ، العصر الذهبى للطب فى الأندلس ، حيث (تتابعت الخيرات على أيامه ودخلت الكتب الطبيـة من المشرق وجميع العـلوم ، وقامت الهمم ، وظهر الناس ممن كان فى

---

(١٩٩) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٢ .
(٢٠٠) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .
صاعد الطبقى : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ .
القفطى : اخبـار العلمـاء بأخبار الحكماء .
(٢٠١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ .
(٢٠٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ .
(٢٠٣) ابن جلجل : نفس المصـدر ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(204) Vernet, J. : Historia de la ciencia espanola, p. 59.

صـــدر دولته من الأطبـــاء المشهورين (٢٠٥) .

وعلى عهد الحكم المستنصر أقيمت خزانة الطب ، أقامها الطبيب أحمد بن يونس (وهو طبيب رحل الى المشرق فى عام ٣٣٠هـ/٩٤١م)، الذى أقام ببغداد هو وأخوه عمر عشرة أعوام ، وتأدبا بالطب ، وخدما الرؤســاء ، مع ثابت بن سنان بن ثابت بن قــرة ، الذى قرأ عليــه كتب جالينوس عرضا . وقد خدما ابن وصيف فى علل العين ، وعادا الى الأندلس فى عام ٣٥١هـ / ٩٦٢م ، ودخلاها فى دولة المستنصر ، وغزوا معه غزاته الى شنت استبين وانصرفا وألحقهما لخدمته بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء ، واستخلصهما لنفســه دون غيرهم ممن كان فى ذلك الوقت من الأطبــاء ، ثم مات عمر وبقى أحمــد ، فأسكنه المستنصر فى قصره بمدينـــة الزهراء ، وقــد تولى اقامة خزانة بالقصر للطب .. ولم يكن قط مثلهــا ، رتب لهــا اثنى عشر صبيا صقلبيا ، طبــاخين للأشربة ، صانعين للمعجنات ، واستأذن أمير المؤمنين فى أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى ، فأباح له ذلك (٢٠٦) .

ووجد على عهد الناصر والمستنصر ، ديوان للأطباء ، تســـجل فيه أســـماؤهم . وليس لدى تفصـــيلات عن هــذا الديوان ، ولكن ابن جلجل يقــول عند ترجمته لأحمــد بن حكم بن حفصون ، أنه خدم بالطب طول أيام جعفر بن عثمان المصحفى ، فلمــا مات جعفر ، أسقط من ديوان المتطببين أو الأطبــاء ، وبقى مخمولا أخريات أيامه (٢٠٧) .

وازدهر الطب والصيدلة أيضا على عهدى الموحدين والنصريين ، وكان مادة تدرس ، يقــال عن محمد بن ابراهيم بن محمــد الأوسى المتوفى ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ، أنه أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة لمــا استقدمه السلطان ثانى المــلوك من بنى نصر من مدينـــة بجاية

---

(٢٠٥) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٢٠٦) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٢٠٧) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ١١٠ .

فانتفع الناس به (٢٠٨) .

أما عبد الله بن أحمد بن ضياء الدين الأندلسى المـالقى المعروف بابن البيطار (٥٧٥ـ٦٤٦هـ / ١١٧٩ـ١٢٤٨م) ، فانه حينما رحل الى مصر ، كان هنـاك « رئيس العشابين » ولقد طاف تقريبـا بكل البلاد الاسلامية ، وله مؤلفات فى الطب (٢٠٩) .

ويبدو أن المهنة قـد دخلها كثيرون من غير المؤهلين ، مما دفـع الى وضـع شروط وقواعد قاسية للمشتغلين بالطب (٢١٠) .

أما تعلم الطب فلقد كان يتم فى الدرجة الأولى بين عائلات معينة احتفظت بسر المهنة بين أفرادها ، الذى لم يكونوا يقدمونه لغيرهم ؛ مثل أبى بكر سليمان ، الذى عالج أمير المؤمنين ، الناصر لدين الله من الرمد ، وطلب منه نسخته بعد ذلك ، فأبى أن يمليها (٢١١) .

وكذلك الحـرانى الذى ورد من المشرق فى أيام الأمير محمـد ، أدخل الأندلس معجونا ، كان يبيع منه السقية بخمسين دينارا ، وحاول أطبـاء قرطبة معرفة السر منه ، حتى وصلوا الى شراء شربة من الدواء وتحليلها (٢١٢) .

وعلى بن هلال بن على بن حسن البلنسى ، المتوفى ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ، كان عدديا ماهرا مهندسا حاذقا ، طبيبا بارعا فائقا ، متعرضا لذلك ، مقصودا فيه ولم يزل معظم عمـره شديد الضنانة لمـا كان عنده من المعارف ، شرس الخلق عند التعليم ، متعززا على المتعلمين ، لا يتتلمذ له أحد ، عز أو هان ، الا واقفا أسفل دكانه ، الذى تصدى فيه للفتاوى

---

(٢٠٨) ابن الخطيب : الاحاطة ـ جـ ٣ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٢٠٩) مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٢١٠) العقبانى : تحفـة الناظر ، ص ٢٥٨ .
(٢١١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١٠٢ .
(٢١٢) ابن جلجل : طبقات الأطبـاء ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

الطبية ، ثم سمح بآخره لبعض الطلبة وأسعفهم بالجلوس لاقرائهم في مسجد يقرب من موضعه ، فاغتنم ذلك منه وأخذ في تلك الحال(٢١٣).

ولكن مع ذلك كان الطب يعلم ، وذلك بقــراءة الكتب وصـــحبة الأطباء ، حيث يحكى أن أبا بكر بن زهر قـــد أتى اليــه اثنــان من الطلبة ، ليشتغلا عليه بصناعة الطب ، ترددا عليـــه ولازماه مــدة ، وقرءا عليه شيئاً من كتب الطب (٢١٤) .

٢ ـــ علم النبـــات :

يرتبط هـــذا العلم بعلم الطب والصيدلة ، من ناحية أنه يمدهما بالمـــادة العشبية اللازمة لاستخراج الدواء ، ولقـــد وصل هـــــذا العلم في الأندلس الى مكانة طيبة ، وأشهر رجاله هم :

أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بابن وافد ، المتـــوفى في عام ٤٦٧هـ / ١٠٤٧م ، كان طبيبـــا وله في الطب كتــــاب الأدوية المفـــردة وكذلك له كتاب في الفلاحة ، وهو الذى تولى غرس حديقـــة المـــأمون بن ذى النون ، بطليطلة (٢١٥) .

حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج بن هاشم البكرى الاشبونى ، المتوفى ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م ، ويعرف بالزرقالة ، فاق أهل عصره في تمييز النبات والعشب (٢١٦) .

أحمد بن محمد المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ،

---

(٢١٣) المراكشي : الذيل والتكملة ـــ السفر الخامس ـــ القسم الأول ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٢١٤) محمد المنـونى : العـلوم والآداب على عهـد الموحـدين ، ص ٢٦ .

(٢١٥) شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٣٦ .
Vernet, J. : La Cultura hispanoarabe; 39—40 y 254.
Vernet : Historia de la Ciencia Espanola, p. 63.

(٢١٦) ابن الابار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٢١ (الترجمة ٤٧) .

كان حسن العلاج فى طبــه ، وكان امام أهل المغرب قاطبة فى معــرفة النبات وتمييز الأعشاب وتحليلها ، وعلم منافعها ومضارها ... رحل فى سبيل ذلك الى جبل غرناطة وغيره من بلاد الأندلس ، وعاين فىوجهته المشرقية كثيرا مما لا يكون بالمغرب منه ، وفاوض هنالك كل من أمكنــه ممن يشهد له بالفضل فى معرفته ، ولم يزل باحثا عن حقائقه ، كاشــفا عن غوامضه حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقــدم فى الملة الاسلامية ، فصار أوحد عصره فى ذلك ، فردا لا يجاريه أحد فيه باجمــاع من أهل ذلك الشأن .

وكان له دكان متسع يقعد فيه ليبيع الحشائش الطبية والنفــع بهـــا (٢١٧) .

ويقال عنه أيضــا ، انه جال فى الأندلس ، ومغــرب العــدوة ، واستوعب المشهور من أفريقية ومصر والشام والحجاز والعراق ، حتى صار أوحد عصره فى ذلك ، لايجاريه فيه أحد من أهل هذا الشأن(٢١٨) .

(ب) العــلوم البحتــة

تنقسم العلوم البحتة بدورها الى قسمين رئيسيين ، الأول منهما يتناول العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والفـــلك ، والثانى يتناول الكيمياء والطبيعة .

(أ) وجدت المجموعة الأولى من هذه العلوم مبكرة فى الأندلس ، ولم تواجه أية مشاكل فى دراستها أو تدريسها ، وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة ، مثل تقسيم المواريث ومعرفة اتجاه القبلة ، وكذلك فان هذه العلوم كانت مهمة أيضا لحل بعض مشاكل الحيـــاة الدنيوية ، يقول أبو عمران الميورقى فى قصيدة له :

---

(٢١٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ص ٥١٢ ، ٥١٣ .
ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢١١ — ٢١٤ .
(٢١٨) احمــد شوكت الشــطى : حول علم النبات عند العــرب ، ص ٢٤٨ .

لولا الحساب وعلم كل فريضة
لم يعرف التحليل والتحريم(٢١٩) .

ويرى مؤرخ العلوم الأسبانى خوان بيرنيت ، أنه على الرغم من أن العلوم البحتة كانت قليلة نسبيا فى العالم الاسلامى بسبب اتجاه حركته التعليمية الى اعداد الفرد لحياة الآخرة ، ومن هنا كان تطور هذه العلوم بطيئا فى فترات الضغط الدينى ، والذى لم يكن يسمح الا بالشروح الضرورية لحل المشكلات المعقدة ، الناجمة عنتطبيق الشرائع القرآنية فى حالات تقسيم الميراث وعليه يمكن القول بأن نظام الأرقام قد انتشر دون صعوبة تذكر فى المشرق فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى ، منتقلا بأسرع مايمكن الى الأندلس ، ومنها بسرعة كبيرة الى الأراضى المسيحية ، فان مجموعة الرياضيات التجارية والهندسة المساحية لما يجدا الا صعوبات تافهة على طريق تطورهما ، وذلك لأهمية الأولى فى الحياة اليومية ، والثانية ، الى جانب علم النجوم ، شكلت الأساس للتوجيه الشرعى للمساجد ووضع الجداول الشمسية (٢٢٠) .

ويرى صاعد الطبقى أن منتصف القرن الثالث من الهجرة (التاسع الميلادى) هو بداية نهضة هذه العلوم فى الأندلس وبالتحديد على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وأول من يشير اليه صاعد ، ممن برزوا خلال هذا القرن هو أبو عبيدة بن مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة البلنسى ، المتوفى ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م (٢٢١) .

أما عصر الخلافة فى الأندلس فلقد شهد تطورا ضخما فى هذه

---

(٢١٩) ابن القاضى : درة الحجال ، ص ٢٣٨ .
(220) Vernet, J. : Los Musulmanes espanoles, pp. 97 , 98, Millas Vallicroca : Estudios sobrelah delaciencia, p. 23.
(٢٢١) صاعد الطبقى : طبقات الأمم ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

العلوم ، ولعب الحكم المستنصر دورا بارزا فى تشجيعها (٢٢٢) .

وأبرز الشخصيات فى هذا المجال هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمجريطى ، المتوفى ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، فهـو كما يقول عنه صاعد الطبقى ، كان امام الرياضيين فى الأندلس فى وقتـه ، وأنجب تلاميذ جلة (٢٢٣) ، وترك فى الأندلس ما يمكن أن نسـميه بمدرسـة المجريطى الرياضية (٢٢٤) .

ولقد كان لتعليم الحساب جوانب تربوية مهمة جـدا ، منها مثلا تعليم التفكير ، والتأنى ، والصدق ، ولقد أعجب أبو بكر بن العـربى بطريقة تعليم الحسـاب التى كان يتبعها المعلمون فى مكة المكرمة حيث يقـول : كنت أحضر عنـد الحاسب بتلك الديار المكرمة ، وهو يجعل الأعـداد على المتعلمين الحاسبين وأفواههم مملوءة بالمـاء ، حتى اذا انتهى القاؤه ، وقال ما يريد ، رمى كل واحـد بما فى فمـه ، وقال ما معـه ، وذلك ليعودهم خـزل اللسان عن تحصـيل المفهوم عن المسـموع (٢٢٥) .

والظاهرة التى تتجلى لنا من دراسة عشرات من تراجم معلمى الرياضيات بالأندلس ، أن الغالبية العظمى منهم كانوا يتداولون علم النجوم ، وأنهم كانوا يتعاطون أيضا الطب والفلسفة — فمثلا :

أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون ، المتوفى فى ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ، من أشراف أهل أشبيلية فى علوم الفلسفة ، مشهورا بعلم الهندسـة والنجوم والطب (٢٢٦) .

---

(٢٢٢) نفس المصدر ، ص ٨٨ .
(٢٢٣) صاعد الطبقى : المصدر السابق ، ص ٩٢ .
القفطى : اخبـار العلمـاء بأخبار الحكماء ، ص ٣٢٦ .
(224) Burckhardit : La Civilizacion hispanoárabe, p. 213.
(٢٢٥) ابن العربى : أحكام القـرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٨٣ .
(٢٢٦) صاعد : المصـدر السابق ، ص ٩٥ .

أبو بكر عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى . أحـد الراسخين فى علم العـدد والهندسة ، درس الهندسـة والطب فى المشرق ، وعاد الى الأندلس ، مستوطنا مدينة سرقسطة ، وهو الذى أدخل الى الأندلس رسائل اخوان الصفا ، لا نعلم أحدا أدخلها الى الأندلس قبله (٢٢٧) .

أبو جعفر أحمـد بن خميس ، من أهل طليطلة ، توفى ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ، وأحد المعتنين بعلم الهندسة والنجوم والطب ، برع فى ذلك ، وقعد لتعليمها زمانا طويلا (٢٢٨) .

ومن هؤلاء من مال أكثر ، الى دراسة علم الأفلاك وهيئاتهـا ، وحركات الكواكب وأرصادها ، مثل محمد بن عمر بن محمـد المعروف بابن البرغوث المتوفى عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ (٢٢٩) .

وفى علم الفلك يحسن أن نشـير الى العـالم الكبـير ابراهيم ابن حبيب أبو اسحق ، المعروف بولد الزرقيال الأندلسى (ت ٤٩٣ — ١١٠٠) ، يقـول عنه القفطى ، أبصر أهـل زمانه بأرصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك واستنباط الآلات النجومية ، وله صفيحة « الزرقيال » المشهورة فى أيدى أهل هـذا النوع التى جمعت من علم الحـركات الفلكية كل بديع مع اختصارها ، ولـما وردت على علماء هـذا الشأن بأرض المشرق حاروا فيها وعجزوا عن فهمها الا بعد التوفيق (٢٣٠) ، ويقـول عنه صاعد الطبقى : أنه أبصر أهل زماننا بأرصاد الكواكب ، وهيئة الأفلاك ، وحساب حركاتها (٢٣١) . ويصـفه أحـد مؤرخى

---

(٢٢٧) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٤ ، ٩٥ .
القفطى : أخبـار العلمـاء بأخبـار الحكماء ، ص ٢٣٣ .
(٢٢٨) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٩ .
شكيب ارسلان : الحلل السندسية — جـ ٢ ، ص ٣٩ .
(٢٢٩) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٥ .
(٢٣٠) القفطى : أخبـار الحكماء ، ص ٥٧ .
(٢٣١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٠ .
محمد عبد اللطيف مطلب : تاريخ علوم الطبيعة ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

العلوم الأسبان بأنه أكبر شخصية علمية عربية تركت تأثيرا على العلوم الأوربية اللاتينية (٢٣٢) ٠

(ب) أما عن مجموعة العلوم الخاصة بالكيمياء والطبيعة فلقد انتشرت أيضا فى الأندلس ، ولكن بصورة أقل ، وتحدثنا المصادر عن عباس بن فرناس الذى سبقت الاشارة اليه عند الحديث عن الدولة والتعليم ، أنه كان أول من تعاطاها هناك ، كما أن الذخيرة لابن بسام تحتفظ لنا بنص يفهم منه وجود معمل كيميائى يشرف عليه الوزير خالد بن يزيد المخزومى (٢٣٣) ٠

(جـ) العلوم الفلسفية

من الصعب القول بأن العلوم الفلسفية كانت ضمن المواد المعروضة للاختيار أمام الطلبة الأندلسيين ، حيث أن الفلسفة قد عانت كثيرا من الاضطهاد من علماء المالكية ، ولكن ذلك لا يعنى اختفاءها ، بل على العكس ، فاننى أرى أن الاضطهاد الذى صبه المالكيون فى الأندلس على الفلسفة قد جعل الاقبال عليها سرا أمرا شائعا ، وأدى الى انتشارها على مستوى واسع ٠ ويجب التفريق فى البداية بين علم المنطق وعلم الفلسفة ، حيث واجه الأول منهما مقاومة أقل مما واجه الثانى ، ووجد معلمون يقومون بتدريس المنطق عبر فترات طويلة من التاريخ الأندلسى ٠

أما الفلسفة فلقد شهدت فترات ازدهار وفترات اضطهاد ازدهرت على عهد الحكم المستنصر ، ثم تعرضت لاضطهاد على يد المنصور بن أبى عامر ، وعادت الى الازدهار على عصر الطوائف

---

(232) Millas Vallicrosa : Estydios sobre Alzarquil, p. 1.
Vernet, J. : La Cultura hispanoàrabe, pp. 40 , 41 y 138.
Vernet, J. : Ho. de la Ciencia Espanola, pp. 64 , 65.
Burckhardt : la civilizaction hispzno àrabe, p. 213.

(٢٣٣) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٨٣ — ١٨٧ ٠

ثم خمدت على عهــد المرابطين ، وعاشت أزهى أيامهــا على الأرض الأندلسية ، على عهد الموحــدين •

ولقــد أنجبت الأندلس المسلمة عــددا كبيرا نسبيا من رجال الفكر الفلسفى ، أهمهم : ابن حزم القرطبى (٩٩٤ هـ — ١٠٦٤ م) ، وأبو بكر محمــد بن يحيى بن الصــائغ المعــروف بابن باجة المتوفى ٥٣٣ هـ — ١١٣٨ م ، وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (١١٠٠ — ١١٨٥ م) ، ثم ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨ م) •

ويرى الدكتور جــودة عبد الرحمن فى مقدمته لوصية القاضى أبى الوليد الباجى أنه يمكن القول بأن الفلسفة قــد عاشت فى الأندلس على الرغم من فرض الحصار الشديد عليها ، وأنها قــد ظهرت أحيانا فى ثوبها الجميل وأخذت حصتها من التطور والازدهار ، وذلك حينما كان يقدر لهــا التأييد من ملك أو أمير ، وأحيانا أخرى تنكمش بعيدة عن قصور الخلفاء وبيوت الوزراء (٢٣٤) •

وليس هنا المجال للتأريخ للفلسفة فى الأندلس ، ولذلك أفضــل الاشارة الى بعض المراجع التى يمكن الاطلاع عليها (٢٣٥) •

د — العــلوم الاجتماعية

تطــورت العلوم الاجتماعية فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا ، ساعد على ذلك أن ذلك الفرع خاصــة ضمن العلوم العقلية ، يتصــل اتصــالا وثيقــا بالعلوم الدينية ، فالتاريخ مثلا يرتبط مباشرة بكتابة السيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين ، والعلمــاء ، أما الجغرافية فلقد دعا الى الاهتمام بها ، اتساع الدولة الاسلامية ، وضرورة تحديد الطرق والاتجاهات • وحيث أن الأندلس كانت تقع فى أقصى الغرب ،

---

(٢٣٤) عبد الرحمن : جودة : وصية القاضى ابى الوليد البــاجى ، ص ٢١ •

(٢٣٥) محمــد لطفى جمعة : تاريخ فلاســفة الاســلام فى المشرق والمغــرب •

أو فى أقصى الشمال الغـــربى من هـــذه الأمة الاســـلامية ، وقيـــام الأندلسيين بالرحلات الى المشرق سواء للحج أو للدراسة ، قد أعطاهم الفرصة للاهتمام بعلم الجغرافيا • أما التراجم والسير فانهـــا أيضـــا تتصل اتصالا وثيقا بالعلوم الدينية ، وبدأت بالاهتمام بالسيرة النبوية وسيرة الصحابة ومن جاء بعدهم ، ثم ظهرت المدارس الفكرية ، وكتابة سير رجالها وتراجمهم •

وقد اتخذت كتابة التاريخ فى الأندلس اتجاهين عامين، أولهما كتابة تاريخ الأندلس فى مجمله أو كتابة عصر معـــين أو تاريخ دولة ما من دوله ، ثم الكتـــابات المتخصصـــة عن شتى نواحى الأندلس وبلاده أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء ••• الخ •

ومن الصعب جدا الالمام بكل المؤرخين الأندلسيين ، أو من كتبوا كتبا تاريخية ، كما أنه أكثر صعوبة الاحاطة بكل المؤلفات ذات الصبغة التاريخية — وسأشير فقط الى أهم المؤرخين الأندلسيين :

عبد الله بن حبيب ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، هـــو أول مؤرخ أندلسى ، حـــاول أن يكتب تاريخا عاما للعـــالم ، وذلك قبـــل أن يكتب الطبرى تاريخه بحوالى قرن من الزمان (٢٣٦) •

أحمـــد بن محمـــد الرازى ، المتوفى ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، ويعتبر أحمـــد بن محمـــد الرازى — على ما يقول الدكتور حسين مؤنس — أبا الجغرافيا والتاريخ فى الأندلس فى آن واحـــد • ولقد أخذ اهتمامه بالتاريخ عن والده محمد بن موسى ، المتوفى ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وعن أستاذه قاسم بن أصبغ البيانى •

---

(٢٣٦) المقـــرى : النفح — ج ٢ ، ص ٢١٥ .
وانظر المقـــدمة التى كتبها الدكتور محمود على مكى لتحقيقه للسفر التانى من مقتبس ابن حيـــان ، ومقالته عن ابن حبيب فى :
Makki, M. A : Egipto y los. origenes de la historiografia Arabigo — Espanola.

وكان أحمـد هـذا ميالا بطبعه الى التعرف على أحوال الدنيا والبشر وانصرف الى الجغرافيا والتاريخ انصرافا تاما ، أرسى به أسس هذين العلمين فى بلاده (٢٣٧) .

ويقول عنه ابنه عيسى ، وهو مؤرخ كبير أيضا :

توفى الجـد فى ألبيرة عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م ، وابنه أحمد والدى يومئذ طفـل ابن ثلاثة أعوام ، فأقره أهله بالأندلس ، ونشأ فيهـا ، فطلب العلم ومال الى الأدب ، فغلبه عليـه حب الخبر والتنقير عنه ، ولم يكن من شأن أهـل الأندلس ، فالتقطه عمن لحقه من مشيختهم ، ورواتهم ، ودونه ، ووضع قواعد التاريخ بالأندلس ، مبتدئا ، فأزلفه السلطان واعتلت به منزلة ولده من بعده ، وأكسبوا أهل الأندلس علما لم يكونوا يحسنونه (٢٣٨) .

ولاشك أن الرازى هو أول من كتب تاريخا موضـوعيا للأندلس المسـلمة ، وعليه اعتمـد كثير من المؤرخين والمؤلفين ، لكن الأعمال الأصلية للرازى فقدت ، ولم تصلنا منهـا الا شذرات مترجمـة الى البرتغالية والأسبانية ، وما حفظ ضمن نقول المؤلفين الآخرين .

محمد بن القوطية المتوفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، الذى كان حافظـا لأخبار الأندلس ، ملما برواية سيرة أمرائها (٢٣٩) ، لقد ترك لنا كتابا عن افتتاح الأندلس (٢٤٠) .

---

(٢٣٧) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيـة والجغرافيين فى الاندلس ، ص ٥٦ .

(٢٣٨) ابن حيان : المقتبس (طبعة مكى) ، ص ٢٦٩ .
Levi Provencal : Ho de la Espana Musulmana, 11.76.

(٢٣٩) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس ـ ج ٢ ، ص ٧٦ .

(240) Riberá ,J. : Ho de la conquista de Espana de Ibn al Qutiyya de Cordoba.
Chalmeta, P. : Una historia discontinua e intemporal.

ابن حيان القرطبى ، المتوفى ٤٦٩ هـ / ١٠٧٦ م ، « الذى يتفق الكثيرون على أنه من أعظم مؤرخى الاسلام ، وهـو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب كله ــ الاسلامى والمسيحى منـه على السواء ــ طوال العصور الوسطى » (٢٤١) .

أهم مؤلفات ابن حيان كتاباه : المقتبس والمتين . والمقتبس يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى فى سنة ٩١ هـ / ٧١١ م ، حتى عصر المؤلف تقريبا ، ولقد أشار اليه ابن حزم ضمن رسالته فى فضل الأندلس قائلا :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، أجل كتاب ألف فى هـذا المعنى » (٢٤٢) .

ويتألف المقتبس لابن حيان من عشرة أسفار ووصلت الينا بعض قطعه ، علاوة على النصوص التى نقلها منه المؤرخون الذين جاءوا بعده والقطع التى وصلت من المقتبس هى :

ــ قطعة كبيرة فى حدود ١٨٨ ورقة ، تتناول عصر الأمير الحكم ابن هشام (١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ / ٧٩٧ ــ ٨٢١ م) وشطرا كبيرا من امارة عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ــ ٢٣٢ هـ / ٨٢١ ــ ٨٤٦ م) ، وكانت فى حوزة المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ثم فقدت منه فى عام ١٩٥٧ ولم تظهر بعد (٢٤٣) .

---

(٢٤١) محمود على مكى : مقدمته للجـزء الثـانى من مقتبس ابن حيـان ، ص ٧ و ص ١٠٤ .

جمال الدين : عبد الله : ابن حيان الاندلسى ــ ابو مروان بن حيان ، أمير مؤرخى الأندلس ــ مجلة أوراق ــ العدد الثانى ١٩٧٩ ، الصـفحات من ١٤ الى ٣٧ .

(٢٤٢) المقـرى النفح ــ ج ٤ ، ص ١٦٧ .

(٢٤٣) محمـود مكى : مقدمته للسـفر الثـانى من المقتبس ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ (وقد ظهرت فى الاسكندرية بعد ذلك) .

ـ قطعة ثانية تتناول السنوات الأخيرة من عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط ومعظم عهد الأمير محمد ، وتشتمل على خمس وتسعين ورقة قام بنشرها الدكتور محمود على مكى فى بيروت عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

ـ قطعة تتناول عصر الأمير عبد الله (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ ـ ٩١٢ م) . وتبلغ حوالى مائه وسبع ورقات ، نشرها الأب ميلتشور أنطونيا بباريس عام ١٩٣٧ .

ـ الجزء الخاص بالسنوات الثلاثين الأولى من حكم عبد الرحمن الثالث ، قام بنشره الدكتور بدرو شالميتا وآخرون تحت عنوان الجزء الخامس من مقتبس ابن حيان ، وذلك بالمعهد الأسبانى العربى للثقافة بمدريد عام ١٩٧٨ .

ـ جزء آخر صغير يتناول خمس سنوات من عهد الحكم المستنصر بالله من ٣٦٠ ـ ٣٦٤ هـ / ٩٧٠ ـ ٩٧٤ م ، قام بنشره باللغة العربية فى بيروت عام ١٩٦٥ ، الدكتور عبد الرحمن الحجى ، ثم قام الدكتور غارثيا غوميث بنشر ترجمة باللغة الأسبانية فى عام ١٩٦٧ بناء على مخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ تحت عنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba al Hakam 11
por Isa b. Ahmad al Ràzi.

أما عن كتاب المتين لابن حيان فلم يصلنا منه أية قطعة متكاملة ، لكن كتاب الذخيرة لابن بسام ، قد احتفظ بنصوص كثيرة قيمة ، كانت موضوعا لرسالة دكتوراه ، قام بها الباحث المصرى الدكتور

---

(٢٤٤) انظر ايضا :

Levi Provencal : Textos Inèditos del Muqtabas de Ibn Hayyan sobre los origenes del Reino de Pamlona.
Chalmere, O. : Historiografia Medieval Hispano-Arabe.
Chalmere, O. :Treinta anos de nuestra historia hispana del Muqtabas de Ibn Hayyan.

عبد الله جمال الدين حيث جمع النصوص وترجمها الى الأسبانية(٢٤٥) .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى ، المعروف بابن الأبار (٥٩٥ — ٦٥٨ هـ / ١١٩٩ — ١٢٦٠ م) (٢٤٦) ، وهو من كبار مؤرخى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، وأهم مؤلفاته التى خلفها : الحلة السيراء (٢٤٧) .

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلمانى ، المعروف بابن الخطيب ، المولود فى لوشة فى الخامس والعشرين من رجب عام ٧١٣ هـ ، ١٦ نوفمبر ١٣١٣ م ، والمقتول فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

كان القرن الثامن الهجرى فى مملكة غرناطة ، بالنسبة لمجال الفكر والأدب قرن النضج والازدهار ، وفيه ظهرت مجموعة من كبار المفكرين والشعراء والكتاب مثل ابن خاتمة الانصارى (٢٤٨) ، وأبو الحسن بن الجياب (٢٤٩) ، وابن جزى (٢٥٠) ، ولسان الدين ابن الخطيب ، وابن زمرك (٢٥١) ، وأبو سعيد بن لب (٢٥٢) .

ولقد كان ابن الخطيب أعظم شخصية ظهرت ضمن هذا العدد الضخم من العلماء والأدباء والمفكرين ، كما أنه كان شخصية

---

(٢٤٥) ابن حيان : المتين ، تحقيق عبد الله جمال الدين .

(٢٤٦) أنظر فى ترجمات ابن الآبار :
الغبرينى : عنوان الدراية ، ص ٣٠٩ — ٣١٣ (الترجمة ٩٥) .

(٢٤٧) أنظر الكتاب والمقدمة التى اعدها الدكتور حسين مؤنس لطبعته فى القاهرة ١٩٦٣ ، وكذلك رسالة الدكتوراه التى قدمها الدكتور عبد الله الطباع بجامعة مدريد عن هذا الكتاب .

(248) Gibert, C. : el Diwan de Ibn Jatima de Almeria.
ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٥٣ .

(٢٤٩) المقرى : نفح الطيب — ٧ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٤ .

(٢٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢٥١) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٢ ، ص ٣٠٠ — ٣١٥ .

(٢٥٢) ابن الخطيب : أوصاف الناس فى التواريخ ، ص ٣٢ .

موسوعية ، برزت مواهبه فى كل مجالات المعرفة ، وكان كما يصفه الأستاذ محمد عبد الله عنان أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى (٢٥٣) .

ولقد ترك لنا ابن الخطيب مجموعة كبيرة من الكتب أهمها الاحاطة فى أخبار غرناطة الذى انتهى من تحقيقه ونشره فى ٤ أجزاء المؤرخ المصرى محمد عبد الله عنان (٢٥٤) ، كما أنها كانت فى جزء منها موضوعا للدكتوراه ، قدمه الباحث الكويتى يوسف الحشاش ، بجامعة مدريد المركزية (٢٥٥) .

وأكتفى فى هذا المادة ، بالاشارة الى الدراسة القيمة التى نشرها الأستاذ بونس بوجسى (٢٥٦) ، مع التأكيد بأن التاريخ كان مادة تدرس وتقرأ كتبه ، أشار الى ذلك ابن خير فى فهرسته ، مستعرضا الكتب التاريخية التى درسها على أساتذته (٢٥٧) .

ولقد تطور علم الجغرافيا أيضا فى الأندلس المسلمة ، بدرجة عظيمة ربما بسبب الموقع الجغرافى ، وربما بسبب المستوى الثقافى المرتفع الذى عاشته الأندلس ، ولذلك فلدينا من الجغرافيين الأندلسيين مجموعة كبيرة أشهرهم :

أحمد بن أنس العذرى ، ولد فى المرية عام ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م ، وتوفى فى بلنسية ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، ترجم له الكثيرون من رجال التراجم الأندلسيين ، وألف مجموعة كبيرة من الكتب ، ووصلنا بعض

---

(٢٥٣) عنان : مقدمة الاحاطة — جـ ١ ، ص ١٨ .

(٢٥٤) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان — القاهرة — ١٩٧٣ — ١٩٧٧م .

(٢٥٥) يوسف الحشاش : المحمدون فى الاحاطة ، رسالة دكتوراه ، بجامعة مدريد المركزية — قسم اللغات السامية ، ١٩٧٩م .

(256) Pons Boigues : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géografos aràbigo espanoles.

(٢٥٧) ابن خير : الفهرسة ، ص ٤٧٨ .

أجزاء من كتابه عن جغرافية الأندلس قام بنشرها وتحقيقها العالم المصرى الكبير الدكتور عبد العزيز الأهوانى (٢٥٨) •

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ، المعروف بأبى عبيد البكرى المتوفى ٤٨٧ هـ /١٠٩٤ م ، الذى ألف مجموعة كبيرة من المؤلفات ، يهمنا منها فى هذا المجال ، كتاب « المسالك والممالك » الذى قام بتحليل أهميته ومادته الجغرافيــة الدكتور حسين مؤنس ، ونشر فى بيروت عام ١٩٦٨ م (٢٥٩) •

عبد اللــه بن ابراهيم الحجارى ، المتوفى ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م ، وتتضح لنا أهمية هــذا الجغرافى الكبير ، اذا علمنا أنه يندر أن تجد مؤلفا أندلسيا كتب بعده دون أن يشير اليه مما يدل على أن كتابه كان مرجعا وحجة ، وأنه أضاف الى المكتبة الأندلسية شيئا جديدا (٢٦٠) •

أما قمة الجغرافية فى الأندلس ، بل قمة الجغرافيا فى الاسلام ، فهو الشريف الادريسى (٤٩٣ — ٥٦٠ هـ / ١١٠٠ — ١١٦٤ م) ، الذى ألف كتابه العظيم فى الجغرافيا ، المسمى « نزهة المشتاق » (٢٦١) ، وأحيل الى الدراسة القيمة التى قام بها المؤرخ المصرى الدكتور حسين مؤنس فى كتابه عن تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس (٢٦٢) •

مادة أخرى تطورت فى الأندلس المسلمة تطورا كبيرا — أقصد بذلك

---

(٢٥٨) الحميــدى : جذوة المقتبس ، ص ١٢٧ — ١٢٩ .
العــذرى : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الدكتور عبد العــزيز الأهــوانى .
مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، ص ٨١—٩٦ .

(٢٥٩) البكرى : المســالك والمــالك ، تحقيق الحجى — بيروت — ١٩٦٨ .
مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٠٨ — ١٤٨ .

(٢٦٠) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ١٤٩ — ١٦٤ .

(٢٦١) الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

(٢٦٢) د. حســين مؤنس : تاريخ الجغــرافيا والجغرافيين ، ص ١٦٥ — ٢٨٠ .

علم التراجم ، حيث ترك لنـا المؤلفون الأندلسيون سلسلة متواصلة الحلقات من كتب التراجم ، التى تناولت تاريخ حياة علماء الأندلس وأدبائه وشعرائه ومؤرخيه وجغرافييه وفلاسفته ... الخ .

ويقول الدكتور عبد العزيز الأهوانى عن هـذا العلم ، انه نشأ فى أول أمره متصلا بعلم الحديث أو علم الرواية ، وكان هدفه الأول علم معرفة رجال الأسانيد ، وحالهم من الثقة أو عدم الثقة ، وما يتصل باسانيدهم وبلادهم ورحلاتهم ، ومن لقوه وأخذوا عنه ليعرف من ذلك الأحـاديث الصحيحة من الأحـاديث الزائفـة التى دخل أسانيدها الخلل (٢٦٣) .

وهناك كتب عامة فى هـذا المجال ، أهمها :

تاريخ علماء الأندلس ، لمحمد بن حارث بن أسد الخشنى المتوفى بقرطبة عام ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، ويضم تراجم الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى ومازال مخطوطا حتى الآن بالخزانة الملكية بالرباط(٢٦٤).

تاريخ علمـاء الأندلس لأبى الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وهو من أشهر كتب التراجم الأندلسية، وطبع عـدة مرات ، وأحصى فيـه حـوالى ١٧٦٦ عالمـا من علماء الأندلس (٢٦٥) .

جذوة المقتبس لمحمـد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، المتوفى ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، وهـو أيضـا قـد طبع عدة مرات ، وجاء به ٩٨٧ ترجمة (٢٦٦) .

---

(٢٦٣) عبد العـزيز الأهوانى : صلة الصـلة لابن الزبير والذيل والتكمـلة لابن عبد الملك ، ص ١٤ (مجلة المعهـد المصرى للدراسات الاسلامية — العدد الثالث — المجلد الأول ، ١٩٥٥ م .

(٢٦٤) الفـاسى : عبد الرحمن : منتخبات من نوادر المخطـوطات بالخزانة الملكيـة ، ص ١٣٦ .

(٢٦٥) ابن الفرضى : تاريخ علمـاء الأندلس .

(٢٦٦) الحميـدى : جـذوة المقتبس ، تحقيق محمـد بن تاويت — القـاهرة .

الصلة لخلف بن عبد الملك بن بشكوال ، المتوفى ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، وتوجد له عدة طبعات أيضا ، وبه حوالى ١٤٤٠ اسما (٢٦٧) .

كتاب تكملة الصلة لابن الأبار ، المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وهو أيضا مطبوع . وأورد فيه ابن الأبار حوالى ٢٥٠٠ اسما (٢٦٨) .

كتاب الذيل والتكملة لمحمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى المتوفى ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، ويوجد من هذا الكتاب الضخم مجموعة من الأجزاء قام بتحقيقها الدكتور احسان عباس والدكتور محمد ابن شريفة وأورد به أكثر من ٣٠٠٠ ترجمة (٢٦٩) .

صلة الصلة لابن الزبير (٢٧٠) ، ولقد نشر بعض أجزائه والباقى ما زال مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وتوجد صورة منه فى جامعة غرناطة .

ثم تأتى بعد ذلك مؤلفات ابن الخطيب وهى تغطى تراجم علماء القرن الثامن حتى وفاة ابن الخطيب فى عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م (٢٧١) .

وهناك كتب تراجم خاصة اهتم بها الأندلسيون ، وتناولوا فيها فئات معينة من العلماء مثل طبقات الأطباء لابن جلجل (٢٧٢) ، وكتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض الذى تناول فيه علماء المالكية فى الأندلس (٢٧٣) .

---

(٢٦٧) ابن بشكوال : الصلة .
(٢٦٨) ابن الأبار : التكملة .
(٢٦٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، لكتابى الموصول والصلة .
(٢٧٠) ابن الزبير : صلة الصلة .
(٢٧١) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة .
ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة .
(٢٧٢) ابن جلجل : طبقات الأطباء .
(٢٧٣) اليحصبى : ترتيب المدارك .

وأختتم هــذا العرض المختصر للعلوم التى كان يمكن للدارس تناولها فى المرحلة التعليمية الثانية ، مشيرا الى أن هناك الكثير من المواد الأخرى التى لم أرغب فى التطرق اليها ، مثل علم الأنساب(٢٧٤)، والبرامج والفهرسات التى كانت متداولة بين أيدى الدارسين على مدار التاريخ الأندلسى ويكفى القــاء نظرة على فهرســة ابن خير أو على برنامج التجيبى (٢٧٥) ، أو برمجة الرعينى (٢٧٦) ، لنحاط علما بضخامة عــدد الكتب وتنوع المواد التى كان يسعى الطلاب لدراستها فى الأندلس .

طــرق التعليم فى المرحلة الثانيــة

تمايزت طرق التعليم فى هــذه المرحلة ، من معلم الى آخر ، حسب مستوى التلميــذ ، وحسب المــادة التى تدرس ، ولكن من الممكن اجمالها فى الطرق التالية :

١ ــ الاقــــراء :

وهو أشهر طرق التعليم فى هذه المرحلة، ويتلخص فى أن يمسك المعلم كتابا ويقرأ منه ، ويقــوم الطلبة بكتابة نسخهم ، أو أن يقوم طالب من المجموعة بالقراءة فى حضرة الأستاذ ويقوم الطلبة الآخرون بالكتابة ، ويعمل الأستاذ على تصحيح القراءة وتقــديم النطق السليم للكلمات والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء ... الخ . وهــذه الطريقــة هى الأكثر شيوعا فى تعليم القراءات القرآنيــة ، كما أنهــا تستخدم عامة فى العلوم الدينية واللسانية ، مع بعض الطرق الأخرى . يقــول ابن بشكوال مثلا عن أحمــد بن عبد الرحمن بن عبد الحق الخزرجى المتوفى فى ســنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، أنه أقرأ الناس مــدة طويلة ،

---

(٢٧٤) ابن حزم : جمهــرة انساب العرب ــ وانظر أيضا مقالة :
Teres, E. : Linajes - arabes en al - Andalus.

(٢٧٥) كان موضوعا لرسالة دكتوراه السيدة انا راموسى ، جامعــة الأوتونوما ــ مدريد .

(٢٧٦) تام بتحقيقه ونشره الدكتور ابراهيم شبوح ، ونشر بدمشــق عام ١٩٦٢ .

وعمر وأسن وجالسته وأنا صغير السن (٢٧٧) .

عبد الرحمن بن عبدالرحمن بن عبد الله الأزدى الأشبيلى،المعروف بابن الخراط ، المتوفى ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م ، كان فقيها محدثا ، وكان رحمه الله متواضعا ، وكان اذا صلى الصبح فى الجامع ، أقرأ حتى الضحى ، ثم يعود بعد ذلك الى منزله ليشتغل بالتأليف ، وكان لا يدخل بجاية أحد من الطلبة الا سأل عنه ، ومشى اليه ، وآنسه بما يقدر عليه (٢٧٨) . ويقول الضبى عن نفس الأستاذ ، ان له تواليف حسانا ، قرأت عليه بعضها (٢٧٩) .

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى عيسى المتوفى ٤٢٩ هـ / ١٣٠٧ م ، كان أحد الأئمة فى علم القرآن العظيم ، قراءاته واعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه ومعانيه ، سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسبا (٢٨٠) .

ويحكى أبو الحسن بن مغيث عن أستاذه أحمد بن عبد الله التميمى المتوفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، أنه كان يختلف عليه ، ليقرأ عليه كتب الأدب بالمسجد الجامع ، حيث كان له موضع مخصص لاقرائه (٢٨١) .

٢ — الاملاء :

وهى طريقة مشابهة للاقراء ، لكنها تميل أكثر الى القول من الذاكرة حيث يملى المعلم على طلبته ما يعرفه من علوم ، فمثلا ، يحيى بن ملك بن عايذ بن كيسان ، المتوفى سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، عاد من رحلته فى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ، فسمع منه ضروب من الناس

---

(٢٧٧) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٧٤ .
(٢٧٨) الضبى : بغية الملتمس ، ص ٣٩١ .
(٢٧٩) الضبى : بغية الملتمس ، ص ٣٩١ .
(٢٨٠) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٢٨١) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

وطبقـات طلاب العلم وأبناء الملوك ، وجماعة من الشيوخ والكهول ، وكان يملى فى المسجد الجامع ، فى كل يوم جمعة (٢٨٢) .

ويمكن لنا تبين الطريقتين ، الاقراء والاملاء ، من الترجمة التى أوردها ابن بشكوال لأحمد بن عبد الله بن طريف ، المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، حيث يقول : قرأت على أبى مروان الطبنى قال : قرأت على أبى الحسن على بن عمـر الحرانى بمصر ، قال : أملى علينا حمـزة ابن محمد الكنانى (٢٨٣) .

٣ — المنـاظرة او الحـوار :

وهى طريقـة تبدأ فيهـا المسألة ، بطرح سؤال من الطالب على الأستاذ ، ثم يبدأ الأستاذ فى الاجابة على السؤال مبينا كل جوانبـه ونواحيه ، وخفاياه وما يترتب عليـه . أو أن الأستاذ نفسه يفترض السؤال كما لو كان موجهـا اليه ، ثم يبدأ هو فى الاجابة على هـذا السؤال ، ولدينا كثير من التراجم التى اعتمد فيها الأساتذة على طريقة المناظرة فى تعليمهم فيقال مثلا عن أحمد بن محمـد بن رزق الأموى ، المتوفى ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، انه كان مـدار طلبة الفقه فى قرطبة فى المناظرة والمدارسة ، والتفقه عنده (٢٨٤) .

أحمد بن محمد بن عمر التميمى ، من أهل المرية ، توفى ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، ناظر عند الفقيهين ابن رشد وابن العواد (٢٨٥) .

وهناك طرق أخرى كثيرة ، يمكن لنـا أن نستخرجهـا من كتب التراجم ، وهى :

الأخذ عن ، الرواية عن ، الملاقاة ، السماع ، الجلوس الى الدرس على ، الاختلاف الى الشيوخ ... الخ .

---

(٢٨٢) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس — جـ ٢ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .
الضبى : بغيـة الملتمس ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
(٢٨٣) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .
(٢٨٤) ابن بشكوال : الصلة — جـ ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٢٨٥) ابن بشكوال : الصـلة — جـ ١ ، ص ٨٦ .

ومن أهم سمات التعليم فى هذه المرحلة ملازمة الشيوخ ومصاحبتهم وكلما طالت المدة كلما كان ذلك فى صالح التلميذ حتى أن بعض هؤلاء لكثرة ملازمة شيوخهم ، يصبحون متخصصين فى نفس مواد هؤلاء الشيوخ فنجد أن على بن أحمد بن أبى قوة المتوفى ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م ، قد لازم أستاذه أبا القاسم بن حبيش عشرين سنة كاملة (٢٨٦) .

عثمان بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم العبدرى المتوفى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م ، لازم شيخه عبد الرحمن بن يوسف بن الحسن خمسة عشر عاما (٢٨٧) .

ويقال عن أحمد بن محمد بن أحمد بن بقى بن مخلد المتوفى ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، انه صحب أبا عبد الله محمد بن مفرج الفقيه ، وانتفع بصحبته (٢٨٨) .

أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمى ، المتوفى ٥٣٣هـ / ١١٣٨م ، صحب أبا على حسين بن محمد الغسانى ، واختص به ، وأخذ منه معظم ما عنده (٢٨٩) .

أحمد بن صارم النحوى الباجى ، عنى بكتب الأدب واللغة ، أخذ ذلك عن أبى نصر هارون بن موسى المجريطى ، وقيد عنه واختص به (٢٩٠) .

أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، قاضى قرطبة ، المتوفى ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، أخذ عن أبيه ولازمه طويلا (٢٩١) .

---

(٢٨٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — الجزء الأول ، ص ١٥٤ .

(٢٨٧) المراكشى : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(٢٨٨) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٧٩ .

(٢٨٩) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٠ .

(٢٩٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٥١ .

(٢٩١) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٨٣ .

ويقوم الطالب بدراسة مادة ما أو أكثر على أستاذ معين ثم ينتقل الى أستاذ آخـــر ليسمع منه مادة أخرى أو عدة مواد ، وفى كل مادة يقوم الطالب بدراسة كتاب معين أو عدة كتب وقـــد يقرأ على أستاذه كتابا واحـــدا فقط أو يقرأ عـــدة كتب ، فلقد قرأ ابن خير على معلمه أبى الحسن بن شريح أكثر من اثنى عشر كتابا فى علم القراءات (٢٩٢) • كما أنه سمع من أستاذه عيسى بن أبى البحر الزهرى أكثر من عشرة كتب فى القراءات واللغة •

والحفظ هو الأساس فى العملية التعليمية ؛ حيث يجب أن يحفظ الطالب الكتاب الذى يقرؤه ، كما أنه من الضرورى أن يكون الأستاذ حافظا لمـــادته وخاصة فى مجـــال العلوم الدينيـــة والعلوم اللسانية والتكرار هو أفضل وسيلة لكى يتمكن الطالب من حفظ دروسه ،فاذا كان محمد بن يحيى بن هاشم يحفظ الموطأ والبخارى ويقرأ من حفظه كتاب البخارى على الناس (٢٩٣) فان عبد الله بن محمد بن عيسى كان يختم كتاب سيبويه كل خمسة عشر يوما (٢٩٤) •

والأستاذ العـــالم ، سعد بن أحمد بن ليون التجيبى (من رجال القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى) يقول :

من لم يكن علمـــه فى صـــدره نشبت
يـــداه عن الســـؤالات التى تـــرد
العـــلم ما أنت فى الحمـــام تحضره
وما ســوى ذلك التكليف والكمـــد (٢٩٥)

كما يقول محمد بن عبد الرحيم الغرناطى :

تكتب العـــلم وتلقى فى ســـفط
ثـــم لا تحفظ ؟ لا تفـــلح قـــط

---

(٢٩٢) انظر الفهرسة ــ الصفحات ٢٣ ــ ٢٦ و ص ٣١ •
(٢٩٣) ارسلان : الحلل السندسية ــ ج ٢ ، ص ١٣٨ •
(٢٩٤) السيوطى : بغيـــة الوعاة ــ ج ٢ ، ص ٥٩ •
(٢٩٥) المقـــرى : نفح الطيب ــ ج ٨ ، ص ٥٩ •

انمـــــا يفـــلح من يحفظـــــه
بعـــد فهـم وتـــوق من غلـــط

ويقـــول :

العــلم فى القلب ليس العــلم فى الكتب
فــلا تكن مغــرما باللهــو واللعب (٢٩٦)

وتتجلى أهمية الحفظ ، فى حالات احراق الكتب الأصلية أو ضياعها . ولقــد صــور لنا هــذه الأهمية المفكر القرطبى العظيم ابن حزم حين يقــول :

فان تحــرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضــمنه القرطاس بل هــو فى صــدرى

يسير معى حيث اســـتقلت ركائـــبى
وينزل ان أنزل ويــدفــن فى قبـــرى

دعــونى من احــراق رق وكاغــد
وقولوا بعــلم كى يرى الناس من يدرى

والا فعـــودوا فى المكاتب بـــدأة
فكم دون ما تبغــون لــه من ستر (٢٩٧)

اوقات التعليم

ليس هناك وقت محدد بالضبط لحضور الدروس فى هذه المرحلة، حيث يرتبط ذلك غالبا بوقت الأستاذ ، وغالبا ما يكون الصباح هو أكثر الأوقات ملاءمة لكى يقوم المعلم بالقاء دروسه ، فمثلا عبد الحق بن عبد الرحمن المشــار اليه من قبل ، كان اذا صــلى الصبح فى الجامع

(٢٩٦) المقــرى : نفح الطيب ــ ج ٣ ، ص ٥ ، ٦ .
(297) Gozalbez Busto : El Libro y las Bibliotecas en la Espana Musulmana, p. 24.
Vernet, J. : Los Musulmanes Espanoles, p. 81.

أقرأ حتى الضحى (٢٩٨) .

كما أن هناك قصة أوردها الضبى ضمن حديثه عن أحمد بن خلف ابن عيشون المتوفى ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م ، مفادها أن هـذا حينما أراد القراءة على الشيخ محمد بن شريح ، وطلب منـه أن يعين له وقتا للقراءة ، قال له ابن شريح : « اذا سمعت أول الأذان فأتنى — أى أنه خصص له وقت الفجر ليقرأ عليه » (٢٩٩) .

وليس معنى ذلك الاقتصـار على الفترة الصباحية فحسب لأن بعض المعلمين كان يجعل وقت اقرائه بعد صلاة العصر ، وقبل صلاة المغرب (٣٠٠) . ولكن بما أن الطالب يقوم بدراسة أكثر من مادة واحدة فى ذات الوقت ويذهب الى أكثر من معلم فى نفس اليوم ، فان الوقت الدراسى كان من المرونة بحيث يتناول اليوم بأكمله .

ويحرص الطلبة على الوصول الى مكان أستاذهم مبكرين فنجد أن عبد الله بن حمود بن مذحج الزبيدى ، المتوفى ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، ينام فى مزود دابة أستاذه ليكون أول وارد عليه فى الصباح (٣٠١) .

وهنـاك بعض الحالات الخاصة ، لا يتقيد فيهـا بوقت معين ، وخاصة عند حضور أحـد الغرباء الى المدينة ، فعند مرور أبى على الصدفى بسبتة الى الأندلس فى عام ٤٩٠ هـ / ١١٠١ م ، قرىء عليه اذ ذاك جامع الترمذى ولازم النـاس سماعه بالجامع ليلا ونهارا ، وكانوا يبيتون بالمقصـورة ، حتى كمـل فى مـدة يسـيرة ، لفرط استعجاله (٣٠٢) .

---

(٢٩٨) الضـبى : بغيـة الملتمس ، ص ٣٧٨ .
(٢٩٩) الضبى : بغية الملتمس ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .
(٣٠٠) المقـرى : ازهار الرياض — ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
(٣٠١) المراكشى : الذيل والتكملة — القسم الرابع ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .
المقـرى : النفح — ج ٣ ، ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .
(٣٠٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٥٤ .

حلقـــات التعليم

كان المعلم يجلس الى جوار عمود من أعمدة المسجد ، أو فى صدر المكان الذى اتخذه لتعليم طلبته ، ويطلق على المكان اسم المعلم الذى يشغله ، وخاصـــة اذا ما استمر فيه مدة طويلة . وبعد وفاة المعلم ، يقوم بشغل المكان ابنه ، أو أحد طلبته النبهاء . ولدينا بعض البيانات التى تنص على أن الابن يخلف أباه فى حلقته ، منها :

أن أبا القاسـم بن الامام القـاضى أبى الوليد الباجى المتوفى ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م ، قد سكن سرقسطة وغيرها ، وروى عن أبيه معظم علمه ، وخلفه فى حلقته بعد وفاته (٣٠٣) .

عياش بن محمـــد بن عبد الرحمن الأشبيلى ، المتوفى ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، كان قـــد أحكم القراءة على أبيه ، وتصدر للاقراء بعده ، وخلفه فى حلقته (٣٠٤) .

سعد بن محمد بن عبد الرحمن بياسى ، أخـــذ عن أبيه وغيره ، وتصدر بعد أبيـــه للاقراء (٣٠٥) .

غالب بن عبد الله بن أبى اليمن ، المتوفى عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م ، أقرأ بمجلس أبيه فى حياته ، وبعد وفاته ، وأسمع الحديث ، ودرس العربية ، والآداب (٣٠٦) .

عصـــام بن أحمـــــد بن محمـــد بن ابراهيم ، قرطبى ، توفى ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م ، كان باهرا فى علوم اللسان ، رشحه أبوه للاقراء

---

(٣٠٣) المقـــرى : النفح — جـ ٣ ، ص ٤٠١ .
(٣٠٤) المراكشى : الذيل والتكمـــلة — السفر الخامس — القســـم الثانى ، ص ٤٨٨ .
الذهبى : معـــرفة القـــراء ، ص ٤٥٥ .
(٣٠٥) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الرابع ، ص ٤٣ .
(٣٠٦) المراكشى : نفس المصدر — السفر الخامس — القسم الثانى ، ص ٥١٩ .

بمجلسه فأقرأ فيه مــدة (٣٠٧) .

أحمد بن محمد بن عبد الله المعافرى ، توفى بعد عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م ، تصدر لتدريس ما كان عنده من فنون المعارف بعد جده(٣٠٨) .

ومن ناحية أخرى فقد يقوم الأستاذ باختيار أحد طلبته ليتولى التدريس فى مكانه بعد وفاته ، مثلما حدث مع على بن حسين بن ابراهيم ابن يحيى ، المتوفى ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، حيث كتب بموضع أبى عبد الله ابن عبدون بعد وفاته بتنبيهه عليه وشهادته له بالاتقان (٣٠٩) .

ولقد وجدت المجالس فى الأندلس منذ فترة مبكرة ، ومن المحتمل استخدام الكراسى لجلوس المدرس ، حيث نجد أن محمد بن الحسن الزبيدى المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، يكتب رسالة شعرية الى أبى مسلم ابن فهد ، يبين له فيها أن الفتى انما هو بعقله وليس بثيابه ، وأن طول الجلوس على الكرسى لا قيمة له اذا لم يكن الانسان عالمــا (٣١٠) .

وكان من العــادة أن يكون فى الحلقــة معيد أو قارىء يقــوم اما بشرح بعض ما غمض من كلام الأستاذ أو أن يتولى قراءة النص الذى سيتولى الأستاذ شرحه وتفسيره ، فيقــال عن أحمد بن طلحة الأشبيلى ، المتوفى عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م ، أنه أخــذ عن أخيه وكان معيدا فى حلقته (٣١١) .

---

(٣٠٧) المراكشى : نفس المصدر ــ القسم الأول ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٣٠٨) المراكشى : الذيل والتكملة ــ السفر الأول ، ص٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٣٠٩) المراكشى : الذيل والتكملة ــ السفر الخامس ــ القسم الأول ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٣١٠) الحميدى : الجــذوة ، ص ٤٣ . والأبيــات هى :

أبا مســلم ان الفــتى بجنــانه
ومقــــوله لا بالمــراكب واللبس
وليس ثيــاب المــرء تغنى قلامة
اذا كان مقصورا على قصر النفس
وليس يقيــد العلم والحلم والحجا
أبا مسلم طول القعود على الكرسى

(٣١١) السيوطى : بغية الوعاة ــ جـ ١ ، ص ٣١٣ .

ومن المحتمل أيضا أنه كان يعهد للمعيد بحفظ النظام فى الحلقة وخاصة أثنـاء غياب الأستاذ ، يقول ابن بشكوال عن أحمد بن أفلح ابن حبيب بن عبـد الملك الأموى أنه شـاهد حين سماعه من وهب ابن مسرة فى المسجد الجامع ، وقوع لغط وكلام فى المسجد بين أصحابه ، وارتفاع الصوت بينهم ، وكان أحدهم يعرف بالبثرلى ، فأنكر عليهم ذلك بعض القومة ، حتى أخذ عليهم الدرة ، وكان أبو بكر بن هذيل الشاعر الأديب بالحضرة فقال فى ذلك على البديهة :

ان وهـب بـن مسـرة
بين أهـل العـلم درة
كان فى مجلسـه لليـو
م على العـلم معـرة
اذا عـلى القيـم رأ
س البثرلى بـدرة (٣١٢)

أما عن عـدد الطلبة فى كل حلقة فلم يكن هناك تحـديد لذلك واختلف الرقم حسب سمعة الأسـتاذ ، وحسب المـادة التى يقـوم بتدريسها وحسب المكان الذى توجـد به الحلقة ، فعبد الملك بن زيادة اللـه الضبى (توفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) حينمـا رجع الى قرطبة ، وجلس ليروى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع اليه فى المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة قال :

انـى اذا حضرتنى ألف محبـرة
يكتبن حـدثنى طـورا وأخبرنى
نادت بمفخـرتى الأقـلام معلنـة
هـذى المفاخر لا قبعـان من لبن (٣١٣)

---

(٣١٢) ابن بشكوال : الصلة ـ جـ ١ ، ص ١٦ ، ١٧ .
(٣١٣) الحميـدى : الجذوة ، ص ٢٦٥ . ابن بشكوال : الصلة ـ جـ ٢ ، ص ٢٦٢ .
ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ـ جـ ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .
المقـرى : نفح الطيب ـ جـ ٩ ، ٢٥٩ .

ولقــد وضعت قواعد أخلاقية وأصــول يجب أن يتبعها الطلبة في هــذه المجالس ، وتحدث عن ذلك العالم الأندلسى الكبير ابن حزم القرطبى فى كتابه (الأخلاق والسير) ، حيث خصص فصلا فى حضور مجالس العلم ، أورد بعضه فيما يلى :

ــ اذا حضرت مجلس علم ، فلا يكن حضــورك الا حضــوراً مستزيد علما وأجرا لا حضور مستغن بمــا عندك طالب عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها ، فهذه أفعال الأرذال ، الذين لا يفلحون فى العلم أبداً .

فاذا حضرتها على هذه النية ، فقــد حصلت خيرا على كل حال ، فان لم تحضرها على هــذه النية فجلوسك فى منزلك أروح لبدنك وأكرم لخلقك وأسلم لدينك .

ــ فاذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، هــى :

اما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية فى المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس .

ــ فان لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع محاسن وعلى خامسة ، وهى استزادة العلم .

وصفة سؤال المتعلم هو أن يسأل عما لا يدرى / لا عما يدرى . فان السؤال عمــا تدريه سخف وقلة عقل لكلامك وقطع لزمانك بمــا لا فائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى الى اكتساب العداوات ، وهو يعد عين الفضول . فيجب عليك أن لا تكون فضوليا ، فانها صفة سوء .

فان أجابك الذى سألت بمــا فيه كفاية لك فاقطع الكلام ، فان لم يجبك بما فيه كفاية ، أو أجابك بما لم تفهم فقل له : « لم أفهم » ، واستزده ، فان لم يزدك بيــانا وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه والا حصلت على الشر والعداوة ولم تحصل على ما تريده من الزيادة .

ـ والوجـه الثالث ، ان تراجع مراجعة العالم ، وصفة ذلك لأن تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا ، فان لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك الا تكرار قولك ، أو المعارضة بما لايراه خصمك معارضة ، فأمسك، لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا تعلم ، بل على الغيظ لك ولخصمك والعداوة التى ربما أدت الى المضرات •

ـ واياك وسؤال المعنت ومراجعـة المكابر الذى يطلب الغلبـة بغير علم فهما خلقـا سـوء ، دليـلان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقـوة السخف ، حسبنا اللـه ونعم الوكيل •

ـ واذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام فى كتـاب فاياك أن تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المبالغة قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع •

وأيضا فلا تقبل عليه اقبال المصدق به المستحسن اياه قبل علمك بصحته ببرهان قاطع فتظلم ـ فى كلا الوجهين ـ نفسك ، وتبعد عن ادراك الحقيقة ، ولكن اقبال من يريد حظ نفسه فى فهم ما سمع ورأى بالتزيد به علما ، وقبوله ان كان حسنا ، أو رده ان كان خطأ ، فمضمون لك ، اذا فعلت ذلك ، الأجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم •

ـ من اكتفى بقليله عن كثير ما عنـدك فقد ساواك فى الغـنى ولو أنك قارون ، حتى اذا تصاون فى الكسب عما تشيره أنت اليه ، فقد حصل أغنى منك بكثير •

ـ ومن ترفع عما تخضع اليه من أمور الدنيا فهو أعز منك بكثير•

ـ فرض على الناس تعلم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين جميعا ، فقد استوفى الفضلين معا ، ومن علمـه ولم يعمل به فقد أحسن فى التعلم وأساء فى ترك العمل به ، فخلط عملا صالحا وآخر سـيئا ، وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به ، وهـذا الذى لا خير فيه.،

أمثل حالة وأقل ذما من آخر ينهى عن تعلم الخير ويصد عنه (٣١٤) .

المعلمون فى المرحلة الثانيــة

تبين دراسة كتب التراجم أن معلمى المرحلةالثانية ، كانوا يتمتعون بمستوى ثقافى عال ، وبمعرفة موسوعية ، قاموا بتحصيلها عن طريق الدراسة التى تلقوها فىبلادهم ، أو كتبوها من خلال رحلاتهم الى البلاد الأخرى ، وتشهد بذلك الألقاب الكثيرة التى أطلقت عليهم والتى تبين فى ذات الوقت مستواهم الثقافى ، ومن الألقاب التى كانت تطلق على هؤلاء ما يلى :

- كان له حظ ..
- كان من أهــل المعــرفة ..
- أو عنــده اهتمام بـ ..
- أو عنده مشاركة فى أشياء من العلم ..
- كانت عنده عنــاية ..
- كان كثــير الســماع ..
- له مشاركة فى الحديث ..
- نفــذ فى القــراءات ..
- بــز أهــــل زمانه ..
- فاق فى ..
- أعلم النـــــاس ..
- أفهم النـــــاس ..
- كان من أهــل الأدب ..
- كان من أهــــل العــلم ..
- كان فى حفظه آية من آيات اللــه ..

---

(٣١٤) ابن حزم : الأخـــلاق والسير ، ص ١٠١ — ١٠٤ .

ـ كان بحرا من بحـور العلم ..
ـ كان لا نظـير له فى العـلم ..
ـ ثقـــة ..
ـ حاذقا ..
ـ محـــدثا ..
ـ مقـــريا ..
ـ حافظـا ..
ـ عارفا ..
ـ متفننا ..
ـ فقيهـــا .. الخ .

ولعل لقب الفقيه كان أسـمى هـذه الألقـاب ، ولم يكن هينا أن يطلق على أحد ، فالشيخ محمد بن عبد اللـه المتوفى ٣٧٢هـ/٩٨٢م ، كان لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتهل ، ويكمـل سنه ، ويقوى نظره ، ويبرع فى حفظ الرأى ، ورواية الحديث ، ويتميز فيه ، ويعرف طبقات رجاله ، ويحكم عقد الوثائق ، ويعرف عللها ، ويطالع الاختلاف ، ويعرف مذاهب العلماء والتفسـير ، ومعانى القـرآن ، فحينئذ يستحق أن يسمى « فقيها » والا فاسم الطالب أليق به الى أن يلحق بهـذه الدرجة [٣١٥] .

ولذلك كان من الضرورى لمن ينتصب للتدريس فى هـذه المرحلة أن يكون عالمـا بمـادته ، معتمدا على أصـول وروايات صحيحة ، والا تعرض للنقد الشديد ، فيقال مثلا عن أحمد بن محمد بن عبد الله الخولانى (توفى ٥٠٨هـ/١١٤م) ، انه لم يكن عنده كبير علم ، أكثر من روايته عن هؤلاء الجهلة ، ولا كانت عنده أيضا أصـول يلجأ اليهـا أو يعـول عليها [٣١٦] .

(٣١٥) ابن فرحون : الديباج ـ جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .
(٣١٦) ابن بشكوال : الصلة ـ جـ ١ ، ص ٧٦ .

أحمـــد بن عبد اللـــه بن طـــريف ، من أهـــل قرطبـــة ، توفى ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، كان كثير السماع من الشيوخ والاختـــلاف اليهم ، ولم تكن له أصـــول [٣١٧] .

وابن الفرضى يؤكد كذب كل من الفقيه عثمان بن محمد بن يوسف قائلا عنه : كان كذابا ، أخبرنى بذلك من أثق به ممن وقف على كذبه ، وما كان يستأهل أن يحدث عنه [٣١٨] . وكذلك الفقيه محمد بن عيسى ابن رفاعة الخولانى المتوفى ٣٣٧هـ / ٩٤٨م ، قائلا عنه أنه شـــــهر بالكذب [٣١٩] .

كما أن هؤلاء المعلمين أيضا كانوا موضـــع النقـــد فى أساليبهم التعليمية فهناك من حمدت طرائقه فى التعليم ، وهناك من كان شـــديد الضجر عند تتبع البحث والمساءلة ، حتى أنه كان يترك الحلقة وينصرف، مثلمـــا كان يحـــدث مع على بن محمـــد بن على بن خروف المتوفى ٦٠٩هـ / ١٢١٢م [٣٢٠] ، ومن كان عسر الأخذ نكد الخلق ، مثل أحمد ابن عبد اللـــه بن المطرز ، المتوفى ٥١٤هـ / ١١٢٠م [٣٢١] .

أما من الناحية الاجتماعية ، فلقـــد تمتع هؤلاء بمستوى طيب سواء بين النـــاس أو بين الحكام وساعدهم علمهم على الانتساب الى طبقة اجتماعية متميزة ، هى طبقة الفقهاء ، التى أصبح لها وزنها وقيمتها فى نظر الدولة والمجتمع من القرن الثانى من الهجرة / الثامن الميلادى .

ولقد كان اختيار معظم القائمين على الأمور العـــامة من رجال العلم وهؤلاء بدورهم حاولوا أن لا تشغلهم الوظيفة عن أعباء القيام

---

(٣١٧) ابن بشكوال : نفس المصـــدر — ج ١ ، ص ٨٠ .
(٣١٨) ابن الفرضى : علمـــاء الأندلس — ج ١ ، ص ٣٠٦ .
(٣١٩) ابن الفرضى : نفس المصـــدر — ج ٢ ، ص ٥٥ ، ٥٦ .
(٣٢٠) المراكشى : الذيل والتكملة — الســـفر الخامس — ج ١ ، ص ٣٢٢ .
(٣٢١) ابن بشكوال : الصـــلة — ج ١ ، ص ٧٨ .

بمهمة التدريس فأصبح من السهل أن ترى وزيرا أو غيره من رجال المناصب العليا يمارسون التدريس ، بل من الممكن القول بأن جميع من شغلوا وظائف عامة كان لهم دور فى نشر العلم والتعليم .

اجر المعلمين فى المرحلة الثانية

من الناحية الاقتصادية تشير كل الدلائل ، الى أن دخل هؤلاء المعلمين كان مرتفعا .

وفى تناولنا لمسألة أجر التعليم ، يمكن لنا أن نقسم المعلمين الى ثلاث فئات :

(أ) فئة تتقاضى أجرها من الجراية التى كانت تجريها عليهم الدولة أو من الأجر الذى يدفع من الأحباس .

والجراية نظام عمل به على مدار فترة طويلة من التاريخ الأندلسى ووجدت دواوين العطاء منذ عهد مبكر ، ولقد سبق لى أن أوردت الكثير من الأمثلة على ذلك عند تناولى الفصل الخاص بالدولة والتعليم ، وبعض مظاهر تدخل الدولة فى التعليم .

(ب) فئة أخرى ، تتقاضى أجرها من الطلبة أنفسهم ، بناء على عقد يعقد بين المعلم ووالد التلميذ أو وليه ، وفى آخر هذا الفصل أورد صيغة من صيغ العقود المعمول بها حينذاك منذ القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، ولقد كان العمل فى مهنة التدريس مربحا جدا يدل على ذلك ما ورد فى ترجمة على بن يوسف بن محمد ابن أحمد ، وهو دانى ، سكن مرسية ، توفى فى ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، كان نجارا ، فلما كف بصره ، انقطع الى طلب العلم فبرز فى النحو ، ونال من الاقراء وتعليم العربية مالا جسيما (٣٢٢) .

---

(٣٢٢) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — الجزء الأول ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

أما الشيخ أبو على الشلوبين ، فقـد قام بالتدريس فى أشبيلية مدة تزيد على ستين عاما ، وكان اكتسابه من الطلبة أكثر من ٤ آلاف درهم فى الشهر (٣٢٣) .

الشيخ أبو العباس أحمـد بن جعفر السبتى ، المتوفى سـنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م ، كان فى أول أمره يسكن فى الفندق ويعلم الحساب والنحو ، ويأخذ الأجرة على ذلك (٣٢٤) .

(ج) ومجموعة ثالثة كانت تتقاضى أتعابهـا من الوظائف التى تسند اليها ، مثل الامامة أو الصلاة أو الأذان فى المساجد ، أو وظائف الدولة الأخرى مثل الشورى أو الفتوى .

وهناك مجموعة من المدرسين ، كانت تقوم بالتدريس مجانا على أساس أنه عمل خيرى ، ولقـد وردت عبارة « أقرأ الناس محتسبا » فى كثير من تراجم علماء الأندلس ، وأكتفى فى هـذا المجال بالاشارة الى كل من :

أبى على الغسانى (من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) ، الذى حينما دفع اليه تلميذه محمد بن عبد الرحمن جملة من المـال فى مقابل اقرائه ، أخذه ووضعه على رأسه وقال : لا آخذ على هـذا شيئا أبدا ، ولو أخذت من أحد لأخذت منك (٣٢٥) .

عتيق بن على بن خلف ، المتوفى ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م ، كان لا يبتغى على اقرائه أجرا الا من الله تعالى (٣٢٦) .

---

(٣٢٣) المراكشى : نفس المصدر — السـفر الخامس — الجـزء الثانى ، ص ٤٦١ — ٤٦٣ .

(٣٢٤) المقـرى : نفح الطيب — جـ ١٠ ، ص ١٣٥ .
التنبكتى : نيـل الابتهـاج ، ص ٦١ .

(٣٢٥) ابن الابار : المعجم ، ص ١٣٧ .
Ribera, J. : He de la Ensenanza entre los Espnoles Musulmanes, p. 72.

(٣٢٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الخامس — القسـم الاول ، ص ١٢٣

ملابس المعلمين

يقول المقرى أن أهل الأندلس أشــد خلق اللــه اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائما ، ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها .

ويقول أيضــا :

وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمــائم ، لاسيما فى شرق الأندلس ، فان أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ولا فقيها مشــارا اليه الا وهو بعمــامة ... والذؤابة لا يرخيها الا العالم ، ولا يصرفونهــا بين الأكتاف ، وانمــا يسدلونهــا من تحت الأذن الصغرى (٣٢٧) .

ويؤكد ابن الخطيب أن العمــائم تقــل فى أهل هــذه الحضرة (غرناطة) ، الا ما شاء ، فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم (٣٢٨) .

ولــم يكن للمعلمين زى خــاص بهم ، ولكنهــم كانوا يعتنون بملابسهم وخاصة حين قيامهم بالتعليم ، فعبد الملك بن حبيب كان يلبس الخز والسعيدى ، وانما كان يفعل ذلك اجلالا للعلم وتوقيرا (٣٢٩) .

وحبيب بن الوليد ، كانت له حلقة فى جامع قرطبة يسمع الناس فيها ، وهو يلبس الوشى الهشامى (٣٣٠) .

خلف بن ابراهيم بن خلف ، توفى ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، كان جميل

---

(٣٢٧) المقــرى : نفح الطيب ــ جـ ١ ، ص ٢٠٨ .
(٣٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة ــ جـ ١ ، ص ١٣٦ .
(٣٢٩) اليحصبى : ترتيب المدارك ــ جـ ٤ ، ص ١٢٤ .
Ribera, J. Ho. de la Ensenanza entre .... p. 70.
(٣٣٠) ابن حيــان : المقتبس ، طبعة مكى ، ص ٩٤ ، ٩٥ .
ابن الأبار : التكملة ــ جـ ١ ، ص ٣٢ .

المنظر والثياب (٣٣١) .

قاسم بن فيرة ، المتوفى ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م ، كان لا يجلس للاقراء الاعلى طهارة ، وفى هيئة حسنة (٣٣٢) .

والشيخ على بن أحمد بن على ، المتوفى ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، كان أكثر لباسه جبة صوف لا شعار لها (٣٣٣) .

أما الشيخ محمد بن فرحون (توفى ٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م) ، فكان يلازم الطيلسان على العمامة ، ولا يلبس الثياب المصقولة (٣٣٤) .

واعتناء المعلم بنظافتة وثيابة أمر واجب نصت علية كافة الكتب التى تحدثت عن العلماء والمعلمين ، فانه اذا عزم على مجلس التدريس تطهر من الحدث والخبث ، وتنظف ، وتطيب ، ولبس أحسن ثيابه ، اللائقة بين أهل زمانه ، قاصدا بذلك تعظيم العلم (٣٣٥) .

العـلاقة بين المعـلم والطـالب

اختلف أسلوب العلاقات بين المعلم والتلميذ فى هذه المرحلة عن سابقتها ، فهنا قد أصبح التلميذ واعيا ، ويمكنه أن يعرف مسئولياته ، ولذلك فقد اختفى أسلوب العقاب نوعا ما ، وتحول الى أساليب أخرى ، كالنصح والارشاد .وأقصى ما يمكن أن يصل فى العقوبة ، هو حرمانه من حضور دروسه فترة معينة ، أو منعه من الدراسة عليه .

ولقد كان على الأستاذ تحمـل المسئولية كاملة فى ذلك فينبغى عليه « أن يعتنى بمصالح الطالب ، ويعامله بما يعـامل به أعز أولاده من الحنو والشفقة والاحسان اليه ، والصبر على جفاء ربما وقع منه ،

---

(٣٣١) الذهبى : معرفة القـراء ، ص ٣٧٧ .
(٣٣٢) ابن فرحون : الديباج ـ جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٣٣٣) المراكشى : الذيل والتكمـلة ـ السفر الخامس ـ القسـم الأول ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .
(٣٣٤) التنبكتى : نيـل الابتهاج ، ص ٣٠ .
(٣٣٥) ابن جماعة : تذكـرة السامع والمتكلم ، ص ٣١ .

ونقص لا يكاد يخلو الانسان منه ، وسورة غضب فى بعض الأحيان ، فيوقف على ذلك بنصح وتلطف لا بتعنيف وتعسف قاصدا بذلك حسن تربيته ، وتحسين خلقه ، واصلاح شأنه » (٣٣٦) .

ويشير ابن خلدون الى ذلك قائلا : فينبغى للمعلم فى متعلمه والوالد فى ولده ، أن لا يستبد عليهم فى التأديب (٣٣٧) .

كما أن على المعلم أن يحرص على تعليم التلميذ ، « وتفهيمه ببذل جهده ، وتقريب المعنى له من غير اكثار لا يحتمله الذهن ، أو بسط لا يضبطه حفظه » (٣٣٨) .

كذلك عليه أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده فى مودة أو اعتناء مع تساويهم فى الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة فان ذلك ربما يوحش الصدر ، وينفر القلب ، ولقد أصر ابن خلدون على أنه من الواجب فى التعليم ، أن لا يخلط على المتعلم علمان معا ، حتى لا يسبب ذلك انشغال بال التلميذ وعدم اجادته لأحدهما ، وطالب « بأن يتفرغ الفكر لتعلم ما هو بسبيله ، مقتصر عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله (٣٣٩) .

ولقد طلب من المعلم اختيار التلميذ قبل أن يبدأ معه ، وأن يعرف مستواه ، فاذا وجد من الصعوبة على الطالب أن يواصل دراسة كتاب ما ، أشار عليه بأن يقرأ كتابا أسهل حتى يدرب ذهنه ، وبعد ذلك يعود الى نقله الى كتاب آخر وهكذا ، كما أنه بعد الانتهاء من الدرس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح (٣٤٠) .

---

(٣٣٦) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٣٣٧) ابن خلدون : المقدمة — ج ٤ ، ص ١٢٤٤ .
(٣٣٨) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .
(٣٣٩) ابن خلدون : المقدمة — ج ٤ ، ص ١٢٣٥ .
(٣٤٠) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ، ص ٥٣ .

واذا كان المعلم قــد طولب بكل ذلك ، فلقد طولب الطالب أيضا بأشياء كثيرة حتى يمكن له أن يتعلم وأن يصبح يوما ما معلما ، فكان ينبغى على طالب العلم أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتــاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل الى بلد آخر من غير ضرورة ، فان ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ، ويضيع الأوقات ويؤذى المعلم (٣٤١) .

كذلك يوصى الطالب ، بألا يذم ماجهل منه ، فهو دليل على نقصه ، وقوله بغير معرفة ، وألا يعجب بما علم فيطمس فضيلة علمه (٣٤٢) ، والاشارات الى هــذه التوصيات كثيرة جــدا ، وتكفى الاشارة الى كتاب الغزالى « أيهــا الولد » أو ملخص فى التربيــة الاســلامية « لآسين بلاثيوس » (٣٤٣) .

ولقد نمت العلاقة بين المعلم والتلميذ ، الى درجة أنه كان يسمح للمعلم بأن يصطحب طلبته للتنزه فى أيام العصير ، وهناك فى هــذه المواضــع الجميلة يمنحهم من الحــرية ما لا ينعمــون به أثنــاء الدرس (٣٤٤) .

كما أن الطلبة تعلقوا بأساتذتهم ، وأحبوهم حبــا شديدا لدرجة أنه بموت الأستاذ ، يقوم الطلبة بمرافقة نعشه وقراءة القرآن على قبره ، مثلمــا حــدث عند وفاة محمد بن أحمد بن عبيد الله المعروف بابن العطــار المتوفى فى عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، حيث كان الجمــع فى جنازته عظيما ، وانتاب قبره طلاب العلم أياما ختم قراؤها فيهــا بحضرته القرآن عــدة ختمات (٣٤٥) .

---

(٣٤١) الزرنوجى : تعليم المتعلم ، ص ١٨ .
(٣٤٢) الفارابى : احصاء العــلوم ، ص ١٠٧ .
(٣٤٣) الغــزالى : أيهــا الولد ، طبعة بيروت ، ١٩٥١ .
Asin Palacios : Un Compendio de Pedagogía musulmana.
(٣٤٤) انظر ترجمة محمد بن حسين فى بغية الملتمس ، ص٥٩، ٦٠ .
(٣٤٥) ابن بشكوال : الصلة ـــ جـ ٢ ، ص ٤٨٤ .

تعليم النســاء فى المرحــلة الثانيــة

لا تتحدث المصادر كثيرا عن طريقة تعليم النساء ، ولكن بعض الفقــرات الواردة فى بعض ترجمات شهيرات النســاء الأندلسيات أو فى ترجمات بعض العلماء يمكن أن تلقى ضوءا على هــذه المسألة ، وتبين لنا أن البنات كن يتلقين العلم على أيدى بعض المعلمين الرجال أو النساء وأن النساء كن يذهبن الى المسجد للتعلم ، فيقال عن محمد ابن على بن محمــد الفخار المتوفى ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م ، انه استوطن مالقة ، وتصدر للاقراء بها فكان يدرس من صلاة الصبح الى الزوال ، ويقرأ القرآن ، ويفتى النساء بالمسجد الى ما بعد العصر (٣٤٦) .

محمد بن أحمــد بن أبى القاسم الأنصارى ، المتوفى ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م ، ثابر على الاكتاب ، وتأديب النساء (٣٤٧) .

عثمان بن سعيد بن عثمان المقرى ، توفى ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، أقرأ بالمرية مدة وكانت ريحانة تقرأ عليه القرآن بهــا ، كانت تقعد خلف ستر ، فتقرأ ، ويشير لها بقضيب بيده الى المواقف ، فأكملت السبع عليه ، وطلبته بالاجازة ، فامتنع ، ولكنه كتبها لها فيما بعد(٣٤٨) .

كمــا أن نزهون بنت القليعى كانت تقرأ على أبى بكر المخزومى الأعمى (٣٤٩) .

ويقول القاضى أبو بكر محمد بن عبد اللــه عن أستاذه الوليد ابن بكر بن مخــلد ، المتوفى ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م ، انه كان « مؤدبى ،

---

(٣٤٦) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٩١ — ٩٥ .
السيوطى : بغيــة الوعاة — ج ١ ، ص ١٨٧ .
(٣٤٧) المراكشى : الذيل والتكملة — الســفر الخــامس — القسم الثانى ، ص ٥٨٩ .
(٣٤٨) الضبى : بغيــة الملتمس ، ص ٣٩٩ .
(٣٤٩) ابن سعيد : رايات المبرزين ، ص ٩١ .
ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٣٢٤ .
المقــرى : نفح الطيب — ج ٦ ، ص ٣٣ .

ومؤدب أخى ، وابنة أخى » (٣٥٠) .

أما عن دور المرأة كمعلمة للنســاء ، فيمكن أن نشير الى مريم بنت يعقوب الشلبى ، فقد كانت أديبة شاعرة ، وكانت تعلم النساء الأدب (٣٥١) .

وكذلك حفصة الركونية ، توفيت ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، كانت أستاذة وقتها وانتهت الى أن علمت النساء فى دار المنصور (٣٥٢) .

وكذلك كانت ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله ، أستاذة مهجة بنت التيانى القرطبية (٣٥٣) .

ومن ناحية أخرى ، فقد حفظ لنا التاريخ بعض الملاحظات التى تبين أن بعض الأندلسيات لعبن دورا هاما فى الحياة العلمية وقمن بنقل علومهن الى الرجال ، وأكتفى بالاشارة الى أمة الرحمن بن عبد القاهر العبسى (٣٥٤) — راضية ، مولاة الامام عبد الرحمن الناصر (٣٥٥) — واشراق السويدية العروضية ، توفيت بداية ٤٤٣هـ / ١٠٥١م ، وكانت تسكن بلنسية ، وكانت قــد أخذت عن مولاها النحو واللغة ، وفاقته فى كثير مما أخــذت عنه ، وأتقنت العروض .

قال أبو داود سليمان بن نجاح : أخذت عنها العروض ، وقرأت عليها النوادر لأبى على القالى ، والكامل للمبرد ، وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا وتتكلم عنهما (٣٥٦) .

---

(٣٥٠) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٤٢ .
(٣٥١) ابن بشكوال : نفس المصــدر — ج ٢ ، ص ٦٩٤ .
الحميــدى : جذوة المقتبس ، ص ٣٨٨ .
المقــرى : نفح الطيب — ج ٦ ، ص ٢٣ .
(٣٥٢) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
(٣٥٣) ابن سعيد : المغــرب فى حلى المغرب — ج ١ ، ص ١٤٣ .
(٣٥٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٤ .
(٣٥٥) ابن بشكوال : الصلة — ج ٢ ، ص ٦٩٣ ، ٦٩٤ .
(٣٥٦) السيوطى : بغية الوعاة — ج ١ ، ص ٤٥٨ .
عجيل حسن : الحياة العلميــة ، ص ٤٥٢ .

الفصل السادس

المرحلة التعليمية الثالثة

أكدت أكثر من مرة أن تقسيم التعليم فى هذا العصر ، الى مراحل محددة ليس الا لغرض الدراسة فحسب ، لأن الطالب بعد الانتهاء من الكتاب ، كان يبدأ مرحلة متصلة من سماع الشيوخ ، والانتقال من معلم الى آخر ومن كتاب الى آخر ، ومن مكان الى آخر ، دون أن يكون هدفه الوصول الى الانتهاء من سنة دراسية معينة ، أو مرحلة محددة .

ومن هنا فالمرحلة التعليمية الثالثة ليست الا امتدادا للمرحلة الثانية ، لكنها تتميز عنها ، بارتفاع سن طلبتها ، ومكانة الشيوخ الذين يتولون التدريس فيها .

والمرحلة التعليمية الثالثة يمكن أن تتميز أيضا بأنها استكمالية اذ أنها فترة يحاول فيها المتعلم أن يستكمل دراساته التى قد يعتقد أنه لم يستكملها من قبل كما أنها عملية تجديد مستمرة لمعلومات المتعلم ، ولذلك فهى لا تتميز بسن محددة ، أو حتى بمكان معين .

وأكبر سمتين من سمات هذه المرحلة تتمثلان فى التعليم المدرسى والرحلة .

فالمدرسة وخاصة فى الأندلس ، لم تكن تضم بين مدرسيها الا كبار علماء العصر،أما الطلبة فانهم كانوا يسعون اليها ، عندما يرغبون فى تحصيل درجة عالية من العلوم ، بدليل أن الشيخ ابن الفخار ، حين انتهى من تدريسه لتلميذه منصور الزواوى ، كتب له بالاجازة والاذن له فى التحليق بموضع قعوده من المدرسة بعده (1) .

---

(1) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ .

أما الرحلة ، فلقد كانت أبرز مساعى الطلاب المتقدمين للحصول على أقصى ما يمكن تحصيله من العلوم ، التى كانت تدرس فى مساجد ومدارس البلاد المشرقية .

وهناك أماكن أخرى كثيرة ، ساهمت فى تطـور الحركة التعليمية فى الأندلس ، وأثرت فيها تأثيرا كبيرا ومنها :

المجالس العلمية ، سـواء التى كان يعقدها الأمراء منذ بدايات الأسرة الأموية ، حتى سـقوط غرناطة ، أو التى كان يعقـدها كبار العلماء والشخصيات الأندلسية ، هـذا ولقـد تناولت تلك المجالس بالدراسة ، فى الفصل الخاص بالدولة والتعليم (أنظر الفصل الأول) .

أما المكتبات فلقد انتشرت انتشارا واسعا فى أسبانيا الاسلامية فظهرت مكتبات القصـور الخلافية ، وكانت أعظمها مكتبة الحـكم الثانى ، ثم مكتبات أمراء الموحدين . ومن ناحية أخرى ، اهتم كبار الناس وعامتهم بالحصـول على الكتب ، واقامة مكتباتهم الخاصـة ، ونتيجة لذلك حـدثت حركة اعارة للكتب نشطة جـدا ، وتم تبـادل الكتب بين المعلمين والطلاب بصورة واسـعة ، وأجـد أنه ليس من الضرورى تناول هـذا الموضوع بالدراسة حيث سبقنى الى هذا المجال ثلاثة من الأساتذة ، قاموا بدراسته دراسة مستوعبة (٢) .

وثمة أماكن أخرى ساهمت بصورة فعالة فى النشاطات التعليمية ، وفى اللقـاء بين المعلمين والطلبـة ، مثل حـوانيت الوراقين ، أماكن تجليد الكتب ، كمـا أن مصانع الكاغد التى نشـأت بشاطبة ، والتى لم يكن لها نظير فى معمور الأرض ، والتى عمت المشارق والمغارب على

(2) Ribera, J. : Bibliofilos y Bibliotecas en Espana Musulmana (Disertaciones y Opùsculos) 181—228.
Gozalbez, Busto : El libro y las Bibliotecas en E. M.
الحجى : الكتب والمكتبـات فى الأندلس : مجلة كليـة الدراسات الاسلامية ببغداد ، العدد الرابع (١٣٩٢ — ١٩٧٢) .

سطح المعمورة ، كما يقول الادريسى (٣) .

وهناك جانب مهم جدا ، كان يجب تناوله فى هذه الدراسة ، ولكننى فضلت ارجاءه الى دراسة مستقلة ، ألا وهو الصناعات التعليمية ، أقصد بذلك صناعة الألواح والأقلام وأدوات الحبر والمحابر ... وغير ذلك ، وقد حفلت كتب الأدب بالاشارات الأدبية الى الأدوات المكتبية ، وخاصة القلم والمحبرة .

كما أن التجارة قد لعبت دورا رئيسيا ، فى هذا المجال ، فكثير ممن تنقلوا بين المدن الأندلسية ، وبين الأقطار الاسلامية ، كانوا ممن يعملون فى التجارة وحملوا معهم بالاضافة الى تجارتهم علوم بلادهم ، وكتبها الى البلاد التى قصدوها .

وسأكتفى هنا بدراسة المدارس فى الأندلس والرحلات ، وما يتبع ذلك من الحصول على الاجازة .

---

(٣) الادريسى : نزهة المشتاق ، ص ١٩٢ .

نظـام المدرسة فى الاســلام

يذهب بعض الباحثين الى أن كلمة مدرسة انما هى فى الأصـل كلمة عبرية دخلت الى اللغة العربية قبل الاسلام (٤) ، وبعضهم يرى أنها من الألفـاظ المولدة المشتقة عند العرب (٥) ، وهى مكان خصص للتعليم ، ويكاد يجمع كافة المؤرخين على أن المدارس فى بداية أمرها قد بنيت لكى تتولى العناية بالدراسات التشريعية (٦) ، وخاصة المذاهب السنية (٧) ومنها ما تخصص فى تدريس مذهب واحـد أو كان يجمع فى مبناه بين المذاهب السنية الأربعة (٨) .

والمدرسة مبنى يتفاوت من ناحية الحجم ، حيث هناك المدارس الصغيرة التى لا تتجاوز كونها منزلا صغيرا يخصصه صاحبه لهـذا الغرض ويقـوم مدرس بالتدريس فيـه ، ويعرف هـذا النوع من المدارس عادة بالمدارس الأهلية ، ومن أولى هذه المدارس ، المدرسة المنسوبة الى أبى حاتم بن حيان البستى(٩) ، المتوفى ٣٥٤هـ — ١٠٦١م ، حيث قال عنه ياقوت الحموى : وقد كان أبو حاتم سبل كتبه وأوقفهـا

---

(٤) منصور فهمى : قاعات البحث ، ص ١٠٧ (مجلة مجمع اللغـة العربيـة بالقاهرة ، ج ١ ، عام ١٩٣٥) .
محمد غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٦٣ .
(٥) حسين أمين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٠ .
(6) Makdese; G. : Madrasa and University in the Middle ages.
Makdese; : The Scholastic method in Medieval Education.
Makdese; G. : Muslim Institutions of Learning in Eleventh century, p. 10—12.
(٧) شلبى : تاريخ التربيـة ، ص ١١٥ ، ١١٦ .
(٨) ناجى معـروف : نشـأة المدارس المستقلة فى الاسـلام ، ص ١٠ — ١٧ .
(٩) ياقوت : معجم البلدان — ج ١ ، ص ٤١٨ (وبست من أعمـال كابول بأفغانستان) .

وجمعها فى دار رسمها • وقال الحافظ أبو عبد الله الحاكم « أبو حاتم ابن حيان داره التى هى اليوم مدرسة لأصحابه ، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة ولها جرايات يستنفقونها دارة ، ومنها خزانة كتبه فى يدى صبى ، سلمها اليه ، ليبذلها لمن يريد نسخ شىء منها فى الصفة من غير أن يخرجها عنها(١٠) • كما أن أبا بكر محمد بن الحسن بن قورك ، المتوفى ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ، أقام له أهل نيسابور مدرسة ودارا (١١) •

أو أن تكون مبنى كبيرا يضم علاوة على الايوان الرئيسى ، مسجدا ، ومساكن للطلبة والمدرسين ، وقد تقوم الدولة بانشائها •

ويجمع كافة المؤرخين على أن أول احتضان للدولة لنظام المدارس فى الاسلام قد تم على يد نظام الملك ، المتوفى ٤٨٦ هـ — ١٠٩٣ م ، الذى كان وزيرا لألب أرسلان فى بغداد ، يقول الدكتور طلس : ويعتبر عمل نظام الملك هذا أول عمل رسمى قامت به الدولة الاسلامية لتنظيم الدراسة وترتيبها بتهيئة الأسباب ، وايجاد المواد الضرورية (١٢) •

ولقد كان لمجهودات نظام الملك أثر كبير ، حتى أن كثيرا من

---

(١٠) ياقوت : معجم البلدان — جـ ١ ، ص ٤١٨ •
ناجى معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ •
محمد طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٢ •
(١١) ابن خلكان : وفيات الأعيان — جـ ٣ ، ص ٤٠٢ •
الكتبى : الوافى بالوفيات — جـ ٢ ، ص ٣٤٤ •
معروف : نشأة المدارس ، ص ٨ •
غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٧١ •
(١٢) طلس : التربية والتعليم ، ص ١٢٦ •
Dodge; Bayard : Muslim Education in Medieval Times p. 20.
Tritton; A. S. : Muslim Education in the Middle Ages; p. 103.

المؤرخين قـد زعموا أنه أول من أنشأ المدارس فى الاسلام [١٣] ، وقام غيرهم بالرد عليهم وتبيان الحقيقة القائلة بوجود المدارس قبل نظام الملك بأكثر من قرن من الزمان [١٤] .

ولكن أهمية عمل نظـام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة ، اذ أصبح السلطان ، ورجال الطبقة العـالية مولعين بتأسيس المدارس كما أن تكوين المدرسة ، كما أنشأها نظـام الملك وما جعله بها من أقسام داخلية للطلاب ، أصبح فيما بعد نموذجا يحتذى فى سائر المدارس التى أنشئت فى الأزمان التالية [١٥] .

ولا شك أن مولد المدارس فى الاسلام كان فى مدينـة نيسابور وذلك فى القرن الرابع الهجرى ، وأنها أول من عرف المدرسة بمبناها ووضعها الاصطلاحى المعترف به ، كمعهد متخصص للدرس والتعليم . ويعلل ذلك بأن مدينـة نيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السـنة والشافعية منهم بوجه خاص ، وظهر من بينهم طائفة كبيرة من كبار أصحاب الحـديث كالبيهقى ، المتوفى ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م ، والحاكم النيسابورى ، ولذلك لابد من القول بأن حركة بناء المدارس قد نشأت فى كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم [١٦] .

ويعتقد أن أول مدرسة ببغداد هى المدرسة الحنفية التى أنشأها أبو سعيد وفتحها للتدريس فى عام ٤٥٩ — ١٠٦٧ م [١٧] ، وان كانت

---

(١٣) السيوطى : حسن المحاضرة — جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los musulmanes Espanoles; p. 17.
امين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢١ .

(١٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .
Tritton, A. S. : Op Cit., pp. 98—129.
Makdese; G. : Muslim Institutions of learning, p. 10.
محمد غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٧٦ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٧٦ .

(١٦) اليطفتى ، أبو طاهر : المدارس فى الاسلام ، ص ٢٠ ، ٢١ .
حسين امين : المدرسة المستنصرية ، ص ٢٢ .

(١٧) نفس المصـدر ، ص ٢٢ .

النظامية هى أول مدرسة شرعفيها ، وقد بدأ بناؤها فى بغداد سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ (١٨) ، وفتحت أبوابها للتدريس فى عام ٤٥٩ هـ — ١٠٦٧ م ، ولقد أحصى مدارس بغداد وواسط الأستاذ ناجى معروف (١٩) .

ويرى الأستاذ غنيمة أن أول المدارس فى البلاد المصرية قد ظهرت خلال الدولة الفاطمية حيث أنشئت مدرستان أولاهما مدرسة الوزير رضوان التى أقامها سنة ٥٣٢ هـ — ١١٣٧ م ، والثانية للوزير ابن السلار التى أنشأها قبل عام ٥٤٤ هـ — ١١٥٠ (٢٠) . وبناء على دراسته فان هذه المدرسة هى التى قام بالتدريس بها أبو الطاهر السلفى . وقد لعبت هذه المدرسة دورا مهما فى حركة التعليم بالأندلس ، حيث قصدها عدد كبير من طلبة الأندلس ، وعاشوا فيها مددا متفاوتة ، ولقد ذكر مدرس المدرسة فى معجمه أسماء كثيرة من طلبة الأندلس وتم استخراج أسماء هؤلاء من المعجم ونشر ذلك ضمن كتاب نشر بعنوان : أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفى (٢١) .

ومن ناحية أخرى يؤكد السيوطى ، نقلا عن ابن خلكان ، المتوفى ٦٨١ هـ — ١٢٨٢ م ، أنه لما ملك صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس ، وأنه أول من قام بانشاء عدد كبير من المدارس ، انتشرت واستمرت بعده على عهد دولتى الأيوبيين والمماليك (٢٢) .

---

(١٨) غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٧٩ .
حسنى عبد الوهاب : بيوت الله ، ص ٥ .
(١٩) معروف : المدارس المستقلة ، ص ٢٠ — ٢٤ .
معروف : مدارس واسط ، مطبعة الارشاد ، ١٩٦٦ .
معروف : المدارس الشرابية ، مطبعة الارشاد ، ١٩٦٥ .
(٢٠) غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٨٣ .
عطية على : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ص ١٦٧ .
(٢١) قام باعدادها وتحقيقها الدكتور احسان عباس — بيروت — ١٩٦٣ .
(٢٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ص ٢٥٦ — ٢٧٣ .
غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ .

وانتشرت المـــدارس فى بلاد الشام ابتـــداء بمـــا قام به الملك السلجوقى العادل نورالدين محمود الى مدارس الأيوبيين والمماليك(٢٣) •

وفى بلاد الحجاز أيضا ، وبالذات فى مكة ، انتشرت المدارس ، وخاصة بجوار الحـــرم المكى (٢٤) •

كما انتشرت المدارس أيضا فى شمال أفريقيا ، وتضاربت الآراء حول بداية انتشار هذه المدارس فى هذه المنطقة ، فبينما يرى الأستاذ غنيمة أنه يرجع الفضـــل فى انتشارها فى هـــذه المناطق الى الدولتين الحفصية فى تونس والمرينية فى المغـــرب الأقصى ، نافيا بشدة ما قاله ابن أبى زرع من قيام يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحـــدى ، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ـــ ١١٩٨ م ، بانشـــاء المدارس فى بلاد أفريقيـــة والمغـــرب والأندلس (٢٥) يرى الأستاذ عبد الهـــادى التازى أنه بعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدرس من سائر أطراف البلاد ، وحدد وجود مدرسة للمرابطين سنة ٤٦٢ هـ ـــ ١٠٩٦ م ، بناها يوسف بن تاشفين بعـــد دخـــوله المدينة فى حوالى التاريخ المذكور ، وأن طلاب هـــذه المدرسة قـــد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى قتلوا جميعا ، ولذا سميت بمدرسة الصابرين ، وأن أطلال هذه المدرسة ما زالت ماثلة الى الآن • كما يتحدث أيضا عن وجود مدارس على عهد الموحدين (٢٦) ، ويؤيده فى هـــذه الفكرة الأستاذ المنونى فى كتابه عن العلوم والفنون على عهد الموحدين (٢٧) •

---

(٢٣) النعيمى : المدارس فى تاريخ المدارس •
غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ٩٩ ـــ ١٠٧ •
(٢٤) معروف : مدارس مكة ـــ مطبعة الارشاد ، بغداد ـــ ١٩٦٦ •
(٢٥) غنيمة : تاريخ الجامعات ، ص ١٠٧ •
(٢٦) عبد الهـــادى التازى : مسجد القرويين ، جـ ٢ ، ص ١٢١ ـــ ١٢٣ •
(٢٧) محمـــد المنـــونى : العلوم والآداب ، ص ٢٠ ـــ ٢٢ (نســـخة الرباط المصـــورة ـــ ١٩٧٧) •

المدرســة فى الأندلس :

تعد دراســة المدرســة فى الأندلس من أصعب الأمور وأغمضها حيث تباينت حولها آراء المؤرخين بصورة شديدة ، ويساعد على هــذا الغموض قلة البيانات وسكوت المراجع ولنستعرض قليلا من هذه الآراء:

يرى الأستاذ غنيمة فى تاريخ الجامعــات الاســلامية الكبرى ، أن الأندلس لم يتح لها أن تستفيد من هذا النوع من التعليم الا متأخرا جــدا ، وكانت أول مدرسة بها فى غرناطة سنة ٧٥٠ هـ — ١٣٤٩ م ، أنشئت فى زمن يوسف الأول تقليدا للمدارس المغربية ، ويضيف بعــد ذلك قائلا : كان التعليم بالأندلس طيلة حياة الاسلام بها مسجديا ، وفى حالات قليلة كان العلماء يقومون بالتدريس فى منازلهم (٢٨) •

أما خوليان ريبيرا فيذهب الى أن تأسيس المــدارس فى أسبانيا الاســلامية قــد أتى من ناحيــة الشمال أى بتأثير من أوروبا ومن أسبانيا المسيحية واضعا نظريته فى الكلمات الآتية :

فى أسبانيا الاسلامية ، تجلت واحدة من الظواهر العكسية التى يقدمها التاريخ أحيانا ، وذلك أن تأسيس مدرسة حكومية وعلى نفقــة الدولة لم يكن تأثيرا شرقيا مباشرا ، وانمــا على العكس من ذلك جاء التأثير من الجانب الأوروبى ، بل هــو أكثر غرابة حتى الآن فان ذلك يرجع الى أمير مسيحى ، وهو الفونسو العاشر الذى أسس فى مرسية أول مدرســة اسلامية ، ذلك الشــاب المحب لكافة العلوم مهما كان مصدرها • لقــد سلم لأحــد العلماء المسلمين ، الذى كان فى الحقيقة عالمــا ضليعا ومبرزا فى معارفه ، نعم ، لقد كان هــذا العالم متعمقا فى كافة العلوم ، ولا يقصد بذلك العلوم العربيــة فحسب ، وانما تلك التى يطلق عليها اسم العلوم القديمــة ، الهندسة ، الطب ، الموسيقى ، المنطق ، وباقى فروع الفلسفة • بل ان ما هــو أكثر غرابة فى هــذا

---

(٢٨) غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية ، ص ١١٤ ، ١١٥ •

العالم الكبير أنه كان أستاذا قادرا على تعليم طلبة أرض شبه الجزيرة ، على اختلاف أديانهم بلغتهم أى بلغة كل مجموعة منهم ، لقد أعجب الأمير بالعالم ، وأنشأ له مدرسة ، حيث قام الرقوطى بتقديم علومه ، الى المسلمين واليهود والنصارى . لقد كان ألفونسو العاشر يعامله معاملة ممتازة ، ويفيض عليه بكرم وسماحة ، على أمل أنه باغراقه بالعطايا والهدايا يمكن له تحت ضغوط الكرم والأريحية أن يجعله يعتنق المسيحية فى يوم من الأيام .

ووصلت الأخبار مدينة غرناطة : هناك ملك مسيحى أقام مدرسة لعالم مسلم لكى يتولى فيها تعليم أبناء الديانات الثلاثة ، وهنا تحرك سلطان غرناطة ، ودعاه لكى ينتقل الى مدينته ، وبعد الحاح شديد لم يجد العالم المسلم بدا من مغادرة مرسية ، وترك خدمة الملك النصرانى ، وانتقل الى غرناطة (٢٩) .

ويقول الدكتور الطوخى ، ولم تعرف غرناطة نظام المدارس الذى كان معروفا فى المشرق الاسلامى فى أول الأمر ، ومن المعروف أن أول مدرسة بمعناها التقليدى أنشئت بالأندلس على عهد أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ — ١٣٥٤ م) ، فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وهى المدرسة النصرية (٣٠) .

أما غارثيا غوميث فانه حين يتحدث عن يوسف الأول ، يقول : افتتح المدرسة بغرناطة ، مقلدا المدارس الشهيرة على الشاطىء الآخر من مضيق جبل طارق ، ومغايرا للتقاليد الأندلسية فى مجال التعليم(٣١) .

ولقد اعتمد كل من قال بهذا الرأى على عبارة لابن سعيد أوردها المقرى يقول فيها :

---

(29) Ribera, J. , La ensenanza entre los Musulmanes Espanoles, pp. 18 , 19.

(٣٠) أحمد الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة (رسالة دكتوراه) ، ص ٣٠٢ .

(31) Garcia Gomez, E : Cinco Poemas Musulmanes; p. 190.

« وليس لأهـل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العـلم ، بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد ، بأجرة » (٣٢) .

ومن ناحية أخرى ، هناك بعض المؤرخين الذين لا يتسرب اليهم الشك فى قيام المدارس فى الأندلس — يقول الأستاذ اليطفتى : « وأما نهضة المدارس بأسبانيا العربية فلا يتسرب الشك اليها » (٣٣) .

أما الأستاذ الحسينى عبد العزيز فيقول : « أولى حكام بنى أمية فى الأندلس العـلم أكبر رعايتهم ، وجعلوا من قرطبـة حاضرة دولة عريقة تجذب الطلبة من كل فج ، فمدارسها ومعاهدها مصـدر اشعاع فكرى ، وقـد كانت قرطبة تضم ثمانين مدرسـة عامة ، وسبعة عشر معهدا عـدا أشياء أخرى » (٣٤) .

أما الدكتور حسن محمـود فيشير الى أن كل مدينـة بالأندلس كانت تحتوى على مدرسة (٣٥) .

وينضم الى هـذه المجموعة أرنست كونل ، فى كتابه عن الفن الاسلامى قائلا : وكما أدخل صـلاح الدين نظام المدرسـة فى مصر أدخله الموحد يعقوب المنصور فى أسبانيا والمغرب (١١٨٤ — ١١٩٩) ، مع فارق بلا شك هـو أن الأمر هنا يتعلق بالمعهد كمعهد ، لا تحدده أقطار معمارية معينة . والواقع أن هـذا النموذج الجديد من الأبنية العربية الدينية ، قـد بقى عديم الأهمية من حيث تطور الهندسـة المعمارية ، فى الغرب الاسلامى (٣٦) .

---

(٣٢) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .
Ribera; J. : Ho. de la ensenanza entre los Musulmanes Espanoles, p. 11.
(٣٣) اليطفتى : المدارس فى الاسلام ، ص ٢٢ .
(٣٤) الحسينى : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية ، ص ١٤١ .
(٣٥) محمود (حسن) : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٢ .
(٣٦) كونل : الفن الاسلامى ، ترجمة أحمد موسى ، ص ١٢٩ .
Kuhnel; Ernest : Maurische Kunst; p. 129 (T.A.)

وأختتم هــذه المجموعة من الآراء بما يورده الأستاذ المنونى عن قيام الموحدين ببناء كثير من المدارس فى شمال أفريقية والأندلس (٣٧) •

ويزيد الأمر صعوبة أن المستشرق الهولنــدى دوزى ، يرى أن كلمــة « مدرسة » فى أسبانيا الاسلامية لم تكن تعنى مكانا تعليميا ، وانما تعنى مكتبة (٣٨) •

ان تحقيق دراسة منطقية علمية فى وسط هذا التيار ، ليس بالأمر الهين أو البسيط ، والسؤال الذى يفــرض نفســه منذ البداية هو : لمــاذا لم تظهر المدرسة فى الأندلس الا فى نهاية الدولة الاسلامية على أرضها ، حسب ما يقول الفريق الأول ؟ واذا كانت قــد ظهرت ، على ما يقول الفريق الثانى ، فأين هى الوثائق الكافية للدلالة عليها ؟

ولم أستطع ، رغم كثرة محاولاتى ، الوصــول الى رأى نهــائى أتمكن به من تأييد احدى الفكرتين تأييدا تاما أو رفضها رفضا نهائيا ، لأنه كيف يمكن أن تظهر المدارس فى الشرق فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ولا تظهر فى أسبانيا قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ونحن نعرف أن الأندلسيين كانوا مولعين بتقليد المشارقة ، وعلى علم تام بكل ما يجرى فى بلادهم ؟

قــد يقول قائل بأن المدارس قد ظهرت فى مناطق مليئة بالصراع العقائدى وأن المدارس قــد بناها أهل السنة فى تلك البلاد المشرقية ، وذلك لكى يتغلبوا على الشيعة مثلما حدث فى العراق وفى مصر بينمــا فى أسبانيا الاسلامية لم تكن هنــاك حاجة الى مثل هــذه المؤسسة ، وأن الأندلس نتيجة لوحــدة المذهب فيهــا ولتمسكها بالسنة لم تشأ أن تدخل تقليدا لم يكن موجودا فى العصور الاسلامية الأولى •

---

(٣٧) المنــــونى : العلوم والفنـــــون والآداب ، ص ١٥ ، ١٦ ، ص ٢٠ ، ٢١ •

(38) Dozy : Suppliment aux Diccionarres Arabes, I (Madrasa)

لكن الرد على ذلك ، أن المدارس وان بدأت مدفوعة بهذا الغرض الا آن بناءها استمر بعد ذلك وانتشر فى مناطق ليست مهددة بالشيعة مثلما حدث فى مصر على عهد المماليك ، وفى شمال أفريقيا التى كانت تدين بالمذهب المالكى ، مثلها مثل أسبانيا ، وقد دخلتها المدارس فى القرن الخامس (الحادى عشر الميلادى) ، على ما يؤكده الدكتور عبد الهادى التازى (٣٩) ، وانتشرت بكل تأكيد منذ بداية القرن السابع الهجرى (الثالث الميلادى) • وعلاوة على ذلك ، فان بناء المدارس قد أصبح عملا فخريا للذكرى مثله تماما مثل بناء القصور والمستشفيات •

وأما اذا قلنا بوجود بعض المدارس وتساءلنا عما يؤكدها فقد يقول قائل ، انه ربما وجدت هذه المدارس ثم اندثرت ، واختفت باختفائها الوثائق الدالة عليها •

لكن الأمر ليس كذلك لأنه اذا ما اندثر البناء أو اختفى بسهولة فمن الصعب جدا أن تختفى بياناته التى يمكن أن توجد ضمن تراجم المعلمين الذين تولوا التدريس فيها أو ضمن أعمال من تولوا القيام بها أو انشاءها ، على ما هو الحال فى المدارس الشرقية أو مدارس الأندلس فى القرن الثامن •

ان البيانات التى استخرجتها من دراستى للمراجع التاريخية ، تجعلنى أميل الى القول بوجود بعض المدارس فى الأندلس اعتبارا من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، دون أن أصل الى حد التأكيد المطلق لهذه القضية وسأطرح هذه البيانات ، تاركا للمستقبل أو للصدفة تأييد هذه المسألة تأييدا نهائيا أو رفضها رفضا باتا — معتمدا فى ذلك على عدد من الملاحظات ، التى وردت فى المراجع :

---

(٣٩) انظر : مسجد القرويين — جـ ٢ ، ص ١٢١ .

(أ) الملاحظة الأولى أوردها ابن فرحون المتوفى ٧٩٩ هـ — ١٣٩٧ م ، عند حديثه عن أبى على الصدفى المتوفى ٥١٤ هـ — ١١٢٠ م ، يقول فيها : ثم عاد الى الأندلس واستقر بمدرسة مرسية ، ورحل اليه الناس [٤٠] . ولقد رجع الصدفى الى الأندلس فى عام ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م [٤١] .

وعلى الرغم من أن ابن فرحون موضع ثقة المؤرخين ، الا أنه هو المصدر الوحيد الذى أشار الى هـذه المدرسة ، والفرق الزمنى بينه وبين الصدفى كبير جـدا .

(ب) الملاحظة الثانية ، أوردها ابن أبى زرع المتوفى ٧٤١ هـ — ١٣٤٠ م ، عند حديثه عن السلطان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن على ، الذى تولى الحكم فى ١٩ ربيع الآخر عام ٥٨٠ هـ ، ٢٠ يولية ١١٨٤ م ، وتوفى فى ٢٢ ربيع الأول عام ٥٩٥ هـ/٢٢ يناير ١١٩٩ م ، حيث يقول عنه :

انه « حصن البلاد ، وضبط الثغور ، وبنى المساجد والمدارس فى بلاد أفريقية والمغـرب والأندلس ، وبنى المـرستان للمـرضى والمجانين ، وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ، على قـدر مراتبهم وطبقاتهم » [٤٢] .

(ج) أما الملاحظة الثالثة ، فلقد جاءت ضمن القصائد الشعرية التى قيلت فى رثاء مدينة بلنسية ، ومحاولة حث الحفصيين على انقاذها من أيدى الأراغونيين الذين استولوا عليها فى عام ٦٣٦ هـ — ١٢٣٨ م ، ففى قصيدة ابن الأبار التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل اللـــه أندلسـا
أن الطـريق الى منجاتهـا درسـا

---

(٤٠) ابن فرحون : الديباج ، ص ٣٣١ .
(٤١) المقـرى : ازهار الرياض — جـ ٣ ، ص ١٥٢ .
Makdese; G. : The Madrasa in spain, p. 154.
(٤٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٢١٧ .

يقـــول :

يـا للمسـاجد عادت للعـدا بيعـا
وللنـداء غـدا أثنـاءها جرسـا
لهفى عليهـا الى استرجاع فائتها
مدارسـا للمثـانى أصبحت درسـا (٤٣)

ويقول شاعر آخر لم يسمه المقرى ، فى رثاء بلنسية :

بأبى مـدارس كالطـلول دوارس
نسخت نواقيس الصـليب نداءهـا
ومصـانع كسف الضـلال صباحها
فيخـاله الرائى اليـه مساءها (٤٤)

ولعل هـذه البيانات تكتسب أهمية ما ، اذا ما علمنا أن المؤرخين الأسبان ، يجمعون على وجود مدارس مسيحية فى مدينة بلنسية بعـد أيام من سقوط المدينة على يد خايمى الأول فى عام ٦٣٦ هـ ــ ١٢٣٨ م ، وأنه فى عام ١٢٤٠ م (٣٦٨ هـ) ، كانت هـذه المدارس مؤكدة ، بل ان بعضهم وصـل الى القـول بوجود مدرسة مسيحية فى مدينة بلنسية الاسلامية (٤٥) .

---

(٤٣) المقـرى : نفح الطيب ــ جـ ٦ ، ص ١٩٩ .
عبد المنعم خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس ، ص ٣٨٨ .
الأوسى : الأدب الأندلسى فى العصر الموحدى ، ص ١٣٤ .
De Schach; : Poesea y Arte dee los Arabes en Espana y Sicilia; -.162—163.

(٤٤) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ٢٢٤ .
حكمت الأوسى : الأدب الأندلسى ، ص ١٣٨ .

(٤٥) انظر الدراسة القيمة عن مدارس بلنسية على عهد خايمى الأول التى أعدها :
Gallego Salvadores : Las Escuelas de Valencia en los dias de Jaime el Conquistador.
Gallego «Perspectivas Pedagoicas» XXXXVII—XXXXVIII, pp. 117—132.

ومما يجعلنى أميل أكثر الى هــذا الرأى أن هــذه الملاحظــات لا تقل شأنا عما يقدمه المؤرخون على أنه مدارس مؤكدة مثل مدرســة مرسية أو مالقة أو غرناطة التى سنتناولها فيما بعد .

أما من ناحيــة ما يمكن أن يشبه المدارس الخاصة فاننى توقفت أمام ملاحظتين ، الأولى منهما أن فرج بن غزلون العســال اليحصبى الطليطلى ، الذى توفى فى عام ٤٤٨ هـ — ١٠٥٦ م : قد حبس داره على طلبة السنة (٤٦) : مما يدفــع الى التســاؤل : لمــاذا طلبة السنة ؟ ومن هم ؟ وأين هم ؟ والثانية أن الفقيه أحمد بن جعفر الخزرجى ، أبو العباس السبتى ، كان يقيم فى فندق ، ويعلم الحساب والنحــو ، ويأخــذ الأجرة على ذلك ، ويقال أنه بات ليلة عند الطلبــة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة ، وجاء الحرس لمنعهم (٤٧) .

المدارس المؤكــدة

١ — مدرســة مرسية :

وهى مدرســة أقامها الأمير المسيحى ، ألفونسو العاشر ، حينما دخل مرسية ووجد بهــا العــالم محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويحكى ابن الخطيب قصة هذا العالم ومدرسته على النحو التالى :

محمد بن أحمــد الرقوطى المرسى (٤٨) : كان حجة فى المعــرفة القديمة ، المنطق ، والهندسة والعــدد والموسيقا والطب ، فيلسوفا ، وطبيبا ماهرا — آية الله فى المعرفة بالألسن ، يقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فى تعلمها ، شديد البأس ، مترفعا ، متعاظما .

---

(٤٦) ارسلان : الحلل السندسية — جـ ٢ ، ص ٢١ .
(٤٧) المقــرى : نفح الطيب — جـ ١٠ ، ص ١٣٥ .
(٤٨) نسبة الى رقوطة ، وهى بلدة صــــغيرة فى شرق الاندلس ، تقــع على مقربة من شــمال غربى مرســية ، على الضــفة الغربيــة لنهــر شــقورة .

عرف طاغية الروم حقه ، لما تغلب على مرسية (٤٩) ، فبنى له مدرسة يقرىء فيها المسلمين ، والنصارى ، واليهود ، ولم يزل معظما عنده . ومما يحكى من ملحه معه ، أنه قال له يوما وقد أدنى منزلته ، وأشاد بفضله : لو تنصرت وحصلت الكمال ، كان عندى لك كذا ، وكنت كذا ، فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده ، قال لأصحابه : أنا الآن أعبد واحدا ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما أراد منى .

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر (السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، وقد حكم مملكة غرناطة من سنة ٦٧١ — ٧٠١ هـ (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) ، واستقدمه ، وتتلمذ له (٥٠) . هذا ولقد نقل المقرى نفس الترجمة تقريبا (٥١) .

' — مدرسة مالقة :

لا شك أن مالقة كانت مركزا فكريا ، غاية فى الأهمية ، على مدار اريخها الاسلامى ، وكان مسجدها الجامع من أكثر مساجد المملكة لنصرية شهرة ، حيث درس فيه كبار علماء هذه المملكة .

ويشير كل من المؤرخين الأسبانيين سيمونت وجيين روبلس الى جود « مدرسة عظمى » أو جامعة مالقة ، وأنها كانت مقامة فى صحن برتقال بالمسجد الجامع بالمدينة ، ويصران على أن الفقيه محمد بن

---

(٤٩) تم احتلال مرسية فى ٦٤١هـ / ١٢٤٣ م .

(٥٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana; pp. 109 — 110.

Martinez Ripoll; Aportaciones a la vida cultral de Murcia en el S. XIII, pp. 36 , 37.

(٥١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٢٦٦ .

محمد بن يوسف الطنجالى (٥٢) ، المتـوفى فى عام ٧٣٣هـ — ١٣٣٢م ، قـد قام بالتدريس بهـا وأنها كانت مستقلة تماما عن المسجد الجامع بمالقـة (٥٣) .

وأقيمت فى مالقة أيضا مدرسة أخرى قبل قيام المدرسة النصرية فى غرناطة أنشأها الصوفى محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم الأنصارى أبو عبد الله الساحلى الذى عاش بين عامى ٦٧٨ — ٧٥٤ هـ / ٢٧٩ — ١٣٥٣ م (٥٤) — بناها من مال أعطاه اياه بعض الأغنياء ، من وزراء الدول بالمغرب ، وأقامها فى الجانب الغربى من المسجد الأعظم ، وأوقف عليها الرباع ، وابتنى غيرها من المساجد ، ويبـدو أن صاحب هـذه المدرسة ووالده الشيخ الصوفى أبو عبد الله الساحلى (٥٥) ، المتوفى ٧٣٥ هـ — ١٣٣٤ م ، كانا على صلة طيبـة بابن الخطيب حيث كان يندبهما فى بعض المهمات السياسية الى المغرب .

وحينما توفى الوالد ، حاول ابنه أن يواصل مكانته ، وأن يترقى فى مدارج الصـوفية مثله ، ولكنه حصل جاها عريضا ، ومالا كثيرا ، جعله ينحرف عن ما يجب أن يتحلى به ، ولعـل ذلك مما سبب تساؤلات كثيرة عن مصدر هـذه الأموال ، وأثار غضب أتبـاعه ، فاضطره ذلك الى الرحيل الى المشرق ، ثم عاد الى الأندلس ، مليح الشيبة ، بادى الوقار ، نبيه الرتبة فتولى الخطابة الى حين وفاته (٥٦) .

وترى الدكتورة ماريا خيسوس روبيرا فى هـذه المدرسة ، المكان

---

(٥٢) ابن القاضى : درة الحجال — جـ ١ ، ص٢١٠ (الترجمة٥٤٩) .

(53) Gullen Robles : Historia de Malaga Muslmana; p. 316.

(٥٤) أشارت الى هذه المدرسة الدكتـورة ماريا خيسوس روبيرا ، اعتمادا على بعض أشعار لابن الجيـاب يهنىء فيها أبا عبد الله الساحلى لاقامته أول مدرسة فى الأندلس : انظر :

Rubiera Mo. J. : Datos sobre una madrasa en Malaga anterior de Granada.

(٥٥) انظر ترجمة الوالد فى الاحاطة — جـ ٣ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ .

(٥٦) ابن الخطيب : الاحاطة — جـ ٣ ، ص ١٩١ — ١٩٣ .

الذى مارس فيه الأساتذة التعليم لأول مرة بعيدا عن المسجد فى الأندلس ، وأنها لم يكن لها الصفة الرسمية التى كانت لمدرسة غرناطة أو لمدارس الشرق الاسلامى ، وتعتقد أنها كانت ذات صبغة صوفية بحتة مما قد يفسر لنا الاختفاء الغامض لكل ما يشير الى هذه المدرسة ، حيث اختفت تماما واختفى كل ما قد يشير اليها بعد ذلك (٥٧) .

٣ — بدايات المدارس فى غرناطة :

شهدت غرناطة أول محاولة لاقامة مدرسة ، حينما خصص السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه ، سلطان غرناطة من سنة ٦٧١ الى ٧٠١ هـ (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) منزلا للفقيه محمد ابن أحمد الرقوطى بعد أن أحضره من مرسية ، لكى يتولى فيه تعليم الطلبة العلوم الطبية والفلسفية وغيرها ، بل انه كان — أكثر من ذلك — يقوم باختبار من يرد على غرناطة ، للتعرف على مستواه ، ومكانته .
يقول ابن الخطيب عن ذلك الرجل :

وطلبه سلطان المسلمين ، ثانى الملوك من بنى نصر ، واستقدمه وتتلمذ له ، وأسكنه فى أعدل البقع من حضرته ، وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، اذ كان لا يجارى فى ذلك ، وكان قوى العارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابى حضرته ، ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكنه ودالته (٥٨) .

ويرى خوليان ريبيرا ، أنه بوفاة الأستاذ الرقوطى ، أغلقت بذلك أبواب أول محاولة لتدخل الدولة فى نظام التعليم فى الأندلس(٥٩) .

---

(57) Rubiera, Mo. Jesus : Datos sobre una madras en Malaga anterior a la de Granada, p. 226.

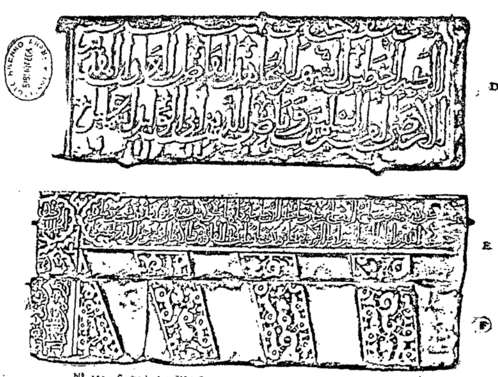
(٥٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٦٨ .

(59) Ribera; J. : Ho. de la ensenaaza entre los Espanoles Musulmanes, p. 20.

مرسوم بالمدرسة النصرية بغرناطة على ما نقله ليفى بروفينسال ، والقطعة الموجودة فى متحف الآثار بغرناطة

أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامةً ونورًا وأدامها فى علوم الدين على الأيّام أمير
المسلمين أظلّه الله بعونه(؟) العلىّ الشهير الكريم السعيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيّد
أبو الحجّاج يوسف ابن العلىّ الكريم || الكبير الخطير الشهير المجاهد الفاضل العادل المقدّس ||
الأرضى أمير المسلمين وناصر الدين أبى الوليد إسماعيل || بن فرَج بن نصْر كافى الله فى الإسلام
صنائعه الزاكيَة وتقبّل أعماله الجهاديّة وتمّ [ذلك] فى شهر محرّم عام خمسين وسبعمائة

A ordonné la construction de cette demeure (consacrée) à la science — qu'Allāh en fasse un établissement de droiture et de lumière et qu'Il la fasse durer au long des jours pour les sciences de la religion! — l'émir des Musulmans — qu'Allāh le protège par son aide!(?) — l'élevé, le célèbre, le noble, le fortuné, le pur, le haut, le héros, le sultan assisté par Dieu, Abu 'l-Ḥaggāg Yūsuf, fils de l'élevé, du noble, du grand, du considérable, du célèbre, du guerrier pour la foi, de l'excellent, du juste, du sanctifié, du très agréé, l'émir des Musulmans et le défenseur de la religion, Abu 'l-Walīd Ismā'īl ibn Farag b. Naṣr. Qu'Allāh récompense pour l'Islām ses actions vertueuses et accepte favorablement ses hauts faits de guerre sainte! Et cela fut terminé dans le mois de muḥarram de l'an 750 (22 mars—20 avril 1349).



D

E

F

N° 172. Grenade (750 H.) Fragments épigraphiques de la Medersa. Détail.

ولنتحدث الآن عن أشهر المدارس التى ظهرت فى غرناطة :

(ا) المدرســة النصرية :

أشهر المراكز التعليمية فى الأندلس ، بعد مسـجد قرطبـة ، بنيت على عهـد السلطان الغـرناطى أبى الحجاج يوسـف الأول (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ — ١٣٥٤ م) ، بنـــاء على مبادرة من الحاجب رضـوان النصرى • ولقـــد حـازت هـــذه المدرسـة شهرة واسـعة حتى أجمع كافة المؤرخين تقريبـا على اعتبارها أولى المدارس فى الأندلس ، كما أنهـا هى المدرسـة الوحيدة التى وصلت بعض أجزائها الى أيامنا هـذه •

ولسوف أعتمد على ترجمة ابن الخطيب التى أوردها لمعـاصره وصديقه الحاجب رضوان ، مؤسس هـذه المدرسة ، لأن فيها ما قـد يسمح لنا بايضاح بعض النقاط ، ونص الترجمة كالآتى :

رضوان النصرى الحاجب المعظم

حسنة الدولة النصرية ، وفخر مواليها :

رومى الأصـل ، أخبرنى أنه من أهل القلصادة ، وأن انتسـابه يتجاذبه القشتالية من طرف العمومة ، والبرجلونية من طرف الخؤولة ، وكلاهما نبيه فى قومه • وأن أباه ألجأه الخوف بدم ارتكبه فى محـل أصالته من داخـل قشتالة الى السكنى بحيث ذكر ، ووقع عليه سباء فى سن الطفـولية ، واستقر بسببه بالدار السلطانية ، ومحض احراز رقـة ، السلطان دايل قومـه ، أبو الوليد المـار ذكره ، فاختص به ، ولازمه قبل تصيير الملك اليه ، مؤثرا له مغتبطا بمخائل فضله وتمـائل استقامته ، ثم صـير الملك اليه فتدرج فى معـارج حظوته ، واختص بتربية ولده ، وركن الى فضل أمانته ، وخلطه فى قرب الجوار بنفسه ، واستجلى الأمور المشكلة بصدقه ، وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته على يـده ، وكان يوجب حقه ، ويعرف فضله ، الى أن هلك ، فتعلق بكنف ولده ، وحفظ شمله ، ودبر ملكه ، فكان آخـرا للخف ، وسترا

للحرم ، وشجى للعدا وعدة فى الشـدة ، وزينا فى الرخاء ، رحمة اللـه عليه .

كان هـذا الرجل مليح الشيبة والهيئة ، معتدل القد والسحنة ، مرهب البدن ، مقبل الصورة ، حسن الخلق ، واسع الصدر ، أصيل الرأى ، رصين العقل كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى الملمات ، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النقيبة ، عزيز النفس ، عالى الهمة ، بادى الحشمة ، آية فى العفة ، مثلا فى النزاهة ، ملتزما للسنة ، دءوبا على الجماعة ، جليس القبلة ، شديد الادراك من السكون ، ثاقب الذهن مع اظهار الغفلة ، مليح الدعابة مع الوقار والسكينة مستظهرا لعيون التاريخ ، ذاكرا للكثير من الفقه والحديث ، كثير الدالة على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ، عارفا للسياسة ، مكرما للعلماء ، مدركا للهوادة ، قليل التصنع ، نافرا من أهل البدع ، متساوى الظاهر والباطن ، مقتصدا فى المطعم والملبس .

اتفق على أنه لم يعاقر مسكرا قط ، ولا زل بهناة ، ولا لطخ بريبة ، ولا وصم بخلة تقدح فى منصب ، ولا باشر عقابا جاز ، ولا أظهر شفاء من غائظ ، ولا اكتسب من غير التجر والفلاحة مالا .

أحدث المدرسة بغرناطة ، ولم تكن بها بعد ، وسبب اليها الفوائد ، ووقف عليها الرباع المغلة ، وانفرد بمنقبها ، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدرا وظرفا وفخامة ، وجلب الماء الكثير اليها من النهر ، فأبد سقيه عليها ، وأدار السور الأعظم على الربض الكبير المنسوب للبيازين ، فانتظم منه النجد والغور ، فى زمان قريب ، وشارف التمام الى هـذا العهد ، وبنى من الأبراج المنيعة فى مثالم الثغور وروابى مطالعها المنذرة ، ما ينيف على أربعين برجا ، فهى ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقى من ثغر بيرة الى الأحواز الغربية ، وأجرى الماء بجبل مورور ، مهتديا الى ما خفى على من تقدمه وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشق بعداده .

غزا فى السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة
جيش مدينة باغة ، وهى ما هى من الشهرة ، وكرم البقعة ، فأخـذ
مخنقها ، وشد حصـارها وعلق الصريح عنها ، فتملكها عنوة وعمرها
الحماة ورتبهـا بالمرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما ، وفى أوائل شهر
لمحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عـدو المشرق ،
يطوى المراحل مجتـازا على بلاد قشتالة ، لورقة ومرسـية ، وأمعن
يها ، ونازل حصن المدور ، وهو حصن أمن غائلة العـدو (مكتنف
البلاد ، مـد بالبسيتى موضوع على طية التجارة ، وناشبه القتال ،
استولى عنوة) ، عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآب مملوء
حقائب سبيا وغنما .

وغزاوته كثيرة ، كمظاهرة الأمير الشـهير أبى مالك على منازلة
بـل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجـد والصبر وأوثر عنه من
نقبة ، الدالة على صحة اليقين ، وصدق الجهـاد ، اذ أصابه سهم
، ذراعه وهو يصلى ، فلم يشغله عن صلاته ، ولا حمله توقع الاغارة
ى ابطال عمله .

لمـا استوثق أمر الأمير المخصـوص بتربيته ، محمد ، ابن أمير
سلمين أبى الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله
مد بن المحروق ، ووقع بينه وبين المترجم عهد على الوفاء والمناصحة ،
م يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين
بعمائة وبعثـه ليـلا الى مرسى المنكب ، واعتقله فى المطبق من
بتها ، بغيا عليه ، وارتكب فيه أشنوعة أساءت به العامة ، وأنذرت
ختلال الحال ، ثم أجازه البحر ، فاستقر بتلمسان ، ولم يلبث أن قتل
كور ، وبادر سلطانه الموتور بفرقته عن سـدته ، فاستدعاه فلحق
ه من هضـبة الملك متمليا ما شـاء من عز وعناية ، فصرفت اليه
ليد ، ونيطت به الأمور ، وأسلم اليه الملك ، وأطلقت يده فى المـال ،
تمرت الأحوال الى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، والتاث الأمر ،
ـر من سلطانه التنكر عليه ، فعاجله الحمـام فخلصة الله منه ،

وولى أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الاجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الكل به ، وفرحت العامة والخاصة للخطة ، لارتفاع المنافسات بمكانه ، ورضى الأضداد بتوسـطه ، وطابت النفوس بالأمن من غائلته ، فتولى الوزارة وسحب أذيال الملك ، وانفرد بالأمر واجتد فى تنفيذ الأحكام ، وتقدم الولاة ، وجواب المخاطبات ، وقواد الجيوش الى ليلة الأحد الثانى والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فنكبه الأمير المذكـور ، نكبة ثقيلة البرك ، هائلة الفجـأة من غير زلة مأثورة ، ولا سـقطة معروفـة ، الا ما لا يعدم بأبواب الملوك من شرور المناقشات ، ودبيب السعايات الكاذبة ، وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء اثر صـلاة المغرب ، وقـد شهر الرجـال سيوفهم فوقه يحفون به ، ويقودونه الى بعض دور الحمـراء ، وكبس ثقات السلطان منزله ، فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة ، وضم الى المستخلص عقاره ، وسوغ الخبر عظيم غلاته ، ثم نقل بعد أيام الى قصبة المرية محمولا على الظهـر ، فشد بهـا اعتقاله ورتب الحـرس عليه الى أوائل شهر ربيع الثانى من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، فبدا للسلطان فى أمره ، واضطر الى اعادته ، ووجد فقد نصحه ، وأشفق لمـا عـدم من أمانته ، والانتفاع برأيه ، وعرض عليه بما لنوم الكف والاقصار عن ضره ، فعفـا عنه ، وأعاده الى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله ، وعرض الوزارة فأباها ، واختار برد العافية ، وآنس لذة التخلى ، فقدم لذلك من سد الثغور ، فكان له اللفظ ، ولهـذا الرجل المعنى ، فلم يزل مفزعا للرأى ، مجلى فى العظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى الى أن توف السلطان المذكور غرة شـوال من عـام خمسـة وخمسين وسبعمائة ، فشعب الثـأى ، وحفظ البلوى ، وأخـذ البيعـة لولده سلطاننا الأسـعد أبى عبد الله ، وقام خير قيام بأمره ، وجـرى على معهود استبرائه ، وقـد تحكمت التجربة ، وعلت السن ، وزادت أنة الخشـية وقربت من لقـاء الله الشقة ، فلا تسأل عما حط من خلل ، وأفاض من عـدل ، وبذل من مداراة ، وحاول عقد السلم ، وسد أمور الجند على القـل ،

ودامت حاله متصلة على ما ذكر ، وسـنه تتوسط عشر التسعين الى أن لحـق بربه ، وقـد علم الله أنى لم يحملنى على تقـرير سـيرته ، والاشـادة بمنقبته داعية ، وانما هـو قول بالحق ، وتسليم لحجة الفضـل ، وعدل فى الوصف ، واللـه عـز وجـل يقـول : « واذا قلتم فاعدلوا » .

فى ليلة الأربعاء الثـامن والعشرين من رمضـان من عام ستين وسبعمائة طرق منزله بعد فراغه من احياء ثلث الليل ، متبدل اللبسة ، خالص الطوية ، مقتضيا للأمن مستشعرا للعافية ، قائما على المسلمين بالكل ، حاملا للعظيمـة ، وقـد بادره الغادرون بسلطانه ، فكسروا غلقه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده ، وذهبوا الى الدايل برأسه ، وفجعوا الاسلام ، بالسائس الخصيب المتغاضى ، راكب متن الصبر ومطوق طوق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال والستر ، الضافى على الأندلس ، ولوئم من الغد بين رأسه وجسده ، ودفن بازاء لحـود مواليه من السبيكة ظهرا ، ولم يشـهد جنـازته الا القليل من الناس ، وتبرك بعد بقبره (٦٠) .

ودراسة هذه الترجمة تطرح أمامنا سؤالا هاما حول الوقت الذى بدأ فيه الحاجب رضوان بنـاء هـذه المدرسة والمدة التى استغرقهـا التنفيذ . يرى المستشرق الأسبانى لويس ثيكو دى لوثينا أن العمـل قـد انتهى فى عـام ٧٥٠ هـ — ١٣٤٩ م حيث تشـير الى ذلك اللوحة التذكارية التى كانت منصوبة على واجهة المدرسة ، والباقية حتى اليوم فى متحف الآثار بغرناطة . كان العمل قـد بدأ منذ مـدة طويلة — ترجع الى عشر سنوات على الأقل ، حيث أننا نعرف أن يوسف الأول قام بعزل الحاجب رضوان وسجنه فى ٢٣ يناير ١٣٤٠ م ، وأن هـذا لم يعد الى سلطته الا فى ١٩ أكتـوبر ١٣٤٩م ، وحيث أن المدرسـة

---

(٦٠) ابن الخطيب : الاحاطة — جـ ١ ص ٥٠٦ — ٥١٣ .

كانت بدايتها على يد الحاجب رضوان ، فمن الضرورى أن يكون ذلك العمل قد بدأ قبل الثالث والعشرين من يناير عام ١٣٤٠ (٦١) .

وليس من السهل مجاراة الباحث الأسبانى فى هذا الرأى ، وخاصة اذا كان الأمر يتعلق بمؤسسة ليست من الضخامة بحيث تستغرق كل هذه المدة الزمنية ، علاوة على أن الكتب التاريخية لم تشر الى ذلك أية اشارة ، يستدل منها على بدء البناء فى المدرسة قبل ذلك بعشر سنوات وخاصة أن النظامية فى بغداد لم يستغرق بناؤها أكثر من عامين فقط .

ان التعبير الذى استخدمه ابن الخطيب للدلالة على ذلك ليس واضحا جدا ، فالكلمة « أحدث المدرسة » لا تعنى بالضرورة « بنى المدرسة » بقدر ما تعنى « أوجد المدرسة » ، خاصة اذا كان ابن الخطيب قد استعمل الفعل « بنى » عند حديثه عن مدرسة مالقة ، ومن المحتمل أن المبنى كان قائما ، وأن الحاجب رضوان قد قام بتخصيصه لهذا الغرض مدخلا عليه التعديلات اللازمة من زخرفة أو غير ذلك ، وبالتالى فالأمر لا يحتاج الى وقت طويل ، ويكون ذلك قد تم خلال عامى ٧٤٨ و ٧٤٩ هـ ، حيث كان الحاجب فى تلك الفترة يتمتع بسلطة حقيقية ، فنراه قائدا لجيوش غرناطة ، فى حملتها ضد حصن قنيط(٦٢) .

أما الاحتمال الثانى ، فهو حيث أن كلمة « أحدث » لا تستبعد قيامه بالبناء ، فاننى أميل الى اعتبار عام ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م ، العام الذى بدأ فيه الحاجب مشروع المدرسة ، وبالتالى من المعقول أن يستمر البناء فيها عاما أو عامين .

أما تاريخ الانتهاء من بناء المدرسة فهو أيضا مثير للتساؤل ،

---

(61) Seco de lucena : El Hayib Ridwan y Granada; p. 295 — al Andalus XXI (1956) 285—296.

(٦٢) شبانة : يوسف الأول « الرسالة الثانية » ، ص ٣٣٧ .
Seco de Lucena : Op. Cit., p. 293.

الرغم من اللوحة التذكارية التى تحـدد افتتاح المدرسـة فى عام
٠ هـ ــ ١٣٤٩ م (٦٣) ، وهنا سببان لمثل هـذا الشك : السبب الأول
أبا الحسن بن الجياب ، المتوفى فى شوال من عام ٧٤٩ هـ / يناير
١٣ م ، قـد كتب الأبيات التالية ، التى يؤكد المقرى ، أنها كتبت
، باب المدرسة العلمية بغرناطة :

يا طالب العـلم هـذا بابه فتحـا
فادخل تشـاهد سـناه لاح شمس ضحى
واشـكر مجيرك من حـل ومرتحـل
اذ قرب اللـه من مرماك ما نزحـا
وشرفت حضرة الاسـلام مدرسـة
بهـا سبيل الهـدى والعلم قـد وضحا
أعمـال يوسـف مـولانا ونيتـه
قـد طرزت صحفا ميزانهـا رجحا (٦٤)

لم تظهـر هـذه الأبيات ضمن ما نقله الموريسكى الونسو ديل
ستليو ، مما يسبب مشكلة التناقض مع قول المقرى ، بأنها كانت على
ب المدرسة وعدم ظهورها ضمن ما نقله هذا الموريسكى ــ والاشكال
انى يتجلى فى قول المقرى بأنهـا كانت على باب المدرسة العلمية ،
، يعنى ذلك وجود مدرستين ؟ ان ذلك قـد يحل مشكلة التناقض
ار اليه ، لكن نص مرسوم افتتاح المدرسة القائل : « أمر بناء هذه
ار للعـلم » ، يمكن أن يفسر قول المقرى بأنها على باب المدرسـة
لمية دون أن يعنى ذلك وجود أخرى ، وتبقى المشكلة معلقة ، بالضبط
شرحها البروفيسور كابانيلاس .

(63) Levi Provencal : Inscrepciones Arabes de Granad pp. 158 , 159.

(٦٤) المقـرى : نفح الطيب ــ جـ ٧ ، ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
Rubiera; Mo. Jesus : **Ibn al Yayyab y su época** (Tesis Doctoral inédita; Madrid 1972).

والسبب الثانى هو ما جاء فى ترجمة محمد بن محمد بن محارب الصريحى المتوفى فى عام ٧٥٠هـ — ١٣٤٩م ، من أنه دخل غرناطة مرات، متعلما وحاجا ودعى للاقراء بمدرستها النصرية عام ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطانى ، واعتذر بما قبل فيه عذره (٦٥) .

ونستنتج من هاتين الملاحظتين ، أن المدرسة كانت قد تمت تماما خلال عام ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨ م ، وان كان افتتاحها الرسمى قد تأجل حتى الشهر الأول من عام ٧٥٠ هـ (٢٢ مارس — ٢٠ أبريل ١٣٤٩ م) .

أوقف الحاجب رضوان على المدرسة الرباع المغلة ، وسبب لها الفوائد ،وجلب اليها الماء من النهر ، حتى جاءت نسيجة وحدها ، بهجة وصدرا وظرفا وفخامة .

ويبدو أن أوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى أن الأمر قد استدعى أن يعين لها مسئول مخصوص هو محمد بن قاسم بن أحمد بن ابراهيم الأنصارى (توفى بعد عام ٧٧٠ هـ) ، الذى يقول عنه ابن الخطيب :

وهو الآن مستوطنا حضرة غرناطة ، وتاليا للأعشار القرآنية بين يدى السلطان ، أعزه الله ، مرفع الجانب ، معزز الجراية بولاية أحباس المدرسة (٦٦) .

ولابد من الاشارة أيضا الى وجود بعض الفنادق المجاورة للمدرسة والتى كانت محبسة على بعض مساجد غرناطة ، مما يعطى الاحتمال فى استعمالها لصالح المدرسة لمبيت الطلبة والغرباء (٦٧) .

---

(٦٥) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
التنبكتى : نيل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .
(٦٦) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ٣ ، ص ١٩٦ — ١٩٩ .
(67) Seco de Lucena : Notas de Arqueologia de Granada (Cuadernos dr Alhambra No. 6 MCMLXX. : .
Vellanueva; C. : Habices de las Mezquitas la ciudad de Granada y sus Alquerias, pp. 27 , 28.

ولقــد زخرفت المدرســة بالأبيات الشعرية والآيات القرآنية ، ملت على بابهــا كثيرا من الأبيات الشعرية ، فعلاوة على أبيــات ، الجياب الأربعة التى يؤكد المقرى أنها كتبت على باب المدرســة ، ‌ الينا الموريسكى « ألونسو ديل كاستيو » ، المترجم الرسمى لبلاط ك الأسبانى فيليب الثانى (٦٨) ، ثلاثة أبيات من الشعر وجدت على اب الرئيسى للمدرسة ، وهى :

انظــر الى روض عجيب المنظــر
قــد راق حســنا لامحــا فى المحجر
وتأمل البــــاب النســيج صــناعته
تبــدى الجــلال بوضــعه المتخــير
وادخــل عليــه للصــــلاة مبــادرا
لتفــوز انعـــاما بيــوم المعشر (٦٩)

أما فى الرواق الداخلى فقد وجــد نفس الرجل الأبيــات التسعة اليــة :

ألا هكــذا تبنى المدارس للعــــلم
وتبقى عهــود المجــد ثابتة الرســم
ويقصــد وجــه الله بالعمــل الرضــــا
وتجنى ثمــار العــز من شــجر العــزم
تفــاخر منى حضرة المــلك كلمــــا
تقــدم خصــم فى الفخــار الى خصــم
فأجــدى اذا ضن الغمــام من الحيــــا
وأهــــدى اذا جــن الظــلام من النجم

---

(٦٨) انظــر :
Cabanelas; D. : Inscricion Poetica de la Antigua Madrasa granadina, pp. 14, 15.
(٦٩) نفس المصدر ، ص ١٢٨ .

فيــــا ظاعنـــا للعـــــلم يطلب رحــــلة
كفيت اعتراض البيـــد أو لجج اليـــم
ببـــــابى حــط الرحــل لا تنــو وجهــة
فقـــد فزت فى حــال الاقامة بالغنــم
فــكم من شـــــهاب فى ســمائى ثاقــب
ومن هــــالة دارت على قــمرتــم
يفيضــون من نــور مبين الى هـــــدى
ومن حكمــة تجلو القــلوب الى حــــكم
جزى اللـــه عنى يوســفا خــير ما جزى
ملوك بنى نصر عن الدين والعــــلم (٧٠)

هـــــذا ولقــد حاول المستشرق الأسبانى داريو كابا نيلاس ، التعرف على مؤلف هــذه الأبيات الاثنى عشر ، لكنه لم يصــل الى نتيجة محددة (٧١) ، ولم أستطع أنا أيضا التعرف على شخصية مؤلف الأبيات الثلاثة الأولى ، التى أوردها ألونسو دل كاستيو ، فى حين يؤكد المقرى أن الأبيات التسعة الأخرى ، هى لابن الخطيب ، وأنها كتبت على المدرسة النصرية بغرناطة (٧٢) .

وليست لدينا بيانات كافية ، تساعد على رسم صورة لما كانت عليه المدرسة ، ولكن يمكن أن نتخيل البناء من واقعه الحالى ، ومما تقدمه لنا مدارس شمال أفريقيا ، بأنه كان محتويا على بهــو واســع تحيط به رواقات جانبيــة تســتخدم للتدريس ، وأنه يحتوى على طابق علوى

---

(٧٠) المقــرى : نفح الطيب ــ ج ٩ ، ص ١٨٦ .
أزهار الرياض ــ ج ١ ، ص ٢٧٢ .
P. Cabanelas, D. : Inscripcion Poetica, p. 20.

(71) Cabanelas, D. : Inscripcion Poetica de la antigua Madrasa, pp. 23 , 24.

(٧٢) المقــرى : نفح الطيب ــ ج ٩ ، ص ١٨٦ .
أزهار الرياض ــ ج ١ ، ص ٢٧٢ .

يستخدم لمبيت الطلبة الغرباء الواردين الى المدرسة . وعلاوة على ذلك، وفى نهاية الفناء الكبير ألحق بالمدرسة مصلى صغير لاقامة الصلاة ، وهذا الجزء من المدرسة هو الذى تبقى على صورته الأصلية حتى يومنا (٧٣) . وتؤكد الوثائق وجود مساكن للطلبة الى جوار المدرسة(٧٤).

وعلاوة على ذلك ، ألحق بالمدرسة مكتبة خاصة بها ، وتعهد سلاطين غرناطة هذه المكتبة بامدادها بالكتب — ومن الكتب التى وقفت على هذه المدرسة فى فترات لاحقة ، كتاب الاحاطة لابن الخطيب ، حيث أمر سلطان غرناطة بوقفه على المدرسة فى عام ٨٢٩ هـ ، ولقد كتب صيغة هذا الوقف الفقيه الغرناطى الكبير ابن عاصم (٧٥) ، وهناك كتب أخرى تم وقفها على المدرسة مثل كتاب « الاشارات والتنبيهات » وكتاب « ابن معط » (٧٦) .

ولقد قام بالتدريس فى المدرسة مجموعة من كبار الأساتذة مثل قاسم بن لب ، حامل لواء التحصيل ، ومحمد بن على الخولانى أستاذ الجماعة وشيخ النحاة فى عصره ، ويحيى بن أحمد بن هذيل ، آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ... الخ .

ويلاحظ أن مدرسة غرناطة تختلف عن بعض المدارس المشرقية من حيث عدد المدرسين الذين يعملون بها فى وقت واحد فبينما نجد أن النظامية يتولى التدريس فيها مدرس واحد هو الشيخ الشيرازى ، نرى أن مدرسة غرناطة مختلفة أيضا ، ففى الوقت الذى كان التجيبى (توفى ٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م) يدرس العلوم العقلية ، كان الخولانى

---

(٧٣) عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ، ص ١٧٢ .

(٧٤) منيانويفا : أحباس المساجد بمدينة غرناطة ، ص ٢٧ .

(٧٥) ابن الخطيب : نفح الطيب — ج ٩ ، ص ٣٠٨ — ٣١١ .
المقرى : ازهار الرياض — ج ١ ، ص ٥٥ .

(٧٦) الطوخى : الحياة الثقافية فى غرناطة ، ص ٣٠٢ .
(رسالة دكتوراه لم تطبع بعد) .

(توفى ٧٥٤ هـ — ١٣٥٣ م) يــدرس النحــو والآداب ، والسيارى (٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م) يدرس الفقــه • والحقيقة أن مدرسة غرناطة قــد ضمت بين جدرانهــا كبار الشيوخ على عهــدها ، ولم يكن من السهل القيام بالتدريس فيها فهى أنوه مواضــع التدريس بالحضرة كما يقــول ابن الخطيب فالســلطان شخصيا يتدخل فى ذلك ، ولابد من توصية أحــد كبار العلماء مثلما حــدث مع منصور الزواوى الذى أوصى به شيخ النحاة الخولانى (٧٧) ، وأقدم فيما يلى ترجمــة لبعض أساتذة المدرسة ، الذين أمكننى التأكد من قيامهم بالتدريس فيها :

ابراهيم بن على بن محمــد الربيعى التــونى
(توفى فى عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ — ١٤٧٠ م)

ذكره جورج مقدسى من بين مدرسى المدرســة النصرية ، ضمن مقاله عن المدرسة فى أسبانيا •

ويقول عنه السخاوى انه من تلاميذ القاضى عبد القادر المــالكى ، درس الفقه وأصوله ، وأذن له فى تدريسهما (٧٨) •

ابراهيم بن محمــد بن فتــوح العقيلى الأندلسى
توفى : ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م

هناك اختلاف كبير فى تاريخ وفاته حيث ورد فى نيل الابتهاج وفى الضــوء اللامع أنه عام ٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ م ، وفى درة الحجال ، أنه عام ٨٦٩ هـ — ١٤٦٤ م •

---

(٧٧) ابن الخطيب : الاحاطة — جـ ٣ ، ص ٣٢٨ •

(78) Makdese, George : The Madrasa in Spain, Some Remarks, p. 154.

Revue de L'Occident Musulman et de la Mediterranée Numeros 15—16 2o. Semestre 1973.

ويقال عنه ، انهكان مفتى غرناطة المالكى ، وكان اقراؤه بالمدرسة وهو أنوه مواضع التدريس بغرناطة (٧٩) •

ابو جعفر احمد بن على بن محمد بن خاتمة الانصارى
توفى : ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م

يقول عنه الدكتور شبانة ، انه من أشهر أساتذة المدرسة (٨٠) ، ثم يعود ليؤكد منجديد ، أنهأوقف جزءا منحياته علىخدمة مدرسةغرناطة، حيث درس لتلاميذها (٨١) ، وفى موضع ثالث يقول : أنه قضى شطرا هاما من حياته بمدرسة غرناطة (٨٢) ، لكن لم يتبين لى من أى مصدر آخر أن ابن خاتمة عمل بالمدرسة ، وانما عمل كثيرا فى مسجد المرية •

وأورد ابن الخطيب ترجمة طويلة جـدا من ٢٠ صفحة كاملة ، عن صديقه ابن خاتمة ، لم يشر فيها الى أنه عمل بالمدرسة ، وانمـا أشـار الى أن مجيئـه الى غرناطة ، كان لمجـرد الزيارة فى بعض الأحيان(٨٣) • كما أن ابن الأحمر لم يشر الى ذلك اطلاقا (٨٤) •

وفى درة الحجال لم يشر اطلاقا الا أنه عمل بمدرسة غرناطة(٨٥) •

هذا ولقد كتبت السيدة سوليداد خيلبرت ، مقدمة قيمة لتحقيقها لديوان ابن خاتمة ، أشارت فيها الى كافة المصادر التى تناولت حياةهذا المعلم الالمرى : تاريخ ميلاده ، وفاته ، أعماله الأدبية ، علاقته بابن

---

(٧٩) ابن القاضى : درة الحجال ، ص ١٠٥ •
السخاوى : الضوء اللامع — ج ١ ، ص ٣٠ •
التنبكتى : نيـل الابتهاج ، ص ٥٤ •
(٨٠) كمال شبانة : يوسف الأول ، ص ٩٩ •
(٨١) شبانة : نفس المصـدر ، ص ١٥٧ •
(٨٢) انظر تعليقه على ترجمة المؤلف ضمن كتاب « أوصاف الناس » لابن الخطيب ، ص ٦٩ •
(٨٣) ابن الخطيب : الاحاطة — ج ١ ، ص ٢٣٩ — ٢٥٩ •
(٨٤) ابن الأحمر : نثير الجمـان ، ص ١٧٥ •
(٨٥) ابن القـاضى : درة الحجال — ج ١ ، ص ٤٠ •

الخطيب ، ترجمة لنصوص الرسائل المتبادلة بينهما ، ولم تشر فى أى موضـــع من دراستها الى أنه قـــد عمل مدرسا بالمدرسة الغرناطية ، وأن أهم ما قبله من مناصب هو الاقراء بجامع المرية ، وأنه ربما قـــد شغل منصب كاتب لفترة قصيرة جـــدا (٨٦) .

الفقيه ابو محمد بن عبد الله بن ابى القاسم بن جزى
من اهـــل غرناطة
توفى : ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م

أديب ، حافظ ، قام على فن العربيـــة ، مشارك فى فنون لسانية سواه ، طرف فى الادراك وهو اليوم بمدرسة الحضرة ، يعرب فيغرب ، يباهى به على المشرق والمغرب (٨٧) .

فرج بن قاســـم بن لب الثعلبى
من اهـــل غرناطـــة
توفى : ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م

حامل لواء التحصيل ، عليه مدار الشورى ، واليه مرجع الفتوى ببلده لغزارة حفظه ، وقيامه على الفقـــه ، واضطلاعه بالمسائل ، الى المعرفة بالعربية واللغة ، والمران فى التوفيق ، والقيام على القراءات ، والتبريز فى التفســـير ، والمشاركة فى الأصـــول والفرائض والأدب ، جيد الحفظ ، قعد ببلده للتدريس على وقور المسجد ، ثم استقل بعد ، وولى الخطابة بالمسجد الأعظم ، وأقرأ بالمدرسة النصرية فى ٧٥٤ هـ —

---

(86) Gibert, Soledad : El Diwan de Ibn Jatima de Almeria. el prologo (Barcelona 1975) .

(٨٧) ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة ، ص ٩٦ .
ابن الخطيب : الاحاطة — جـ ٣ ، ص ٣٩٢ .
البغـــدادى : هدية العارفين — جـ ٢ ، ص ١٦٠ .

١٣٥٣ م ، معظما عند الخاصة والعـامة (٨٨) .

محمـد بن ابراهيم بن محمـد السيارى
ويعـرف بالبيـانى
يكنى ابا عبد الله
من اهـل غرناطـة
توفى : ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

أقرأ الفقـه ودرسه عمره ، وانتصب للفتيا ، وتكلم للجمهور ، وكان مرجعا فى المشكلات ، ومستشارا فى الأحكام ، يقوم على الفقـه أحسن قيام ، عاكفا على تدريسه مكبا على تبيينه ، سهل الألفاظ ، حسن التعليم ، يشارك فى العربية والفرائض والأصول .

قرأ على الأستاذ الكبير أبى جعفـر بن الزبير ، وعلى الخطيب المحدث أبى عبد الله بن رشيد ، وأخذ عن أبى الوليد الحضرمى .

وتوفى ، رحمه الله ، مدرسا بالمدرسة النصرية ، وخطيبا بمسجد المنصـورة (٨٩) .

---

(٨٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٤ ، ص ٢٥٣ .
أوصاف الناس فى التواريخ والصـلات ، ص ٣٢ .
التنبكتى : نيـل الابتهـاج ، ص ٢١٩ .
ابن فرحون : الديباج ــ جـ ٢ ، ص ١٣٩ .
السيوطى : بغيـة الوعاة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .
ابن الأحمر : نثير الجمـان ، ص ١٨٦ ــ ١٩٦ .
ابن بطوطة : الرحلة ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ .
ابن القاضى : درة الحجال ، جـ ٢ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
المقـرى : النفح ، جـ ٨ ، ص ٢٦ .
شبانة : يوسف الأول ، ص ١٦٤ .
(٨٩) ابن فرحون : الديباج ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المـائة الثامنة ، جـ٣ ، ص٣٨٢ .
ابن القاضى : درة الحجال ، جـ ١ ، ص ١٧٢ .

ابو عبد الله محمد بن ابى الفضل البسطى

أشـار لويس سيكو دى لوثينا فى مقـالة له عن شـهادة طبية فى صالح أحـد أطباء غرناطة فى نهاية القرن الخامس عشر بأن هـذا الرجل كان مدرسا بالمدرسة الغرناطية قائلا بالحرف ما يلى :

« الفقيه المشهور ، المدرس بالمدرسة الغرناطية » ، لكن المقرى يشير الى الرجل بلقب « المدرس » فقط دون تحديد ما اذا كان مدرسا بالنصرية أو المسـجد الجامع . لكن اذا كان ذلك حقيقة وأن البسطى كان مدرسا بالمدرسة النصرية فهو ، اذن ، آخر مدرسى هـذه المدرسة قبل وقوعها فى أيدى الملكين الكاثوليكيين لأن هـذا الرجل كان شاعر لبلاط المفضل ، لدى أبى عبد اللـه ، آخر ملوك غرناطة (٩٠) .

محمـد بن احمـد بن محمد بن ابى بكر
ابن مرزوق
من اهـل تلمسان
توفى : ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م

قدم الأندلس ، موفدا من أبى الحسن المرينى ، واجتذبه سلطانها رحمـه الله ، وبقى فى غرناطة ، قلده السلطان الخطبـة فى مسجده عام ٧٥٣هـ ـــ ١٣٥٢م ، وأقعده للاقراء بالمدرسة فىحضرته ، ثم انصرف بعد ذلك من الأندلس فى أواخر عام ٧٥٤ هـ ـــ ١٣٥٣ م (٩١) .

---

(٩٠) المقـرى : ازهار الرياض ، جـ ١ ، ص ١٠٣ .
Seco de Lucena : El titulo profisional de un médico del S. XV, p 25.

(٩١) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .
التنبكتى : نيـل الابتهـاج ، ص ٢٦٨ .
المقـرى : النفح ، جـ ٧ ، ص ٣٢٧ وما بعدها .
ابن تنفـذ : شرفة الطالب فى اسـمى المطالب ، ص ٨٦ .

محمـــد بن على بن احمـد الخولانى
توفى : ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م

كان أستاذ الجمـاعة ، عاكفـا على العلم ، ملازما للتدريس ، امام الأئمة غير مدافع ، مبرزا ، امام أعلام البصريين من النحاة ، منتشر الذكر ، بعيد الصيت ، عظيم الشهرة ، مستبحر اللفظ ، يتفجر بالعربية تفجر البحر ، لا يشكل عليه منها شكل ، ولا يعوزه توجيه ، جـــدد بالأندلس ما كان قـــد درس من لسان العرب ، من لدن وفاة أبى على لشلوبين (٦٤٥ هـ ـــ ١٢٤٧ م) ، وكانت له مشـــاركة فى غير صناعة العربية من قراءات وفقه ، وعروض ، وتفسير ، وتقدم خطيبا بالمسجد الأعظم ، وقعـــد للتدريس بالمدرســـة النصرية ، وقل فى الأندلس من لم يأخذ عنه من الطلبة ، وخرج ودرب وأجاز ، لا يأخذ على ذلك أجرا ، خصوصا فيما دون البداية ، الا الجراية المعروفة (٩٢) .

محمـــد بن محمد بن محارب الصريحى
المتـــوفى : ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م

كان اماما فى الفرايض والحساب ، قايمـــا على العربية ، مشاركا فى الفقه والأصول وكثير من العلوم العقلية ، قعد بمالقة للاقراء .

دخل غرناطة مرات متعلما وطالب حج ، ودعى للاقراء بمدرستها النصرية عام ٧٤٩ هـ ـــ ١٣٤٨ م ، فقدم على الباب السلطانى ، واعتذر بما قبل فيه عذره .

توفى فى مالقة فى ربيـــع الآخر من عام ٧٥٠ / ١٣٤٩ م ، بعـــد أن تصـــدق بمال كثير ، وعهـــد بربع مجيد لطلبة العلم وحبس عليهم

---

(٩٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .
المقـــرى : نفح الطيب ، جـ ٧ ، ص ٢٧٥ ـــ ٢٨٠ (الخامس ص٣٨٣ ت احسان عباس) .
البغـــدادى : هـــدية العـــارفين ، جـ ٢ ، ص ١٥٩ .

كتبـــه (٩٣) .

منصور بن على بن عبد الله الزواوى

له مشاركة حسنة فى كثــير من العلوم العقلية والنقلية . ونظــر فى الأصول والمنطق والكلام ، ودعوى فى الحساب والهندسة والآلات .

قـــدم الأندلس فى عام ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م ، فلقى رحبا ، وعرف قدومه ، فتقدم مقرئا بالمدرسة تحت جراية نبيهة وحلق للناس متكلما على الفـــروع الفقهيـــة والتفسير ، وأخـــرج من الأندلس فى عـــام ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م (٩٤) .

يحيى بن احمد بن هذيل التجيبى
توفى : ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م

كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس ، وخاتمة العلمـــاء بهـــا من طب وهندسة وهيئة وحساب وأصـــول وأدب ، الى امتاع المحاضرة وحسن المجالسة وعموم الفائدة .

خـــدم أخيرا باب السلطان بصناعة الطب ، وقعـــد بالمدرســـة بغرناطة يقرىء الأصول والفرائض والطب (٩٥) .

---

(٩٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .
التنبكتى : نيـــل الابتهاج ، ص ٢٤٩ .
(٩٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٣٢٥ .
التنبكتى : نيـــل الابتهـــاج ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
(٩٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠ .

(ب) مدارس غرناطية اخــرى غير النصرية :

يقــدم لنا ابن الخطيب فى كتابه الاحاطة ملاحظة هامة ، وذلك عند حديثه عن ما أنجــزه سلطانه محمد الخامس « الغنى باللــه » ، وذلك بعد عودته من المنفى فى المغــرب ، فى عام ٧٦٣هـ / ١٣٦١م ، مفادها أن السلطان قــد أعطاه تصريحا ببناء مدرســة وزاوية وتربة فيقــول :

... الى موافقته اياى ، وتسويغه ما اخترعته باذنه ، وأجريتــه بطيب نفسه من اتخاذ المدرسة والزاوية وتعيين التربة ، مغيرا فى ذلك كله على مقاصد الملوك (٩٦) .

وفى نص آخر ورد بالاحاطة أيضا ، نرى ابن الخطيب ، بعــد محنته ، ينوى أن يغير من أسلوب حيــاته ، وأن يبتعد عن السياسة ، وأن يعكف على حياة أخرى فيقول : ثم صرفت الفكر الى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه العظة (٩٧) .

ولكن : هل وصل الأمر بابن الخطيب الى تحقيق أحد المشروعين ؟ اننى أعتقد أن هــذه المشروعات لم تخــرج الى حيز التنفيذ ، حيث لم يشر الى ذلك أى كتاب تاريخى أو معمــارى عن غرناطة ، هــذا ولقــد قام الدكتور مختار العبادى بدراسة عصر محمد الغنى بالله ، وتردد اسم المدرســة اليوسفية فى بحثــه ثلاث مرات ولم يشر الى أية مدرسة أخرى تم انشاؤها على عهد هــذا السلطان (٩٨) ، كما أن الدكتور أحمد الطوخى قــد قــدم رسالة دكتوراة عن الحياة الثقافية فى غرناطة ولم يشر اطلاقا الى أية مدرسة أخرى (٩٩) غير المذكورة ،

---

(٩٦) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٢ ، ص ٥١ .

(٩٧) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٠ .

(98) Al Abbadi, M., El Reino de Granada, pp. 170, 171 Y 203.

(٩٩) الطوخى : الحياة الثقافية بمملكة غرناطة (رسالة دكتــوراه بجامعة الاسكندرية) .

وكذلك كتاب المستشرق الأسبانى سيكو دى لوثينا « غرناطة فى القرن ١٥ » [100] ، لم يقدم لنا أية معلومات فى هذا المجال ، مما يؤكد أن هذه المدارس لم تصل الى حيز التنفيذ .

كما وجدت فى أسبانيا بعد انتهاء حروب الاسترداد ، بعض المدارس الخاصة بالموريسكيين والمدجنين ، وهناك وثائق مؤكدة عن وجود هذه المدارس فى سرقسطة وغرناطة ولكن لن نتناولها هنا بالدراسة ، وسنقدم فقط الوثيقة الدالة على وجود مدرسة سرقسطة وبقائها حتى سقوط غرناطة تقريبا .

الرحلات

الرحلة سمة من أهم سمات التعليم الاسلامى فى العصور الوسطى ، وتتلخص فى قيام الطلاب بالانتقال من مكان الى آخر بحثا عن مزيد من العلوم ، وعن أفضل المعلمين المنتشرين فى كافة بلاد العالم الاسلامى .

وتعتبر الرحلة من أعلى مراحل التعليم ، كما أنها لعبت دورا هاما جدا فى توحيد ثقافة العالم الاسلامى وتنشيطها ، حتى وصل بعض المؤرخين الى وسم هذا التعليم بالحركة ، يقول الدكتور ميكل دى ابالثا « الحركة هى أهم مميزات التعليم الاسلامى ، ويتجلى هذا فى الرحلات ، من أجل اقتناء العلم » [101] .

ولقد كان الحج ، وهو فرض دينى أساسى ، عاملا أساسيا فى تشجيع الرحلات من كافة أنحاء العالم الاسلامى فى اتجاه مكة والحجاز ، ومساعدا على الاجتماع واللقاء بين المسلمين من كافة أنحاء المعمورة .

---

(100) Seco de Lucena. L. : La Granada Nazari del Siglo XV.

(١٠١) ابالثا : التعليم العالى فى القرون الوسطى الاسلامية ومقارنته بالتعليم الحاضر — محاضرة القيت فى ملتقى الامام المورزى بتونس .

ولكن لم يقتصر الأمــر فقط على الرغبة فى الوفاء بالواجبــات
دينية ، اذ أنه فى مرحلة لاحقة ، أصبحت الرحلة بغرض العلم ، هدفا
، حد ذاتها • ويرى الدكتور محمود على مكى ، أن الحماس للحصول
ى علوم جديدة كان واحــدا من أهم دوافع التأثير فى القيام بهــذه
حلات ، حقيقــة كان هناك رحالة يهدفون الى أداء الفرض الدينى
كما بينا — أو الحصــول على منافع مادية — كمــا سنبين — لكن
'هتمام الأكبر لهؤلاء كان بغرض هضم التعليم المشرقى (١٠٢) •

وهناك نوعان من الرحلات : رحلات الأساتذة ورحلات الطلاب ،
ختلف دوافــع النوع الأول عن الثانى ، فالأســاتذة يرحلون من
ن الى مكان طلبا للشهرة أو الجاه ، أو فرارا من الاضطهاد ، أو بحثا
مكان أكثر ملاءمة لأفكارهم وآرائهم ، وهــذه الرحلات قــد أخذت
ر من اتجــاه ففى بداية الأمر كان انتقــال المعلمين يتم من وسط
ـالم الاسلامى الى أطرافه ، وفى مرحلة لاحقة حين نهضت هــذه
صار وظهر بها كثير من العلمــاء أصبحت اتجاهات الرحلات متعددة
، الأطراف الشــمالية الى الوسط والى الجنوب ومن الجنوب الى
سط والى الشمال ، ومن الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق
عكس •

أما رحلات الدارسين فهى أيضا ارتبطت بحركة رحلات المعلمين
رت بهــا ، لأن العامل الأساسى المحرك لهــا كان فى شهرة معلم
سهرة مدينــة ما •

أما بالنسبة لطلاب الأندلس ، فان ظروف الأندلس الجغرافية قد
ت اتجاهها نحو المشرق ، مرورا بالشمال الأفريقى وتونس ومصر
. الشام ثم الاتجاه الى العراق وبلاد الحجاز ، أو ركوب البحر
مصر ومنهــا الى بلاد الشام ، عبر سيناء ، أو الى بلاد الحجــاز

---

(102) Makki, M. C. : Las aportaciones Orientales, p

عبر البحر الأحمر دون أن يعنى ذلك اقتصار هذه الرحلات على هذه الأماكن وانما تجاوزتها الى المناطق الشرقية من العالم الاسلامى •

وتنقسم الرحلات الى قسمين رئيسين : الرحلات الداخلية ، والرحلات الخارجية ، والداخلية منها تنقسم فى نفسها ، الى رحلات داخل الاقليم ذاته ، أو داخل المصر بأكمله ، والرحلات الخارجية أيضا تتنوع ، فهناك الرحلة الى بلد معين أو الى بلاد كثيرة ، وهناك الرحلة الى أقطار قريبة أو الى أقطار بعيدة جدا •

والرحلات الداخلية تتم فى داخل الاقليم الواحد ، أو المصر الواحد ، وفى هذه الحالة يكون الاتجاه دائما من موطن الطالب الى المدن الرئيسية ، وخاصة عاصمة الاقليم ، التى كانت تتمتع دائما بكبار المعلمين ، كما تتيسر فيها أحوال المعيشة ، ولقد وجدت فى الاندلس عواصم أقاليم ذات شهرة عظيمة جدا مثل أشبيلية ، طليطلة ، سرقسطة ، مرسية ، غرناطة ، جيان ، بطليوس ، بلنسية •

ومن عاصمة اقليم الى عاصمة اقليم آخر ، ومن هذه العواصم كلها الى حاضرة المصر ، وفى الأندلس ، كانت قرطبة على عهد الخلافة ، محط الرحال ومطمح كافة الطلبة الأندلسيين • أما فى عصر ملوك الطوائف ، فان كل عاصمة من عواصم الملوك تمتعت بمميزات لم تنعم بها غيرها حسب قدرة كل ملك ، على أن يجذب لعاصمته من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء ، فقد احتلت أشبيلية مكان الصدارة على عهد الموحدين ، ثم غرناطة على عهد أسرة بنى نصر •

أما الرحلات الخارجية فكانت تتجه دائما الى عواصم الأمصار الاسلامية المشهورة مثل القيروان فى تونس والاسكندرية والقاهرة بمصر ، وبغداد والكوفة والبصرة بالعراق ، ومكة والمدينة بالحجاز ، ولقد اتجه الأندلسيون دائما الى هذه المدن للتعلم على أساتذتها ولجلب الكتب منها •

ولكن فى فترة لاحقة ، حينما أصبحت قرطبة فى مستوى يضاهى المدن المشرقية ، فاننا نجد أن من الأندلسيين من يكتفى بما يتعلمه فى هذه المدينة — مثلا : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى ، وهو من أكبر علماء الأندلس خلال القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، لم يخرج من الأندلس ، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ، ومن الغرباء القادمين اليها (١٠٣) .

ولقد تحولت قرطبة الى مركز جذب ، حيث جاءها الطلاب والدارسون من كافة أنحاء العالم الاسلامى ، فيقال عن عبد الرحمن ابن محمد بن وليد الأموى : أن سكناه بقرب دور بنى هاشم ، ويصلى بمسجد الصينى (١٠٤) ، مما يدل على اتجاه بعض الرحلات من أقصى الشرق الاسلامى الى الأندلس .

وتتميز الرحلات سواء الداخلية أو الخارجية بطول المدة وكثرة الشيوخ ، الذين يمكن مقابلتهم خلالها ، فنجد أن :

ابراهيم بن هرون بن خلف ، المتوفى ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م ، قد أقام بقرطبة فى طلب العلم أربعين سنة (١٠٥) .

وبقى بن مخلد ، لقى وسمع من مائتين وأربعة وثمانين رجلا ، وابن وضاح من مائة وخمسة وسبعين ، وابن فطين من أكثر من مائتين ، أما ابن حبيب فقد جال فى الأرض ، وقطع طولها والعرض ، وجال فى أكنافها ، وانتهى الى أطرافها (١٠٦) .

ولقد كانت الرحلات الداخلية ، تتم عادة ، قبل الرحلات الخارجية حيث يقوم الطالب بالدراسة على أهل بلده ، وينتقل منها الى المدن

---

(١٠٣) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
(١٠٤) ابن بشكوال : الصلة — ج ١ ، ص ٣٨ .
(١٠٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس — ج ١ .
(١٠٦) المقرى : النفح ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

القريبـــة أو الى عواصم الاقليم ثم الى الحاضرة ، وبعد ذلك يســـعى الى السفر للبـــلاد البعيدة •

ولقد تكفلت الأوقاف ، وأعمال الخير فى كافة البلاد الاســـلامية باعانة الطـــلاب ورعايتهم ، وتمكينهم من التحصـــيل الدراسى ، وفى الأندلس ، كانت أوقاف المساجد كثيرة جدا ، ومما لا شك فيه أن جزءا منها كان يوجه لخدمة الغـــرباء الذين هم فى غالبيتهم من الدارسين •

ولم يكن الطـــالب يرحل الى مدينـــة ما بغرض التعلم على معلم واحد فقط فيها ، مهما علت شهرته ، ولكنه كان يسعى لانتهاز هـــذه الفرصة ، للسماع من أكبر عدد ممكن من الشيوخ فى هذه المدينة ، كما أن الطلبة من كافـــة المدن قد تســـعى الى مدينـــة ما بسبب وجود معلم ما بهـــا •

وفى رسالتى للدكتوراه قمت بتحليل كتابين هما المعجم لابن الأبار ، حيث استخرجت طلبـــة كل مدينـــة ممن رحلوا الى مدينـــة مرســـية للتعلم على الشيخ أبى على الصدفى وكتـــــاب فهرسة ابن خير حيث استخرجت الأساتذة الذين رحل اليهم ابن خير فى مدنهم لتلقى العـــلم عنهم •

وقد قصدت من تحليل الكتابين ، أن أبين حركة الطالب ، أو الطلاب الى أستاذ معين فى مدينـــة ما ، أو الى أكثر من أســـتاذ فى أكثر من مدينـــة ، ولقد رأيت حذف هـــذين الملحقـــين حتى لا أزيد صفحات الكتاب ـــ ويمكن للمتخصصين العودة الى المصدرين ـــ أو رؤية أصـــل الرسالة •

الاجازات العلميـــة :

عند انتهـــاء الطالب من دراسة كتاب ما مع أســتاذ معين ، فان الأستاذ كان يقوم بمنحه اجازة ، تشهد للطالب فعلا بدراسة الكتاب .

والاجازة نوعان ، شفوية وتحريرية ، والأولى أقدم عهـــدا من الثانية ، وأول من منحها هو أبو هريرة الى بشير بن مهنك ، حيث قال : كتبت عن أبى هريرة كتابا ، فلما أردت أن أفارقه قلت : يا أبا هريرة ، انى كتبت عنك كتابا ، فأرويه عنك ، قال : نعم اروه عنى (١٠٧) .

أما الاجازة التحـــريرية ، ففيها قـــد يبين الشـــيخ بالتحـــديد ما يجيزه للطالب أو أن يجيزه باطلاق ، وهنا قـــد يحدد الأستاذ تاريخ مولده ومكانه وأســـماء شيوخه ، وما يجب أن يروى عنه بصفة عامة .

وهناك أيضا اجازات سماع جماعية ، تعطى لمجموعة من الدارسين عند سماعهم كتابا معينا . ويقـــول الدكتور صـــلاح المنجد عن هـــذا النـــوع من الاجازات « بأنه فى الحقيقة ، صورة من الصور التى عرفها العلمـــاء القـــدامى عن الشهادات العلمية التى تمنح اليوم ، والفرق بين السماعات والشهادات أن الأولى شهادات فردية تثبت عند سماع كتاب واحد وأن الثانية تمنح لمجموعة من الدارسين » (١٠٨) .

والاجازة فى أصلها ضـــمان بعلم الطـــالب ، وقدرته على نقـــل هذا العلم ، ولقد بدأت مع علم الحـــديث ، وهو العلم الذى تشـــدد فيه المسلمون كثيرا بسبب ما ناله من تحـــريف ودس وتزييف ، ولذلك وضعت له من القواعد الشديدة أكثر من غيره من العلوم للتأكد من صحة الحديث ، ومن هنا كانت الاجازة للدلالة على صحة نقـــــل الناقل من المنقول عنه ، ثم انتقلت بعد ذلك الى باقى العلوم الأخرى .

---

(١٠٧) عبد الله فياض : الاجازات العلمية عند المسلمين ، ص ٢١ .
(١٠٨) المنجد : اجازات السماع فى المخطوطات ، ص ٢٣٢ .

ولقد وافق مالك بن أنس على منح هـــذه الاجازات ، دون أن يتركها للهوى ، أو غيره من الميول الشخصية ؛ وانما انطلاقا من اعتبارات محـــددة ، أهمها :

١ — أن يكون المدرس صحيح العقيدة ، بين العلم .

٢ — أن تكون النسخة المقروءة قـد روجعت بدقـة شـديدة على نسخة الأستاذ حتى تصبح صورة منها .

٣ — أن يكون الطالب عاكفا على طلب العلم (١٠٩) .

ولكن مع تطور الأيام فقدت الاجازة هـذا المضـمون الهـام ، أقصد بذلك كونها ضـمانا لمعـرفة الطـالب لمـا نقله عن أستاذه ، وأصبحت مجرد شهادة باللقـاء أو السماع ، دون أن تعنى اطـلاقا مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته ، بما حدد له فى الشهادة ، حتى لقد ظهرت بعض الاجازات العامة ، التى تبيح « لمن أحب الرواية عنى من جميع المسلمين من أهل السنة ، ممن هو موجود فى هذه السنة » (١١٠)، فان محمـد بن عبد الرحمن ، المعـروف بابن الوزان ، صاحب الصلاة بجامع قرطبة ، قد سأله أحد أصحابه : أن يجيز له جميع ما يحمـله بأى وجه حمـل ذلك ، وما ألفـه أو وضـعه أو أجاب فيه فى القديم والحديث ، ولجميع أصحابه أهل المجلس وغيرهم من طـلاب العلم ، ولكل من أحب أن يحمل عنه من المسـلمين ممن ضـمه واياه حيـاة فى ذلك العـلم ، فتبسم الشـيخ واستغرب هـذا السؤال ، ثم قال له منشرح الصدر ، طلق الوجه ، ظاهر التبسم ، نعم ، أنا قـد أجـزت لك ذلك كلـه ، ولجميع من سألت ، ممن أحب الحمل عنى من جميـع المسلمين حيث كانوا (١١١) .

---

(109) Ribera, J. : Ho. de la ensenanza...... p. 89.

(١١٠) ابن الابار : المعجم ، ص ١٥٦ .
ابن خير : الفهرسة ، ص ٤٥٥ .

(١١١) ابن الابار : المعجم ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ولقد أصبحت الاجازة شيئا شرفيا ، فالوالد يسعى لكى يحصل لأبنائه على اجازات من كبار الشيوخ الذين يلتقى بهم فى بلده أو فى خلال أسفاره ، كما سنتبين من المخطوط المنشور كملحق لهذا الفصل ، والسلطان لا يمانع فى الحصول على الاجازة من كبار العلماء ، مثلما حدث مع سلطان مصر ، المظفر غازى ، الذى أرسل له ابن عربى المرسى اجازته [١١٢] .

وهى أيضا وسيلة للمهاداة وللتقدير ، والاعتراف بعلم الآخرين ، ومن هنا منح كثير من العلماء والفقهاء اجازاتهم لزملائهم وأقرانهم من كبار العلماء والفقهاء فنجد مثلا أن ابن الخطيب حينما يلتقى بابن صفوان يطلب منه اجازته ، فكتبها له . ونجد نص الاجازة فى الاحاطة [١١٣] .

ويكتب ابن الأحمر الى الفقيه أبى القاسم عبد الله بن يوسف يسأله الاجازة فيمنحه اياها [١١٤] .

كذلك طلبت الاجازة بالمراسلة من كبار العلماء حيث يقوم راغبو الحصول على الاجازة بالكتابة اليهم ، يسألونهم منحهم اياها . يقول ابن الفرضى عند حديثه عن يوسف بن يحيى يوسف الأزدى : المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م ، بأن أحد أصحابه قد رآه ، وقد جاءته كتب كثيرة نحو المائة كتاب من جماعة من أهل مصر بعضهم يسأله الاجازة ، وبعضهم يسأله فى كتاب الرجوع اليهم [١١٥] .

وأكثر الأمور غرابة فى مجال الاجازة هو أن يقوم بعض الفقهاء أو العلماء ، أثناء قيامهم بالرحلة بالحصول على اجازات لأصدقائهم

---

(١١٢) ابن عربى : اجازة ابن عربى للملك المظفر غازى ، الاندلس ، العدد ٢٠ (١٩٥٥) ، ص ١٠٧ — ١٢٨ .
(١١٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(١١٤) ابن الأحمر : مستودع العلامة ، ص ٥٣ ، ٥٤ .
(١١٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

ومعارفهم وعائلاتهم من الأساتذة المشرقيين ، هـذا وتحتوى مكتبـة الأوسكوريال على أغرب نمـوذج فى هـذا المجال ، ففى المخطـوطة رقم ١٩١٩ مكرر ، حزمة أوراق تحتوى على اجازات أساتذة من المشرق، لمجموعة من الطلبة والفقهاء الأندلسيين والمغـاربة ، والجزء الأول منها قام بكتابته محمد بن عمـر بن محمد بن محمد بن ادريس بن رشيد الفهرى فى ١٤ رجب عام ٦٨٤ هـ / أكتوبر ١٢٨٥ م ، بفسطاط مصر ، ويتضـمن الاجازة لحوالى مائة طالب وفقيـه علاوة على عائلة كاتب الاجازات ، وأولهم أبو عبد الله بن المهيمن ، وآخرهم رحمـة ، أخت ابن رشـيد •

ويتجلى من قراءة المخطوط أن طالب الاجازة كان يتنقل من مكان الى مكان لكى يحصل على اجازات المعلمين ، فنراه فى ١٤ رجب فى فسطاط القاهرة ، وفى ١٦ رجب بالقـاهرة المعـزية ، ولكن بعد شهر تقريبـا يحصـل على الاجازات ، من مشـايخ القـدس ، وذلك فى ٢٥ شعبان من نفس العـام •

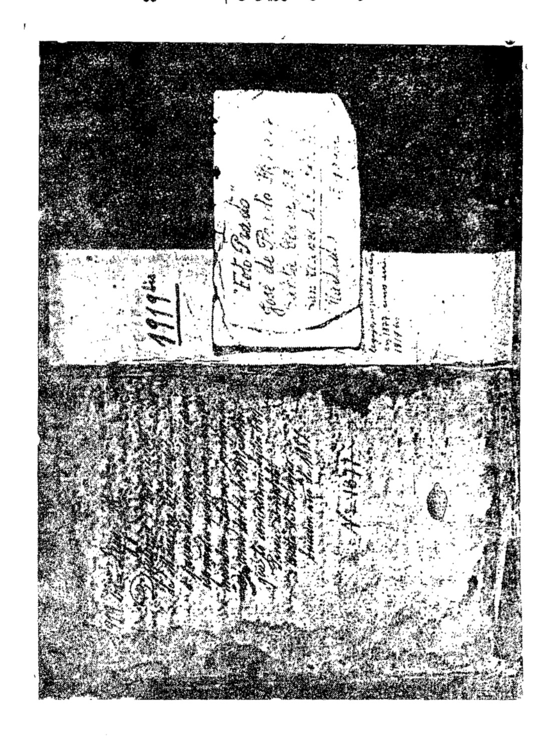
ويتضمن الجـزء الثـانى من المخطـوط أسماء بعض الطلبـة المشرقيين ، والثالث أحضره الشيخ أبو عبد اللـه بن رشيد ؛ وهـو يتناول طلبة من الأندلس وشمال أفريقيا •

وفى المخطـوط يحـدد بعض العلمـاء تاريخ ومكان ميلادهم والعلوم التى يجيزونها ، وبعضهم يحـدد الاسم الأول والأخير من أسـماء القائمة التى يجيزها •

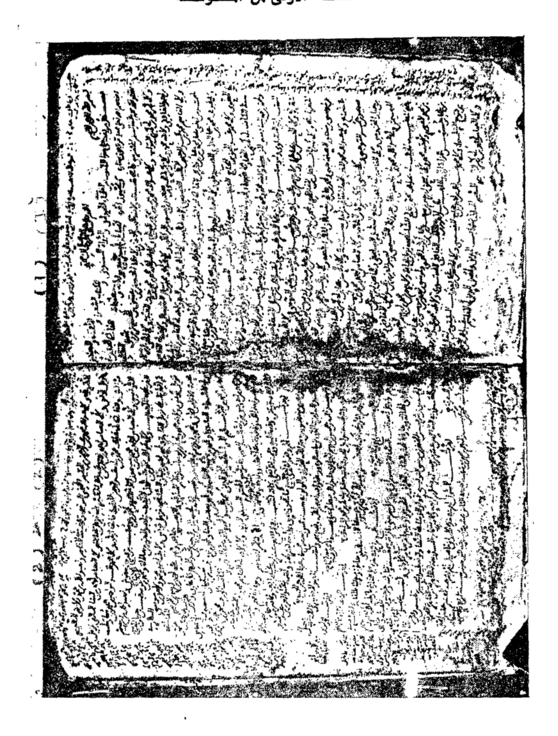
وتتجلى فى المخطوط أيضا أسماء بعض السيدات العالمـات اللاتى يمنحن اجازتهن لنفس المجموعة •

وكافة الاجازات تم الحصول عليها على مدار عام ٦٨٤ و ٦٨٥هـ / ١٢٨٥ و ١٢٨٦ م •

غلاف مخطوطة الأوسكوريال رقم ١٩١٩ مكرر



الصـــفحة الأولى من المخطوطـــة



ومن الأسماء البارزة التى يحتويها هـــذا المخطـوط نجـــد
ـن عبد الملك صاحب كتـاب الذيل والتكملة ، وأبا حيان الأندلسى ،
غيرهما .

وللمخطوط أهمية كبرى حيث يمكنه تقـديم المساعدة للدراسين
ـ تقصى مسار بعض العلمـاء الأندلسيين والمغاربة الى المشرق أو نوع
راساتهم ، وسأكتفى هنا بنشر صورة زنكوغرافية للصفحة الأولى .
ملا العـودة ان شاء اللـه الى تحقيـقه ودراسته ونشره ان أمكن
لك [116] .

---

(١١٦) قمت بنشر قراءة للمخطوط ضمن نص رسالتى الأصلى سواء
ـغتين العربية أو الأسبانية وقـد رأيت أن أحذفه هنا خوفا من اثقـال
ـاب أكثر مما يجب . ويمكن للمتخصصين رؤيته فى نص الرسالة الودعة
مهد المصرى بمدريد والمعهـد الأسبانى ومكتبـة جامعة غرناطة ومدريد
تبـة كليـة التربيـة بالقـاهرة .

المخطوط رقم ١٩١٩ مكرر : حزمة الأوراق والوثائق رقم ٢٦
بمكتبـــة الأوسكوريال

اجازات بعض المدرسين المشرقيين لمجموعة من طلبـــة المغـــرب والأندلس ويحدد النص أسماءهم ، وفى بعض الحالات تاريخ ومكان الميـــلاد وذلك بالنسبة للمدرسين مانحى الاجازات ، مبينا مكان منـــح الاجازة وتاريخ توقيعها • وتقـــع كافـــة الاجازات فى عامى ٦٨٤ هـ و ٦٨٥ هـ / ٨١ — ١٢٨٢ م •

ويبـــدو المخطـــوط كاملا ، نسخة اصليـــة
يتـــكون من ٩ ورقات
تم تجليـــــده فى عام ١٨٨٧ م

هذا ولقد حمـــل هـــذا المخطـــوط فى بادىء الأمر رقم ١٨٧٧ ، ولكن كتب عليه بالأسبانية فى صفحة مستقلة ، أن الرقم ١٨٧٧ ، مما لا يتفق مع واقع المخطوط ، اذ أن رقمه الصحيح هو ١٩١٩ مكرر[١١٧]•

---

(١١٧) خوستيل براوليو : مكتبـــة الأوسكوريال الملكية ومخطوطاتها العربيـــة ، ص ٢٦١ •

الباب الثالث

التعليم الخاص

مقـــدمة :

يقصد بالتعليم الخاص ، ذلك النوع من التعليم الذى يتلقـاه أبنـاء الأمراء والخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء ، وبصفة عامة قيـام الآباء باستئجار المعـلمين لكى يتولوا تعليم أبنائهم . ويقصد بالتعليم الخاص أيضا ذلك النوع من التعليم الذى ليس تعليما عاما مما يقـدم لأبنـاء الشعب ، وان كان لا يختلف عنه كثـيرا من ناحية المحتوى ، ولكن قـد يتميز فى بعض جوانبه مثل سن البداية ، أو مكان تلقى العلم ، أو فى بعض مناحى المنهج بغرض الاعداد لمستقبل معين ، ولقد احتفظت لنا كتب التراجم الأندلسية بمجموعة وافيـة من أسـماء الرجال الذين سعوا الى تأديب أولاد حكام الأندلس وكبـار رجالهم . وعرف هؤلاء المعلمون فى أغلب الأحيان باسم المؤدبين ، وان كان ذلك لا يعنى بالضرورة قصور هـذا اللقب عليهم ، لأننا نجد أن اللقب « مؤدب » انمـا ينسحب أيضا على كثير من المعلمين العاديين ، بل ان اللقبين « مؤدب » و « معلم » ، قـد تبادلا المواضع فى بعض الأحيـان .

وكلمـة الأدب قـد تكون خلقا أو رواية والقـائم بهـا يسمى المؤدب ، والعـلم هو أصل كل خير ، ويرى الجاحظ انما اشتق اسـم المعلم من العلم ، واسم المؤدب من الأدب ، وأن العلم هو الأصـل والأدب هو الفرع (١) .

ولقد اعتاد الباحثون اطـلاق لقب المؤدب على من يتولى تعليم الخواص ، واسم المعلم على من يقوم بالتعليم فى الكتاب بصفة عامة . لكن دراسة كتب التراجم الأندلسية توحى بأن كلمـة مؤدب فى الأندلس قـد اتسعت لتشمل أناسا من غير الذين تولوا التدريس للخاصـة ، بل أنهـا وصلت الى حد اطلاقها على معلم كتـاب ، فقيل عن أحمـد

---

(١) النجار ، ابراهيم : الفكر التربوى عند العرب ، ص ١٢٧ .

ابن شاب ابن عيسى المتوفى ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، من أهل قرطبة ، « كان مؤدب كتاب » (٢) .

محمد بن أحمد الشذونى المتوفى ٣٠٥هـ / ٩١٧م المؤدب ، سكن قرطبة وكان معتنيا بالعلم (٣) .

عبد الله بن نصر الصوفى المتوفى ٣١٥هـ / ٩٢٧م كان مؤدبا فى مسجد أبى علاقة (٤) .

عيسى بن سعيد بن سعدان الكلبى المتوفى ٣٩٠هـ / ٩٩٩ م من أهل قرطبة قرأ القرآن بمصر ، وانصرف الى الأندلس ، فلزم التأديب ، وكان يقرأ عليه القرآن (٥) .

محمد بن خليفة بن عبد الجبار المتوفى ٣٩٢هـ / ١٠٠١م ، المؤدب من أهل قرطبة ، رحل الى مكة ثم انصرف الى الأندلس فلزم التأديب (٦) .

محمد بن أحمد بن محمد بن طالب بن أيمن بن مدرك المتوفى ٣٦٢هـ / ٩٧٢م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، كان رجلا صالحا خيرا ، وكان مؤدبا سمع منه الناس كثيرا (٧) .

محمد بن عبد الله بن محمد البهرانى المتوفى ٣٨٥هـ / ٩٩٥م ، المؤدب ، من أهل قرطبة ، وكان معلم هجاء (٨) .

---

(٢) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ٣١ .
(٣) ابن الفرضى : نفس المصدر — جـ ٢ ، ص ٢٨ .
(٤) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .
(٥) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .
(٦) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٠٤ .
(٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٧٢ .
الضبى : البغية ، ص ٤١ — ٤٢ .
(٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٩٨ .

عبد العزيز بن مهلب بن معـــلا ، المؤدب ، من أهل قرطبة (٩) •

ومن ناحية أخرى فاننا نجـد أن كلمـة « معلم » قـد شاعت ثيرا فى الألقـاب الأندلسية ، وأنها انسحبت على كثـير من طبقـات لمعلمين حتى أننا نجـدها تطلق أحيانا على مؤدبى الأمراء • يقـول بن الخطيب عند حديثه عن الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسـماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة ، والذى حكم من ٧٦٠ الى ٧٦١هـ / ١٣٥٩ الى ١٣٦٠ م ، انه :

« استدعى له ولأخيه ، المعلم الذى كان السبب فى افاتة ارماقهما، ، اعدام حياتهما ، الشيخ السفلة ، محمد البطروجى البائس » (١٠) • يقول ابن حيان ، ان الأمير الحـكم قـد عهد بعقد استئمار الفقيه أحمـد بن يوسف « معلم الأمير أبى الوليد هشام » (١١) •

---

(٩) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٧ •
(١٠) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٣٩٨ •
(١١) ابن حيـــان : المقتبس ، تحقيـق د. عبد الرحمن الحجى ، ص ٧٧ •

الفصل السابع

مظاهر الاهتمام بتعليم الخاصة

أولى الأندلسيون تربيـة أولادهم عناية كبـيرة ، واذا كان ذلك الاهتمام قـد تجلى لدى كافة الأندلسيين (١) ، فمن الأولى أن يكون لخاصتهم ولأهل الوجاهة منهم قصب السبق فى هـذا المجال ، كما أن كتب التراجم والتاريخ الأندلسيين قـد اهتما بتسـجيل تراجـم المعلمين والمؤدبين ، ولذلك فاننا نملك بين أيدينـا سلسلة من أخبـار هؤلاء تمتد تقريبا من بداية الدولة الأموية فى الأندلس حتى سـقوط الدولة النصرية فى عام ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م .

ومن دراسة هـذه التراجم يمكن استخلاص الحقائق التالية :

اولا : اهتمام خاصة الأندلس بتعليم ابنائهم : ٦

وقد تجلى هذا الاهتمام فى عدة مظاهر ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

(ا) اختيار المؤدب علميا وخلقيا :

فقد حرص الآباء على أن يكون مؤدبو أولادهم من أعلى الرجال درجة فى العلم ، ومن المشهود لهم بذلك ، فمؤدب الحكم بن هشـام (١٨٠ ــ ٢٠٦هـ / ٧٩٦ ــ ٨٢٢م) ، سوار بن طارق ، قد لقى الأصمعى ونظراءه (٢) ، وجودى بن عثمان النحوى العبسى (توفى١٩٨هـ/٨١٣م) ، لقى الكسائى ، والفراء ، وأبا جعفر الروائى وغيرهم ، وهو أول من أدخل الأندلس كتاب الكسـائى ، وله تأليف فى النحو يدعى منبـه الحجارة (٣) .

---

(١) انظر عبارة المقـرى الواردة فى النفح ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ .
(٢) المقـرى : النفح ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .
(٣) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٨ (الترجمة رقم ٦) .
ارسـلان : الحلل السندسية ــ جـ ٢ ، ص ٣٣ .

وأبو محمد عبد اللـــه بن بكر الكلاعى ، كان مؤدبا بالنحو ، عالمـــا باللسان مبرزا فى الشعر ، أديبا بليغا ، أدب أولاد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم (٤) .

ومحمد بن أرقم السبائى ، من أهل قرطبة ، كان ممن يبصر العربية والحساب ويتفنن فيه ، أدب القـــاسم وأصبغ وعثمان ، أولاد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٥) .

وأيوب بن منصور بن عبد الملك الأنصارى ، من أهل قرطبـــة ، كان عالمـــا بالاعراب ، موصوفا بالعـــدالة أدب بعض أولاد الخلافة ، قال لى سليمان بن أيوب : كان الأمير عبد اللـــه (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م) ، « يسميه بالفقيه » (٦) .

أما قاسم بن اصبغ (متوفى ٣٤٠هـ / ٩٥١م) ، فقد « انصرف الى قرطبـــة بعلم كثير ، وسكن قرطبة ، فكان له بهـــا قدر عظيم ، وسمع منه النـــــاصر لدين اللـــه أمير المؤمنين قبل ولايتـــه ، وولى عهـــده الحكم » (٧) .

ومحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى (المتوفى ٣٥٨هـ/٩٦٨م)، «كان الغالب عليه العربية ، وكان فقيها اماما موثوقا ، أخذ كتاب سيبويه رواية عن ابن النحاس ، وكان جيد النظر ، دقيق الاســـتنباط حاذقا بالقياس ، نظـــر الناس عنـــده فى الاعراب ، وأدب أولاد المـــــلوك ، واستأدبه أمير المؤمنين الناصر لابنـــه المغيرة » (٨) .

---

(٤) ابن الفرضى : علمـــاء الأندلس ، ص ٨٤ .
ابن سـعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(٥) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٩٢ .
(٦) ابن الفرضى : علمـــاء الأندلس ، ج ١ ، ص ٨٧ .
(٧) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .
اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .
حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين العرب ، ص ٣١ .
(٨) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
السيوطى : بغيـــة الوعاة ، ص ١١٣ .

محمد بن اسماعيل النحوى المعروف بالحكيم القرطبى (المتوفى ٣٣١هـ / ٩٤٢م) ، كان الغاية فى علم العربية والحساب والمنطق ، دقيق النظر ، لطيف الاستخراج ولم يكن أحد من أهل زمانه يتقدمه فى علمه ونظره ، وقال ابن الفرضى : كان عالما بالنحو والحساب دقيق النظر ، مثيرا للمعانى ، مولدا للأبحاث (٩) .

حسين بن وليد بن نصر (توفى ٣٩٠هـ / ٩٩٩م) ، من أهل قرطبة ، كان نحويا عالما بالعربية ، متقدما فيها ، أخذ بقرطبة عن ابن القوطية وغيره ، ثم رحل الى المشرق ، ثم انصرف الى الأندلس فاستأدبه المنصور لبنيه ، وقربه من صحبته ، وكان شاعرا كثير المدح ، له حظ من علم الكلام ، الى أدبه (١٠) .

عبد الله بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن (٥٤٨ — ٦١٢هـ / ١١٥٣ — ١٢١٥ هـ) ، كان فقيها جليلا متفننا فى العلوم ، وللملوك الموحدين به اعتناء عظيم (١١) .

عبد الله بن محمد الشراط (توفى بعد سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م) ، من أهل مالقة ، يقوم على الأدب ، والعربية ، وله تقدم فى الحساب ، والبرهان على مسائله (١٢) .

ولقد حرص الآباء على أن يتحلى معلموا أولادهم بطبقة عالية من التدين والأخلاق القويمة ، لأن ذلك كان يترتب عليه نتائج سيئة فى مستقبل هؤلاء الأبناء ، سواء العملية أو الخلقية ، ومن هنا يمكن لنا أن نتبين لماذا تقرن كتب التراجم دائما بين العلم والأخلاق عند حديثها عن هؤلاء المؤدبين — فجابر بن غيث (المتوفى ٢٩٩هـ — ٩١١م) ،

---

(٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .
السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٢٢ .
(١٠) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ١١٤ .
(١١) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
(١٢) ابن الطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤٤١ .

مؤدب ولد الوزير هاشم بن عبـد العزيز كان مشـهورا بالفضـل متدينا [١٣] • وأيوب بن منصور كان موصوفا بالعدالة [١٤] • وعثمان ابن نصر بن عبد الله (٣٢٥ هـ — ٩٣٦ م) كان ذا سمت وعدالة [١٥] • أما عن محمد بن أحمد بن أبى العافية الايادى (٤٨٣ هـ — ١٠٩٠ م) فلقد كان رجلا فاضلا من أهل العلم والصلاح [١٦] •

وكما قلت فان أهمية حرص الآباء على اختيـار مؤدبى أولادهم ممن يتمتعون بالعـلم العـالى وبالأخلاق الحميدة تكمن فى أن هؤلاء يتركون تأثيرا قويا على طلبتهم سواء من النواحى الخلقية أو العلمية ، فالمؤدب هنا ليس مسئولا عن تلقين الأولاد علمه ، أو تحفيظهم الأدب أو الشعر ، أو تعليمهم قواعد اللغـة وغريبها فحسب ، لكنه قبل ذلك وبعـده مثـال يتطلع اليه الأولاد فى تصرفاتهم ، ونموذج يحتـذى فى كلماته وألفاظه ، فمحمد بن هشام المروانى حينما دخل على الخليفة الناصر ليذاكره استحسنه ، وأمره بالتزام بنيه ليؤدبهم بحسن أدبه ، فيتخلقوا بخلقـه [١٧] •

أما أبو مروان بن حبيب السلمى (المتوفى ٢٣٨ هـ — ٨٥٢ م) فقد كتب الى معلم ولده رسالة يقول فيها : «بسم الله ، أما بعد ، فلتكن أول ما تؤدب نفسك ، فان عينى متعلقة بك وأعينهم متعلقة بك ، فالحسن عندهم ما استحسنته ، والقبيح عندهم ما استقبحته ، وعلمهم كتـاب الله ولا تكرههم عليـه فيملوه ، ولا تخرجهم من فن الى فن حتى يحكموه ، فان ازدحام العلوم مقللة للفهوم وعلمهم من الشعر أعفـه ومن الحـديث أشرفـه ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يضـع الدواء

---

(١٣) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ١٠٢ •
(١٤) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٨٧ •
(١٥) ابن الفرضى : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ •
(١٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السـفر الخامس — القسـم الأول ، ص ٥٨٦ •
(١٧) المقـرى : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ •

الا فى موضـــع الداء ، وهـــددهم دونى يزدادوا بذلك صـــلاحا ، والســـلام » (١٨) .

ولقد ترك بعض المؤدبين تأثيرا سيئا على طلبتهم ، قـــد يصـــل بهم الى التمرد على الآباء ، ويتسبب فى مأساة عائلية ، مثلما حدث مع معلم الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر ، سلطان غرناطة الذى حكم من ٧٦٠ / ٧٦١ هـ — ١٣٥٩ / ١٣٦٠ م (١٩) .

ومن قبل ذلك هنـــاك حادث مشابه قـــد وقع فى أسرة بنى عباد حكام أشبيلية (٢٠) .

ولهذا ما أن يكتشف الآباء ثغـــرة فى أخلاق معلمى أولادهم حتى يعملوا على تلافيها ، ومنعهم من الدراسة عليهم ، ويحكى أن أبا بكر محمـــد بن عبد اللـــه بن ميمون العبدرى القرطبى المتوفى ٥٦٧ هـ — ١١٨٠ م ، كان يحضر مجلس عبد المؤمن بن على ، الخليفة الموحدى ، مع مجموعة من العلماء ، ويبدى ما عنده من المعارف ، معظما موقرا ، الى أن أنشـــد يوما فى المجلس أبياتا ثلاثة قالهـــا تغزلا فى شاب من أهل أغمات ، فكان ذلك سببا لأن هجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور فى مجلسه بل وصرف بنيه عن القراءة عليه (٢١) .

---

(١٨) المغراوى ، أحمـــد بن ابى جمعـــة : جامع جوامع الاختصـــار والتبيان ، ص ٣٩ .

اعراب ، سعيد : دور المغـــاربة فى تربية الطفل ، ص ٣٨ .

وهـــذه النصيحة اوردها الجـــاحظ فى كتاب « البيـــان والتبيين » جـ ٢ ، ص ٥٣ ، من كلام عقبـــة بن نافع بن ابى ســـفيان لمؤدب ولده . (أنظر التربية الاسلامية للدكتور الأهوانى ، ص ٢٠١ ، والفكر التربوى عند العرب ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ . وكذلك اقتبسها الغزالى ضمن حديثـــه عن آداب الصبيان (الغـــزالى : الأدب فى الدين ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨) .

(١٩) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢٠) ابن بسام : الذخيرة ، جـ ٢ ، ص ٦٢٤ ، طبعة بيروت .

(٢١) السيوطى : بغيـــة الوعاة ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

المنـــونى : العلوم والآداب على عهد الموحدين ، ص ٤٠ .

(ب) الاهتمام براحة المعلمين واكرامهم :

ينقل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى عن الجاحظ قوله : إن المعلمين على ضربين : رجال ارتفعوا عن تعليم العامة الى أولاد الخاصة ، ورجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة (٢٢) . وفى الأندلس حظى هؤلاء المعلمون وبالذات من وصل منهم الى تعليم أولاد الخلفاء بمكانة اجتماعية عالية جدا ، يقول ابن الخطيب عن محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله الخولانى ، من أهل غرناطة ، المولود عام ٧١٨ هـ — ١٣١٨ م ، بعد أن ذكر علومه وفضائله وكتبه ومشيخته : انه ترقى الى هذا العهد باشارتى الى التى لا فوقها من تعليم ولد السلطان ، والرياسة القرآنية بباب الامارة ، والامامة بالمسجد الجامع من القلعة (٢٣) .

ويقول ابن وضاح ، انه لما قدم الشمر بن نجد الى الأندلس فى أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن (حكم من ١٧٢ الى ١٨٠ هـ — ٧٨٨ — ٧٩٦ م) ضمه الى تأديب ولده ، وأنزله بالدار المعروفة بشبلار بدار ابن الشمر (٢٤) .

حسين بن وليد بن نصر ، المعروف بابن العريف (توفى ٣٩٠ هـ — ٩٩٩ م) ، كان قويا عالما بالعربية ، متقدما فيها نشأ بقرطبة ، ورحل الى المشرق ثم انصرف الى الأندلس ، فاستأدبه المنصور لبنيه وقربه من صحبته (٢٥) .

أما الحكم المستنصر فلقد ضرب فى الاهتمام بمعلمى ابنه بباع عريض ، فكان قيام أبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى (توفى

---

(٢٢) الأهوانى : التربية الاسلامية ، ص ٢٠٢ ، وانظر ايضا تاريخ الفكر التربوى عند العرب ، ص ١٠٧ .
(٢٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
(٢٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ١٩٩ .
(٢٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ١١٤ .

٣٧٩ — ٩٨٩ م) بتعليم الأمير هشام الثانى سببا فى أن ينال أبو بكر هذا دنيا عريضة ، فقد تولى قضاء أشبيلية وخطة الشرطة ، وحصل له نعمة ضخمة لبسها بنوه من بعده زمنا طويلا (٢٦) .

سعيد بن الناكورى المتوفى ٣٩٢ ﻫ — ١٠٠١ م ، كان من أهل المعرفة والفهم استأدبه المنصور بن أبى عامر لولده ، وولاه الصلاة والخطبة بجامع الزاهرة (٢٧) .

وعبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن الأنصارى (٥٤٨ — ٦١٢ ﻫ / ١١٥٣ — ١٢١٥ م) ، كان لملوك الموحدين به اعتناء عظيم ، وقد كان أستاذ الناصر واخوته ، وكان له عند المنصور والدهم بذلك أكرم أثرة (٢٨) .

عبد المولى بن أحمد بن محمد الأصبحى (توفى ٦٧٥ ﻫ — ١٢٧٦) ، كان فقيها فاضلا اماما فى النحو حتى كان يسمى «سيبويه» زمانه . وكان معلما لادريس الحيوصى ، فلما صار الملك اليه استوزره ، وكان يتبرك برأيه ، ولا يكاد يفعل أمرا دونه (٢٩) .

(ج) الاحتفال ببدايات جلوس ابنائهم الى العلم ومتابعة تعليمهم :

يحكى المستعرب الأسبانى خوسيه أنطونيو كوندى ، عند حديثه عن عثمان وابان ، ابنى الأمير عبد الرحمن الحكم ، أنهما كانا يتميزان بالأدب والفصاحة ، علاوة على ذكائهما الطبيعى ، لأن الأمير قد عهد بتربيتهما الى والى « سيدوفيا » ، محمد بن سعيد الغمرى ، الذى اجتهد فى تعليمهما وأنهما استفادا كثيرا من المناقشات التى كانا

---

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٧ ، ٨ .
(ترجمات الزبيدى كثيرة جدا فى كافة كتب التراجم والأدب الأندلسية وسبق الاشارة الى بعضها) .
(٢٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، جـ ٤ ، ص ٤٦ .
(٢٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٣ ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
(٢٩) السيوطى : بغية الوعاة ، جـ ٢ ، ص ١١٧ .

بحضرانهـا مع رجال العلم آنذاك ، وأن الأمير فى كثير من الأحيان ، كان يسعد بالاستماع اليهما ، واختيار انتاجهما الأدبى (٣٠) •

لكن المثل الأكبر فى هذا المجال نجده عند الحكم المستنصر بالله ، وربما كان السبب فى ذلك يرجع الى شدة الشغف الذى كان يكنه الخليفة لابنه ، باعتباره ابنه الوحيد وولى عهده ، وأنه قـد رزقه على كبر • لقـد احتفظ لنا ابن حيان بوصف تفصيلى لاهتمام الحكم بالاحتفال بقيام معلم ما ببدء الدراسة مع الأمير هشام فيقول عند الحـديث عن عام ٣٦١ هـ — ٩٧١ م :

« وفى عشى يوم الأحـد ، أول أيامه (أول أيام شهر رمضان) ، وصـل الخليفة الى نفسه الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف الملقب القسطلى (٣١) ، فأمره بالتأهب لتعليم ولده الأمير أبى الوليد هشام ، أحسن وصاته به ، ورسم له فى تعليمه وتدريجه رسوما أقاده عليها لم يعد عنهـا ، نفع الله الولد بهـا ، وكان قـد أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وتنجيدها ، واقامة كل ما يحتاج الى اقامته ، واعداده بهـا ، وفى الطـريق اليهـا ، وفتح باب غربى ، فصـل الفتيان بها ، يقرب عليه الخروج منها الى هـذه الدار ، يكون قعـوده مع مؤدبه المذكور فى المجلس الشرقى منهـا ، بأيمن اثر ، فقضى ذلك كله ، وأحكم شأنه ، فكان جلوس الأمير أبى الوليد مع معلمه فى المجلس المذكور من الدار المحدودة يوم الخميس لخمس خلون من شهر رمضان ، واستخف الخليفة الحكم السرور بمـا هيأه لـه من ذلك ، الى أن برز الى هـذا المجلس نهاره هـذا لتقع عينه

(٣٠) كوندى : خوسيه انطونيو : تاريخ الحكم العربى فى اسبانيا ، ١ ، ص ٢٦٤ •

(٣١) أبو القاسم احمـد بن محمـد بن يوسف المعافرى (٣١٠ — ٣ / ٩٢٢ — ٩٧٧) ، رحـل الى المشرق سنـة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م ، عاد ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، واستأدبه المستنصر ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ، وولى احكام الشرطة (المقتبس — طبعة الحجى ، ص ٧٦) •

على ابنـــه ، وشاهد صبره على الثقاف الذى لزمه ، فعاين من ركانة مجلسه واطلاقة وجهه ، واقباله على معلمه وسكون جأشه ما قرت به عينه ، وتجددت معـــه مسرته ، فبادر باخراج مال واسع الى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه ، ليفرقه على الضعفاء والمساكين وأبنـــاء السبيل ، شكرا للـــه تعالى على جليل منته عليه فى قرة عينه وسلالة مجده ، وعهد بعقد استئمار الفقيه أحمد بن يوسف معلم الأمير أبى الوليد هشام ، باجراء الرزق عليه : الرواتب والحملان والعلوفة ، وعهد باقامة علوفة للأمير أبى الوليد ، محدودة العدد ، موصوفةالأطعمة، تقدم اليه والى من معه من صبيانه ، كل يوم بموضع حضاره ذلك ، وأمر بتقديم ذكاء ، الوصيف الكبير الخصى ، ناظرا للأمير أبى الوليد ، قيوما على جميع صبيانه متكفلا لشأنه » (٣٢) .

وفى موضـــــع آخـــر تحت عنوان « ذكـــر ادناء الزبيـــدى النحوى » (٣٣) ، يواصل ابن حيان قائلا :

« وفى يوم الأحد ، للنصف الثانى من ذى القعدة منهـــا (يشير الى سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م) نفـــذ العهد الى محمد بن حسن الزبيدى ثم الأشبيلى النحوى بالتزام مدينة الزهراء لمجالسة الأمير أبى الوليد هشام بن أمير المؤمنين ، ومفاتحته النظر فى العربية ، وقـــد أعتمدت لنزوله منهـــا الدار التى كان يسكنها صاحب الشرطة أحمد بن سعيد الجعفرى فى حياة والده ، وأجريت الأرزاق الواسعة عليه ، واستقبل فى هـــذا اليوم بصـــلة سنية ، وخلعة فاخرة ، جزاء على الذى تولاه من اختصـــاره لكتاب العين للخليل بن أحمـــد ، واقامته على الترتيب

---

(٣٢) ابن حيـــان : المقتبس ، تحقيق الحجى ، ص ٧٦ ، ٧٧ .
Garcia Gomez : Anales Palatinos del Califa de Cordoba AL-Hakam II, Por Isa ibn Ahmad Al-Razi, pp. 98, 100.

(٣٣) سبقت الاشارة اليه ، وترجمته مذكورة فى كافـــة كتب التراجم والأدب الأندلسى .

، التصنيف ، اللذين حددهما له أمير المؤمنين فيه ، فارتضى عمله فيه عند
تصفحه له ، وأجزل صلته ، وأدنى مكانه وأوصله الى نفسه يومه هذا ،
نفاوضــه فى عمله الذى برع فيه ، واستشار له من غوامض فنونه ،
يناظـره بين يديه يومئـذ الوزير الكاتب الأديب جعفر بن عثمـان
ى غرائب من فنه فى النحو واللغة والشعر ، فتباريا فى الشأو وتسابقا
ى ميدان الاصابة ، فسر بها قيوم المعرفة وانتظم اتصال الزبيــدى
ومئذ بالخليفة الحكم ، وابنه الأمير هشام ، ونال حظوة » (٣٤) .

وفى موضع آخر ، وتحت عنوان « ذكر أسماع الأمير أبى الوليد
لعلم والحديث » يحدثنا ابن حيان قائلا :

« وفى يوم السبت لليلتين خلتا من شعبان منها (يقصــد بذلك
سنة ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م) أمر الخليفة الحكم فى الارسال فى طلب الشيخ
فقيــه الراوية يحيى بن عبــد اللــه بن يحيى بن يحيى بن يحيى
ليثى (٣٥) ، أرفع مسندى الحديث وقتــه ذلك بقرطبة ، لاجلاســه
ند الأمير أبى الوليد هشام ولده المرشح لولاية عهــده ، ومشاهدته
ياه للسماع منه والأخــذ عنه لسمو درجته فى العلم ، واعتلاء منزلته
، الرواية اذ روايتــه عن عم أبيه أبى مروان عبيد الله بن يحيى عن
يه عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس رضى الله عنه ، فكان المرسل
به من قبل الخليفة المستنصر بالله ، مؤدب الأمير أبى الوليد أحمــد
ن يوسف المعروف بالقسطلى ، فأسرع الاستجابة وأقبل الى القصر ،
ع ابن يوسف ، وتوصــل الى الأمير أبى الوليد بمكان قعوده للحضار
الدار المعروفة بدار الأولاد ، وكان بين يديه الوزير الكاتب صــاحب
دينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فأعلم الفقيه يحيى عن أمير المؤمنين ،
سن رأيه فيــه ووقوع اختياره عليه لاســماع أعز الناس عليه ،

---

(٣٤) ابن حيــان : المقتبس ، تحقيق الحجى ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .
Sanchez Albornoz : Ho. de la Espana Musulmana 1.423.

(٣٥) يحيى بن عبد الله : توفى ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، أنظــر ترجمتــه
ـد ابن الفرضى ، جـ ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ .

مجتهدا فى افادته واعلاء درجته ، فشكر الشيخ وأثنى وأقعـد ، فقرأ أحمـد بن يوسف ، مؤدب الأمير مبتدئا بالجزء الأول من موطأ مالك ابن أنس فى كتاب الفقيه يحيى بن عبد الله ، وهو كتاب الصلاة منه رواية يحيى بن يحيى ، وضبط الأمير أبو الوليد كتابه سامعا فيـه ، ومقابلا بكتابه الذى لا يتضع عنه ، كتاب لجده الخليفة الناصر لدين اللـه ، قرأه — رضى اللـه عنه — على عبيد الله بن يحيى بن يحيى فى زمانه ورواه عنـه عن أبيه عن مالك بن أنس ، وقرأه بعده ابنـه الخليفة المستنصر باللـه ، أيام طلبه على أحمـد بن مطرف المعروف بابن المشـاط ، حاملة عن عبيد اللـه بن يحيى عن يحيى عن مالك ، فلمـا تم مجلس السماع وحان انقـلاب الشيخ يحيى بن عبد الله ، نفذ عهد الخليفة بأن يكون ركوبه ونزوله فى الفصيل بفصيل المسجد ، تشريفا وترفيها عنه فجرى أمره على ذلك مدة اختلافه ، وعاود الحضور يوم الأربعـاء لأربع خلون من شعبان ، فأسمع الأمير على رسـمه بمشاهدة الوزير الكاتب جعفر بن عثمان أثير الخليفة والده ، ونفـذ العهـد بأن يكون اختلاف الشيخ الفقيه الى الأمير أبى الوليد يومين فى الأسبوع ، يوم السبت والخميس على الاطـراد الى أن يكمـل اسماعه الموطأ وجميع ما رواه من الدواوين عن عم أبيه أبى مروان عبيد الله بن يحيى وغيره من الشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم ، ان أنسأ الله مدته ، فجرى الأمر على ذلك ، وأحرز الأمير به الفضيلة » (٣٦) .

وأبو بكر بن العـربى (٤٦٨ — ٥٤٣ هـ / ١٠٧٦ — ١١٤٨ م) يقول : « كنت يوما مع بعض المعلمين فجلس الينا أبى رحمة الله عليه ، يطالع ما انتهى اليه علمى ، فى لحظـة سرقهـا من زمانه ، مع عظم اشتغاله » (٣٧) .

---

(٣٦) ابن حيـان : المقتبس : تحقيق الحجى ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
Garcia Gomez : Anales Palatinos de Califa de Cordoba Al-Hakam, II, pp. 256—258.

(٣٧) ابن العربى : قانون التـأويل — وانظر ايضا : الفكر التربوى عند العرب ، ص ٢١٩ .

(د) المساهمـــة فى وضع المنهج التعليمى لأبنائهم :

هذا ولقد سبق أن أشرت الى وصية عبد الملك بن حبيب ، لمعلم ولده(٣٨) ، كما أن الحكم المستنصر ، أحسن وصاة معلم ولده ، ورسم له فى تعليمه وتدريجه رسوما أفاده عليها ولم يعد عنهـــا (٣٩) . والأمير عبد المؤمن بن على الموحدى الذى حكم من ٥٤٢ الى ٥٥٨ هجرية / ١١٣٠ ــ ١١٦٣ م وقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو و « كتاب أعز ما يطلب » وغير ذلك من تواليف المهـــدى (٤٠) . أما ابن الخطيب فانه لم ينس فى رســـالته فى السياسة أن يركز على ما يجب نحـــــو الأبنـــاء فيقول :

« وأما الولد : فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دأبهم ، وخفف عليهم من اشفاقك وحنانك ، وأكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأفض عليهم وجودك ونيلك ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك ، وأثبهم على حسن الجـــواب ، وسبق اليهم خوف الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم الصبر على الضرائر والمهلة عند استخفاف الجرائر وخـــذ لهم بحسن السرائر ، وحبب اليهم مراس الأمـــور الصـــعبة المراس ، وحصن الاصـــــطناع والاغتراس ، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقـــام المعلوم ، وكـــره اليهم مجالســـة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهـــد أهواءهم عن عقولهم ، وأحـــذر الكذب على مقـــولهم ، ورشحهم أن أنست منهم رشـــدا أو هـــديا ، وأرضعهم من المؤازرة والمشاورة ثديا ، لتمرنهم على الاعتياد ، وتحملهم على الازدياد ، ورضهم رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشـــهوات فهى داؤهم ، وأعداؤك فى الحقيقـــة وأعداؤهم ،

---

(٣٨) ارجع الى تلك الوصية ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ من الكتاب ، والتعليق عليها فى الاشارة رقم (١٨) بهامش ص ٤٣٣ .

(٣٩) ابن حيـــان : المقتبس ــ تحقيق الحجى ، ص ٧٦ ، وترجمـــة غارثيا قومث بعنوان :

Anales Palatinos del Califa de Cordoba Al-Hakam II par Isa ibn Ahmad.

(٤٠) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٠ .

وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت ، واقذعها اذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، ويقوى ضعيفها فاذا أعجزتك فى صغرهم الحيل ، عظم الميل.

أن الغصـــون اذا قومتهـــا اعتـــدلت
ولن تلـــين اذا قومتهـــا الخشـــب

واذا قدروا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، فلا توطنهم فى مكانك ، جهـــد امكانك ، وفرقهم فى بلدانك تفـريق عيدانك ، واستعملهم فى بعوث جهادك ، والنيابة عنك فى سبيل اجتهـادك ، فان حضرتك تشغلهم بالتحاسد والتبارى والتفاسد ، وانظـر اليهم بأعين الثقات ، فان عين الثقة تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقـة » (٤١) .

ثانيا : اماكن التعليم الخاصـة :

كان تعليم الخاصة يتم فى أكثر من مكان حسب المكانة الاجتماعية والسن والجنس .

(أ) بالنسـبة للمكانة الاجتماعية ، فانه اذا ما كان الطفـــل من أبنـاء الخلافة فان المعلم كان يذهب اليـه فى منزله ، وكان على الخليفة أو الأمير أن يعد لمؤدب ولده مكانا مناسبا يتولى فيه تعليمه ، ونستدل على ذلك من الملاحظات التالية :

أبو عبد الله عثمان بن المثنى القيسى (توفى ٢٧٣ هـ — ٨٨٦ م) قـد زاره بعض اخوانه فى مكتبة قصر الخلافة وهو يعلم ولدا للأمير محمد ، جميل الصورة ، فقال له : « كيف حالك مع هذا الرشأ ؟ » (٤٢).

أما بالنسبة لعبد الرحمن الناصر فلقـد وضع له جـده الأمير عبد الله أشهر المعلمين ، وعنى عناية تامة بتربيته ، منذ فطامه الذى

---

(٤١) ابن الخطيب : الاحاطة ، جـ ٤ ، ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .
(٤٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

وافى تلك الميتة الشنيعة لوالده الأمير محمد [٤٣] ٠

عبد اللـــه بن سليمان بن المنــذر المكفوف من أهــل قرطبــة (٣٢٥ هـ — ٩٣٦ م) أستأدبه الناصر عبد الرحمن بن محمــد لولده ، وقيل اختلف الى أولاد الناصر ، وعلم داخل القصر [٤٤] ٠

ويحكى ابن عذارى ، عن جعفر بن عثمـــان ، الوزير المشهور ، أنه قــد كتب فى محنته الأخيرة الى محمد بن أبى عامر المنصور يعرض نفسه عليه لتأديب ابنيه عبد الله وعبد الملك فقال ابن أبى عامر :

« أراد أن يستجهلنى ، ويسقطنى عند الناس ، وقــد عهدونى ببابه مؤملا ، ثم يرونه اليوم بدهليزى معلما » [٤٥] ٠

أبو محمــد عبد الله بن يحيى الحضرمى ، المعروف بابن عبدون (القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى) ، « كان الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد هو الذى نقله من شاطبة الى بلنسية ، واستأدبه لبنيه لمــا كان عليه من التصاون والعدالة ، وأباح له الاقراء ، فكان يعلمهم العربية بالقصر ، فاذا انفصل عنهم ، علم الناس أيضــا بمسجد رحبة القاضى [٤٦] من بلنسية الى أن توفى [٤٧] ٠

أما الحكم المستنصر ، فقد « أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء » وتنجيدها ، واقامة كل ما يحتاج الى اقامته واعداده

---

(43) Conde J. A. : Ho. de la dominacion àrabe, I, 365,366.

(٤٤) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٤٣٦ ٠

(٤٥) ابن عذارى : البيــان المغرب ، ص ٤٠٠ ٠

Sanchez Albornoz : Ho. de Espana Musulmana I. 454 , 455.

(٤٦) عبارة عن مكان متســـــع للاجتماعات الشعبية ، وكان خارج نسية ، انظــر تفصيلات ذلك فى كتــاب « الحيـــاة العلمية فى بلنسية » جيل حسن ، ص ٧٥ ٠

(٤٧) ابن الأبار : المقتضب من تحفــة القادم ، ص ٦٩ ٠

بها ، وفى الطريق اليهــا ، وفتح باب غربى فصيل الفتيان بها ليقترب عليه الخروج منها الى هــذه الدار ــ يقصد بذلك انصراف المعلم ــ فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور فى المجلس الشرقى منها » (٤٨) .

أما الشيخ يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثى ، فقد توصل الى الأمير أبى الوليد بمكان قعوده للحضار فى الدار المعروفة بدار الأولاد (٤٩) .

يقــول أبو بكر بن أبى ليلى ، وكان كاتب أبى على الصــدفى (٥١٤ هـ ــ ١١٢٠ م) أنه كان يوما عند الصــدفى اذ جــاءه وزير ابن تاشفين (يقصــد وزير الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين الذى كان وليا على مرسية من قبل أخيــه على بن يوسف تاشفين ، الأمير المرابطى الذى حكم من ٥٠٠ الى ٥٣٧ هـ الموافق ١١٠٧ ــ ١١٤٣ م) ، فقال : « ان الأمين يريد أن يسمع عليك الحــديث ، يعرض له بالمشى اليه ، فقال : لهذا جلست ، فكرر ذلك عليه ، فأجاب بمثله ، ثم رغب اليه ، بعد أن تكون له منه دولة فى منزله ، فأسعفه على أن يصل اليه بعد الفراغ من اسماع أصحابه ، والقيام من مجلسه » (٥٠) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان بعض أبنــاء الأمراء والخلفاء كانوا يخرجون الى حلقات المعلمين الكبار ، حيث نرى ابنى الأمير عبد الرحمن ابن معاوية ، ابان وعثمان ، يحضران المحاضرات مع رجال العلم فى ذلك الوقت (٥١) . ولقد أمر الأمير أيضا بأن يحضر هشام مع أخيه الأكبر سليمان المجلس العلمى للقاضى بالمسجد الجامع (٥٢) .

---

(٤٨) ابن حيــان : المقتبس (تحقيق الحجى) ، ص ٧٦ .
Garcia G. E., Anales Palatinos, p. 99.

(٤٩) ابن حيــان : المقتبس (تحقيق الحجى) ، ص ٢١٦ .

(٥٠) ابن الابار : المعجم ، ص ٥٥ ، ٥٦ .

(51) Conde J. A. Ho. de la dominacion arabes, I. 269.

(52) Op. Cit., I. 200.

قاسم بن أصبغ بن محمد (توفى ٣٤٠ هـ — ٩٥١ م) رحل الى المشرق ، وانصرف الى الأندلس بعلم كثير ، وكتب كثيرة ، « وسمع منه كثيرامن هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد — رضى الله عنه — قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولى عهده الحكم واخوته » (٥٣) .

كما أن المستنصر — فى حياة والده — قد سمع من سعيد بن جابر ابن موسى الكلاعى المتوفى (٣٢٥ هـ — ٨٣٩ م) (٥٤) .

وتردد أبو على الصدفى فى الذهاب الى بيت الأمير ، يعنى أنه رأى أن من الممكن ذهاب الأمير اليه .

(ب) أما اذا كان من أبناء رجال الدولة فانهم يتشابهون تقريبا ، من ناحية المكان ، مع أبناء الخلفاء والأمراء ، أى أن المؤدب يذهب اليهم فى منازلهم ، ولكن نلاحظ من خلال دراسة التراجم التى بين أيدينا كثرة ترددهم على المعلمين فى مجالسهم بالمساجد أو بالمنازل ، فالنسبة لاحضار المعلمين الى المنزل فان أول خبر لدينا فى تاريخ الأندلس : هو قيام هاشم بن عبد العزيز (وزير الأمير محمد الذى حكم من سنة ٢٣٨ — ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ — ٨٨٦ م) باحضار جابر بن غيث ، المتوفى ٢٩٩ هـ (٩١١ م)الى قرطبة ، لكى يقوم بتأديب ولده (٥٥) .

أما زيد بن ربيع بن سليمان الحجرى ، فلقد كان أديبا جامعا ، حسن الضبط للغة والعناية بها ، واستأدبه الوزير أبو عثمان عبد الله بن محمد بن أبى عبيدة ، لولده جهور بن عبيد الله (٥٦) .

---

(٥٣) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .
اليحصبى : ترتيب المدارك ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .
مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص ٣١ .
(٥٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٦٧ .
(٥٥) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٠٢ ، طبعة مدريد ، ص ٩٠ .
السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .
(٥٦) ابن حيان : المقتبس (تحقيق انطونيا) ، ص ٤٨ .

أما الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير المتوكل على الله ، أمير بطليموس فى عهد الطوائف (٤٦١ — ٤٨٧ هـ / ١٠٦٩ — ١٠٩٤ م) ، فانه يحكى أنه كان يوما جالسا بين يدى مؤدبه الشيخ أبى الوليد بن ضابط النحوى المالقى (٥٧) .

ويتم احضار معلمى أبناء الخاصة الى منازلهم ، خاصة فى الفترة الأولى من حياتهم ، ولكن عندما يتقدمون فى السن ، فانه من الممكن أن يحضر اليهم المعلم فى المنزل ، أو قد يذهب الطلبة الى معلميهم فى مساجدهم أو منازلهم أو أماكن تعليمهم ، كما أشرت فى السطور الماضية الى المؤدبين الذين قاموا بتعليم أولاد كبار رجال الدولة فى الأندلس ، ويؤكد ذلك لنا مقالة تركها لنا أبو بكر بن العربى ، حيث يؤكد أنه (عند ريعان النشأة رتب لى أبى — رحمه الله — حتى حفظت القرآن فى العام التاسع ، ثم قرن بى ثلاثة من المعلمين يتعاقبون على من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عنى ؛ وآخذ فى الراحة الى صبح اليوم الثانى فلا تتركنى نفسى فارغا من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بغرارة الشباب) (٥٨) .

أما ذهاب هؤلاء الأولاد الى مجالس المعلمين فتؤكده كثير من البيانات والملاحظات الدالة على ذلك ، أشير هنا الى بعضها فقط :

محمد بن خطاب أبو عبد الله النحوى الأزدى (عاش فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى) كان من الأدباء المشهورين ؛ والنحاة المذكورين ، وكان يختلف اليه فى علم العربية أولاد الأكابر وذوى الجلالة . وله مع ذلك شعر مأثور (٥٩) .

---

(٥٧) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٥٨) ابن العربى : العواصم من القواصم ، ص١١ ، وانظر النص فى كتاب الفكر التربوى عند العرب ، ص ٥١ — ٥٣ ، نقلا من قانون التأويل .

(٥٩) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٠ .
الضبى : بغية الملتمس ، ص ٦٤ .

على بن جابر بن على بن يحيى اللخمى الأشبيلى (توفى ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م) ، يكنى أبا الحسن الدباج . عكف على اقــراء القــرآن ، وتدريس العربية والأدب ، نحوا من خمسين سنة ، لم يتعرض لسواه ولا عرج على غيره ...

وكانت لأبى الحسن الدباج — رحمه الله — أثناء اقرائه نوادر ، فقــد **كان يقــرا عنــــده صــــبى من اعيــــان الجنـــــد** ، كانت له شــــارة وقحـــــة ، فصــــاح ذات يــــوم يا اســــــتاذ ... كمــــا انه **كان يلزم مجلسه بعض الطلبــة والأعيــان** (٦٠) .

أما ابن حيــــان ، مؤرخ الأندلس الكبير ، وابن وزير المنصـــور ابن أبى عامر ، فلقد درس وحـــده كتاب الفصوص على يـــد مؤلفه العــــالم اللغوى الشهير صاعد البغدادى ، على الرغم من أن مؤلف الكتاب قـــد أسمعه للناس فى حلقــات عامة — يقـــول ابن الفرضى عن ذلك :

وجمع أبو العـــلاء للمنصـــور محمـــد بن أبى عامر ، كتابا سماه الفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار .. وأمره (أى المنصور) بأن يسمعه الناس بالمسجد الجـــامع بالزاهرة فى عقب ســـنة ٣٨٥ هـ (أوائل ٩٩٦ م) ، واحتشد له جماعة من أهل الأدب ووجوه الناس أمة ، قال ابن حيـــان : وقــرأته عليه منفــردا فى داره سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ — ١٠٠٩ م) (٦١) .

أما بالنسبة للبنات من أبناء الخلفاء أو من أبناء الخاصة ، فان تعليمهن كان يتم فى المنازل ، ويتولى تعليمهن سيدات من أهـــل البلاط أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح أو التقوى ، وفى بعض الحالات يقوم الآباء بذلك ، فالخليفة المنصور (الذى حكم سنة ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ /

---

(٦٠) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ص ١٩٩ (التعليق) .
(٦١) ابن حيــــان : المقتبس (تحقيق مكى) ، ص ٢٠ ، المقدمة .
ابن بشكوال : الصلة (الترجمة رقم ٥٤٠) — ج ١ ، ص ٢٣٦ .

١١٨٤ــ١١٩٩م) ، حينما استمع الى على بنمحمد بن يوسفبنعبدالله، الفهرى وهو يقرأ بمقبرة على جارى عادته ، أخـــذ بقلبه طيب نغمته ، فقربه واستخلصه ، وأمره بتعليم أولاده ، وقراءة حزب من التراويح فى رمضـــان ، ثم خبر أحواله ، وعرف صونه وعفافه ، فأمره بتعليم بنـــاته ، فاستعفاه من ذلك معتذرا ، بأنه لا يدرك بعض التفرقة بين الألوان ، فأحظاه ذلك عنده ، لمـــا تحقق من صدق نصحه ، وألزمه تعليمهن ، وكان سبب اثرائه وسعة حاله (٦٢) •

أما أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى من أهل لوشة ، فلقد كانت نبيلة حسنة ، تجيد قراءة القرآن وتشارك فى فنون الطلب من مبادىء غريبة واقراء ، ووسائل الطلب ، وتنظيم أبيات من الشعر •

نشأت فى حجر أبيهـــا ، لا يدخر عنها تدريجا ولا سهما ، حتى نهض ادراكهـــا ، وظهر فى المعرفة حراكها ، ودرسها الطب ، ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه (٦٣) •

تعليم الوصـــفاء :

وهناك بعض الطوائف الخاصة قد جرى تعليمها ، اما فى القصور أو فى أماكن اقامتهم ، ومن هؤلاء وصـــفاء القصـــور حيث تخصص فى تعليمهم أحمد بن مضا بن عبد الجبار بن مضا ، القرطبى ، وتقول ترجمته : كان أديبـــا متفننا فى علوم اللســـان العربى ، أدب طويلا للخاصة والعامة ، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر (٦٤) •

تعليم الرهائن :

أما الرهائن ، فلقد كانوا دائمـــا من أبناء حكام الأقاليم وكبار العـــائلات التى يخشى تمردها على السلطة المركزية ، فلقد كان يتم

---

(٦٢) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ •

(٦٣) ابن الخطيب : الاحاطة ــ جـ ١ ، ص ٤٣٠ •

(٦٤) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الأول ، ص ٥٤٣ •

تعليمهم فى دار اقامتهم . هـذا ولقد حفظت لنا كتب التاريخ الأندلسى القديمة نصا فريدا فى هذا المجال ، يشار اليه أيضا ضمن الحديث عن تدخل الدولة فى شـئون التعليم بالأندلس ، والنص يتحـدث عن أن القاضى أمية بن عيسى بن شهيد وزير الخليفة عبد الرحمن بن الحـكم (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ — ٨٥٧ م) ، « **حضر يوما بـدار الرهائن المجـاورة لبـاب القنطرة بقرابة ، ورهائن بنى قيس وغيرهم من ابنـاء الثوار ينشـدون شـعر عنترة أمام مؤدب** ، فقال لبعض الأعوان : على بالمؤدب ، فلمـا وصـل الى القصر ووافاه المؤدب قال له : لولا أنى أعذرك بالجهـل لأدبتك أدبا موجعا ، تعمد الى شياطين أبناء شياطين قـد شجى بهم الخلفاء فترويهم شعر عنترة والشـعر الذى يزيدهم بصيرة فى الشجاعة ! كف عن هذا ، ولا تروهم الا خمريات الحسن ابن هانىء ، وشبهها من الأهزال ، ومثل شعر عمر بن أبى ربيعـة وجميل ، وغيرهما من أمثالهم » [٦٥] .

وعلاوة على ذلك ، فان بعض الخلفاء قد جعل لمؤدب ولده مسكنا خاصا فلقـد أمر الخليفة الحكم المستنصر فى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م بأن يلزم محمـد بن حسن الزبيدى ، مدينة الزهراء لمجالسـة الأمير أبى الوليد هشام ، ابن أمير المؤمنين ، ومفاتحته فى العربية ، وقـد اعتمدت لنزوله منها ، الدار التى كان يسكنها صاحب الشرطة ، أحمد ابن سعيد الجعفرى فى حياة والده ، وأجريت عليه الأرزاق الواسعة [٦٦] .

أما الأمير هشام بن عبد الرحمن فلقد أنزل مؤدب ولده فى الدار المعروفة بشلار بدار ابن الشمر [٦٧] .

(٦٥) أخذت هـذا النص بالذات من :
ابن السماك : الزهرات المنثورة ، ص ١٠ ، ما زال تحت الطبع ، تحقيق الدكتور محمود مكى ، بمجلة المعهد المصرى للدراسات الاسـلامية بمدريد ، العدد العشرون ، ولقد ورد النص مع اختلافات بسيطة فى أكثر من كتـاب (أنظر تفصيلات ذلك فى الفصل الخاص بتدخل الدولة فى التعليم فى الأندلس ، ص ١٩٦ ، ١٩٧) .

(٦٦) ابن حيـان : المقتبس ، طبعة الحجى ، ص ١٣٤ .

(٦٧) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
شلار : ربض من أرباض قرطبـة الشرقيـة ، النفـح ، ج ٢ ، ص ١٣ .

ثالثا : المنهج التعليمى لتلك الفئـــة :

سبق لى أن أشرت فى بداية هـــذا الفصل الى أن المنهج التعليمى لأبناء الخاصة ، لا يختلف كثيرا عن المنهج التعليمى العام فى الأندلس ، وان تباين عنه فى بعض الجزئيات ، النابعة من طبيعة الطبقة الاجتماعية، أو الاعداد لمستقبل معين ، أو غير ذلك من الأمور • ولذلك فلن أسهب فى ذلك المكان كثيرا عن البرنامج التعـــليمى ، لأننى تنـــاولته فى مكانه المناسب من الرسالة وسأكتفى بالاشارة الى بعض النصوص التاريخية التى أشارت الى نواحى محددة من تعليم الأمراء وأبناء كبار رجـــال الدولة فى الأندلس •

والمستعرب الأسبانى خوسيه أنطونيو كوندى ، يصف لنا ما كان يتلقاه عبن الرحمن بن محمد من تعليم فيقول :

وضـــع له أشهر المؤدبين ، الذين علموه أحسن تعليم ، فحينما بدأ مرحلة الطفـــولة علموه قراءة القرآن ، وحفظـــه بكل طرائقه ، وفى الثانية عشرة ، تعلم الحديث والسنة وأيام العرب والنحو والشعر، والأمثال العربية ، وحياةالأمراء ، وكذلك علوم الادارةوالحكم ، وعلوما انسانية أخـــرى •

وبعـــد ذلك تدرب على الفروسية ، والتحكم برشـــاقة وأناقة فى حركات حصانه ، والتصويب بالسهام وقذف الرماح ، واستعمال كافة الأسلحة ، والدراية بالحيل العسكرية ، ولقد تدرب على هذا كله وعمره احدى عشرة سنة ، عندما كان يلعب مع أقران صباه (٦٨) •

وثمة برنامج آخر ، أعده الأمير الموحدى عبد المؤمن بن على ، ننقله فيمـــا يلى :

ووقف الحفاظ لحفظ « كتاب الموطأ » هو « وكتاب أعز ما يطلب »

---

(٦٨) كوندى : تاريخ الحكم العـــربى ، جـ ١ ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، طبعـــة ١٨٢٠ •

وغير ذلك من تواليف المهدى ، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر ، فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة ، من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده ، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ، ويوما بالرمى بالقوس ، ويوما بالعوم فى بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة ، طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع • ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم فى تلك البحيرة ، فتأدبوا بهذه الآداب ، تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده ، وخيلهم وعدتهم كذلك •

ولما كمل له هذا المراد فيهم ، عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم[٦٩] •

أما النص الذى يوضح لنا محتوى التعليم الذى كان يتلقاه أبناء الأندلس عامة ، وأبناء الخاصة منهم ، خاصة فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، فلقد قصه علينا العالم الأندلسى الكبير أبو بكر بن العربى ، المتوفى ٥٤٣ هـ — ١١٤٨ م ، قائلا :

كان من حسن قضاء الله تعالى ، أنى عندما كنت فى عنفوان الشباب وريان الحداثة وعند ريعان النشأة ، رتب لى أبى رحمه الله حتى حذقت القرآن فى العام التاسع ، ثم قرن بى ثلاثة من المعلمين أحدهم لضبط القرآن بأحرفه السبعة التى جمعها الله فيه ، ونبه الصادق صلى الله عليه عليها فى قوله : « أنزل القرآن على سبعة أحرف فى تفصيل فيها » ، والثانى لعلم العربية ، والثالث للتدريب فى الحسبان ، فلم يأت على ابتداء الأشد فى العام السادس عشر من العدد ، الا وأنا قد قرأت من أحرف القرآن نحوا من عشرة ، بما يتبعها من ادغام واظهار وقصر ومد وتخفيف وشد وتحريك وتسكين وحذف وتتميم وترقيق وتفخيم ، وقد جمعت من العربية فنونا ،

---

(٦٩) مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٥٠ ، ١٥١ •

وتصرفت فيها تمرينا : منها كتاب الواضح (٧٠) و « الجمل » (٧١) ، وكتاب النحاس (٧٢) و « الأصول » لابن السراج (٧٣) ، وسمعت كتاب الثمالى (٧٤) وكتاب الصناعة الأصلى الذى أنهاه الخليل (٧٥) الى سيبويه (٧٦) ثم تولى سيبويه نظمه وترتيبه ، وقرأت من الأشعار جملة منها « السنة » (٧٧) ، وشعر الطائى (٧٨) والجعفى (٧٩) ويسيرا من أشعار العرب والمحدثين ، وقرأت فى اللغة كتاب ثعلب (٨٠) واصلاح المنطق (٨١) والأمالى (٨٢) ، وغيرها ، وسمعت جملة من الحديث على المشيخة ، وقرأت من علم الحسبان : المعاملات والجبر والفرائض عملا . ثم كتاب أوقليدس وما يليه الى الشكل القطاع (٨٣) ، وعدلت بالازياج الثلاثة ونظرت فى الاسطرلاب فى سقط النقطة ونحوه ؛ يتعاقب على هؤلاء المعلمون من صلاة الصبح الى صلاة العصر ، ثم ينصرفون عنى ، وآخذ فى الراحة الى صبح اليوم الثانى . فلا تتركنى نفسى فارغا من مطالعة أو مذاكرة أو تعليق فائدة ، وأنا بغرارة الشباب (٨٤) .

(٧٠) لأبى بكر محمد بن الحسن الاندلسى (توفى ٣٧٩هـ/٩٨٩م) .
(٧١) لعبد الرحمن بن اسحاق الزجاجى (المتوفى ٣٣٧هـ / ٩٤٨ م) .
(٧٢) لأبى جعفر احمد بن محمد النحاس ، توفى ٣٣٨هـ/٩٤٩م .
(٧٣) محمد بن السرى بن سهل ، توفى ٣١٦هـ/٩٢٨م .
(٧٤) أبو العباس المبرد ، صاحب كتاب الكامل ، توفى ٢٨٥هـ/٨٩٨م .
(٧٥) الخليل بن احمد (١٠٠ — ١٧٠ هـ / ٧١٩ — ٧٨٧ م) .
(٧٦) سيبويه (١٤٨ — ١٨٠ هـ / ٧٦٧ — ٧٩٧ م) .
(٧٧) وهى اشعار امرىء القيس ، والنابغة وعلقمة وعنترة ، وزهير وطرفة ، وكلهم من شعراء العرب البارزين .
(٧٨) ابو تمام الطائى (١٩٠ — ٢٣١هـ / ٨٠٧ — ٨٤٥م) .
(٧٩) المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤هـ / ٩١٥ — ٩٦٥م) .
(٨٠) ثعلب ، من رواد مدرسة الكوفة فى اللغة ، توفى ٢٩١ هـ / ٩٠٣ م .
(٨١) لابن السكيت (١٨٦ — ٢٤٤هـ / ٨٠٣ — ٨٥٨م) .
(٨٢) لأبى على القالى (٢٨٨ — ٣٥٦هـ / ٩٠٠ — ٩٦٦م) .
(٨٣) الشكل القطاع : قطعة من دائرة ، راسها اما على مركزها ، واما على محيطها ، أنظر مفتاح العلوم للخوارزمى .
(٨٤) ابن العربى : العاصم من القواصم ، ص ١١ .
المقرى : نفح الطيب — جـ ٢ ، ص ٢٥٠ ، والفكر التربوى عند العرب ، ص ٥٢ — ٥٣ .

ولقــد احتفظت لنا كتب التاريخ بما يمكن أن يلقى ضــوءا من من الداخل على الرغبة المعتملة داخل نفوس الحكام فى اعــداد بعض أبنائهم اعدادا خاصا يتناسب ومسئولية الحكم ، حتى أصبح من أهم الأهداف الرئيسية التى تلقن لهؤلاء الأولاد كيفية ادارة شئون الحكم ، وجاءنا هــذا النص ضمن أول مذكرات شخصية ، سجلها تاريخ الأدب الأندلسى ، وهى التى كتبها الأمير عبد الله سيف الدولة بن بلكين من باديس ، أمير غرناطة على عهــد الطوائف والذى حكم من ٤٦٦ الى ٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ ــ ١٠٩٠ م ، يقول النص : وقــد كنا ــ معشر أصل بيت الملكة ــ نرى أن أكثر ما نتأدب به أعمــال السياســة فى طلب الرياسة ، والسعى لها بكل الوجوه واحضار الأذهان ، ما لو أن المفرط فى بعض ذلك منــا يكون أفقــه الناس فى سائرها من العلوم ، لكان عندنا ناقصا ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتى وقع التنافس عليه •

وقتلناها نحن علما لرياضة أنفسنا لها ، وما أجرانا عليه آباؤنا ، وبصرونا فيه من أولى شأننا •

وتلك صناعة وجب تعلمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التى منها معايش الناس ، ولابد لهم من اتيانها • ولعمرى ان الوالى أكثر علما وأحسن عقلا : فان جميع عقول الناس تعرض لديه واليه تهدى الأخبار ، ويتخاصم النــاس ، وعنده يقــع الطلب ، وترفع الحاجات وتقع العنايات ، فيرى ويسمع كل يوم جديدا لم يره أمس •••

ويواصل الأمير عبد اللــه قائلا :

ولمــا كان المظفر جــدى ــ رضى اللــه عنه ــ قــد أوتى من الدهاء والتمييز لأحــوال الزمان ما لاخفاء به ، وأنه من آكد ما يجب النظر فيه ترشيح أحد بنيه للولاية بعده ، وأن ذلك لا يتم الا بتمرينه ، واعماله فى جميع خدمته ، كى يتدرب ، ولا يخفى عليــه أمر من أمور الدولة ما يحتاج اليه فيه نفسه ، كنت ممن وفقه الله لبره والانصياع لوصيته ــ فأمر باخراجى من المكتب الى التصرف بين يديه ، وقال لى

— نضر اللـــه وجهـــه — معك من الكتاب وتلاوة القرآن ما يكفيك ! وهـــذا أولى ما تتعلم ، فعليك باحضـــار ذهنك لجميع ما يكون منى وما ينقضى فى دولتى أيام هذه الفتن ، فان الزمان أشر والأيام أقصر من أن تدرك ، تعلم كل شىء يعنى به الملوك لأبنائهم .

فامتثلت حـــده ، وأخـــذت نفسى أولا بالتواضع له ، واختصار كل شىء يقع منه فى نفسه أنى أشره به الى تعجيل الولاية أو الحرص على الرياســـة ، بل كنت أتأبى له عن ذلك ، ولا أحكم بين اثنين الا عن مشورته ومشاركة أهل السن والعمـــل من وزرائه ، وأنزل نفسى لهم بمنزلة الابن ، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعا أرتضونى به للخـــلافة من بعده . واتفق فى ذلك رأيهم مع رأى الجد ، رحمه الله .

ولم يكن من نهار الا وأستفيد فيه فائدة من تجربة وحنكة (٨٥) .

وقبل ذلك نجد اشارة الى نفس المعنى ضمن قصـــة طويلة قـــد وقعت بين الأمير عبد الرحمن بن محمد وجـــده الأمير عبد الله أوردها لنا ابن حيان ، نستخلص منها أن الأمير قد تفرس فى حفيده عبد الرحمن النجابة فخرجه بأدبه ، وأجهد فى تعليمه (٨٦) .

دور النســـاء :

يبدو أن النساء قـــد لعبن دورا هاما فى تربية الأمراء والخاصة فى الأندلس ، وخاصة فى المراحل الأولى من حياة هؤلاء ، ومن الطبيعى أن تتولى النساء ذلك بحكم قيامهن بالأعمال المنزلية الخاصة بالحضانة والرعاية لأطفال الخلفاء وكبار رجال الدولة ؛ ولذا كانت النساء اللاتى كن يعشن فى هذه الأماكن ممن يتمعن بالسمة الطيبة والأخلاق الحميدة ، والعلم والثقافة الواسعين ، ولست أجـــد داعيا لأن أذكر هنـــا كثيرا من أسماء النسوة ؛ اللاتى كان يعج بهن بلاط الخلفاء والأمراء،ومكانتهن

---

(٨٥) عبد الله (الأمير) : مذكرات ، ص ١١ — ١٣ .
(٨٦) ابن حيان : المقتبس (تحقيق انطونيا) ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

من الناحية العلمية فلقد خصص المقرى فصلا كاملا للحديث عن نساء الأندلس (٨٧) . ويمكن لمن يرغب فى المزيد ، الرجوع اليه — وانما أشير فقط كمثال على ثقافة تلك النسوة ، الى ما يقال عن «لبنى»، كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله ، حيث وصفها الصفدى بأنها كانت نحوية ، كاتبة ، شاعرة ، بصيرة بالحساب والعروض ، حاذقة ، توفيت سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وفى موضع آخر قيل : انها كانت تكتب الخط الجيد ، نحوية شاعرة ، عروضية ، بصيرة بالحساب ، مشاركة فى العلم ، لم يكن فى قصرهم أنبل منها ، خطاطة خطاطة جدا (٨٨) .

وأكثر النصوص دلالة على قيام النساء بمهمة تعليم أبناء الخاصة خلال مراحل عمرهم الأولى قد قصه علينا ابن حزم القرطبى حيث يقول :

ولقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ، ما لا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وأنا فى حد الشباب وحين تبقل وجهى ، وهن علمننى القرآن وروينني كثيرا من الأشعار ودربنني فى الخط (٨٩) .

وننقل هنا ثقافة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الموحدى كدليل آخر على التعليم الذى يتلقاه أبناء الخلفاء والأمراء

---

(٨٧) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٨٨) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٦٩٢ .
السيوطى : بغية الوعاة ، ص ٣٨٣ .

(٨٩) ابن حزم : طوق الحمامة (تحقيق برشيرا) ، ص ١٢٦ ، والترجمة الفرنسية ، ص ١٢٧ .

Asin P. : Ibn Hazm de Cordoba, I. 39.

Gomez Nogales : Teoria u clasificacion de las ciencias segun Ibn Hazm, p. 66.

ابو زهرة : ابن حزم ، ص ٣١ .

غارثيا غومث : Garcia Gomez, E. : El Collar de La paloma.

فى ذلك الحين — يقول عبد الواحد المراكشى ، انه كان : حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام ، صرف عنايته الى ذلك أيام كونه بأشبيلية واليا عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه .

أخبرنى من لقيته من ولده ، كأبى زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى ابراهيم اسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكية ، بعيد المهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال ، هذا مع ايثار للعلم شديد ، وتعطش اليه مفرط صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين — الشك منى ، اما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى ، حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساع فى حفظ اللغة ، وتبحر فى علم النحو حسبما تقدم ، ثم طمح به شرف نفسه ، وعلو همته الى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى (٩٠) .

---

(٩٠) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

كان لتعليم الأمراء ، بعض الجوانب المؤثرة اما على حياة المعلمين أنفسهم أو على طلبتهم ، ولا شك أن القيام بمهمة مؤدب لأولاد الخلفاء كان يحمل المؤدب الى مكانة اجتماعية عالية جدا ، حتى لقد قيل ان الحاجب جعفر بن عثمان ، أشهر الوزراء على عهد هشام الثانى ، قبل أن يقتله المنصور بن أبى عامر ، وصل الى ما وصل اليه ؛ لأن والده كان معلم الخليفة الحكم فى صباه (٩١) . والوزير عيسى بن سعيد من أكثر وزراء الدولة العامرية شهرة وجاها ، وقد نال ذلك لأن والده كان معلما(٩٢) . لكنها من جانب آخر قد تكون سببا فى خلق بعض المشاكل للمعلمين مما جعل بعضهم يتفادى القيام بهذه المهمة ، فقد رفض محمد بن هشام المروانى صاحب كتاب « أخبار الشعراء » أن يقوم بتأديب أولاد عبد الرحمن الناصر قائلا : أن الفتيان لا يتعلمون الا بشدة الضبط والقيد والأغلاظ ؛ وأنا أكره أن أعامل بذلك أولاد الخليفة فيكرهونى ، وقد يحقد على بعضهم ذلك الى أن يقدر على النفع والضرر (٩٣) .

وبعض الأساتذة كان يرفض ذلك اعتزازا بنفسه ، وبعلمه ، فيقال أن داود بن يزيد الغرناطى انتقل الى باغة من أجل أن السلطان دعاه لاقراء بنيه ، فقال : والله لا أهنت العلم ، ولا مشيت به الى الديار (٩٤) .

وهناك أيضا بعض الجوانب التربوية الهامة التى روعيت فى تربية الأمراء ، وخاصة أولئك الذين كانوا يتلقون تربيتهم فى منازلهم ، وأقصد بذلك محاولة اقامة اتصال بينهم وبين الأطفال الذين هم فى سنهم

---

(٩١) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ .
(٩٢) ابن حيان : المتين (تحقيق عبد الله جمال الدين) ، ص ٣١ .
(٩٣) المقرى : النفح ، جـ ٥ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٩٤) السيوطى : بغية الوعاة ، جـ ١ ، ص ٥٦٣ .

مضر الجوانب الاخرى :

من أبناء الأمراء أو البلاط حتى لا ينمو لديهم شعور العزلة ، فنجد أن عبد الرحمن الناصر كان يتلقى تعليمه مع أقرانه ، وأن الحكم المستنصر ، قد جعل بعض الصبيان مع ابنه هشام في موضع حضاره[٩٥] — هذا في الوقت الذى يشكو فيه ابن حزم من تأثير عزلته وحيداً بين النساء — يصف ذلك المستعرب الأسبانى الكبير آسين بلاثيوس ، قائلا :

ان هذه التربية الأولية المنعزلة ، وذلك الانغلاق ، قد أثرا دون شك فى تكوينه الخلقى وفى مزاجه النفسى [٩٦] .

انه لم يكن يقتصر فى تأديب الأمير على مؤدب واحد ، وانما من المحتمل أن يكون له أكثر من مؤدب ، فنجد أن الحكم بن هشام قد وضع له من المعلمين : سوار بن عبد الرحمن[٩٧] وكيبة بن ربيعة[٩٨] . علاوة على أن الشمر بن نمير حينما وصل الى الأندلس على عهد الأمير هشام ضمه الى تأديب ولده [٩٩] .

أما الأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد استأدب لأولاده كلا من عبد الملك بن أيمن بن فرحون [١٠٠] ، وأبى بكر محمد عبد الله بن بكر الكلاعى [١٠١] وعثمان بن المثنى [١٠٢] ، وعبد الله بن سليمان المنذر [١٠٣] . والحكم المستنصر بالله قد وضع لابنه أكثر من معلم ، كما سبق أن بينا خلال صفحات هذا البحث .

---

(٩٥) ابن حيان : المقتبس (تحقيق الحجى) ، ص ٧٧ .
Garcia Gomez, Anales Palatinos ...... p. 100.
(96) Asin Palacios : Ibn Hazm de Cordoba, I. 38.
(٩٧) المقرى : النفح ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .
(٩٨) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ج ١ ، ص ٦٥ .
(٩٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ١٩٩ .
(١٠٠) المراكشى : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ١٥ .
(١٠١) ابن الفرضى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٩٤ .
ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ١١٣ .
(١٠٢) ابن الفرضى : نفس المصدر — ج ١ ، ص ٣٠٢ .
(١٠٣) ابن الابار : تكملة الصلة ، ص ٤٣٦ .

ومن جانب آخر ، فانه من الممكن أن يختار الخليفة معلما لكل واحد من أبنائه ، أو معلما واحدا ، لأكثر من واحد من أبنائه .

فبالنسبة للحالة الأولى ، نجد أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، يختار الفقيه محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى ليكون مؤدبا لابنه المغيرة (١٠٤) .

---

(١٠٤) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٦٩ .
السيوطى : بغية الوعاة ، ص ١١٣ .

الفصل الثامن

اهتمام الخاصة بالتعليم

أشارت بعض كتب تاريخ التربية التى تناولت تاريخ التربية الاسلامية الى أن أهل الأندلس لم يقدموا كثيرا للعلماء أو لطلبة العلم ، وأن مسجد قرطبة ، على عظمته ، وكثرة ما قيل فيه ، لا نجد بين أيدينا ، ما يفيد ما أوقف على هذا المسجد من أموال ومن أوقاف : فيقول الأستاذ محمد عبد الرحيم غنيمة فى كتابه « تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى » : ويبدو أن حياة الطلاب بالأندلس كانت أشق من غيرها فى بلاد الاسلام الأخرى ، وبينما كانت رواتب الطلاب بالمشرق منتظمة ثابتة ، ظلت حياة الطالب الأندلسى قائمة على الكسب الشخصى أو الصدقات ، التى يجود بها أهل الخير ، « وقليل هم فى تلك الديار » .

ولعل فيما نقلناه من قول بقى بن مخلد ، تصويرا واضحا لبعض الطلاب الأندلسيين ومعيشتهم .

وعلى كثرة ما قيل فى وصف الجامع الأعظم بقرطبة فاننا لا نجد فيما كتب ذكرا لأى نوع من الرواتب للأساتذة أو الطلاب ، وسبب ذلك ، هو تأخر الحركة المدرسية بالأندلس ، وغلبة الحرص والبخل على أهلها . وربما كان لاختلاطهم بالعناصر الأوروبية ، أثر فى تخلقهم بأخلاق بعيدة عن الكرم العربى والشرقى الذى تميزت به بلاد المشرق فاذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة سبوه وأهانوه ، فضلا عن أن يتصدقوا عليه ، وهذا أمر محمود ، ولكنه دليل على مبلغ حرصهم على المال ، بالنسبة للمشارقة [1] .

---

(١) محمد غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، ص ٢٦٨ .

وتلك فكرة طيبة ، ولكن من شأنها أن تجعل التعليم مقصورا على القادرين فقط ، أرستقراطيا لا يقدر عليه الا أهل الثراء ، وهذا ما يدفعنا الى القول بأن التعليم عند أهل المشرق كان أكثر ديموقراطية وأرحب مجالا من التعليم الأندلسى وأكثر رعاية للمذاهب والكفايات الانسانية التى قد يقضى عليها العجز ويقتلها الفقر •

والحقيقة ، أن الغالبية العظمى ممن أرخوا للتعليم أو للتربية فى الاسلام ، هم من الباحثين المشارقة ، أى أن معظمهم من بلاد المشرق الاسلامى ، ولذلك لم يتح لأى منهم التعمق الكاف فى المراجع الأندلسية خاصة ، مما جعل الأندلس فى كثير من المؤلفات ، لا تحظى الا بأقل القليل من الدراسة والبحث •

ان هذه هى أول مرة يحظى فيها تاريخ التعليم فى الأندلس بدراسة جامعية متخصصة ، تسعى لالقاء الضوء على جوانبه المتعددة• ولقد أتيح لكاتب هذه الدراسة أن يعيش من حياته ستة أعوام كاملة على الأرض الأسبانية — أى على نفس المسرح الجغراف الذى جرى عليه هذا التاريخ الأندلسى ، كما أنه قد أتيح له أن يطلع على أكبر قدر ممكن من المراجع والمصادر التى تتناول كافة مظاهر الحياة فى الغرب الاسلامى عامة والأندلس بصفة خاصة ، ويمكن لى أن أؤكد بأن الحقيقة التى لا خفاء فيها ، أن أهل الأندلس قد قدموا للعلم وللعلماء وللطلبة كل الوسائل التى ساعدتهم على أن يرتفعوا بالأندلس فى مجال العلم والتعليم ، الى أعلى درجة ممكنة ، مما جعل من الأندلس عامة ، وعواصمه الكبرى خاصة مشعلا للثقافة ، ومركزا للتعليم خلال العصور الوسطى •

لقد حاولت فى بداية الرسالة أن أبين اهتمام حكام الأندلس العملية التعليمية ، واقتصرت على تناول مجهودات الأمراء والخلفاء والملوك والسلاطين فقط ، وهنا سأتناول فى ايجاز دور بعض الخاصة فى الاهتمام بالعلم والتعليم ، والانفاق على الطلبة والعلماء ومراكزا

التعـليم فى الأندلس ، حيث قاموا برعاية الفقـراء ، وتسهيل سبل العلم لهم ، ومساعدتهم ماديا حتى وصلوا الى درجة من العلم ، لابأس بها ، وهناك من حبس داره على الطلبـة ، ومن حبس كتبه عليهم — والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فلنستعرض بعضا منها :

تتحـدث كتب التراجم عن « أبى عبد اللـه محمد بن سليمان ابن الخياط الرعينى الأعمى القرطبى (المتوفى ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) (٢) أن أباه كان يبيع الحنطـة بقرطبة ، ونشأ هـذا الأعمى نشأة أعانته على أن بلغ غاية من العلم الحديث والعلم القديم .

وكان بنـو ذكوان (٣) ، هم الذين كفوه مؤونة الدهر ، وفرغوه للاشتغال بالعلم ، وكان الغالب عليه المنطق (٤) .

أما فرج بن أبى الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليحصبى ، من أهل طليطلة (٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م) ، فقد فات أهل زمانه فى العلم والعقل والفضل ، وحبس داره على طلبة أهل السنة (٥) .

وأبو العباس أحمـد بن رشيق (المتوفى بعد سـنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) ، الذى تولى جزيرة ميورقة « فكان ينظر فى أمور الجهـة التى كان فيها نظر العـدل والسياسة ، ويشتغل بالفقه والحـديث ، ويجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم ، ويصلح الأمور جهده » (٦) .

---

(٢) الحميدى ، ص ٥٣ ، والضبى ، ص ٧٧ ، يذكر أن عام الوفاة فى حدود ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ، وينص ابن حيـان على أن وفاته ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، انظر المتين ، ص ٨٨ ، والمغـرب فى حلى المغـرب ، جـ ٢ ، ص ١٢١ .

(٣) أنظر عن بنى ذكوان بن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف ، جـ ١ ، ص ٢١٥ .

(٤) المصادر المذكورة فى الملاحظة رقم (٢) .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٦) الضـبى : بغيـة الملتمس ، ص ١٧٨ — الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٢٦٠ .

سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف (المتوفى ٦٨٠هـ/١٢٧١م) ،
كان والى ميورقة فى عام ٦٢١هـ / ١٢٣٣م ، انتـــابه أهــل العـــلم
وطلبته من بلاد الأندلس وبر العــدوة ، فكان يحسن اليهم ويستجلب
ودهم ، ويجيد القيام بهم ما أقاموا لديه ، ويحسن صرف من أحب
لانصراف منهم (٧) .

محمـــد بن عيـــاض بن محمـــد بن عياض بن موسى اليحصبى
(المتوفى ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) كان قاضيا ، وكان محبـــا لأهل العلم ،
مقربا لأصاغر الطلبة ، ومكرما لهم ، ومعتنيا بهم ، ليحبب اليهم العلم
والتمسك به ، ما رأينا بعده فى هـــذا مثله (٨) .

سعدون بن مســـعود المرادى (المتوفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) ،
كان متقدما فى علم العربية والأدب ، حسن المشاركة فى الفقـــه كثير
البر بطلبة العلم ، واسع الصدر لهم ، حسن الخلق (٩) .

أبو عبـــد اللـــه محمـــد بن عيسى بن فرج بن اسحق التجيبى
المغامى : كان اماما فى القراءات ، ومن أهل الصلاح ، توفى فى أشبيلية
فى منتصف ذى القعدة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، وحبس كتبـــه على
طلبة العلم الذين بالعدوة (١٠) .

محمد بن محمد بن محـــارب الصريحى ، توفى بمالقة فى أوائل
عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ، بعد أن تصدق بمال كثير ، وعهد بريع مجيد
لطلبة العلم ، وحبس عليهم كتبه (١١) .

---

(٧) المراكشى : الذيل والتكملة ، جـ ٤ ، ص ٣١ .
(٨) ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
ابن عياض : التعريف بالقاضى عياض ، ص ٥ .
(٩) المراكشى : الذيل والتكملة ، جـ ٤ ، ص ٢٢ .
(١٠) أرسلان : الحلل السندسية ، جـ ٢ ، ص ٢٤ .
(١١) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

ويقول ابن الفرضى عن قاسم بن سـعدان بن عبد الوارث ، (المتوفى ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م) أنه : لم يزل فى نسخ ومقـابلة الى أن مات ، ولم يحدث وحبس كتبه ، فكانت موقوفة عند محمد بن محمد ابن أبى الدليم ، وكثير من سماعنا عليه منها (٢١) .

وعلاوة على ذلك ، فهناك فى التاريخ الأندلسى ، ما هو أكثر دلالة من ذلك كله — هنـاك الفقهاء المعلمون الذين كانوا يقومون باطعـام طلبتهم ، ومشاركتهم فى الطعـام ، واعداد مكان الدراسة بما يحقق الراحة الكاملة لهؤلاء الطلبة . ولنضرب مثلين على ذلك فقط ؛ يبينان اهتمام الفقهاء بطلبتهم اهتماما كبيرا ، واعطاءهم اياهم عناية خاصة . يحكى لنا ابن الأبار ، فى ترجمته للنعمان بن المنـذر ، ما يلى :

أنه من أهل قرطبة ؛ صحب أبا عبد الله محمد بن عمر بن لبابة ، وحكى عنه — قال ابن حيان : قرأت بخط عبده بن عبدالله الشاعر قال : حدثنى أبى عن النعمان بن المنذر ، عن الفقيه محمد بن عمر بن لبابة قال : كنت يوما عنـد أبى وهب عبد الأعلى فى حبابة بقرب مقبرة قريش ، وكان يعتمرها بيده فى نفر من الطلبة نسمع عليه ، اذ حضر غداؤه فيقدمه الينا نأكل معه ، اذ استأذن عليه هاشم بن عبد العزيز صاحب الأمير محمد ووزيره الأثير فأذن له على تكسره ، ودخل ونحن نأكل خبزا قدمه الشيخ أدمه من بقل الجنان ، فجعل يداعب الشيخ بنصـاعة طرفه ، ولا ينطلق الشيخ معـه ، ثم قال له : أبا وهب أما تدعونى الى طعامك ؟ تخـاف أن نلتهمه ! فقال له : أنه ليس من الأطعمة التى توافقك ، فقال : بلى ، وان لم يكن فانا نتبرك بما نصيب منه ، ومـد هاشم يده الى لقمة من الخبز يغمسها فى البقل ، وجعل يلوكها ولا يستسيغها ، فلما فرغنا سأل الشيخ عن مسألة فقه جاء لها ، فأفتاه الشيخ بما عنده ، فأظهر هاشم سروره بجوابه وقام لينصرف ،

---

(١٢) ابن الفرضى : علمـاء الأندلس ، ص ٣٦٧ .
القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٢٤٨ .

فتحركت لأقوم معه ، فضرب الشيخ على يدى ، وأجلسنى حتى خرج هاشم ، فلمـا مضى قال لى : ما أردت بهـذا ، قلت : أردت اكرامة فى مجلسك . فقال لى : بئس ما صنعت يا هـذا ان كنت تطلب العلم لله تعالى ، فأعزه يعزك الله تعالى . وان كنت تطلبه للدنيا فحـد عنا ، وكن خادما لهؤلاء متصرفا بين أيديهم ، فهو أنفق لك عندهم ، وأوكد لك عند خالقك ، فأخجلنى شديدا ، وحافظت على وصيته (١٣) .

وأكثر الأمثلة دلالة على عناية الأسـتاذ بطلبته ما يصـل الينا ، عن أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصارى ، من أنه كان فقيها ، متفننا ، كريم النفس ، أخذ عن جماعة من علمـاء بلده ، وأجاز له جماعة من شيوخ قرطبـة مع أبيـه .

حدث عبد اللـه بن سـعيد بن أبى عون قال : كنت آتى اليـه من قلعة رباح وغيرى من المشرق ، وكنا نيفا على أربعين تليذا ، فكنا ندخل فى داره فى شـهر « نونير » و « دجنـير » و « وينـير » فى مجلس قـد فرش ببسط من الصوف مبطنات ، والحيطان باللبـود من كل حول ، ووسائد الصوف ، وفى وسطه كانون فى طول قامة الانسان ، مملوءا فحما يأخذ بدفئه كل من فى المجلس ، فاذا فرغ الحديث أمسكهم جميعا ، وقدمت الموائد عليها ثرائد بلحوم الخـرفان بالزيت العذب ، وأيام ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد فنأكل من تلك الثرائد حتى نشبع منهـا ، ويقـدم بعد ذلك لونا جـديدا ونحن قـد روينا من ذلك الطعام . فكنا ننطلق قرب الظهـر مع قصر النهـار ولا نتعشى حتى نصبح الى ذلك الطعام الثلاثة أشهر ، فكان ذلك كرما وفخرا لم يسبقه أحـد من فقهـاء طليطلة الى تلك المكرمة (١٤) .

وأحمـد بن محمد بن عبد العزيز التجيبى المتوفى ٦٢٩هـ/١٢٣١م

(١٣) ابن الابار : تكملة الصـلة ، جـ ٢ ، ص ٤٢ . و ص ٧٥١ ، طبعـة عزت العطار .

(١٤) ابن بشكوال : الصـلة ، ص ٤١ .

كان منزله « مألوفا لطلبة العلم ، يأوون اليه ويحتكمون فيه احتكامهم فى أماكنهم » (١٥) .

وأحمد بن أبى عبد الله محمد ، المعروف بابن العشاب ، المتوفى ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ، « كان كثير الكتب فى كل فن من العلوم على تفاريقها سمحا لطلبة العلم بها ، وربما وهب منها للتمسه الأصل النفيس الذى يعز وجوده ، ويعظم جدواه ، وترتفع قيمته احتسابا به وحثا على التعلم » (١٦) .

ولقد كان للأندلسيين احساس بقيمة العلم بمعناه الواسع ، فقد حرصوا على التعلم ، وساعدوا الغير على ذلك ، وقد ضرب لنا داود بن عيسى بن حبوبة الكلاعى ، من أهل قرطبة ، مثالا رائعا على التعاون من أجل مساعدة الآخرين على التعلم ، حتى ولو فاقوه فى مجال العلم ، فيقال انه « رحل الى المشرق ، فاجتمع مع بقى بن مخلد ، وكان بقى لا مال له ، وكان داود واسع المال ، فسأله بقى أن يتيح له من ماله ما يشترى به الكتب ، ويجمع الدواوين ويكون سماعهما واحدا ، وقال له : أرجو أن ينفعك الله بذلك ، فأجابه داود الى ذلك ، فكان سبب اكثار بقى من الرواية والجمع ، ولما انصرف الى الأندلس ، كتب بقى الكتب لنفسه » (١٧) .

أما بالنسبة للمرتبات الثابتة المخصصة للأساتذة وللطلبة ، فقد تناولت هذا تفصيليا ، فى الفصل الخاص بالأجور ، ولكن يجب التأكيد هنا بأن مسألة الأجور فى العالم الاسلامى فى عصوره الوسطى قد أخذت أكثر من شكل واحد وفى الأندلس أيضا وجدت الأجور ، ودفعت لمستحقيها بأكثر من طريقة ، اما عينا أو نقدا ، ونضرب مثالا على ذلك ، بأحمد بن خالد ، الذى نقله الخليفة عبد الرحمن الثالث

---

(١٥) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٤٦٥ .
(١٦) المراكشى : الذيل والتكملة — السفر الأول ، ص ٥١٢ .
(١٧) ابن الفرضى : علماء الأندلس ، ط القاهرة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

الى المدينــة بقرطبــة ، وأسكنه دارا من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والادام والنــاض (الدراهم والدنانير) ، وله ولمثله فى بيت المــال حظ [١٨] •

ولعل فى ذلك ما يبين وجود منازل موقوفة على المسجد تستعمل لاقامة الغــرباء والفقهاء وطلبــة العلم • فاذا أضفنا الى ذلك كلــه عناية أهل الأندلس بالغرباء ، وأن قسما كبيرا من الغرباء كان من الطلبة القادمين الى الأندلس للتحصيل والرواية لأمكن لنــا أن نؤكد أن أهل الأندلس بكافة مستوياتهم ، شعبا وحكومة ، قــد بذلوا الكثير فى سبيل العــلم والتعليم [١٩] ، وليس ذلك بغريب على شعب عرف قيمة العلم فسـعى اليه ، وعرف قيمــة العلمــاء فقــدرهم تقـــديرا عظيما •

واختتم بشهادة أوردها المقــرى فى حق الأندلسيين قائلا :

وأما حال أهل الأندلس فى فنــون العلم ، فتحقيق الانصاف فى شأنهم فى هــذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذى لم يوفقــه اللــه للعلم يجتهد أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على النــاس ، لأن هــذا عندهم فى نهاية القبح ، والعــالم عنــدهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ، ويحال عليه ، وينبه الى قدره وذكــره عند الناس ، ويكرم فى جوار أو ابتياع ، أو ما أشبه ذلك [٢٠] •

---

(١٨) المقــرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٢٢٠ ، طبعة القــاهرة ، و جـ ٢ ، ص ١٥٨ ، طبعة دوزى ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ ، طبعــة احسان عبــاس •

(١٩) انظر فى عنــاية أهل الأندلس بالغرباء ، كتاب الضبى : بغيــة الملتمس ، ص ١٦٨ •

(٢٠) المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢٠٥ •

خاتمة

أن النظام التعليمى من أهم المعالم التى تميز حركة الشعوب على طريق تطورها وارتقائها ، كما أنه الأساس الذى تبنى عليه حضارات الأمم ، ومن هنا كانت أهمية دراسة الأندلس ، للتعرف على أسس وعمل هذه الفترة الزاهية من تاريخ الأندلس فى العصور الوسطى •

ولقد تبين من هذه الدراسة ، أن المسلمين فى الأندلس قد وجهوا اهتماما خاصا للتعليم ، ابتداء من السنين الباكرة فى حياة الطفل ، واستمرارا الى سن الكهولة بل والى الممات •

حاولت الأسرة الأندلسية تعليم طفلها باكرا ما أمكن ذلك ، وتميزوا فى هذه المرحلة عن باقى الأقاليم الاسلامية الأخرى ، حين لم يركزوا كل جهدهم ؛ على تعليم القرآن فحسب ، وانما خلطوا مع القرآن أشعار العرب ولغتهم ، مما جعل الأندلسيين يتمتعون بقدرة لسانية كبيرة ، ومستوى لغوى عال •

أما مدرسو المرحلة الأولية ، فقد تميزوا عن زملائهم فى باقى أنحاء العالم الاسلامى بارتفاع ثقافتهم ، على الأقل لم نجد فى مجالات الأدب الأندلسى ، ما يشير الى مثل ما كان يعانيه معلمو هذه المرحلة فى بلاد المشرق ، ولقد ساعد على ارتفاع مستواهم الثقافى أن المستوى العام للشعب الأندلسى كان طيبا ، أما المستوى الاقتصادى فكان أيضا لا بأس به مما دفع الناس الى الاقبال على تعليم أولادهم واجتهادهم فى الحصول لهم على معلم ، كما أن الدولة قامت من جانبها بتوفير التعليم المجانى لأبناء الفقراء ، مثلما قام به الحكم المستنصر من انشاء ٢٧ مكتبا فى قرطبة وحدها ، وأوقف حوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين •

وقد مورس التعليم فى المرحلة الأولى فى المكاتب بصفة رئيسية ، واتخذت أماكنها بصفة عامة بجـوار المساجد أو فى منازل المعلمين ، أو فى أماكن خاصة قام المعلم باستئجارها ، ولقد لعب المنزل فى هـذه المرحلة دورا رئيسيا ، حيث قام الآباء أو الأخوات أو الأقارب ، بتعليم أطفال الأسرة ، اما بصفة شخصية ، أو مباشرة تعليمهم على أيـدى معلمين محل ثقتهم •

وكانت المرحلة الأولى من التعليم ، تبـدأ فى المكاتب •

وقد بدأت هذه المكاتب فى الظهـور فى الأندلس ، فى فترة مبكرة جدا ، أرجعتها الى السـنوات العشر الأولى من الفتح ، ثم انتشرت بعد ذلك انتشارا كبيرا فى مدن وقرى الأندلس ، وكانت هذه المكاتب تقبل الطفل فى سن السادسة تقريبا ، ويستمر فيها مدة تتراوح بين ستة وسـبعة أعوام ، يستكمل خلالهـا حفظ القـرآن الكريم ، ويتعلم القراءة والكتابة •

وبعد أن يتمكن التلميذ من استيعاب دروس الأساتذة ، ويعرف جيـدا القـراءة والكتابة ، كان يترك المكتب ، ويبـدأ فى التردد على حلقات الشيوخ فى المسـاجد بادئا بذلك المـرحلة الثانيـة من حياته التعليميـة •

وتتميز المرحلة التعليمية الثانيـة بعـدم التقيـد بوقت دراسى معين ، أو ببرنامج دراسى محـدد ، حيث ارتبطت الدراسـة دائمـا بوقت الأستاذ وظروفه فالأساتذة الذين تخصصوا فى حياتهم للتعليم ، أعطوا دروسهم على فترتين خـلال اليوم ، احداهما صباحية والثانية فيما بعد الظهر •

أما الأساتذة غير المتفرغين فلقد تنوعت ساعات دروسهم ، وان كانت عادة تكون فى الصباح •

كما تنوع البرنامج التعليمى تنوعا واسعا ، متخذا أساسا ثابتـا من العلوم الدينية واللسانية ، ثم منطلقا بعد ذلك لدراسة باقى فروع

العلوم الانسانية والتخصص فيها ، والمواد التى درست خلال هــذه المرحلة يمكن اجمالها فى المجموعات الثلاث التالية :

١ ــ العلوم الدينية ، وتتفرع هــذه المجموعة لتشمل كل المواد المتصلة بدراسة القــرآن الكريم والحديث النبوى .

٢ ــ العــلوم اللسانية ، ويقصد بذلك كل المواد المتصلة باللغــة وبالنحو وبالأدب والبيــان .

٣ ــ العلوم العقلية ، وتشتمل بدورها على أربع مجموعات فرعية هى العلوم الطبية والعــلوم البحتــة والعــلوم الفلسفية والعــلوم الاجتماعية .

وقد برز الأندلسيون كثيرا فى مجال العلوم الدينية ، وخاصة فى مجالات دراسات المذهب المــالكى ، حيث قصروا انتاجهم التشريعى والدينى على هــذا الجانب ، وقاوموا بكل شــــدة المذاهب الدينية الأخرى ، دون أن يعنى ذلك عدم ظهورها المطلق على أرض الأندلس .

أما فى مجال اللغــة والأدب ، فان مستوى الأندلس قــد ارتفع ليضاهى المدن المشرقيــة كالقاهرة وبغــداد ، وتتمكن قرطبــة من أن تتحول الى مركز من أهم المراكز الفكرية فى العالم فى القــرن الرابع الهجرى / العــاشر الميلادى .

وقد بدأت الدراسات العقلية متأخرة نسبيا فى الأندلس ، ولكنها تطورت بسرعة كبيرة جدا . وفى القرن الرابع الهجرى ظهر عدد كبير من الأطباء والمهندسين والمعماريين والفلكيين ، ووصلت الى قمتها خــلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ولقد تميزت الدراسات الفلسفية ، ضــمن هــذه المجمــوعة ، بتعرضها للاضطهاد والمطــاردة ، ولعــل ذلك كان عاملا مساعدا على تطورها سريا ، وبين الخاصة ، حتى أن أكبر عدد من فلاسفة المسلمين

قد برز فى الأندلس ، كما أن هذه المادة قد وجدت الحماية من الدولة فى بعض الفترات مثلما حدث على عهد الموحدين وعلى عهد ثانى ملوك الدولة النصرية .

ويؤكد أبو حيان أثير الدين ، أن واحدا من أسباب هجرته الى المشرق أنه كان لدى السلطان عالم فى الطبيعة والمنطق والفلسفة قال له يوما اننى أخشى الموت وأريد أن تجعل لى مجموعة من الطلبة أعلمهم هذه العلوم ينفعونك بها بعدى ، ووقع الاختيار على أبى حيان ، وهرب الى المشرق حتى لا يجبر على ذلك على الرغم مما جعل له من الجرايات والكسى والأرزاق (١) .

وكانت المساجد التى انتشرت فى كافة المدن والقرى الأندلسية هى المركز الرئيسى للتعليم فى هذه المرحلة ، ومن ثم فان كل مسجد لم يكن الا مركزا تعليميا ، وهناك المساجد الجامعة التى ضمت بين جدرانها أكثر من حلقة تعليمية .

وتتميز هذه المرحلة أيضا بأنها ليست مرحلة متوسطة بين التعليم الأولى والتعليم النهائى ، وانما بأنها مرحلة متوسطة ونهائية فى ذات الوقت ، بمعنى أنها كانت تعد الطالب تماما للحياة العملية ، كما أنها كانت الأساس لمن يرغب فى التخصص والتعمق ، ولذلك فان السن فيها أيضا كان غير محدد ، فما أن كان الطالب ينتهى من المكتب ، ويبدأ فى التردد على هذه الحلقات ، حتى يصل الى المستوى الذى يرغب فيه فى التوقف عن الدراسة . وأهم ما كان يميز الطالب ، طوال المدة التى كان يقضيها فيها ، هو ارتباطه بأستاذ معين ، حتى لقد عرف بعض الطلاب بأساتذتهم ، وتخصصوا فى موادهم .

وقد تمثلت طرق التعليم الرئيسية فى الاقراء والاسماع والاملاء، حيث كان يجلس الأستاذ فى حلقة معينة ، اما بالمسجد أو بالمكان الذى

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ — ٢٨٥ .

اتخـذه لتدريسه ، ويقـوم بالقراءة من كتاب ، أو أن يتولى طالب من الحاضرين القراءة ويستمع اليه الآخرون ، بينما يقـوم الأستاذ بمهمة التصحيح •

وقد سادت العلاقات الطيبة بين الأستاذ وطلبته ، فالأول مسئول عن تعليمهم وتقويمهم وبذل كل الجهد فى صالحهم ، أما الثانى فمطالب بأن يعكف على الدراسة ، وأن يحترم أستاذه ، وأن يمضى على قواعد وعادات المجالس العلميـة •

كان أستاذ هـذه المرحلة ، أستاذا مثقفا ، واسع الاطـلاع ، تتجلى فيه معرفته الجيدة بمادة تخصصه ، وعلمـه بالمواد المتصـلة بهـا ، ومن السمات البارزة فى معلمى هـذه المرحلة ، موسوعيتهم العلمية ، بمعنى أن الأستاذ كان يجيد أكثر من مادة ، وأكثر من علم ، وخاصة فى مجالات العـلوم العقليـة فنجد أن كافة الأطبـاء تقريبا كانوا يعرفون علم الفلك والرياضيات والفلسفة ••• الخ •

ومستوى المعلمين الاقتصادى والاجتماعى كان عاليا ، فقد شكلوا من الناحية الاجتماعية طبقة عرفت بطبقة الفقهـاء ، احترمها الشعب لعلمها ودينها ، واحترمهـا الحكام لحاجتهم الى تأييـدهم ولعلمهم بمكانتهم لدى العـامة •

أما من الناحية المـالية ، فان المعلمين كانوا ينقسمون الى فئات : فئـة تتلقى أجرها من الدولة ومن بيت مال المسلمين ، وفئة أخـرى وهى الغالبية تتلقى أجـرها بنـاء على عقـد مع ولى أمر التلميذ ، والفئـة الثالثة تتقاضى أجرها من بعض الأعمال التى توكل اليها فى المساجد ، مثل الامامة أو الصلاة ، أو الأذان أو الاقراء •

وتبين الدراسة أن دخل المعلمين كان مرتفعا حتى أن بعضهم كان يجنى من المهنـة أكثر من ٤ آلاف درهم شهريا •

وعلاوة على ذلك ، وجد بعض المعلمين ممنقاموا بالتدريس مجانا .

ولم يكن للمعلمين زى معين ، ففى شرق الأندلس ، لم يلبسوا العمامة التى كانت شائعة فى غرب الأندلس عامة ، كما اهتم هؤلاء بملابسهم ومظهرهم اهتماما كبيرا وخاصة فى أوقات التدريس .

أما المرحلة التعليمية الثالثة ، فهى مرحلة تكميلية وتخصصية ، ولذلك فليس لها سن للبداية أو للنهاية ، فهى مرحلة استكمال للمعلومات وتجديد لها ، وهى تستمر مدى الحياة .

وقد وجدت هذه المرحلة التعليمية فى أماكن كثيرة : فى المساجد الجامعة وفى المدارس ، وفى المكتبات ، وفى مجالس الأمراء والخاصة ، وفى حوانيت الوراقة ... الخ .

ولكن أهم سمتين تميزت بهما هذه المرحلة ، هما المدرسة والرحلة .

فالمدرسة هى مكان خصص للتعليم ، أشرفت عليه الدولة ، وساهم فيها الأمراء والأغنياء بحيث أمكنها أن تقدم للطالب بالاضافة الى الناحية العلمية ، أماكن للاقامة وضمانا بالتغذية .

وظهور المدارس فى الأندلس يشوبه الغموض الكثير ، والبيانات الموجودة لا تكفى تماما لاثبات ظهورها ، لكن على الرغم من ذلك أمكن الاشارة الى امكانية ظهور المدارس فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كما أنها أصبحت مؤكدة الظهور ، على عهد الموحدين .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، ظهرت مدرسة أخرى فى مرسية ، وبعدها مدرسة صوفية فى مالقة ، ثم مدرسة غرناطة فى القرن الرابع عشر ، ومن المحتمل أن مدينة غرناطة قد شهدت أكثر من مدرسة فى ذات الوقت .

أما المرحلة الأخيرة فهى قمة الحياة التعليمية ، وفيها يرحل الطالب من بلده الى أقرب مدينة أو الى عاصمة الاقليم ثم الى عاصمة المصر ، بالاضافة الى الرحلة التى كانت تتجه الى خارج المصر . وقد أولع الأندلسيون كثيرا بالرحلات وظهرت أسماء الكثيرين منهم فى مجالس التعليم فى القاهرة وبغداد ومكة والمدينة وغيرها من المدن الاسلامية الكبرى ، وأصبحت الرحلة شيئا أساسيا فى التكوين الثقافى للأندلسيين ، وأعطوها عناية كبرى ، ومن ناحية أخرى حينما نما المستوى الثقافى للأندلس ، فاننا نجد أن كثيرا من الأندلسيين كانوا يصلون الى مكانة علمية ، دون القيام بالرحلة الى المشرق .

ولقد خدمت الرحلات فى الاطلاع على تطور الحركة العلمية فى المشرق وفى نقل الكتب والأعمال العلمية من هناك الى الأندلس .

وفى نهاية هذه المراحل الدراسية ، كان لابد من منح شهادة أو اجازة للدارس تبين أو تشهد بقيامه بدراسة كتاب معين أو سماعه من أستاذ ما .

وانتشرت الاجازات بنوعيها الشفوى والتحريرى ، وتطورت كثيرا فى مضمونها ، فظهرت الاجازة الفردية ، واجازات السماع ، والاجازات العامة .

ذلك هو النظام العام للتعليم الذى اتبع فى الأندلس ، وضمن هذا الاطار كانت هناك بعض شرائح المجتمع ، التى تميزت ببعض الخصوصيات ــ ومن هذه الشرائح أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء والخاصة عموما . وتميزت هذه الشريحة فى تعليمها بايكال الطفل الى مؤدب من مستوى ثقافى عال يتولى تعليمه .

والبرنامج الدراسى لهذه الشريحة الاجتماعية لم يختلف كثيرا فى تفاصيله عن البرنامج العام ، فهو يتناول أيضا فى الأساس العلوم

الدينية واللغــوية ، ثم يمضى متطورا مع ميول الطفل وامكانياته فى دراسة علوم أخرى • ولكنه اختلف مع هــذا البرنامج العــام ، تبعــا للمستقبل الذى ترغب العائلة فى اعداد ابنها له وخاصة بالنسبة لأبنــاء الخلفــاء •

أما الشريحة الثانية ، فهى الخاصة بتعليم النساء ، حيث لم تؤكد المصادر بصورة واضــحة ذهاب البنت الى المكتب ، ومن المؤكد عدم ترددها على حلقــات الدرس ، ولكن ذلك لا يعنى عدم تعليم الفتيات فلقد تولى الآباء هـــذه المهمـــة ، كما أوكل تعليمهن الى معلمين موثوق بهم •

ولم تكن الدولة بمعزل عن هــذه الحــركة التعليمية ، وانمــا شاركت فيها وتدخلت فى توجيهها بأكثر من أسلوب •

ففى مجال الحيــاة التشريعية قصرت الدولة الأمور على المذهب المــالكى مما صبغ الحيــاة التعليمية كلهــا بهــذا المذهب ، كما أن الدولة قامت بدفع مرتبــات للفقهاء فى حالات كثيرة وخاصة على عهــد المرابطــين والموحدين وبنى نصر ــ كما اهتمت الدولة ببنــاء أماكن تعليمية ، فشيدت المساجد ، أكثر المراكز التعليمية فى الاسلام عموما ، المكاتب ــ وبعد ذلك المدارس •

وقد لعبت المجالس العلمية التى كان يعقدها الأمراء والخلفــاء الملوك ، دورا هاما جدا فى تطوير الحركة التعليمية ، وفى الارتفــــاع المستوى العلمى لفقهــاء الأندلس وفى اثارة الحماســة بين الأدباء الشعراء وغيرهم •

وبعد القيام بهــذه الدراسة ، تفتحت أمامى أبواب كثيرة تحتاج مالجتها وطرحت كثير من الأسئلة التى تحتاج الى دراسات منفصــلة خصصة ــ منها :

١ — التـأثير الذى تركه نظام التعليم الأندلسى على الجاليـات اليهودية والمستعربين المسيحيين .

٢ — دور قواعد اللغـة العربية فى اعادة بنـاء قواعد اللغـة العبرية وفى قواعد اللغـة القشتالية .

٣ — تأثير المؤسسات التعليمية الأندلسية على نظـام الجامعات فى أسبانيا المسيحية ، والصلة بينهما .

٤ — الصناعات التعليمية الخاصة بالورق والقـلم والدواة والحبر وكذلك المكتبات ، واعارة الكتب ، والنواحى الأدبية المتعلقة بهـذه المجالات .

ولكننى رأيت أن أقصر بحثى على هـذا العـرض ، فاتحا بذلك البـاب أمام كثير من الدراسات التى يمكن لهـا أن تستكمل هـذا المجـال .

بعض ملاحق الرسالة

الملحق رقـم (١) :

آراء ابن سحنون فى اجـرة معلمى الكتـاب

قال محمد : « لا بأس أن يستأجر الرجل المعلم ، على أن يعلم أولاده القـرآن بأجرة معلومة ، الى أجل معلوم أو كل شهر ، كذلك نصف القـرآن أو ربعـه ، أو ما سمى منه » (١) .

كما أنه قال :

« ولا بأس بالرجل أن يسـتأجر الرجل ، أن يعلم ولده الخط والهجاء » (٢) .

الملحق رقـم (٢) :

رأى القـابسى فى اجـر معلمى الكتاب

« اعلم أن أئمـة المسلمين فى صدر هـذه الأمة ، ما منهم الا من قـد نظر فى جميع أمور المسلمين بما يصلحهم فى الخاصة والعـامة ، فلم يبلغنا أن أحـدا منهم أقام معلمين يعلمـون للناس أولادهم من صغرهم فى الكتاتيب ، ويجعلون لهم على ذلك نصـيبا من مال اللـه جـل وعـز ، كما قـد صنعوا لمن كلفـوه القيـام للمسـلمين ، فى النظر بينهم فى أحكامهم ، والأذان لصلاتهم فى مساجدهم ، مع سائر ما جعلوه حفظا لأمور المسلمين ، وحيطة عليهم ، وما يمكن أن يكونوا أغفلوا شأن معلم الصبيان ، ولكنهم — واللـه أعلم — رأوا أنه شىء مما يختص أمره كل انسان فى نفسه ، اذ كان ما يعلمه المـرء لولده ، فهو من صـلاح نفسه المختص به ، فأبقـوه عمـلا من عمل الآباء ، الذى يكون لا ينبغى أن يحمله عنهم غيرهم اذا كانوا مطيقيه .

وكما ترك أئمـة المسلمين النظر فى هـذا الأمر ، وكان مما لابد منه للمسلمين أن يفعلوه فى أولادهم ، ولا تطيب أنفسهم الا على ذلك ،

---

(١) ابن سحنون : آداب المعلمين (طبعة العـروس المطوى) ، ص ١٣٠ .

(٢) نفس المصـدر ، ص ١٣١ .

واتخــذوا لأولادهم معلما يختص بهم ، ويداومهم ، ويرعاهم حسب ما يرعى المعلم صبيانه ، وبعد أن يمكن أن يوجد من الناس من يتطوع للمســلمين فيعلمهم أولادهم ويحبس نفســه عليهم ، ويترك التماس معايشه ، وتصرفه فى مكاسبه وفى سائر حاجياته ، صلح للمسلمين أن يستأجروا من يكفيهم تعليم أولادهم ، ويلازمهم لهم ، ويكتفى بذلك عن تشاغله بغيره ، ويكون هــذا المعلم قــد حمل عن آباء الصــبيان مؤونة تأديبهم ، ويبصرهم استقامة أحوالهم ، وما ينمى لهم فى الخير أفهامهم ، ويبعد عن الشر مآلهم ، وهذه عناية لا يكثر المتطوعون بها ، ولو انتظر من يتطوع بمعالجــة تعليم الصبيان القــرآن ، لضـــاع كثير من الصبيان ، ولمـــا تعلم القــرآن كثير من الناس ، فتكون هى الضرورة القائدة الى السقوط فى فقد القــرآن من الصدور ، والداعية التى تثبت أطفــال المسلمين على الجهــالة ، فلا وجه لتضييق ما لم يأت فيه ضيق ، ولاثبت فيــه عن الرسول عليه الســلام ما يدل على التنزيه عنه •

ولقد ذكر الحارث بن مسكين ، أخبرنا ابن وهب قال : ســمعته مالكا يقــول : كل من أدركت من أهــل العلم لا يرى بأجر المعلمين — معلمى الكتـــاب — بأسا ، ولابن وهب أيضا فى موطئه عن عبد الجبار ابن عمر قال : كل من سألت بالمدينة لا يرى لتعليم المتعلمين بالأجــر بأسا • وللحارث عن ابن وهب قال : وسئل مالك عن الرجل يجعل للرجل عشرين دينارا ، ويعلم ابنــه الكتاب ، والقــرآن حتى يحذقه ، فقال : لا بأس بذلك ، وان لم يضرب أجلا ، ثم قال : والقــرآن أحق ما يعلم ، أو قال علم • وقال وهب فى موطئــه : سمعت مالكا يقول : لا بأس بأخــذ الأجرة على تعليم القــرآن والكتاب • قال : فقلت لمــالك : أفرأيت اذا شرط مع ما له من الأجر فى ذلك ، مسمى كل فطر أو أضحى؟ قال : لابأس بذلك • قال ، قال أبو الحسن : وقــد مرت بى حكاية تذكر عن وهب أنه قال : كنت جالسا عند مالك فأقبل اليه معلم كتاب فقال له يا أبا عبد اللــه ، انى رجل مؤدب صبيان ، وانه بلغنى شىء ؛

كذلك قال مالك وغيره (*) قال محمد بن أحمد ، وان لم يعرف قدر، فكرهت أن أشارط ، وقد امتنع الناس على وليسوا يعطوننى ، كما كانوا يعطون ، وقد اضطررت بعيالى ، وليس لى حيلة الا التعليم . فقال له مالك : اذهب وشارط ، فانصرف الرجل ، فقال له بعض جلسائه : يا أبا عبد الله ، تأمره أن يشترط على التعليم ؟ فقال لهم مالك : نعم فمن يمحص لنا صبياننا ؟ ومن يؤدبهم لنا ؟ لولا المعلمون ، أى شىء كنا نكون نحن ؟ » (١) .

الملحق رقم (٣) :

وثيقة استئجار معلم القرآن (٢)

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان ، المعلم ، ليعلم ابنه فلانا أو ابنته فلانة أو بنيه فلانا وفلانا وفلانا القرآن نظرا أو ظاهرا ، والكتب والخط والهجاء ، عاما أوله شهر كذا من سنة كذا ، بكذا وكذا دينار صفة كذا ، يؤدى اليه كل شهر ما ينوبه منها ، وكذلك كذا وكذا ، ويدفع اليه فى كل شهر فى أوله ، من دقيق القمح الطيب الريون الجيد الطهر ربعين أو ثلاثة بوزن كذا ومن الزيت نصف ربع

---

(١) القابسى : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين ، ص ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٢) نقل هذا الملحق ، من الوثائق المجموعة لأبى محمد بن الوليد لبنطى ، الذى نقلها من كتاب الوثائق والسجلات ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبيد الله بن سيد الأموى ، المعروف بابن العطار نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) .

وتوجد مخطوطة ابن العطار بمكتبة القرويين بتونس ، ويعمل على حقيقها حاليا الدكتور بدرو شالميتا بالمعهد الاسبانى العربى للثقافة دريد ، كما أن مخطوطة البنطى موجودة بمدرسة الدراسات العربية دريد ، ونشر النص العربى الدكتور خوليان ريبيرا ، فى كتابه من تارخ تعليم بين الأسبان المسلمين .

من زيت المـاء الطيب الأخضر بكيل كذا • ويشرع المعـلم فى التعليم المذكور وعليه الاجتهاد ، ثم يكمل الوثيقة (*) • فان اشترطت عليه فى الأعياد شيئا ، ذكرت ذلك وقلت ويدفع اليه فى عيد الفطر كذا وفى عيد الأضحى كذا ويعطيه عند حذقه الصـبى فلان القـرآن كله كذا شـهد (*) •

ويعقد فى ذلك أيضا ، على ما عقـده موسى بن أحمـد فى تعليم القـرآن كلـه : استأجر فـلان بن فـلان ، فـلانا المؤدب ، بكذا وكذا دينـارا من صفة كذا قبضها فلان المعلم ليعلم ابن فلان هـذا المسمى كذا جميع القـرآن وقـد عرف فلان هـذا المستأجر هـذا الصبى ووقف على مقدار نباهته شهد وله فى الأجرة لأمر معلوم (*) استأجر فلان بن فـلان فلان بن فـلان بكذا وكذا دينـارا دراهم قبضها منه ، ليعلم له ابنه فـلانا سنة أولها شـهر كذا من سنة كذا ، القـرآن شهد (*) فان استأجره ليعلمه الكتب نحوت هـذا النحـو ولا تجـوز الأجـرة على تعلم الفقـه والفرائض والنحـو والشعر والعـروض وكره بيع ذلك وروى ابن حبيب أنه جـائز (*) وقال ابن حبيب فى تعليم الشعر أيضا : انه جائز فى أشعار العرب القديمة ، التى هى فيهـا مفاخرهم وذكر شعرهم والشـعر ديوان العـرب ما لم يعلمه ذكر الحسن والقبيح من الكلام ، اذ لايجوز تعلم ذلك (*) وقال محمد بن عبد اللـه لابأس أن يشـارط الرجل المعلم على تعليم ولده الشعر والنحـو والرسائل وأيام العرب وما أشبه ذلك من علم الرجال ذوى المروات ، سميا فى ذلك أجلا أو لم يسميا لذلك أجـلا ، وهو مما ليس منتهى منه الى حد معـروف ، فقال : هو عندنا بمنزلة ما أجاز مالك من الشرط ، على تعليم الخياطة والجبر ، وماأشبه ذلك من الصناعات فاذا بلغ من ذلك مبلغ أهل العلم من الناس وجب فى ذلك حقه ولا بأس بأخـذ الأجرة على تعليم المسلم الكتب والقرآن ولابأس بالاستئجار فى ذلك سنة وسنتين مشاهرة ولابأس بتقـديم الأجرة فى ذلك للمؤدب ولابأس بمشارطة المؤدب على تعليم القـرآن كلـه أو نصفه أو ما ذكراه نظرا وظاهرا ، سميا فى ذلك أجلا أو لم يسميا ،

نبل الصبى من بلادته (*) وقال محمد بن عبـد الله انمـا يجـوز توقيت الأجـل مع شرط تعليم القرآن كله اذا كان التوقيت غير ضيق فان كان ضيقا ، يرى ويخشى أنه لا يبلغ ذلك فيه ، لم يجز لعاقبـة الضرر والمخاطرة . وأما اذا وقتا وقتا يفـرغ فى مثله ما شرط على المؤدب ، فلا بأس بذلك ، فان تأخر عن الأجل أعطى مثله فيما علمـه تلك السنة ، لا على حساب الأجرة الأولى . كذلك قال اصبغ : ولا تحكم للمعلم بشىء فى الأعياد ، الا ان اشترط من ذلك شيئا معروفا فيكون له شرط . واختلف أهل العلم فى الحذقة فأبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم عن بعض أهل العلم ، لا يوجبها ، حتى يشترط ذلك ، وغيره يقـول : يحملان على سنة أهل البلاد ويأخذها فيما قد عرف الحـذقة فيه من أجزاء القـرآن ، على قدر غناء والد الصبى وحاله ، ويقضى عليه بذلك للمعلم . وقيل : لا حذقة له الا فى القـرآن كلـه ، فان اشـترطها المعلم فلابد من تسمية شىء معروف والا لاتجز ويجوز لوالد الصبى أن يشترط ألا حذقة عليه مع الأجرة . واذا مات الصـبى ، انفسخت الاجارة فيما بقى والاجارة تنتقض بمـوت المسـتأجر ، ولا تنتقض بموت المستأجر له ، كالاستئجار لرعاية الغنم وشبه ذلك ، الا فى أربعة أشياء ، الظير والمعلم والرافض للدواب وفحل النزو ، فانها تنتقض بموت المستأجر والمستأجر له وذلك لاختلاف الرضاع من الصـبيان المراضع ولاختلاف النبل والبلادة واختلاف صعوبة الدواب واذا غاب الامام أو المؤدب الى بعض حاجته أو الى باديته أيام الجمعة ونحوها ، فلا بأس بذلك فان طال مغيبه ، كان لأهـل المسجد توقيف الامام عن ذلك والمعلم منعه منه ولا يحط من أجـرته شىء . وكذلك ان مرض الأيام اليسيرة وان طـال مرضـه أو مغيبه انحط من أجرته ما تقع منها على أمـد مغيبه أو مرضـه وان غيب الصبى أبوه أو وليه وشغلاه فالمعلم يأخذ الأجرة تامة ، فان مرض الصبى مرضا طويلا ، انحط من الأجرة ، بقـدر مرض الصبى انتهى (١) .

---

(١) نقل النص من كتاب « التعليم بين الأسبان المسلمين » ، وروجع على مخطوطتى البوطى وابن العطـار (انظـر ابن العطار ، الورقـة ١٥ و ١٦) .

الملحق رقـــم (٤) :

عقـــد اجارة مؤدب (١)

استأجر فلان فلانا المعلم ليعلم ابنه فلانا الخط والهجاء والقرآن ا‌هرا أو نظـــرا عاما أوله كذا وكذا فقبضها فـــلان أو مقسطة على ‌ـهور العـــام وشرع المعلم فلان فى تعليم فلان وعليـــه فى ذلك بذل ‌نصيحة والاجتهاد ، بعد أن وقف على مقـــدار نباهته ، ثم تكمـــل ‌عقد . انتهى .

فقــــه

ويجوز الاجارة على تعليم القرآن دون ضرب أجـــل ويجوز أكثر من سنة ، ويجوز على بعض أجـــزاء القـــرآن ، ولا يجوز ضرب أجل ، الا فيما يعرف أنه يفرغ فيه مما شرط ولا تجب الحـــذقة الا بشرط و عرف جار على أجزاء معلومة . وقيل لا حذقة الا فى جميع القرآن . وهى غير مقدرة وانما هى على قدر غناء والد الصبى وفقـــره ، فان شرطها المؤدب فلابد من تقديرها والا لم تجـــز الاجارة وليس للأب اخراج ابنـــه اذا قرب من الحذقة فان أخرجه فان كان قد قرب منها جـــدا وجبت عليه الحـــذقة وان كان بخلاف ذلك فأدخله عند مؤدب آخر فلكل واحـــد منهما بقدر ما علم وتنفسخ الاجارة بموت الصبى وكذلك فى الظير . وللمؤدب والامام أن يغيب فى حوائجه وتفقد ضيعته، الجمعة ونحوها ولا يحط لذلك من الأجر شيئا ، وكذلك ان مرض أياما يســـيرة ، ويحط من الأجرة لمرض الصبى بقـــدره وقـــدر مال الأجرة على تعليم الفقه والنحو والفرائض ، كان فى ذلك صحيحا أو سقيما ، وكذلك عنده بيع كتبهـــا وأجاز ابن حبيب تعليم الشـــعر اذا لم يكن فيه هجاء ولا ذكر الخمر ، وأيام العرب والرسائل وغير ذلك انتهى .

---

(١) اخـــذ هـــذا النص من كتـــــاب أبى الحسن بن على بن يحيى ابن القاسم الجزيرى ، وهو المخطوط رقم ٢ ضمن مجموعة الدكتور «خيل» الورقة ٥٦ و .

كما نشر النص باللغة العربية ضمنكتاب المستشرق الاسبانى «خوليان ريبيرا » ، (التعليم بين الأسبان المسلمين) ، ص ٩ من الملاحق .

الملحق رقم (٥) :

وثيقــة شركة معلمين

أشـــهد فــلان بن فــلان وفــلان بن فــلان أنهما اشتركا فى تعليم القرآن والكتب ، على أن يقعدا لذلك فى مقعد واحد ولايفترقان، فمــا قسم الله عــز وجل لهما فى ذلك من رزق وساقه اليهما من فضل فهو بينهما بالسواء كما الكلفة عليهما فيما يتوليانه من التعليم سواء . شـــــهد . انتهى .

* * *

قال محمد بن عبد الله ويجوز للشريكين على التعليم أن يتراضيا على أن يجلس أحــدهما على الصبيان شهرا ويجلس الآخــر شهرا آخر اذا كانا انما تراضيا على ذلك بعد عقــد الشركة وان كانا عقــدا شركتهما على هذا ، فلا خير فيه . انتهى (١) .

ولا يشبهان الصانعين فى مثل هــذا ، الصانعان لا يجــوز ذلك بينهما على حال من قبل . ان الصانعين اذا كان أحدهما شهرا والآخر شهرا ربمــا كسب أحدهما فى شهر أكثر مما كســبه صاحبه وانمــا يعملان فى كسب مستقل ، والمعلمان ليسا كذلك ، انمــا يجلسان على الصبيان ، خراجهم واحد فى كل شهر ، قد عرفوا ذلك وعرفوا كم هو وما هو فانما يجلسان ليقاضى ما يعرفان بعد وهمــا بمنزلة الرجلين يكون لهمــا غنم متراضيان على أن يرعاها كل واحــد منهما شــهرا فلا بأس به . ذلك رواه ابن حبيب عن مطرف وابن المــاجشون (٢) .

---

(١) نقل النص من كتاب « تاريخ التعليم بين الأســـبان المســلمين للمستشرق الأسبانى خوليان ريبيرا » ، وتمت مراجعته على المخطـــوطة بمدرسة الدراسات العربية بمدريد ، ورورجــع النص على مخطـــوطة ابن العطـــار ، الورقتين ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) بالنسبة لمحمد بن عبد الله : انظر وثيقة استئجار مؤدب عربيـــة الملحقة بالفصل الخاص بالمرحلة التعليمية الثانية .

الملحق رقــم (٦) :

وثيقــة استئجار مؤدب عربيــة
مأخوذة من كتاب ((محمــد بن عبد الله)) (١)

استأجر فلان بن فلان ، فلان بن فلان المؤدب ، لتعليم ابنه فلان سنة أولها شهر كذا من سنة كذا النحو ويملى عليه الرسائل ومخاطبات البلغــاء وتوقيعات الأمراء ، ويرويه من الشعر الجاهلى والاســلامى الشعر الحسن ، السلم من وصف الخمر والنساء ، وقبيح الهجاء ، بكذا وكذا — دفع فلان شطر هذه العدة الى المؤدب فلان وقبضــها منــه وأبراه منهــا ، فاذا انقضت السنة المذكورة دفــع فلان بن فلان الى فلان بن فلان باقى أجرته بلا كرير ولا مطل ان شاء الله . شهد عليهما بذلك من عرفهما وذلك فى تاريخ كذا . انتهى (٢) .

ملحق رقــم (٧) :

كيف ينص على وقفيــة كتاب فى المسجد
لصالح الطلبــة والدارســين

وفى الكتاب نقــول : كتاب الجامع الصحيح للبخارى أو مسلم ، أو موطأ الكذا أو الكذا لتعار لطلبــة العلم للنسخ والمقابلة والدرس .

وفى المصحف مصحف جامع للقــرآن ، صــفته كذا وخطه كذا بحليته وعلامته . وان كانت ربعة ذكرتها وكذلك تذكر فى ... الخ(١) .

---

(١) من المحتمل انه ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله البــاجى (النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى) ، صاحب كتاب (فى الوثائق) ، واحد رواة المدونة . راجع فهرسة ابن خير ، ص ٢٥٢ ، والجذوة للحميدى ، ص ١٢٠ ، والديباج المذهب لابن فرحون — جـ ٢ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن العطار ، الوثائق والسجلات ، الورقة ١٦ ظ (مخطوطــة القيروان) ونقله البنطى ونشره فى كتــابه ، ونشر النص نقلا عن البنطى ، خوليــان ريبيرا فى كتابه عن التعليم بين المسلمين الأسبان .

(١) أنظر كتاب الجزيرى ، الورقة ٦٧ ظهر ، النص العربى — نشر بكتــاب تاريخ التعليم بين الأسبان المسلمين ، الملحق الأخير .

الملحق رقم (٨) :

وثيقة تبين وجود مدرسة بربض المسلمين بسرقسطة حتى عـام ٨٥١ هجرية / ١٤٤٧ ميلادية :

* * *

« كملت المسائل والحمد للـه على ذلك » والصلاة التـامة على سيدنا ونبينا ومولانا محمـد الكريم وكان الفـراغ منها فى مدرسـة ربض المسلمين بمدينـة سرقسطة فى يوم الاثنين وفى العشر الأوائـل من ربيع الآخر ماضية ١٩ يوما من شهر يونية عام ٨٥١ ، على يـدى كاتبها العبد الفقير لربه ، الراجى عفـوه وغفرانه ، التلميذ أبى عبدالله محمـد بن ابراهيم بن عبد اللـه شبطون الطيرولى ، غفر اللـه له ولوالديه ولجميع المسلمين . آمين يا رب العـالمين .

لا رب غـيره ولا معبود سـواه

* اخـذ النص من كتاب المستشرق الاسـبانى « خوليان ريبير : تعليم بين المسلمين الأسبان » وروجع على النص المخطوط المحتفظ به فى : مدرسة الدراسات العربية بمدريد .

الملحق رقم (٩) :

رسالة من طالب الى استاذه

رســالة من طالب الى أستاذه محررة فى بالجيط ــ بالقرب من سرقسطة ، والطالب هو محمد قلبارة من سرقسطة ، حررت فى عـام ٩٠٠ هجرية / ١٤٩٤ ميلادية •

الحمد لله وحـده •• سيدى وسندى وعزى واجـلالى ومحـل تعظيمى واشتياقى ، الذى محبتـه ممزوجـة بلحمى ودمى وشـوقة روايته مغروسة فى قلبى وشراسيفى ، ذلكم السيد الفقيـه المكرم ، والأستاذ المـاهر المعظم •• أبو عبد اللـه محمد الغازى أكرمه اللـه وتولاه وجعل الجنة منزله فىأخراه ، برحمته وجوده ، انه منعم كريم•• سلام كريم مقدس عميم يعتمد سيادتكم ورحمة الله وبركاته من معز حرمتكم وموجب خدمتكم أصـغر عبيدكم محمـد القرشى المعـروف بقلبارة ••• أما بعد ، فقبضت كتابكم الأخير وفهمت متضـمنه ، لكن مقصود رسالتكم الكريمة التى هى الرغبة الأكيدة أن بعثت لكمشروحات وثائق الجزيرى ، لكن رغبتكم الى معذورة ، لأننى لا أفعل عنكم شيئا ، ما أحتاج رغبة من جانبكم ، لأنى بالأمر منكم كنت ملتزم أن أفعله ، فضلا أن ترغبونى ، فوالله الذى لااله الا هو ما كانت الشروحات عندى منسوخة الا فى رقاع متفرقات ، وكانت فى بلدى تلك الرقاع ، وأكـون الآن ألوم نفسى ، لسفهى وغلظ طبعى بتركها فى الرقاع بغير نسخ • وكيفما كان أنى أجتهد فى نسخها ، اذا جاء محمد بن يوسف ، أطلب منه الشروح المذكورة ، لأنتسخ منها نسخة وأرسلها الى علية مجدكم ان شاء اللـه • وان كان معى أشغال أتركه لأجـل خدمتكم •• أما من شروحات الخطب فلم أقبضها بعد ، لكن كل يوم ، أرغب وأرسل رسالة لقرطبى أن يبعثها الى ، وكما كان رجل من قلة عهد وأمان ما يفعل شيئا برسالاتى ، كان حلف باللـه أنه اذا بلغ لتطيلة أنه يرسلها الى بلاشك، ومضى شهران ولم يرسلها •• أما من جواد فضلكم الى السـؤال عن حالتى وعن كيفية تعليمى فى مقصودى ، فأخبركم كيف أكون صحيحا

فى الحال ، والحمد لله وفرغت الآن من قراءة شرح أرجوزة ابن‌سيناء ، وبدأت قراءة الكتاب الأول من القانون مستعينا بالله ، وكنت أجتهـد وأتعب ليلا ونهارا لأنال مقصودى لأن الكتاب المذكـور كان يتكلم فى كليات الطب وكليات الطب كانت معرفة حـد الطب والمزاج والأركان والطبائع ومعرفة الضروريات من المـأكل والشرب والنوم واليقظـة والحـركة والسكون ومعرفة المرض والعرض والسبب وغير ذلك من أشياء كثيرة لا تنحصى ، وكل ذلك كان من أدق هـذا العلم ، لأنه كان يتكلم منطقيا وفلسفيا وكل ما كان كذلك لا ينـال الا بجهـد وتعب فكان واجبا على أن أتعب ليلا ونهارا لأنال مقصودى ، وأرغب الى الله أن يعيننى على نيل مقصـودى أو على ما يكون أعبـد وأحمـد .. أما قولكم ، ان وسع الزمان أن أجتهـد فى زيارتكم ، لأنكم مشتاقون لروايتى فانى والله أشـد شوقا لروايتكم وخدمتكم فان وسع اللـه فى الزمان أنا زائركم ان شاء الله .. أرغبكم أن تبلغوا السـلام عنى على الطـاهرة الزكية حليلتكم وعلى أولادكم وعلى جميـع تلاميذكم وسائر من تحوطه رعايتكم ، والسلام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته .

المقبل أيديكم وأرجلكم أصغر تلاميذكم محمد قلبارة من سرقسطة .

كتب يوم الاثنين الثانى عشر لينايير عام ٩٠٠ فى بالجيط .

يدفع بيـدى سـيدى وسـندى وعزى واجـلالى ومحل تعظيمى واشتياقى الذى محبته ممزوجة بلحمى ودمى وشـوقة روايته مغروسـة فى قلبى وشراسيفى ، ذلـكم الأسـتاذ المكرم والعـالم المعظم ، ابو عبد الله محمـد الغـازى اكـرمه الله .

مصـــادر الكتـــاب ومراجعـــه

(أ) المخطوطات والرسائل غير المنشورة :

— انـــاراموس : برنامج التجيبى — رسالة دكتوراه — جامعة الأوتونوما بمدريد — ١٩٧٦ م .

— براوليــو خوستيل : هـــداية الرجـــراجى — دكتـــوراه — جامعـــة مدريد المركزية — ١٩٧٤ م .

— البنطى (أبو محمد بن عبد الوليد ، المتوفى ٤٦٢هـ) : الوثائق والمسائل المجموعة ، مخطوطة مدرسة الدراسات العربيـــة بمـــدريـــد .

— الجـــزيرى (أبو الحسن على بن يحيى بن القاسم ، المتوفى ٥٨٥هـ) : الوثائق — مخطوط مكتبـــة القرويين بتونس .

— الـــداوودى : الأموال — المخطوط رقم ١١٦٥ بالأوسكوريال — مدريد .

— عبد الله جمال الدين : نصوص المتين لابن حيان فى ذخيرة ابن بسام — دكتـــوراه — جامعة مدريد المركزية — ١٩٧٨م .

— مجهـــول المؤلف : اجازات مشرقية لطلبة من المغـــرب والأندلس — المخطـــوط رقم ١٩١٩ مكرر — الأوسكوريال — مدريـــد .

— مجهـــول المؤلف : جغرافية الأندلس — المخطوطة رقم ٣٦ — المعهـــد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد .

— مجهـــول المؤلف : من وصايا على بن أبى طالب — المخطـــوط رقـــم ١٨٧٤ الأسكوريال .

— محمد أحمـــد أبو الفضل : تاريخ مدينة المرية الاسلامية — ماجستير — الاســـــــكندرية — ١٩٧٧ (وقد طبعت هـــذه الرسالة مؤخرا فى الاسكندرية) .

— محمد احمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة — دكتوراه — الاسكندرية — ١٩٧٩م .

— محمد عبد الحميـــد عيسى : تاريخ التعليم فى الأندلس من الفتـــح حتى الخـــلافة — رســـــالة انهــــاء الليسانس — الأوتونوما بمدريد — ١٩٧٧ م .

— يوسف الحشـــاش : المحمدون فى الاحاطة — دكتـــــوراه — مدريد — ١٩٧٩ م .

(ب) المصـــادر :

— ابن الأبار (ابو عبد الله القضاعى البلنسى المتوفى ٦٥٨هـ / ١٢٤٩م) :
— التكملة لكتاب الصـــلة — تحقيق كوديرا — مدريد — ١٨٨٦ م .
— المعجم فى أصـحاب القـاضى الامام ابى على الصدفى — طبعة مدريد — ١٨٨٥ م .
— المقتضب من كتاب تحفـــة القادم — اختيار وتقييد ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البلفيقى — تحقيق : ابراهيم الابيـارى — القـــاهرة — ١٩٥٧ م .

— ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله المتوفى ٧٢٦هـ/١٣٢٥م) : الأنيس المطرب روض القرطاس — تحقيق : محمد الهاشمى الفلالى — الرباط — ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م .

— ابن الأثير (المتـوفى ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٣٠٣ هـ . ٧٦١

— ابن الأحمـــر (أبو الوليد اسـماعيل ، المتوفى ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) : مستودع العلامة ومستبدع العلامة ، تحقيق محمد التركى التونسى ، تطوان ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
— نثير الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان — تحقيق : محمد رضـوان الداية ، ط ١ بيروت ١٣٩٦/١٩٧٦ .

— ابن بسام (أبو الحسن على المتـوفى ٥٤٢هـ/١١٤٧م) : الذخـيرة فى محاسن اهل الجـزيرة — الأقسام المطبـــوعة بالقاهرة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م .
— القسم الثـانى من الذخـيرة ، تحقيق لطفى عبد البديع — القاهرة ١٩٧٥ .
— الذخيرة . تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ٨ أجزاء .

— ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك المتوفى ٥٧٨هـ/١١٨٢م) : كتـــاب الصلة — العددان الرابع والخامس من المكتبـــة الأندلسية — القاهرة ١٩٦٦ .

— ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم المتوفى ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة ، القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

— ابن الجزار (أحمد بن ابراهيم ، المتوفى ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، تونس ١٩٦٨ م .

— ابن جلجل (سليمان بن حسان ، المتوفى ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م) : طبقات الأطباء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥م .

— ابن جماعة (بدر الدين بن أبى اسحاق ، المتوفى ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): تذكرة السامع والمتكلم فى ادب العالم والمتعلم — حيدر آباد — الدكن — ١٩٥٣ م .

— ابن حجر العسقلانى (المتوفى ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م) : الاصابة فى تمييز الصحابة ، ٤ أجزاء — القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م .

— الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة — تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م .

— تهذيب التهذيب — مطبعة حيدر آباد — الدكن — ١٣٢٩ هـ .

— ابن حزم (على بن أحمد المتوفى ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) : احصاء العلوم — نشر النص فى بيروت ، واستخدم فى هذه الرسالة ما نشر بكتاب تاريخ الفكر التربوى عند العرب — تونس ١٩٧٣ .

— نقط العروس فى تواريخ الخلفاء ، تحقيق شوقى ضيف — مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ١٩٥١ (العدد ١٣) .

— طوق الحمامة ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ١٩٧٥ .

— جمهرة انساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢ .

— الأخلاق والسير ، نشره وترجمه آسين بلاثيوس ، مدريد ١٩١٦ .

— ابن حوقل (ابو القاسم محمد بن على ، المتوفى ٣٢٢هـ / ٩٣٤م) : صورة الأرض — بيروت ١٩٦٣ م .

— ابن حيـــان (أبو مروان حيان بن خلف ، المتوفى ٤٢٢هـ / ١٠٣١م) :
اكتشاف السفر الخامس من المقتبس ، بقـــلم محمـــد عبد الله عنـــان — مجلة المعهـــد المصرى للدراسات الاسلامية ، العدد ١٣ .

— المقتبس (السفر الثانى) ، تحقيق محمود على مكى — بيروت ١٩٧٣ .

— المقتبس (الثالث) ، تحقيق ميلتشور انطونيا ، باريس ١٩٣٧ .

— المقتبس (الخامس) ، تحقيق بدرو شالميتـــا وآخرون — مدريد ١٩٧٨ .

— ابن حيـــــــــان : المقتبس (السادس) ، تحقيـــق عبد الرحمن على الحجى — بيروت ١٩٦٥ م .

— نصوص من كتاب المتـــــين ، تحقيق عبد الله جمـــال الدين — أنظر الرسائل غير المنشورة .

— ابـــــن خـــاقـــــان : الفتح (٥٣٥هـ / ١١٤٠م) ، مطمح الأنفس .

— ابن الخطيب (أبو عبد الله السلمانى ، المتـــوفى ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) :
الاحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنـــان — القاهرة ١٩٧٤ — ١٩٧٧م .

— الكتيبة الكامنة فى شـعراء المـــائة الثامنـــة ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ .

— أوصاف الناس فى التواريخ والصلات ، تحقيق محمد كمال شبانة ، المغـــرب ، دون تاريخ ، المقـــدمة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

— عمل من طب لمن حب ، نشر بشلمنقة باسبانيا ١٩٧٢ .

— ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمـــــد بن محمد ، المتـــــوفى ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) : وفيات الأعيان ، تحقيـــــق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م .

— ابن خلدون (عبد الرحمن ، المتوفى ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) : المقـــــدمة ، تحقيق على عبد الواحد وافى — القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م ، ٤ أجزاء .

— تاريخ ابن خلدون ، القاهرة ١٢٨٤ .

— ابن خـــير (ابو بكر محمد ، المتوفى ٥٧٥هـ / ١١٧٩م) : فهرسته ، تحقيق كوديرا ، سرقسطة ١٨٩٣م .

— ابن دراج (القسطلى ، المتوفى ٤٢١هـ / ١٠٣٠م) : ديوان ، تحقيق محمود مكى ، دمشق ١٩٦١ م .

— ابن الزبير (أحمد بن ابراهيم ، المتوفى ٧٥٨هـ / ١٣٠٨م) : صلة الصلة ، تحقيق ليفى بروفينسال ، الجزائر ١٩٣٧ .

— ابن سحنون (محمد ، المتوفى ٢٥٦هـ / ٨٦٩م) : آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٣٤٨، وطبعة العروسى ، تونس ١٩٧٢م .

— ابن سعيد (على ، المتوفى ٩٧٣هـ / ١٢٧٤م) : رايات المبرزين ، تحقيق نعمان القاضى ، القاهرة ١٩٧٣ م .

— المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق شوقى ضيف، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٨م .

— ابن صاحب الصلاة (عبد الملك ، المتوفى بعد عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م) : المن بالأمانة ، تحقيق عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ .

— ابن عبد البر (ابو عمر يوسف ، المتوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) : جامع بيان العلم وفضله ، القاهرة .

— التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ما زال ينشر بالمغرب اعتبارا من عام ١٩٦٧م .

— ابن عبد ربه (ابو عمر بن محمد الأندلسى ، المتوفى ٣٢٨هـ/٩٣٩م) : العقد الفريد — تحقيق أحمد أمين والزينى — القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

— ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ، تحقيق ليفى بروفينسال — نشر بالمجلة لآسيوية عام ١٩٣٤ .

— ابن عذارى : (ابو عبد الله المراكشى ، المتوفى ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) : البيان المغرب — نشرت أجزاء منه متفرقة واستعملت كلها .

— ابن العربى (ابو بكر ، المتوفى ٤٥٣هـ / ١١٤٨م) : أحكام القرآن ، ٤ أجزاء — القاهرة ١٣٧٦هـ /١٩٥٧م .

— العاصم من القواصم ، تحقيق محب الخطيب — القاهرة ١٣٧١ هـ .

— ابن عربى (محيى الدين المرسى ، المتوفى ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) : الفتوحات المكية — القاهرة ١٣١٠ هـ .

— اجازة ابن عربى للملك المظفر غازى ، تحقيق عبد الرحمن بدوى ، الأندلس ، العدد ٢٠ (١٩٥٥) الصفحات ١٠٧ — ١٢٨ .

— ابن عياض (محمد ، المتوفى ٥٧٥هـ / ١٩٧٩م) : التعريف بالقاضى عياض ، تحقيق محمد بن شريفة ، المغرب ، دون تاريخ .

— ابن غالب (محمد بن أيوب) : قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، نشر لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية — القاهرة ١٩٥٦ .

— ابن فرحون (ابراهيم بن على ، المتوفى ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) : الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق عباس بن عبد السلام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥١ ، والطبعة الحديثة بالقاهرة أيضا.

— ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد ، المتوفى ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) : تاريخ علماء الأندلس — طبعة مجريط ١٨٩٠ ، وطبعة القاهرة ، العدد الثانى من المكتبة الأندلسية ١٩٦٦ .

— ابن القاضى (أحمد بن محمد ، المتوفى ١٠٢٥هـ / ١٦١٣م) : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ، تحقيق علوش ، المغرب ١٩٣٤ .

— ابن القطان (حسن بن على بن محمد ، المتوفى ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) : نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى ، تطوان

— ابن قنفذ (أحمد ، المتوفى ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) : شرف الطالب فى أسنى المطالب ، تحقيق محمد حجى ، نشر ضمن كتاب « ألف سنة من الوفيات » الرباط ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) .

— ابن القوطية (محمـــد ، المتوفى ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) : تاريخ عبد الرحمن الناصر وافتتاح الأندلس ، تحقيق : عبد الله انيس الطبـــاع ، بيروت ١٩٥٨ — وتحقيق لافوينت دى الكنترا ، مجريط ١٨٦٨م .

— ابن الكردبوس (٥٧٣هـ / ١١٧٧م) : تاريـــخ الأندلس ووصـــفه لابن الشباط ، تحقيق مختار العبادى ، مدريـــد ١٩٦١ م .

— ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد ، المتوفى ٣٧٥هـ / ٨٨٨م) : سنن ابن ماجة ، القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .

— ابن ماكـــولا (المتوفى ٤٧٥هـ / ١٠٩٥م) : الاكمال فى رفع الارتيـــاب عن المؤتلف والمختلف من الأســـماء والكنـــاة والأنساب . ٧ أجزاء ، حيدر آباد ٦٢ — ١٩٦٥ .

— ابن مرزوق (التلمسانى ، المتوفى ٧٨٢ /١٣٨٠) : انظر ماريا خيسوس فيغيرا ، (المراجع الأجنبية) .

— الآجـــرى (أبو بكر بن الحسين ٣٦٠هـ / ٩٧٠م) : أخـــلاق العلماء — القـــاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م .

— الأدريسى (الشريف ، المتوفى ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) : نزهة المشـــتاق — ليـــدن ١٩٤٨ م .

— البغـــدادى (الخطيب ، المتوفى ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) : الكفاية فى علم الرواية ، المكتبة العلمية .

— البغـــدادى (اســـماعيل) : هدية العـــارفين ، بيروت ١٩٥٥م .
— ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنـــون اسطمبول ١٩٤٥ .

— البكـــرى (أبو عبيد الله ، المتـــوفى ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) : جغرافيـــة الأندلس واوروبا ، تحقيق عبد الرحمن الحجى — الطبعة الأولى — بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م .

— البـــلوى (أبو الحجاج يوسف) : الف باء ، جزءان — القـــاهرة ١٢٨٧ هـ .

— البيـــذق (أبو بكر الصنهاجى ، المتوفى ٥٥٥هـ / ١٩٦٠م) : كتـــاب اخبـــار المهـــدى بن تومرت ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

— التنبكتى (احمد بابا ، المتوفى ١٠٣٦هـ / ١٦٣٦م) : نيل الانتهاج بتطريز الديباج — طبع على هامش الديباج — الطبعة الأولى — القاهرة ١٣٥١هـ .

— الثعالبى (أبو منصور عبد الملك ، المتوفى ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) : يتيمة الدهر ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .

— حاجى خليفة (١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — صورة بيروت عن طبعة لندن ١٨٥٨م

— الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح ، المتوفى ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، تحقيق محمد ابن تاويت ، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٣م .

— الحميرى (ابن عبد المنعم ، المتوفى ٧١٠هـ / ١٣١٠م) : الروض المعطار ، القاهرة ١٩٤٨ .

— الخشنى (محمد بن حارث ، المتوفى ٣٦١هـ / ٩٧١م) : قضاة قرطبة ، طبعة خوليان ريبيرا بمدريد وطبعة القاهرة ١٩٦٦م .

— الخزرجى (صفى الدين احمد بن عبد الله — القرن العاشر / السادس عشر) : خلاصة تهذيب تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، تحقيق : محمد غانم غيث ، القاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

— الخوارزمى (أبو عبد الله ، المتوفى ٣٦٦هـ / ٩٧٧م) : مفاتيح العلوم — القاهرة ١٣٤٢هـ .

— الذهبى (شمس الدين محمد بن احمد ، المتوفى ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٩ م .

— الرعينى (أبو الحسن على بن محمد ، المتوفى ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م) : برنامج شيوخ الرعينى ، تحقيق ابراهيم شبوح دمشق ١٩٦٢ م .

— الزبيدى (أبو بكر محمد بن حسن ، المتوفى ٣٧٩ / ٩٨٩م) : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — القاهرة ١٩٥٤ م .

— كتاب الواضح ، تحقيق عبد الكريم خليفة — عمان ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م .

— الزرنوجي (برهان الاسلام ، المتوفى ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م) : تعليم المتعلم طريق التعلم ، تحقيق عبد العزيز شاهين صقر — القاهرة ١٩٣٧ م .

— الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ، ٣ اجزاء — القاهرة ١٩٤٥ — ١٩٤٨ م

— السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، المتوفى ٩٠٢هـ / الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ٥ أجزاء — لبنان ، منشورات دار مكتبة الحياة .

— السقطي : كتاب في آداب الحسبة ، تحقيق كولين وليفي بروفينسال .

— السلفي (أبو الطاهر ، المتوفى ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) : اخبار وتراجم اندلسية مستخرجة من معجم السفر — أعدها وحققها الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣ .

— السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ، المتوفى ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : الاتقان في علوم القرآن ، جزءان ، الطبعة الثانية — القاهرة ١٣٤٣هـ /١٩٢٥م .

— حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم — القاهرة ١٩٦٧ م .

— بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ ، والطبعة القديمة بالقاهرة ١٣٦٢هـ .

— الشفشاوي (محمد بن عسكر الحسني ، المتوفى ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م) : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ، الرباط ١٩٧٦م .

— صاعد الطبقي (أبو القاسم احمد بن عبد الرحمن ، المتوفى ٤٦٢ / ١٠٦٩) : طبقات الأمم ، نشر محمود صبح ، القاهرة .

— الضبى (أحمد بن عميرة ، المتوفى ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس — طبعة مدريد ١٨٨٤ م .

— طاشكبرى (عصام الدين احمد العريف ، المتوفى ٩٦٨هـ / ١٥٦٠م) : مفتاح السعادة ومصباح السيادة .

— عبد الله (الأمير ، آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة) : مذكرات الأمير عبد الله ، تحقيق ليفى بروينسال — القاهرة ١٩٥٥ م .

— العذرى (أحمد بن أنس ، المتوفى ٤٧٨هـ / ١٠٨٦ م) : نصوص عن الأندلس ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى مدريد ١٩٦٥ .

— العقبانى (محمد بن احمد بن قاسم ، المتوفى ٨٧١هـ / ١٤٩٧م) : تحفة الناظر وغنية الذاكر ، تحقيق على الشنونى مجلة الدراسات الشرقية — العدد ١٩ (٦٥ — ١٩٦٦ م) .

— العلموى (عبد الباسط بن موسى ، المتوفى ٩٨١هـ / ١٥٧٣م) : المعيد المعيد فى أدب المفيد والمستفيد ، تحقيق أحمد عبيد ، ١٣٤٩هـ .

— الغبرينى (أبو العباس ، المتوفى ٧١٤هـ / ١٣١٤م) : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، تحقيق عادل نويهض ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٩ .

— الغزالى (حجة الاسلام ، المتوفى ٥٠٥هـ / ١١١١م) : احياء علوم الدين — القاهرة ١٩٣٣ م .

— أيها الولد ، تحقيق وترجمة أسطفان لاتور بيروت ١٩٥١ م .

— الأدب فى الدين ، تحقيق محيى الدين صبرى ، كردستان .

— الفارابى (أبو نصر ، المتوفى ٣٣٩هـ / ٩٥٠م) : احصاء العلوم - تحقيق انخيل غنصليس ، مجريط ١٩٥٣ .

ـ القــابسى (على بن محمد بن خلف ، المتــــوفى ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) :
الرسالة المفصلة فى أحــوال المعلمين والمتعلمين ،
تحقيق احمد فؤاد الأهوانى ، القاهرة ١٩٥٥ م .

ـ القــــــــرآن : القــرآن ، طبعــة المجلس الأعلى للشـــئون
الاسلامية ـ القاهرة ١٣٨٨هـ .

ـ القفطى (جمــال الدين ، المتــوفى ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) : اخبار العلماء
بأخبار الحكماء ـ القاهرة ١٣٢٦هـ .

ـ الكتبى (٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) : الوافى بالوفيات ـ القاهرة ١٣٢٩هـ .

ـ مجهــــــــــول : تاريخ عبد الرحمن الناصر ، تحقيق ليفى بروفينسال
واميليو غارثيا غوميث ـ مدريد ١٩٥٠ .

ـ مجهــــــــــول : الحلل الموشــية ، تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر
زمامة ، الدار البيضاء ١٩٧٩ .

ـ مجهــــــــــول : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكــر أمرائها ،
تحقيق لافوينت دى الكنترا ـ مدريد ١٩٦٧ .

ـ المراكشى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك ، المتوفى ٧٠٣هـ /
١٣٠٣) : الذيل والتكملة (كافة الأجزاء المنشورة)
تحقيق احسان عباس ومحمد بن شريفة ـ بيروت
١٩٦٥ .

ـ المراكشى (عبد الواحد ، المتوفى ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) : المعجب فى تلخيص
اخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، الطبعــة
السابعة ، ١٩٧٨ م .

ـ المغراوى (أحمــد بن جمعة ، المتـــوفى ٩٢٠هـ / ١٥١٤م) : جامع
جوامع الاختصار والتبيان فيما يعــرض للمعلمين
وآباء الصبيان ، تحقيق : احمد جلولى البدوى ؛
ورابح بونار ـ الجزائر ١٩٧٥ .

ـ مســلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج ، المتوفى ٢٦١هـ / ٨٧٤م) :
صحيح مسلم ـ القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

ـ المقـــــرى (شهاب الدين أحمد بن محمد ، المتوفى ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) :
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، تحقيق :
مصطفى السقا ، ابراهيم الابيـــارى ، وشلبى
اعيــد ، نشره فى المغرب ، كما صدر الجـــزء
الرابع ـ الرباط ـ وزارة الأوقاف ١٩٧٨م .

— نفـــح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٠ اجزاء — القاهرة ١٩٤٩ ، وتحقيق احســـان عباس — ٨ أجزاء — بيروت ، ١٩٧٥ .

— النبـــاهى (أبو الحسن بن عبد الله كان حيـــا فى ١٣٩٠/٧٩٣) : تاريخ قضاة الأندلس — بيروت ، دون تاريخ .

— النعيمى (عبد القادر محمد ، المتوفى ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) : الدارس فى تاريخ المدارس — دمشق ١٩٤٨ .

— الونشرينى (أحمـــد بن يحيى ، المتوفى ٩١٤هـ / ١٥٠٨م) : المعيـــار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقيـــا والأندلس والمغـــرب — طبعـــة فاس الحجرية ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م .

— ياقوت (ابو عبد الله الحمـــوى ، المتـــوفى ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) : معجم الأدباء ، تحقيق : فريد الرفاعى — القاهرة ١٩٣٧م .

— معجم البلدان (٥ أجزاء) — بيروت ١٩٧٧م .

— اليحصبى (القاضى عياض بن موسى ، المتـــوفى ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) : الالمـــاع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع تحقيق : السيد أحمد صقر — القـــاهرة ١٣٨٩ / ١٩٧٠ .

— ترتيب المدارك ، ٥ اجـــزاء — نشر وزارة الأوقاف بالمغرب ، الرباط ١٩٦٥ م

— يحيى بن عمـــر (٢٨٩هـ / ٩٠٢م) : احكام السوق ، تحقيق : محمود على مكى ، مجلة المعهـــد المصرى للدراســـات الاسلامية بمدريد عام ١٩٥٦ .

٢ — الدراسات والأبحاث الحديثـــة :

— ابالثـــا (ميكيل) : التعليم العالى فى القـــرون الوسطى الاسلامية الاسلامية ومقارنته بالتعليم الحاضر ، ملتقى الامام المـــازرى بتونس .

— ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربيـــة بتونس ، ج ١ — تونس ١٩٧٣ م .

— ابراهيم النجـار : مختارات من الفكر التربوى ، تونس ١٩٧٣ م .

— ابو طاهر اليطفتى : المدارس فى الاسلام ، مجلة لسان الدين (السنة الثانية ، ج ٥ ، تطـوان ، نوفمبر ١٩٤٧) .

— احمـد امـين : ضحى الاسلام — القاهرة ١٩٣٢ م .

— احمـد شـلبى : تاريخ التربيـة الاسلامية ، ط ٣ — القـاهرة ، ١٩٦٦ م

— أحمد شوكت الشطبى : حول علم النبات عند العـرب — نشر ضمن أعمال الندوة العالمية الأولى لتاريخ العـلوم عند العرب — سوريا ١٩٧٧ م .

— أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر على عهد محمد على — القاهرة ١٩٣٨ م .

— احمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام — القاهرة ١٩٥٥ م .

— احمد مختار العبادى : الصقالبة فى اسبانيا — مدريد ١٩٥٣ م .

— احمـد هيـكل : الأدب الأندلسى ، ط ٦ — القاهرة ١٩٦١ .

— انـور الجنـدى : الاسلام والثقافة العربية ، مجلة دعوة الحـق (العدد ١٠٢٩) — الرباط .

— البيساوى (على بن محمـد) : مختصر البيسوى ، تحقيق عبد القـادر عطية ، ومحمد زرقـة — الرياض — دون تاريخ .

— جمـال محـرز : المكتبات وهـواة الكتب فى اسبانيا الاسـلامية ، (مجلة معهـد المخطـوطات بالقاهرة — العـدد الرابع ، ج ١ ، ١٩٥٨) .

— جـودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ، ط ١ — القاهرة ١٩٧٥ م .

— جودة عبد الرحمن : وصية القاضى ابو الوليد السباجى . (مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد ٣ ، ١٩٥٥) .

— حسن حسنى عبد الوهاب : بيـوت الله : مساجد ومعـاهد (العـدد ٧٥ من سلسلة كتاب الشعب ، القاهرة ١٩٦٠) .

— حسن عبد العال : التربية الاسلامية فى القـرن الرابع الهجـرى — القاهرة ١٩٧٨ م .

— حسن محمـود : قيـام دولة المرابطين — القاهرة ١٩٥٧ م .

— حسـين امين : المدرسة المستنصرية — بغداد ١٩٦٠ م .

— حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس — مدريد ١٩٦٧ م .

— رواية جديدة عن فتح الأندلس — مجلة المعهد المصرى بمدريد — العدد ١٨ — سنة ١٩٧٤ — ١٩٧٥ م .

— شيوخ العصر فى الأندلس — المكتبة الثقافية — العدد ١٤٦ (١٩٦٥) .

— فجر الأندلس — القاهرة ١٩٥٩ م .

— وصف جديد لقرطبة — المجلة المشار اليها ، العدد ١٣ (٦٥ — ١٩٦٦ م) .

— حكمت الأوسى : الأدب الأندلسى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، ط ٢ — بغداد سنة ١٩٧٤ م .

— فصول فى الأدب الأندلسى ، ط ٢ — بغداد ١٩٧٤ م .

— خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول — القاهرة ، ١٩٤٧ م .

— زيغرير (هوتكة) : شمس العرب تسطع على أسبانيا — ترجمه عن الألمانية : فاروق بيضون وكمال دسوقى — بيروت ١٩٦٤ م .

— سعد غراب : المذهب المالكى عنصر ائتلاف فى المغرب الاسلامى ، (فصلة من كراسة الدراسات الاجتماعية بتونس، العدد الرابع) .

— سعيد اعراب : دور المغاربة فى تربية الطفل (مجلة دعوة الحق، العدد الخامس ، السنة العشرون ، مايو١٩٧٩م).

— السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصرى — المغرب ١٩٥٤ .

— سليم طه : التعريب وكبار المعربين فى الاسلام ، (مجلة سوبر — ج ١ و ج ٢ — المجلد ٣٢ — ١٩٧٦) .

— السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية — بيروت ١٩٦٩ م .

— مساجد ومعاهد (العددان ٧٥ و ٧٨ من دائرة معارف الشعب — القاهرة ١٩٥٨) .

— قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية ، جزءان — بيروت ١٩٧١ م .

— تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس — بيروت ١٩٦٣ .

— العمارة الدينية بالأندلس (كتاب الشعب رقم (٢) — القاهرة ١٩٥٩) .

— شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية — القاهرة ١٩٣٦ م .

— صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه — دمشق ١٩٥٩ م .

— صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى — بيروت ١٩٦٥ م .

— صلاح الدين المنجد : اجازات السماع فى المخطوطات (مجلة معهد المخطوطات العربية — القاهرة — ج ١ ١٩٥٥) .

— الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ط ٢ — القاهرة ١٩٧٧ م .

— عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب على عهد عبد المؤمن ابن على — القاهرة ١٩٧١ م .

— عبد الله فياض : الاجازات العلمية عند المسلمين — بغداد ١٩٦٧م .

— عبد الحليم محمود : المسجد واثره فى المجتمع الاسلامى — القاهرة ١٩٧٦ م .

— عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس — القاهرة ١٩٥٨ م .

— عبد الرازق الصفار : الامام الأوزاعى : منهجه كما يبدو فى فقهه — بغداد ١٩٧٦ م .

— عبد الرحمن آل الشيخ : فتح المجيد وشرح كتاب التوحيد — الرياض .

— عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى — بيروت ١٩٧٦ م .

— الكتب والمكتبات فى الأندلس (مجلة كلية الدراسات الاسلامية ببغداد ، ١٩٧٢ م) .

— عبدالرحمن الفاسى : منتخبات من نوادر المخطوطات بالخزانة الملكية بالرباط — الرباط ١٩٧٨ م .

— عبد الشافى غنيم : الحضارة العربية (مجموعة محاضرات ، كلية التربية — جامعة عين شمس ١٩٧٠ م .

— تاريخ المغرب والأندلس (مجموعة محاضرات كلية التربية — عين شمس ١٩٧٠ م .

— عبد العزيز الأهوانى : صلة الصلة لابن الزبير ، والتكملة لابن عبد الملك (مجلة المعهد المصرى بمدريد ، العدد ٣ ، ١٩٥٥ م) .

— عبد العزيز بن رشد : نظام الحسبة فى الاسلام — الرياض ١٣٩٣ هـ .

— عبد الغنى عبود : فى التربية الاسلامية ، ط ١ — القاهرة ، ١٩٧٧م .

— عبدالهادى التازى : جامع القرويين ، ط ١ — بيروت ١٩٧٤ م .

— على راضى : الأندلس والناصر — الجزائر ١٩٦٧ م .

— عليش (ابو عبد الله محمد بن حمد) : فتح العلى مالك فى الفتوى على مذهب مالك ، ط ٢ — القاهرة ، ١٩٣٧م .

— عمار الطالبى : آراء ابى بكر من العربى الكلامية — الجزائر — دون تاريخ ، المقدمة ١٩٧٤ م .

— غونثاليث (انخيل) : تاريخ الفكر الأندلسى — ترجمة حسين مؤنس — القاهرة ١٩٥٥ م .

— فارمر (هنرى جورج) : تاريخ الموسيقى العربية — ترجمة حسين نصار — القاهرة ، دون تاريخ .

— فتحية حسن سليمان : المذهب التربوى عند الغزالى — القاهرة ١٩٦٤ م .

— كريم عجيل حسن : الحياة العلمية فى بلنسية الاسلامية — بغداد ١٩٧٦ م .

— كونل (ارنست) : الفن الاسلامى — ترجمة احمد موسى — القاهرة ١٩٦٩ م .

— ماجد فخرى : ابن رشد فيلسوف قرطبة — بيروت ١٩٦٠ م .

— محمد ابن عبود : التاريخ السياسى والاجتماعى لاشبيلية على عهد بنى عباد (رسالة دكتوراه بلندن ، عرض مجلة العلم ١٩٧٨/١١/٣) .

— محمداحمدابوزهرة : المذاهب الاسلامية (سلسلة الالف كتاب ١٧٧ ، القاهرة) .

— ابن حزم : حياته وعصره ، ط ٣ — القاهرة ١٩٥٤ م .

— محمد أسعد طلس : التربية والتعليم فى الاسلام ، ط ١ — بيروت ١٩٥٧ م .

— محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا ، ط ٢ — القاهرة ١٩٦١ م .

— الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية — المعهد المصرى بمدريد ، ١٩٧٦ م .

— دولة الاسلام فى الأندلس ، العصر الأول — القسم الثانى ، ط ٣ — القاهرة ١٩٦٠ م .

— دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ط ١ — القاهرة ١٩٦٠ م .

— عصر المرابطين والموحدين ، القسم الثانى — القاهرة ١٩٦٤ م .

— محمد عبد الرحيم غنيمة : تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى — تطوان ١٩٥٣ م .

— محمد عبد العزيز الحسينى : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية ، بيروت ١٩٧٣ م .

— محمد عبد اللطيف مطلب : تاريخ علوم الطبيعة — بغداد ١٩٧٨ م .

— محمد عبد المنعم خفاجة : قصة الأدب فى الأندلس — بيروت ١٩٦٢ م .

— محمد غلاب : المعرفة عند العرب — القاهرة ١٩٦٦ م .

— الفلسفة الاسلامية فى المغرب — القاهرة ١٩٤٨ م .

— محمدفوزى العنتيل : التربية عند العرب (المكتبة الثقافية رقم ١٥٧ ، القاهرة ١٩٦٦ م) .

— محمد كمال شبانة : يوسف الأول سلطان غرناطة — القاهرة ١٩٦٩م.

— محمد لطفى جمعة : تاريخ فلاسفة الاسلام فى المشرق والمغرب — القاهرة ١٩٢٧ م .

— محمد المنتصر الريسونى : الأدب النسوى فى الأندلس (مجلة دعوة الحق — الرباط — ديسمبر ١٩٦٥) .

— محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين — تطوان ، ١٩٥٠ م .

— محمد يوسف موسى : بين الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصور الوسطى ، ط ٢ — القاهرة ١٩٦٨ م .

— محمود على مكى : مقدمة لكتاب أحكام السوق (مجلة المعهد المصرى بمدريد — العدد ٤ ، ١٩٥٦ م) .

— التشيع فى الأندلس (نفس المجلة ، العدد ٢ ، ١٩٥٤ م) .

— منصور فهمى : قاعات البحث (مجلة مجمع اللغة بالقاهرة ، ج ١، ١٩٣٥) .

— مؤتمرات : الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب — سوريا ١٩٧٧ م .

— ناجى معروف : نشأة المدارس المستقلة فى الاسلام — بغداد ١٩٦٦ م .

— مدارس مكة — بغداد ١٩٦٦ م .

— مدارس واسط — بغداد ١٩٦٦ م

— المدارس الشرابية بمكة وبغداد ، دون تاريخ .

— نعمة عبد الرحيم العزاوى : ابو بكر الزبيدى الأندلسى — الأردن ، ١٩٦٢ م .

— هانز (رودلف سنجر): قائمة باسماء الأماكن والبلدان الواردة فى كتاب الصلة لابن بشكوال (مجلة المعهد المصرى بمدريد ، العدد ١٥ ، ١٩٧٠) .

— يوسف أشباخ : تاريخ الاندلس على عهد المرابطين والموحدين — ترجمة محمد عبد الله عنان — القاهرة ١٩٥١ م .

AL-ABBADI, Mujtar

El Reino de Granada en la época de Muhammed V. Madrid 1973.

AGUADO BLEYE, Pedro

Manual de Historia de Espana, Tomo I. Madrid, 1947.

ALGAZEL

Oh Hijo ! (Traduccion de Esteban Lator). Beyrut, 1951.

ALONSO ALONSO, Manuel

Teología de Averroes. Estudio y documentos. Instituto de Miguel Asin. Madrid-Granada, 1974.

ALTAMIRA, R.

Historia de Espana y la civilizacion espanola. Tercera Ediciôn. Barcelona, 1913.

ANTUNA, M.

La corte literaria de al-Hakam al-Mustansir. Rev. de los padres Agustinos, 1929.

ASIN PALACIOS, Miguel

Abenhazm de Côrdoba y su historia crîtica de las ideas religiosas. Madrid, 1927-1932. 5 volûmenes.

Los caracteres y la conducta (Tratados de moral prâctica por Ibn Hazam de Côrdoba). Madrid, 1916.

Un compendio musulmân de Pedagogîa. Zaragoza, 1924.

Aben Masarra y su escuela : origen de la filosofîa Hispano-musulmana (Discurso leîdo en el acto de su recepciôn por D. Miguel Asîn Palacios). Madrid, 1914.

Un côdice inexplorado del cordobés Ibn Hazm. Al-Andalus Vol. II. 1934. pp. 1-57.

BALLESTEROS Y BERETTA, Antonio

Sîntesis de la Historia de Espania. Novena ediciôn. Madrid-Barcelona, 1957.

BAUER, Ignacio

La ensenanza hispano-musulmana medieval (Conferencia). Santander, 1934.

BROCKELMANN, Carl

Geschichte de Arabischen litteratur. Leiden, 1949.

BURCKHARDT, Titus

La civilizaciôn hispano-ârabe. Alianza Editorial. Madrid, 1977.

CABANELAS, Darîo

Las inscripciones de la Alhambra segun el morisco Alonso del Castillo. Miscelânea de estudios ârabes y hebraicos. Vol. XXV (1970). Fasc. I

CANARD, M.

Falaqa (Sur la vie scolaire a Byzance dans l'Islam). Rev. Arabica, 1954.

CARO BAROJA, Julio

Los moriscos del Reino de Granada. Madrid, 1957.

CODERA, Francisco

Decadencia y desapariciôn de los Almorâvides en Espana Zaragoza, 1899.

CONDE, José Antonio

Historia de la dominaciôn de los ârabes en Espana. 3 tomos Madrid, 1820. Otra ediciôn en 1 tomo, 1874.

CRUZ HERNANDEZ, Miguel

La filosofîa hispano-musulmana. Madrid, 1957.

CHALMETA GENDRON, Pedro

Una historia discontinua e intemporal. Hispania, Tom XXXIII (1973), pp. 23 - 75.

Historiografîa medieval hispano-ârabe. Al-Andalus XXXVII (1972), pp. 353 - 404.

Treinta anos de nuestra historia hispana del Muqtabas Ibn Hayyan. Hispania, XXXV (1975), pp. 665 - 676.

El Senor del Zoco. 2 volûmenes. Madrid, 1974.

Kitab fi Adab al-Hisba de Al-Saʿati. Al-Andalus XX (1967). XXXIII (1968).

CHERIF CHERGUI, A.

La Ideologîa islâmica (Dimensiôn psicoeducativa). Instituto Hispano-Arabe de Cultura. Madrid, 1977.

DESSUS LANARE

Description de la grande Mosqués de Cordoba.

DODGE, Bayard

Muslim education in Medieval times. Washinton, 1960.

DOZY, R.

Historia de los Musulmans de Espania (Traducciôn y pro logo de Magdalena Fuente). Barcelona, 1954. 2 Tomos.
Supplément aux diccionnaires arabes. 2 Tomos. Paris, 1927.

EISSA, M.

Historia de la ensenanza en al-Andalus desde la conquista hasta el Califato (Una Tesina indédita presentada en la Autônoma de Madrid, 1977).

ENAN, M. Abdulla

Toponimia arâbigo-espanola. Instituto Egipcio. Madrid, 1975.

ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM

Encyclopaedia of Islam. 4 Tomos. Leiden, 1913-1938.

EPALZA, Mikel de

La ensenanza superior en la edad media musulmana (una Ponencia en ârabe en Tûnez).

FARMER, Henery George

History of the music arabe (T. ârabe). London, 1973.

GALINO, Marîa Angeles

Histaria de de la educaciôn. Edad Antigua y Medieval. Madrid 1973.

GALLEGO BURIN, Antonio

Los moriscos del Reino de Granada scgûn el Zeinado de Guadix. Granada, 1968.

GALLEGO SALVADORES, Jordân

Las escuelasde Valencia en los dîas de Jaime el Conquistador. Rev. Perspectivas Pedagôgicas, XXXVII - XXXVIII (1976), 117 - 132.

GAMAL AL-DIN, Abdallah

La obra histôrica de Ibn Hayyan conservada en la DAJIRA de Ibn Bassam (Tesis presentada en la Complu tense de Madrid, 1978). 2 valûmenes.

GARANGER, Ernesto

Nueva geografîîa Universal. Madrid, 1928.

GARCIA GOMEZ, Emilio

Anales platinos de Al-Hakam II. Madrid, 1967.
Cinco poetas musulmanes. Madrid, 1944.

Notas sobre la topografîa de Côrdoba en los «Anales de al-Hakam II por Isâ Razi. Al-Andalus, V, XXX, 196? 319-379.

Unas ordenanzas del zoco del s. IX. Al-Andalus XXI (1957), pp. 253-316.

Poesîa arâbigo-andaluza (Breve sîntesis histôrica) Madri(1952.

A propôsito de Ibn Hayyan. Al-Andalus, Vol. XI (1946 pp. 395-425.

GASPAR REMIRO, Mariano

Historia de Murcia musulmana. Zaragoza, 1905.

GAYANGOS, Pascual de

The history of the Mohammedan dynasties in Spain. Lo don, -840.

GIBERT FENECH, Soledad

El Diwan de Ibn Jatima de Almerîa. Barcelona, 1975

GOMEZ NOGALES, Salvador

La filosofîa musulmana espanola. Madrid, 1970.
Teorîa y clasificaciôn de las ciencias segûn Ibn Hazm. Côrdoba, 1973. (Separata de las Actas de I Congreso de Estudios Arabes en Côrdoba).

GONZALES PALENCIA, Angel

Historia de la literatura arâbigo-espanola (Traducciôn ârabe). El Cairo, 1955.

GONZALEZ PRATS, Antonio

Alturas en las ciencias médicas en el Reino de al-Andalus Discurso que para su acto de recepciôn leyô ante la Real Academia de Medicina y Cirugîa de Barcelona. Barcelona, 1906.

GOZALBES BUSTO, Guillermo

Los libros y las bibliotecas en la Espana musulmana. Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuân, no. 5. Junio, 1972.

La Ensenanza en la Espana musulmana. Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuân, no. II. Junio, 1975.

GRIMBERG, Carl

La Edad Media : El choque de dos mundos Oriente y Occidente. Primera ediciôn. Barcelona, 1973.

GUILLEN ROBLES, F.

Mâlaga musulmana : sucesos, antiguedades, ciencias y letras malaguenas durante la Edad Madia. Mâlaga 1957.

HAGERTY, Miguel José

Al-Mu tamid. Poesîa. Barcelona, 1979.

HEERS, Jacques

Historia de la Edad Madia (Traducciôn espanola). Barcelona, 1976.

HUICI MIRANDA, A.

Las grandes batallas de la Reconquista. Madrid, 1956.
Historia pollltica del imperio Almohade. Tetuân, 1956. 2 tomos.

IBN ABDUN

Sevilla musulmane au début du XII- siècle (Trad. Lévi provençal). Parîs, 1947.

IBN HAZM

Los caracteres y la conducta (Tratado de moral prâctica por Miguel Asîn). Madrid, 1916.
Epitre morale (Introduction et texte établé, Traduit, annoté avec lexique et indez par Nada Tomiche). Beyrouth, 1961.

Le Collier du pigeon (Texto ârabe y traducciôn francesa pos Leon Bercher), 383-456. 993-1046. Alger, 1949.

IBN JALDUN

Introducciôn a la historia universal : Al-Muqaddimah (Estudio preliminar, revisiôn y apéndices de Elîas Trabulse). México, 1977.

IBN AL-JATIB

Amal man Tabb liman Habb (Traducciôn de Vâzquez, Ma J.). Salamanca, 1972.

IBN JATIMA de Almerîa

El Diwan. Poesîa arâbigo-andaluza del s. XIV. Colcciôn y traducciôn de Soledod Gibert Fenech. Barcelona, 1975.

IBN MARZUQ

El Musnad : hechos memorables de Abu l-Hasan, sultân de los Benimerines. Estudio, traducciôn, anotaciôn e îndices por Ma Jesûs Viguera. Madrid, 1977.

AL-IDRISI

«Description de la grande mosquée de Cordove» par Alfred Dessus Lamare. Alger, 1949.

JAEN MORENTE, Antonio

Historia de Côrdoba. 5a ediciôn. Côrdoba, 1976.

JUSTEL CALABOZO, Braulio

La Wasiyya (Testamento espiritual) de Mahoma a Ali (ms âr, esc. 1874). La Ciudad de Dios. Vol. CXCII, no. I Real Monasterio de El Escorial, 1979.

La Real Biblioteca de El Escorial y sus manuscritos ârabes (Sinopsis histôrico-descriptiva). Madrid, 1978.

La Hidaya de Rayrayi. Ediciôn crîtica, traducciôn y estudio. Tesis defendida en Madrid de 1974 y en vîas de publicaciôn.

KUEHNEL, Ernest

Die Islamiche Kunstgeschichte (traducciôn ârabe del Dr. Ahmed Moussa). El Cairo, 1961.

LADERA QUESADA, Miguel Angel

Granada : historia de un paîs islâmico 1232-1571. Madrid, 1919.

LAFUENTE ALCANTARA, Miguel

Ajbar Maymu a (Crônica anônima del s. XI. Traducida). Colecciôn de obras arâbigas de historia y geografîa. Tomo I. Madrid, 1867.

Historia de Granada. Granada, 1843.

LEVI DELLA VIDA, G.

El Regno di Granata. Nel 1465-66. Nei ricordi di un viaggiatore egipziano. Al-Andalus. Vol. I. Fasc. 2. 1933 pp. 307.

LEVI-PROVENCAL

Séville musulmane au début du XXIe siècle. Parîs, 1947.

Espana musulmana. Tomo 4 y 5 de la Colecciôn Historia de Espana de Menéndez Pidal. Traducciôn de Gorcîa Gômez 3a ediciôn. Madrid, 1973.

Una crônica anônima de Abed al-Rahman III al-Nasir, Madrid-Granada, 1950.

Inscriptions arabes d'Espagne. Parîs, 1931.

LOPEZ ORTIZ, J.

La recepciôn de la escuela Malaki en Espana. Madrid, 1931.

MAKDISI, G.

Muslim institutions of learning in eleventh-century. Boulletin of School of African and Oriental Studies. No XXIV, 1961. pp. 1-56. Madrasa, p. 10.

The scholastic muthod in the medieval education : an inquiry inte its origins in law and theology. Speculum : a journal of medieval studios. Vol. XLIX. Octuber, 1974. pp. 640-660.

Madrasa and university in the Middle Ages. Studia Islamica, XXXII, 1976. pp. 255-264.

The Madrasa in Spain, Same remarks (R. de L'Occident Musulman, et de la Mediterranée. No. 15-16 2 semestre 1973.

AL-MAKKARI

Analectes sur l'histoire et la littérature des arabes d'Espagne puplés par Dozy, Dugat et Wright. 2 tomos. Amesterdam, 1967.

MAKKY, Mahmud

Egipto y los orîgenes de la historiografîa arâbigo espanola. Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islâicos en Madrid. Vol. V. pp. 157-248.

Ensayo sobre las aportaciones orientales en la Espana musulmana y su influencia en la formaciôn de la cultu ra hispano-ârabe. Instituto de Estudios Islâmicos de Madrid.

MIELI, Aldo

Panorama general de la historia de la ciencia. L Volûmenes Traducciôn espanola. Madrid, 1946.

MILLAS, VALLICROSA, José Ma

Estudios sobre la historia de la ciencia espanola. Barceona, 1949.

Estudio sobre Azarquiel. Madrid, 1943-50.

MINGOTE Y TARAZONA, Policarpo

Elementos de historia de Espana. Leôn, 1881.

MITRE, Ebilio

La Espana medieval : sociedades, estados, culturas. Madrid, 1979.

MONES, Husin

Clasificaciôn de las ciencias segûn Ibn Hazm. Revista Instituto Egipcio de Estudios Islâmicos. Vol. XIII (1965-166). pp. 7-17.

OCANA, M.

al-Hakam al-Mustansir bi-l-allah. El segundo caiifade de Côrdoba. Côdrobâ, 1976.

PELLAT, Ch.

Ibn Hazm : bibliographe et apologiste de l'Espagne musulmane. Ll-Andalus, Vol. XIX. 1954. pp. 53-103 .

PERES, Henri

La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle. Parîs, 1953.

Muntajabat min Muqaddimat Ibn Jaldun.

PONS BOIGUES, Francisco

Ensayo biobibliogrâfico sobre los historiadores y goégrafos arâbigo-espanoles. Madrid, 1898.

PRIETO VIVES, Antonio

Formaciôn del Reino de Granada. Madrid, 1920.

RAMOS CALVO, Ana Marîa

El Barnamay de Abi-l-Qasim al-Tuyibi. Universidad Autônoma de Madrid, 1967.

REPOLLES AGUILLAR, José

Historia de Espana. 2 tomos. Madrid, 1973.

RIBERA Y TARRAGO, Juliân

Historia de los jueces de Côrdoba por Aljoxani. Madrid, 1914.

Historia de la conquista de Espana de Aben Alcotia, el cordobés. Texto ârabe 1878. Madrid, 1926.

Bibliôfilos y bibliotecas en la Espana musulmana. Disertaciones y opûsculos. pp. 181-228. Madrid, 1928.

La ensenanza entre los musulmanes espanoles. (Discurso Universided de Zaragoza, 1893-1894).

La mûsica de las cantigas : estudio sobre su origen y naturaleza. Madrid, 1932.

RIU, Manuel

Lecciones de Historia medieval. 4 a ediciôn. Barcelona, 1975.

RUBIERA MATA, Ma Jesûs

Ibn al-Yayyab y su época. (Tesis doctoral inédita). Madrid, 1972.

SALCINES LOPEZ, M.

La Mezquita : catedral de Côrdoba. Côrdoba, 1976.

SANCHEZ ALBORNOZ, Claudio

La Espana musulmana segûn los autores islamitas y cristianos medievales. 4a ediciôn. 2 tomos. Madrid, 1974.

Ben Ammar de Sevilla. Madrid, 1972.

El Islam de Espana y el Occidente. Madrid, 1974.

Nuevas pâginas sobre el pasado de Espana. Barcelona, 1979.

SANCHEZ PEREZ, José Augusto

La ciencia ârabe en la Edad Media. Madrid, 1945.

SANTAMARIA, A.

Historia universal de Espana.

SAQATI

Un manual hispanique de Hisba I. Texto arabe, introducction, notes linguistiques y glossaire par Colina y Lévi-Provençal. Parîs, 1931.

SARTON, George

Introduction to the history of science. 5 volûmenes. London, 1927-1948.

SCHACK, de

Poesîa y arte de los ârabes en Espana y Sicilia. 3a ediciôn. Traducciôn espanola de Juan Valera. Sevilla 1881.

SECO DE LUCENA, Luis

La Granada nazarî del s. XV. Granada, 1977.

El Hayib Ridwan, la Madraza de Granada y las murallas del Albayzin. Al-Andalus. Vol. XXI. 1956. pp. 285-296.

El título profesional de un médico del s. XV. Miscelânea de Estudios Arabes y Hebraicos. Granada, 1954.

Notas de la Arquiologia de Granada (Cuadernos de Alhambra No 6 MCMLXX).

SIMONET

Descripciôn del Reino de Granada bajo los nazaritas. Madrid, 1860.

SOLDEVILA, F.

Historia de Espana. Barcelona, 1959.

SOPENA

Geografîa de Espana. 2 volûmenes. Barcelona, 1974.

SUAREZ FERNANDEZ, Luis

Manual de Historia Universal. Vol. III. Edad Media. Madrid, 1972.

Historia de Espana. Edad Media. Madrid, 1970.

SOUFI, Khalid

Los Banu Yahwar en Côrdoba 1031-1070 de J.C. y 422-562 H. Real Academia de Côrboba, 1968.

TERES, Elîas

Ensenanzas de Ibn Hazm en la «Yadwad al-Muqtabis». Al-Andalus, XXIX (1964).

Linages ârabes en al-Andalus. Al-Andalus XXIII. Fasc. I. 1958.

TERRON ALBARRAN, Manuel

El solar de los Aftasîes. Aportaciôn temâtica al estudio del Reino moro de Badajoz. siglo XI. Badajoz, 1971.

TORRES BALBAS, Leopoldo

Ciudades hispano-musulmanas. 2 tomos. Ministerio de Asuntos Exteriores (I.H.A.C.). Madrid.

La mezquita de Côrdoba y las ruinas de Madinat al-Zahra. No 13 de los monumentos de Espana. Madrid, 1960.

Bab al sadda y las zudas de Espana. Al-Andallus, XVII 1952. 165-175.

al Madina al Zahira : la ciudad de Almanzor. Al-Andalus, XXI, 1956. p. 254.

TRITTON, A.

Muslim education in the Middle Ages. London, 1957. p. 102.

TURK, Afif

El Reino de Zaragoza en el s. XI de J.C. (V. de H.). Madrid, 1978.

TURKI, Abdelmagid

Polémiques entre Ibn Hazm et Bagi sur les principes de la loi musulmane (Essai sur le littéralisme zahirite et la finalité malikite). Alger, 1975.

URVOY, Dominique

Le monde des ulemas andalous du V/XI au VII/XIII e s. Géneve, 1978.

VERNET GINES, Juan

Historia de la ciencia espanola. Instituto de Espana. Câtedra Alfonso X el Sabio. Madrid, 1975.

Los musulmanes espanoles. Barcelona, 1961.

El Coran Traducciôn, introducciôn y notas. 3a ediciôn. 1973. Barcelona.

La cultura hispano-ârabe en Oriente y Occidente. Barcelona, 1978.

VIGUERA, Ma Jesûs

El Musnad : hechos memorables de Abu l-Hasan, sultân de los Benimerines. Madrid, 1977.

VILA VALENTI, Juan

La Penînsula Ibérica (Traducciôn castellana). Barcelona, 1968.

VILLANUEVA, Carmen

Habices de las mezquitas de la ciudad de Granada y sus alquerîas. Madrid, 1961.

Casas, mezquitas y tiendas de los habices de las iglesias de Granada. Madrid, 1966.

Râbitas granadinas. Miscélanea de Estudios ârabes y hebraicos. 1954. pp. 79-86.

محتويات الكتاب

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

سلســــلة (مكتبة التربية الاسلامية)

تصــــدرها : **دار الفكر العــربى**
ويقــدم لهـــا : **دكتـــــور عبد الغنى عبـــود**

صــــــدر منهــا :

١ — **التربية الاسلامية ، فى القـــرن الرابع الهجرى** — تاليف الدكتـــور حسن عبد العـــال — ١٩٧٨ .

٢ — **فلسفة التربية الاسلامية ، فى القـــرآن الـــكريم** — تاليف الدكتـــور على خليـــــل — ١٩٨٠ .

٣ — **نظام التربية الاســـلامية فى عصر دولة المماليـــك فى مصر** — تاليف على ســـالم النبـــاهين .

٤ — **تاريخ التعليم فى الاندلس** — تاليف الدكتور محمد عبد الحميد عيسى .

الكتـــاب التـــالى من السلســـلة

— **فلسفة التربيـــة الاسلامية ، فى الحـــديث الشريف** — تاليف عبد الجواد الســـــيد بكـــر .

رقم الايـــداع بدار الكتب
١٩٨٢/٢٥٦١

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ شارع نجيب الريحانى - القاهرة
تليفون : ٧٤٤٠٧٦ - ٧٤١٦٩٨

فى هــــذا الكتــاب

ومن ثم فهــذا الكتاب الرابع من كتب السلسلة (سلسلة مكتبــة التربية الاسلامية) ، كتاب له (طعمه الخاص) ، و (دوره المحدود)، وهو أن يكون من نوع (الكتب الأمهات) ، التى لا يكون هناك غنى عنها، لباحث فى (تاريخ التربية الاسلامية فى الأندلس) •

يضاف الى ذلك ، أن التربية الاسلامية فى المشرق العربى ، قد قتلت بحثا . كما يقولون ، بينما (التجربة الأندلسية) فى هذا المجال ، لا تزال فقيرة فقيرة ، مع أن هذه التجربة ، أخطر من (التجربة) الشرقية بكثــير •

وهى أخطر من التجربة الشرقية ، لأسباب :

ـ منها أن دورة تاريخية متكاملة ، قــد مرت بالأندلس : بفتح الأندلس ، ثم سقوطها ، ومن ثم فالدرس المســتخلص من التجربة ، يمكن أن يكون أغنى وأثمن •

وهو درس يمكن أن يفيد البلاد الاســلامية المعاصرة ، اذا هى خرجت بدرس (أسباب السقوط) ، حتى تتجنبها كل منها • وهذه هى فلســفة التاريخ ، وعطاؤه تعنم ، كما توصــل اليه ابن خلــدون ، فى مقدمته ، على نحو ما ســبق •

الكتاب التــالى من كتب المكتبــة :

فلسفة التربية الاسلامية فى الحديث الشريف